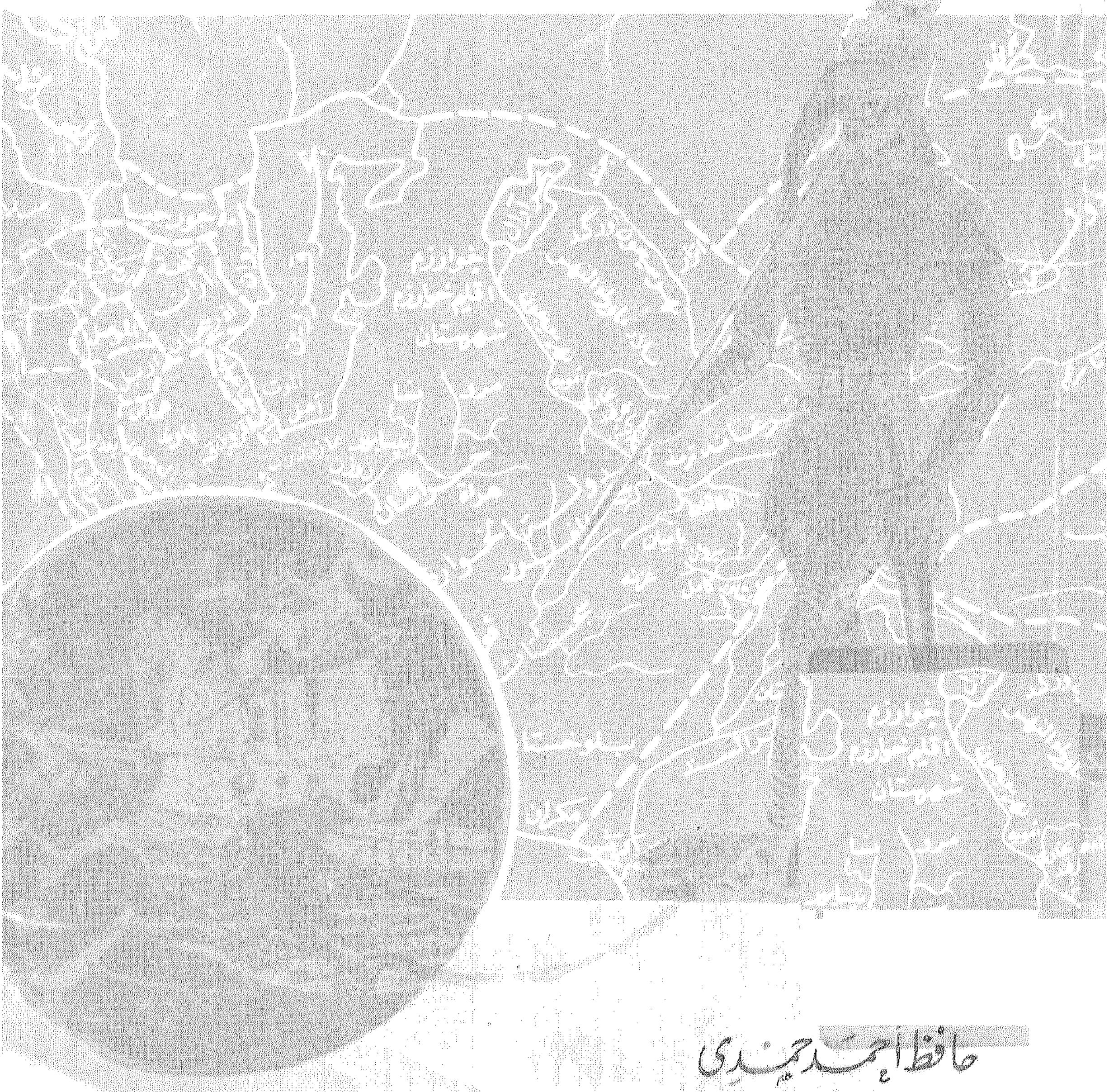
الدولة الخوارزمية والمغول

غزو جنكيز خان للعالم الإسلامي
وآثاره السياسية والدينية والاقتصادية والثقافية



حافظ أحمد حمدي

دار الفكر العربي

الدولة الخوارزمية والمغول

غزو جنكيزخان للعالم الإسلامي وآثاره السياسية والدينية والاقتصادية والثقافية

تأليف

حافظ أحمد حمدي

ليسانس فى الآداب ، وماجستير فى الآداب بدرجة جيد جدا
ودبلوم معهد التربية العالى

ملتزم الطبع والنشر

دار الفكر العربي

تقديم الكتاب

بقلم

الدكتور حسن ابراهيم حسن

أستاذ التاريخ الإسلامى ، ورئيس قسم التاريخ
بكلية الآداب — جامعة فؤاد الأول

قدمت فى شهر نوفبر الماضي رسالة تلميذي الأستاذ الدكتور راشد البراوي عن « حالة مصر الاقتصادية فى عهد الفاطميين » ، وأرجو مخلصا أن تكون قد حازت الإعجاب والثناء . ويسرنى أن أقدم اليوم رسالة أخرى تتناول ناحية هامة من نواحي الشرق الإسلامى موضوعها : « الدولة الخوارزمية والمغول » ، لتلميذى النابه الأستاذ حافظ أحمد حمدى . وهذه الناحية ميدان خصب للبحث والتحقيق لم يطرقه أحد من المؤرخين المحدثين بعد ، لأن مصادر تاريخ المغول والخوارزميين تكاد تكون فى جملتها مصادر أجنبية ، دونت بالفارسية والتركية والصينية .

وكان من حسن التوفيق أن يختار الأستاذ حافظ أحمد حمدى هذه الناحية من نواحي العصر العباسى الثانى موضوعاً لرسالته ، غير مبال بما يعترض الباحث فيها من صعوبات . وقد قسم رسالته إلى خمسة أبواب ، تكلم فى الباب الأول منها عن الدولة الخوارزمية من حيث نشأتها واتساع رقعة أملاكها ، كما تكلم عن سياستها الخارجية وصوّر موقف هذه الدولة من القوى التى أحاطت بها ، ولا سيما دولة « الخِطا » التى كانت تجاورها من ناحية الشرق ، والخلافة العباسية التى كانت تجاورها من الغرب ، ولا سيما فى عهد الخليفة الناصر الذى لم يتردد فى الاستعانة بالمغول على أعدائه الخوارزميين ، حين تفاقم النزاع بينه وبينهم ، ومهد بذلك السبيل لغزو جنكيزخان بلاد المشرق . ويظهر ما بذله المؤلف من جهد فيما كتبه عن حالة الدولة الخوارزمية الداخلية من النواحي الاجتماعية والثقافية ونظم الحكم .

أما الباب الثانى فقد صوّر فيه المؤلف حالة الشرق الإسلامى إبان غزوات المغول، كما صوّر حالة المغول قبل الغزو، ثم تكلم عن غزو جنكيزخان للدولة الخوارزمية، وما أحدثه المغول من تخريب وتدمير، وإزهاق للنفوس والأرواح، ومحو لمعالم الحضارة والمدنية. وأفرد الباب الثالث لبحث حالة الدولة الخوارزمية بعد غزوات جنكيزخان، فتكلم عن حالة هذه الدولة فى عهد آخر سلاطينها جلال الدين منكُبرتى الذى استطاع إلى حين أن يستعيد بعض ما كان للخوارزميين من نفوذ وسلطان، ثم تتبع تاريخهم إلى أن غزا المغول بلادهم من جديد، وقضوا عليهم وأدخلوهم تحت سلطانهم. وعالج فى الباب الرابع العوامل التى أدت إلى زوال الدولة الخوارزمية على أيدى المغول؛ فصوّر اضطراب حالتها الداخلية إبان غزوات المغول، وبحث ما كان لضعف نظام الخوارزميين الحربى، ولاضطراب أحوال دولتهم الداخلية من أثر، فيما حل بهم من محن وخطوب على أيدى أعدائهم المغول الذين كانوا يتفوقون عليهم فى النظم الحربية التى اقتبسوها عن الصينيين وغيرهم.

ولعل الباب الخامس والأخير أهم هذه الأبواب جميعا؛ فقد بحث فيه الأستاذ حافظ أثر الغزو المغولى فى الدولة الخوارزمية بوجه خاص، وفى العالم الإسلامى بوجه عام من النواحى السياسية والدينية والاقتصادية والثقافية. فوصف حالة الشرق الإسلامى تحت حكم المغول، وما كان لزوال الدولة الخوارزمية من أثر فى التوسع المغولى بقيادة هولاكو الذى تم على يده سقوط بغداد، مما أدى إلى انتقال الخلافة العباسية إلى مصر. كذلك بحث الأثر الدينى من حيث تنافس الديانات البوذية والمسيحية والإسلام، وتسابق أتباعها إلى كسب قلوب المغول الوثنيين. كذلك تناول الكلام عن الأثر الاقتصادى من حيث فتح الطرق التجارية عبر القارة الآسيوية وتمهيد السبيل أمام التجار والرحالة الأوربيين للوصول إلى شرق آسيا، ووصف الطرق التجارية والبحرية التى وصلت طرفى القارة الأسيوية، وربطت القارتين الأسيوية والأوربية بعضهما ببعض. وأخيرا تناول الكلام عن الأثر الثقافى لغزوات المغول، وما كان للشرق الأقصى من أثر واضح فى الفنون الإسلامية.

وتمتاز هذه الرسالة القيمة بتحرى الدقة فى أسلوب علمى مبنى على دراسة عميقة للمصادر الأصلية الكثيرة. وقد استطاع الأستاذ حافظ أحمد حمدى بذلك، أن يضيف حقائق علمية طريفة، تفيد العلم فائدة محققة، وتنير السبيل أمام الباحثين فى تاريخ المغول والشرق الإسلامى، حتى كان هذا البحث موضع ثناء الممتحنين وتقديرهم وإعجابهم .

لذلك يسرنى أن أقدم إلى قراء العربية هذا البحث الطريف الممتع، وأرجو أن يكون بداية لأبحاث أخرى فى تاريخ المغول، كما أرجو مخلصا أن ينال هذا البحث التقدير الذى يتفق وما بذله المؤلف فى إعداده من جهود متصلة، وكفاية ممتازة، وطريقة علمية جديرة بالإعجاب. وإنى لعلى يقين بأنه سيسير على هذا النهج فى الرسالة التى أخذ فى إعدادها لدرجة الدكتوراه فى التاريخ الإسلامى .

أول يناير سنة ١٩٤٩ . حسن ابراهيم حسن

مقدمة

تعد الفترة التى سبقت سقوط بغداد على أيدى المغول من الفترات الجديرة بعناية الباحثين فى تاريخ الدولة العباسية . وتعتبر الدولة الخوارزمية إحدى حلقات هذه الحقبة التاريخية التى لم تلق من عناية المؤرخين والباحثين ما هى جديرة به من بحث وتمحيص .

وقد اتجه تفكيرى إلى هذه الناحية من الدراسة ، منذ كنت طالبا بالسنة النهائية بكلية الآداب حين كتبت بحثاً متواضعاً فى ناحية تتعلق بتاريخ الدولة الخوارزمية . على أنى أدركت منذ ذلك الحين مدى الصعاب التى تعترض الباحث فى هذه الناحية من التاريخ ، وبدلا من أن تكون هذه الصعاب سببا فى الإعراض عن الدراسة ، كانت على العكس من ذلك سببا فى الإقبال عليها ، فتقدمت بهذا البحث لدرجة الماجستير فى الآداب .

توالى على حكم إقليم خوارزم — منذ بدأت الدولة العباسية فى التفكك والانحلال — عدد من الحكام والأسرات ، استقل بعضهم بالحكم فيه ، نتيجة لما حل بالدولة العباسية من ضعف ووهن . ولست هنا فى معرض التحدث عن هؤلاء الحكام ، ولكن المهم أن أذكر أن أهم هؤلاء جميعا كانوا حكام أسرة « نوشتكين » ، فقد أبرزت الأحداث التاريخية تلك الأسرة وأظهرتها ، فابتلعت بشهرتها تاريخ الأسرات التى سبقتها فى حكم إقليم خوارزم . وربما تكون هذه الأسرة قد اكتسبت شهرتها من طول مدة حكمها واتساع رقعة أملاكها ، وقد تكون هذه الشهرة راجعة إلى ظهورها على حساب السلاجقة بل وعلى أنقاضهم — ولا يخفى ما كان للدور الذى قام به السلاجقة فى تاريخ الدولة العباسية من أثر — ، وقد يكون ذلك الدور الذى قام به سلاطين هذه الدولة مع الخلافة العباسية ومع المغول هو سر انفرادها بهذه الشهرة ، وأخيرا قد تكون هذه الأحداث التاريخية مجتمعة السبب فى أن هذه الأسرة قد طوت بشهرتها حكام

خوارزم السابقين . وتؤلف الحوادث التاريخية التى أحاطت ببلاد المشرق فى عهد هذه الأسرة ، موضوع هذا البحث .

لست هنا فى معرض التحدث عن فصول الكتاب ، ولكن يحق لى أن أذكر أن أهمية ما يصل إليه المشتغل بدراسة التاريخ ، تتوقف على دراسة الحوادث وأخذها عن مصادرها الأولى . والمصادر الأولى التى استلزم هذا البحث دراستها كانت — بالإضافة إلى المصادر العربية — فى جملتها مصادر فارسية وتركية وصينية ، قرأت بعضها فيما نقله المستشرقون منها ، وقرأت البعض الآخر بمعاونة بعض المتفقهين فيها والعارفين لأصولها . وقد اقتضى هذا البحث أن أراجع الحقائق التاريخية المتماثلة وأن أقابل بين ما ورد فى المراجع الصينية وما ورد فى المراجع الأصلية الأخرى ، وكان هذا أهم ما صادفت من صعاب .

وكان من حسن التوفيق أن عاصر حوادث الغزو المغولى بعض مؤرخى المسلمين الذين كتبوا بالعربية ، نذكر منهم على سبيل المثال ابن الأثير ، والنسوى . أما ابن الأثير فقد كان معاصراً لحوادث ذلك الغزو الذى بدأت حوادثه سنة ٦١٦ هـ (١٢١٩ م) على حين أنه توفى سنة ٦٣٠ هـ (١٢٣٢ م) . وإن السنوات الفارقة بين مستهل الغزو وبين موت ذلك المؤرخ لتفصح تمام الإفصاح عن أهميته التاريخية البالغة . ولا يخفى ما لأهمية رجل يتناول حوادث الغزو بنظرته الفاحصة ، ويحس آلام المسلمين فى هذه الأثناء ، ويصف ما هو واقع تحت حسه وبصره ؛ أضف إلى ذلك أن ابن الأثير عند المؤرخين عامة ، قديمهم وحديثهم ، حجة فيما دوّن ، ومحقق فيما ألم به فى كتابه « الكامل فى التاريخ » .

أما النسوى ، ففضلاً عن أنه كان معاصراً لحوادث الغزو المغولى ، فقد انخرط فى سلك وظائف الدولة الخوارزمية فى عهد جلال الدين منكبرتى بوجه خاص . على أن أهميته لا تقف عند هذا الحد ، بل تتعداه إلى ما هو أخطر من هذا كله ، ألا وهو أنه كان رسول هذا السلطان فى أكثر سفاراته إلى حكام المسلمين ، ولهذا الأمر أهميته من وجهة النظر التاريخية البحتة ، من حيث تعرّف مجريات الأمور وأخذها عن مصادرها الأولى .

أما المؤرخون الذين دونوا حوادث الخوارزميين والمغول باللغة الفارسية، فأهمهم اثنان: علاء الدين عطا ملك الجويني، وفضل الله رشيد الدين. ويُعتبر هذان المؤرخان من أبرز الذين كتبوا عن حوادث المغول في العصر الذي نتحدث عنه. وترجع أهمية علاء الدين الجويني[١] إلى أنه كان سليل أسرة فارسية عريقة، استعان المغول بها في حكم فارس بعد غزوات جنكيزخان، وكان علاء الدين الجويني نفسه ممن أولاهم هولاكو ثقته، إذ وكل إليه حكم العراق العربي، فظل في هذا المنصب طيلة عهده وعهد ابنه أباقا خان. وعلاء الدين، الذي يؤرخ للمغول، في كتابه «تاريخ جهان كشاي»، منذ أغاروا على البلاد الإسلامية حتى عصر مانجوخان، يعتبر حجة فيما كتب، ولن تكون هناك كتابة أحق بالاعتبار من تلك التي يكتبها رجل يعيش في كنف من يؤرخ لهم.

أما فضل الله رشيد الدين[٢]، فقد عاش في فارس وكان وزيراً لإيلخانات المغول فيها في عهد كل من غازان وأولجايتو، ويعتبر كتابه «جامع التواريخ» مكملا لما نقص من كتاب الجويني. ولعل أبرز ما في كتابه، ما دونه عن القبائل التركية في شرق آسيا وعن جنكيزخان في سني حكمه الأولى، وقد سرد ما كتبه مستعينا بوزير مغولي كان أعرف رجال عصره بتاريخ الأتراك في شرق آسيا.

ومن المراجع الهامة التي اعتمدنا عليها في هذا البحث، كتاب «شجرة تركي» الذي كتبه باللغة التركية أبو الغازي بهادورخان سليل جوجي بن جنكيزخان. وقد تناول فيه تاريخ المغول منذ مستهل تاريخهم حتى العصر الذي عاش فيه المؤلف[٣].

وكان من حسن التوفيق أن عثرت على بعض المراجع الصينية التي تصدت

١) توفي الجويني سنة ٦٨١ هـ (١٢٨٣م)، على أن كتابه «تاريخ جهان كشاي» ينتهي عند سنة ٦٥٥هـ (١٢٥٨م). وقد أتم هذا الكتاب عبد الله بن فضل الله المعروف بوصاف الحضرة، فتكلم عن تاريخ المغول حتى سنة ٧٢٨ هـ (١٣٢٧م).

(٢) ولد رشيد الدين في مدينة همذان سنة ٦٤٥ هـ (١٢٤٧م)، وقُتل بأمر من أبي سعيد، إيلخان المغول في فارس سنة ٧١٧ هـ (١٣١٨م). وقد كتب عن تاريخ المغول حتى وفاة غازان.

(٣) توفي أبو الغازي سنة ١٠٧٤ هـ (١٦٦٣م). ومما هو جدير بالذكر أن هذا الكتاب قد نشره بالفرنسية M.Varenne de Mondesse وسماه باسم: Histoire Généalogique des Tatars.

لتاريخ المغول فى الفترة التى تناولها البحث ، أذكر على سبيل المثال منها تلك المذكرات المعروفة باسم « سى يوكى Si Yu Ki » أى Travels to the West of K'iu Ch'ang Ch'un التى خلفها لنا Ch'ang Ch'un ، ذلك الأسقف الصينى الذى صحب چنكيزخان فى بعض بلاد الشرق الإسلامى ، فدون أحد تلاميذه الذين كانوا فى رفقته مذكرات عن هذه الرحلة . ويغلب أن يكون ذلك الأسقف هو الذى أملى هذه المذكرات أو على الأقل أوعز بكتابتها . والمهم أنه تكلم عن البلاد التى مر بها فى رحلته ، ووصف كثيرا من المدن الإسلامية قبل الغزو المغولى وبعده .

ومن المراجع الصينية الهـــامة ، ذلك المرجع الذى يعرف باسم « سى يو لو Si Yu Lu » أى Account of a Journey to the West الذى كتبه « يى لوشوتساى Ye-lü Ch'u ts'ai » وزير چنـكيزخان ورفيقه فى حملته على غرب آسيا . وقد وصف فى كتابه ، المدن والممالك التى مرت بها الجيوش المغولية . وترجع أهمية هذا المرجع إلى أنه يروى فى إسهاب ما فات المراجع الفارسية تدوينه ، أو ما ذكرت القليل عنه .

وكانت دولة « الخـطا » التى تـكلمنا عنها فى الباب الأول ، من الدول التى كان لها شأنها فى تاريخ الدولة العباسية فى الفترة التى نتحدث عنها . وقد اعتمدنا فيما ذكرناه عنهـا على كثير من المراجع الأصلية ومن أهمها الصينية ، وفى طليعة هذه المراجع اثنان : أولهما يعرف باسم « لياو شى Liao Shi » أى Chinese History of the Liao (K'i-tan) Dynasty ، وثانيهما يعرف باسم « لياوكيو شى Liao Kuo Shi » أى History of the K'i-tan Nation . ويرجع إلى برتشنيدر Bretschneider فضل ترجمة أهم ما فى هذين المرجعين إلى الإنجليزية .

وقد نقل لنا كل من Hirth و Rockhill بعض المؤلفات الصينية التى عالجت تجارة العرب والصينيين فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر الميلادى ، وهى الفترة التى تناولها بالبحث ، ومن أهمها Chau Ju-Kua : Chu- Fan- Chi ، وكان لهذه المؤلفات أثرها الملحوظ فيما كتبناه عن التجارة بين شرق آسيا وغربها قبل غزوات المغول وبعدها .

* * *

تعددت مصادر البحث على النحو الذى رأيناه ، وكان طبيعيا أن تختلف وجهات نظر المؤرخين الذين يختلف بعضهم عن البعض الآخر فى الجنس واللغة والدين والميول السياسية والدينية ، وخاصة إذا كانوا يؤرخون لحوادث واحدة ، وكان هذا مما زاد الأمر فى نظرى صعوبة وتعقيدا . فأسلوب الكتابة الذى يكتب به مؤرخ مسلم عن حوادث غزو المغول لبلاده ، لا بد من أن يختلف عن ذلك الأسلوب الذى يكتب به مؤرخ صينى أو فارسى يعيش بين المغول وفى كنفهم ، ويختلف عن هذا وذاك مؤرخ مغولى يؤرخ لقومه وعشيرته .

وبعد ، فلا يسعنى إلا أن أتقدم بجزيل الشكر لحضرة أستاذى الدكتور حسن ابراهيم حسن أستاذ التاريخ الإسلامى ورئيس قسم التاريخ بجامعة فؤاد الأول الذى أشرف على إعداد هذا البحث ، وإنى لأعترف بما له علىّ من فضل التوجيه والإرشاد والتشجيع . كما أقدم شكرى لحضرة الأستاذ الدكتور زكى محمد حسن عميد كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول وأستاذ الفنون الإسلامية بها ، فقد تفضل بمراجعة بعض نواحى هذا البحث ، وأعاننى على اختيار كثير من اللوحات الفنيه التى توضح معالم هذا العصر من مكتبته الخاصة النفيسة . ولا يفوتنى أن أشكر الزميل الأستاذ نظمى السيد قنصوه ، لتفضله بمعاونتى فى قراءة تجارب الكتاب .

وإنى لأرجو أن أكون قد وفقت فى هذا البحث المتواضع إلى إيضاح ما غمض من معالم هذا العصر ، وما توفيقى إلا بالله .

القاهرة ، أول فبراير سنة ١٩٤٩ .

حافظ احمد حمدى

محتويات الكتاب

صفحة

الباب الثالث

الدولة الخوارزمية فى عهد جلال الدين منكبرتى

الباب الرابع

عوامل زوال الدولة الخوارزمية

الباب الخامس

أثر الغزو المغولى فى الدولة الخوارزمية والعالم الإسلامى

الجــــداول

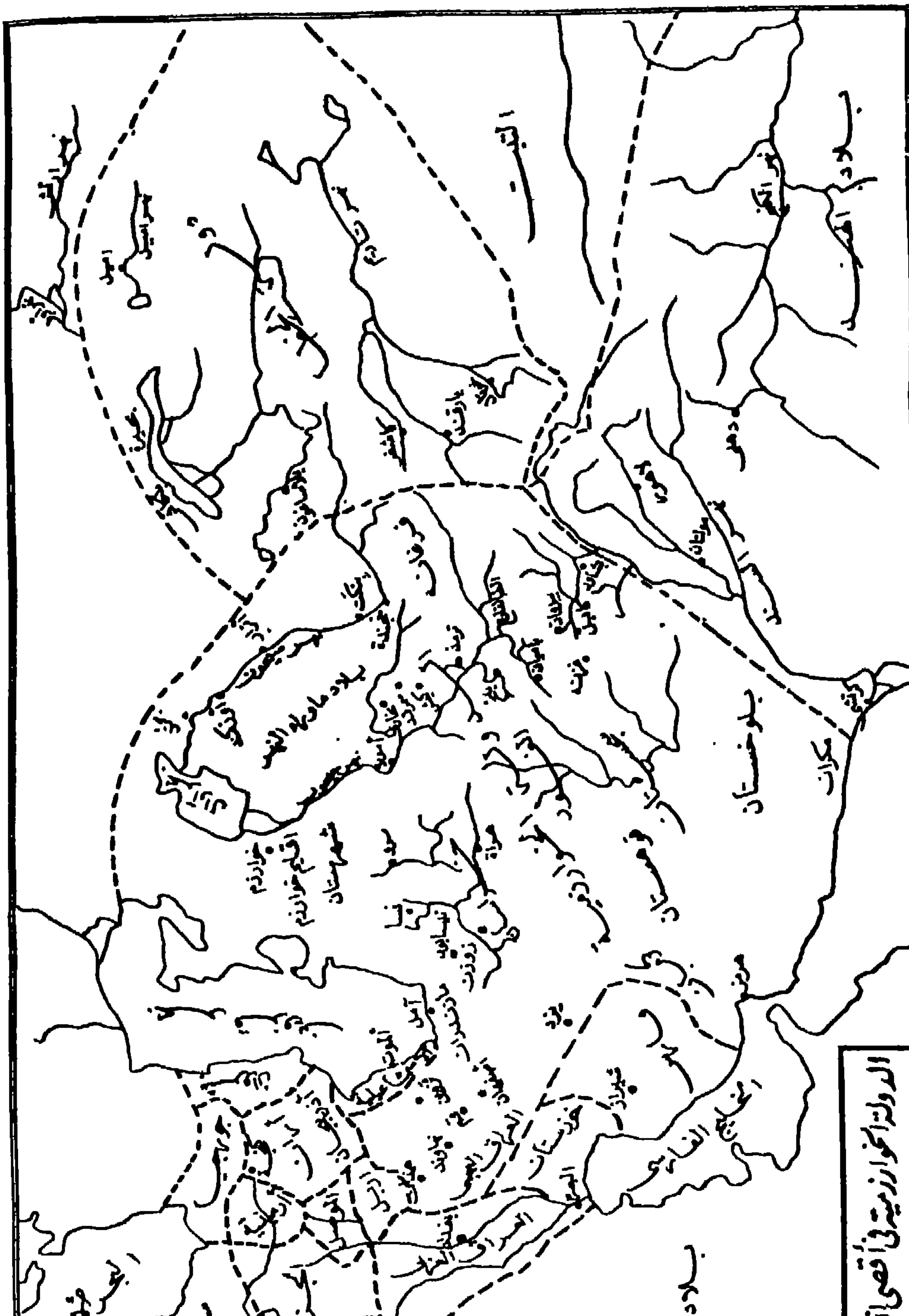
الخرائط

اللوحات

المراجع

الكشاف

خريطة ١



عن كتاب D'ohsson . Histoire Des Mongols.

الباب الأول

الدولة الخوارزمية قبل غزوات المغول

١ – نشأة الدولة الخوارزمية واتساعها .

٢ – موقف الدولة الخوارزمية من الخلافة العباسية .

٣ – علاقة الدولة الخوارزمية بدولة الخطا .

(أ) علاقة الدولة الخوارزمية بدولة الخطا حتى نهاية عهد أتسز خوارزم شاه .

(ب) علاقة الدولة الخوارزمية بالخطا منذ وفاة أتسز حتى ظهور چنكيز خان .

٤ – علاقة الدولة الخوارزمية بالمغول قبل الغزو المغولى .

٥ – بعض مظاهر الحياة الداخلية فى الدولة الخوارزمية .

(أ) الحياة الاجتماعية .

(ب) نظام الحكم .

(حـ) الحياة الثقافية .

لوحة ١



چنكيزخان

صورة يمتلكها أحد أحفاد چنكيزخان

(عن كتاب Universal History of the World, vol. 5.)

الباب الأول

الدولة الخوارزمية قبل غزوات المغول

١ — نشأة الدولة الخوارزمية واتساعها

ظهرت الدولة الخوارزمية على مسرح التاريخ الإسلامى نتيجة حوادث تاريخية متعددة، يلى بعضها البعض فى فترات متداخلة، ظهرت مع الدولة العباسية منذ نشأتها، كما ظهرت نتيجة للتيارات السياسية والاجتماعية فى شرق آسيا وغربها.

الثابت أن قادة الرأى من بنى العباس عندما فكروا فى إقامة خلافتهم العباسية، اختطوا لأنفسهم خطة مغايرة لخطة الأمويين، ولخطة الخلفاء الراشدين من قبلهم؛ إذ تحولوا عن العنصر العربى إلى العنصر الفارسى وظنوا أنهم باعتمادهم على هذا العنصر الجديد فى إقامة دولتهم، قد شيدوا لأنفسهم مجداً خالداً؛ على أن نفوذ العباسيين مالث أن تضاءل أمام هذا العنصر الخطر الذى كاد يقضى على صرح المدنية العربية. فلما وجد العباسيون أنهم ضعفوا أمام هذا العنصر الفارسى، استعانوا عليه بعنصر أشد وأنكى ألا وهو العنصر التركى، الذى لم يلبث أن أذل الخلفاء وتحكم فى دولتهم وأزال هيبتهم، ولولا حاجة هؤلاء الأتراك إلى الاستناد إلى قوة شرعية تشد أزرهم لكان من المحقق أن تزول الخلافة العباسية من بغداد على أيديهم ولاكتسبوا لأنفسهم فخر إزالتها، ذلك الفخر الذى اكتسبه المغول فيما بعد[1].

على أن الضعف الذى أصاب الخلفاء فى عقر دارهم ما لبث أن امتد إلى دولتهم الشاسعة فى الشرق والغرب، وانقسمت دولتهم إلى دول ودويلات متعادية متنافرة، ترتفع الواحدة على أكتاف الأخرى، ولم تكن الدولة الخوارزمية إلا إحدى هذه الدول التى ظهرت فى فترة من فترات الانحلال.

المعروف أن الجزء الشمالى الشرقى من آسيا كان فى العصور التاريخية المختلفة بمثابة ينبوع تخرج منه العناصر البشرية التى تندفع فى شبه سيل إلى غرب آسيا، لظروف منها

(١) يتمثل النفوذ الفارسى فى أسرة البرامكة، ويظهر النفوذ التركى منذ عصر المعتصم، كما يتمثل فى عهد البويهيين والسلاجقة من بعدهم.

ما يرجع إلى البيئة فى وطنها الأصلى ، ومنها ما يرجع إلى عوامل سياسية فى هذه البلاد ، مما يضطرها إلى الهجرة . قد تهاجر هذه العناصر بسبب جدب يصيب بلادها ، أو بسبب تكاثر عددها ، حتى إذا لم تتحملها بيئتها الأصلية اضطرت إلى البحث عن مأوى جديد ، حيث الفسحة من الرزق والعيش الوفير ؛ وقد تضطرها الأحداث السياسية فى موطنها الأصلى إلى الهجرة قسرا بعد أن يستولى عدو غاصب على أراضيها فتضطر إلى البحث عن وطن جديد ، مكرهة على الهجرة ، إما فى جماعات صغيرة متفرقة ، وإما فى هجرات عامة تكتسح ما يقابلها من البلاد، وكانت هذه العناصر تأوى إلى حيث تبهرها المدنيات ، أو تسكرها مواطن الثروة والرخاء .

استمالت الحضارة الاسلامية هذه العناصر فاندفعت اليها ، وجذبتها ثروة الدولة الإسلامية فسكنت على حدودها ، وأخذت تتطلع بشغف إلى نور يهديها الطريق إلى جوف الدولة الإسلامية . وتطلع الخلفاء والحكام من المسلمين إلى هؤلاء الأتراك ، فأعجبهم جمال خلقتهم وقوة أجسامهم وميلهم إلى الحركة والنشاط ، فأكثروا من اقتنائهم ، فشجع ذلك تجار البشر الذين كثروا فى أنحاء الدولة وأكثروا من شراء الأتراك وعرضهم كالسلع فى الأسواق ، كما تشجع لصوص الطريق فاختطفوا الصغار من الأتراك من الأراضى المتاخمة لأراضى الدولة الإسلامية وقادوهم إلى حيث الربح الوفير فى هذه الأسواق ، وحيث يجدون عملاء الخلفاء والأمراء فى الانتظار . ويحدث بعد ذلك أن يتدرج هؤلاء الصغار فى بلاط الأمراء من المسلمين فينشئوا نشأة إسلامية ، حتى إذا ما كبروا وترعرعوا ، تكون منهم حرس الخليفة أو الأمير وأسندت اليهم الوظائف العامة فى الدولة(١) .

كثر الأتراك فى الدولة الإسلامية وتكاثروا ، وكلما زاد عددهم ، زاد اعتماد الخلفاء عليهم وتوغل سلطانهم فى جوف الدولة ، حتى قدر لهم فى النهاية أن يستأثروا بكل شىء بعد أن سلبوا الخلفاء كل شىء . وقد زاد تحكم الأتراك فى الدولة العباسية فى عهد كل من بنى بويه والسلاجقة ، ووصلت العناصر التركية السلجوقية إلى قمة مجدها فى عهد ملكشاه ، ثم بدأت هذه الدولة تنهار تدريجيا ، وبدأت تظهر فى أنحاء الشرق الإسلامى دول وإمارات مستقلة

(١) D'ohsson : Histoire Des Mongols, tom. i. p. 176.

على أنقاض الدولة السلجوقية المضمحلة . ومن هذه الدول، الدولة الخوارزمية التركية الأصل التى بدأت فى الظهور حينما بدأت شمس السلاجقة فى الغروب، وإن تاريخ هذه الأسرة التركية لأقوى دليل على تغلغل العناصر التركية فى جوف الدولة الإسلامية[١].

تنتسب الدولة الخوارزمية إلى نوشتكين أحد الأتراك فى بلاط ملكشاه[٢] حيث كان يشغل وظيفة الساقى[٣] ، وهى إحدى وظائف البلاط الإسلامى المعروفة . وقد خدم نوشتكين السلطان ملكشاه ودرج فى سلك الوظائف فى أيامه[٤] . اشتهر قطب الدين محمد بن نوشتكين بالعلم والأدب ، لذا عينه أحد قواد السلطان بركياروق السلجوقى حاكما على إقليم خوارزم ولقبه خوارزم شاه[٥] .

وهكذا بدأ نجم الدولة الخوارزمية فى الارتفاع على حساب القوى الموجودة فى ذلك الوقت ، وكان أهم هذه القوى، القوة السلجوقية التى بدأت فى الانهيار بعد وفاة ملكشاه كما ذكرنا . ثم كان على الدولة الخوارزمية أن تتطلع إلى الدولة الغورية فتبتلعها ، كما كان لابد لها من أن تصطدم مع ، دولة الخطا ، فى الشرق ومع الخلافة العباسية فى الغرب .

كان عهد ملكشاه نهاية عهد تماسك القوة الإسلامية عامة والدولة السلجوقية خاصة ، إذ بدأت الدولة الاسلامية من بعده فى الانحلال والانقسام إلى دويلات وأتابكيات، وعلى الرغم من هذا الانقسام ، كان كثير من هذه الأجزاء لا يزال يحتفظ بقوته وسلطته[٦]؛ فاحتفظ السلاجقة بكيانهم وسلطانهم فى عهد سنجر بن ملكشاه (+٥٥٢هـ = ١١٥٧ م) فى خراسان وفارس ، كما احتفظوا بقوتهم فى العراق تحت إمرة أبناء ملكشاه وأحفاده حتى نهاية عهد السلطان مسعود(+٥٤٧هـ=١١٥٢م) الذى يعتبر آخر سلاطين سلاجقة العراق الأقوياء ، وبوفاته بدأ البيت السلجوقى فى العراق فى الإنحلال[٧] ،

(١) D'ohsson : Histoire Des Mongols, tom. i. p. 176.

(٢) يلاحظ أن نوشتكين كان عبدا لأحد الأمراء السلاجقة وهو بلاتاجين Billa-Tagin الذى حمله الى بلاط ملكشاه. Barthold : Turkestan Down to the Mongol Invasion, p. 323.

(٣) Curtin : The Mongols' History, p. 98.

(٤) Howorth ; History of the Mongols, part. i. p. 7.

(٥) من هذا نرى أن محمد بن نوشتكين هو المؤسس الحقيق للدولة الخوارزمية وليس نوشتكين . وقد سمى بعض المؤرخين هذا الرجل باسم أنوشتكين ولكنا نميل مع النسوى الى تسميته باسم نوشتكين .

(٦) Loewe, H.M.J : The seljuqs: (Cambridge Medieval History, Vol. IV. p. 317)

(٧) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة، ج ٥ ص ٣٠٣ . المقريزى : السلوك، ج ١ قسم ١ ص ٣٨ .

حتى قدر لدولتهم الزوال نهائيا بمقتل آخر سلاطينهم طغرلبك سنة ٥٩٠ هـ (١١٩٣ م).

بدأت الدولة الخوارزمية بتحطيم صرح القوة السلچوقية فى المشرق أيام السلطان سنجر الذى وجد نفسه أمام قوتين ، اجتمعتا على محاربته ، ولم تكن هاتان القوتان سوى الدولة الخوارزمية من جهة «والخطا» من جهة أخرى ، إذ عول أتسز بن محمد بن نوشتكين منذ آل إليه السلطان، على أن يعمل على مد رقعة مملكته، ولم يجد أمامه سوى دولة السلاچقة ليقتطع منها لنفسه ، منتهزاً فرصة تهديد «الخطا» لدولة السلاچقة فى فترات مختلفة، وضعف سنجر أمامهم . فلما رأى سنجر بوادر الثورة التى بدأ أتسز يشنها عليه ، خاف أن يضيع إقليم خوارزم من يده، فسار إليه معلنا الحرب عليه سنة ٥٣٣ هـ (١١٣٨م)، ولم يستطع أتسز وقوته الناشئة أن يقف أمام سنجر وكثرة عدد جيوشه ، فانهزم أتسز وقتل عدد كبير من أتباعه وتفرق الباقون ؛ وقد وجدت جثة ابنه فى ساحة القتال بين أشلاء القتلى ولما وطد سنجر نفوذه فى خوارزم ، ولى عليها غياث الدين سليمان شاه بن أخيه محمد وأمده بوزير مخلص ، كما عين له أتابكا وحاجبا ، ثم عاد إلى عاصمته مرو . ولم يكن أتسز — وهو الطامع فى السلطة — ليهدأ أمام هذه الهزيمة ، كما لم يكن أهل هذه البلاد — وهم الذين يكنون كل بغض وكراهية للعسكر السنجرى — ليخضعوا لهذه الهزيمة ، لذلك سرعان ما مهدوا الطريق أمام أتسز ليعود إلى خوارزم ، وانتهى هذا الصراع فعلا بعودته إلى الأراضى الخوارزمية واستعادته نفوذه هناك [١] . وقد غادر غياث الدين هذه البلاد حال وصول أتسز وجنوده ، إذ لم يكن لديه من الجنود ما يمكنه من مقاومة أتسز [٢]

ولما كانت مآرب دولة «الخطا» ومآرب أتسز خوارزمشاه قد اتحدتا ، فقد تحالف الفريقان وتزوج أتسز من هؤلاء القوم ، وبفضل هذا التحالف وتشجيع أتسز للخطا انتقاما لنفسه ولولده المقتول، أمكن الخطا أن يوقعوا الهزيمة بسنجر وأتباعه سنة ٥٣٦ هـ (١١٤١ م)، وأن يستولوا على بلاد ما وراء النهر [٣] مما سنفصله فى موضعه، بل يمكن القول إنه بينما كان سنجر مشغولا بمحاربة «الخطا» تمكن أتسز من الاستيلاء على مرو [٤].

(١) ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ص ٣١ .

(٢) Skrine & Ross : The Heart of Asia, p. 138.

(٣) ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ص ٣٧ — ٤٠ .

(٤) المقريزي : السلوك ، ج ١ قسم ١ ص ٣٧ .

ولقد دخل أتسز هذه المدينة عنوة وأعمل القتل في أهلها، وجلس على عرش سنجر، واستولى على أمواله وجواهره،[١] ثم استولى أتسز على مدينة نيسابور في نفس السنة، أي في سنة ٥٣٦ هـ (١١٤١ م)، ولم يشأ أن يصيب أهلها بسوء بعد أن استعطفه علماء المدينة وفقهاؤها، على أن ذلك لم يمنعه من البحث عن أملاك سنجر في هذه المدينة واغتصابها لنفسه. ومما يسترعى النظر أن أتسز قطع الخطبة لسنجر في خراسان دون أن يجد أمامه مقاومة ما، إذ خاف الخراسانيون عاقبة عصيانه.

وقد استمرت خراسان تحت حكم الخوارزميين حتى استعاد سنجر نفوذه فيها في أوائل سنة ٥٣٧ هـ (١١٤٢ م)[٢]، إذ عد ما عاد سنجر من حروبه مع «الخطا» وعلم بما فعله أتسز استعد للقائه، فلما سار اليه وجد أتسز نفسه مضطرا لقبول الصلح، وقبل أن ينزل عن كل ما ملكه من البلاد الخراسانية في غيبة سنجر، كما تعهد بارجاع ما استولى عليه من الأموال والجواهر من مدينة مرو[٣]، ومن الغريب أن أتسز أعادها دون أن يمسها[٤]، وهذا يدلنا على مدى خوف الخوارزميين من أسيادهم السلاجقة، كما يدلنا على أن الدولة الخوارزمية لم تصل بعد الى درجة كافية من النضوح السياسي. ومما يسترعى النظر أن سنجر فضل الصلح على الحرب خوفا من «الخطا» الذين زادت قوتهم في بلاد ما وراء النهر، والذين تاخمت أملاكهم أملاك حلفائهم الخوارزميين، وكل من الخطا والخوارزميين عدو للسلطان سنجر[٥]، ومع ذلك فقد عاد سنجر الى عاصمته مرو سنة ٥٣٨ هـ (١١٤٣ م) بعد أن تعهد أتسز بأن يعود الى سابق طاعته للسلاجقة[٦].

ولم يستمر هذا الصلح طويلا، إذ لم يكن من المعقول أن يقنع أتسز بما حدث وأن تقف أطماعه عند هذا الحد، وهو الذي ركز سياسته في تحقيق استقلاله وتكوين دولة قوية له تصارع الدولة السلجوقية في أواخر أيامها، لذلك كان لا بد أن ينشب الصراع من جديد بين سنجر وأتسز، ذلك الصراع الذي استمر بينهما وجزر، حتى انتهى بانتهاء حياة الزعيمين الخوارزمي والسلجوقي.

---

(١) البندارى : تاريخ دولة آل سلجوق ، ص ٢٥٧ .
(٢) ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ص ٤٠ .
(٣) Barthold : Turkestan Down to the Mongol Invasion, p. 327.
(٤) البندارى : تاريخ دولة آل سلجوق ، ص ٢٥٧ .
(٥) ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ص ٤٠ .
(٦) المرجع نفسه ، ج ١١ ص ٤٤ .

ولم يقتصر تراشق هاتين القوتين على السهام والنبال ، بل تعداها إلى ميدان الشعر والأدب ، فكان لكل فريق شاعره الخاص ، إختص بمديح صاحبه وهجو عدوه . فكان شاعر أتسز رشيد الدين وطواط[1] لا ينى عن كيل المديح لصاحبه أتسز وذم عدوه سنجر ، وكان الموقف متشابها تماما بالنسبة للأنورى شاعر السلطان سنجر[2] .

إستمر النزاع بين القوتين السلجوقية والخوارزمية ، كما قلنا ، طيلة عهد أتسز خوارزم شاه حتى توفى سنة ٥٥١ هـ (١١٥٦ م)[3] ، وشاءت الظروف أن يلحق به سنجر فى السنة التالية . وبوفاة سنجر انتهت القوة السلجوقية تماما من بلاد فارس وخراسان ولم يجد الخوارزميون بعده منافسا يقف أمامهم ويعوق سبيل توسعهم ، فخلا لهم الجو تماما ، إذ كان محمود خان الذي خلف سنجر لا قيمة له فى نظر الخوارزميين . وليس أدل على ذلك ، من أن أيل أرسلان بن أتسز كان يذيل رسائله إليه بعبارة « صديقك الأمين » على حين أن أتسز كان يكتب لسنجر « عبدك »[4] .

وهذا التحول فى صيغة الرسائل المتبادلة بين الخوارزميين والسلاجقة إن دل على شيء ، فإنما يدل على رجحان كفة الخوارزميين الذين تهيأت لهم الظروف لتحقيق أطماعهم الاستقلالية وفق سياستهم التى رسموها لأنفسهم منذ أيام أتسز ، فسار خلفاؤه على نهجه بنفس المهارة وبنفس الحماس[5] . لذلك لا نعجب إذا قلنا إن أيل أرسلان ابن أتسز إستطاع أن يبسط سلطانه على غربى خراسان بعد وفاة سنجر ، وأخذ يعمل على تقوية دولته دون أن يخشى القوة التى وقفت فى وجه أسلافه من الخوارزميين . فالحقيقة أن دولة السلاجقة فى فارس انتهت تماما بوفاة سنجر ، وانقرض خلفاؤه بعد أن عجزوا عن مقاومة دولة الخوارزميين الفتية . ولهذا لا نعجب إذا اعتبر المؤرخان سكرين وروس (Skrine & Ross) أيل أرسلان أول سلاطين الخوارزميين المستقلين[6] .

---

(١) سمى وطواط نسبة إلى قصر قامته وقبح منظره .

(٢) مما هو جدير بالذكر أن براون قد ترجم هذه القصائد التى أنشدت بالفارسية الى شعر انجليزى وسنذكر ترجمتها الى العربية فيما بعد Browne : A Literary History of Persia, Vol. ii. pp. 309—310.

(٣) ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ص ٩٤ .

(٤) Barthold : Turkestan Down to the Mongol Invasion. p. 332.

(٥) Ibid, p. 331.

(٦) Skrine & Ross : The Heart of Asia, p. 140.

هكذا زال أكبر عائق فى سبيل تقدم القوة الخوارزمية ، وإذا كان هناك منافس لهذه الدولة ، فقد جاءت هذه المنافسة من ناحية الخطا كما سنفصله فى موضعه .

مات أيل أرسلان سنة ٥٦٨ هـ (١١٧٢ م) تاركا ولديه سلطان شاه محمود وعلاء الدين تكش . وقد استطاع الابن الأصغر سلطان شاه محمود أن يعتلى عرش الخوارزميين بمساعدة أمه التى دبرت أمور المملكة وأمدته بالجنود الذين التفوا حوله . ولم يسكت الأخ الأكبر علاء الدين تكش طبعا على هذا الوضع الشاذ ، فاستعان على أخيه بعدو خطر وفضل أن يلجأ إلى الخطا كى يصل إلى العرش بعد أن أطمعهم وأغراهم بالمال الوفير . وقد أرسل الخطاء معه جيشا ، استطاع فى النهاية أن يجلسه على عرش أبيه[1] . أما الأخ الأصغر فقد هاله أن يضيع منه السلطان ، لذلك أخذ يتنقل شريداً بين حكام البلاد المختلفة مستعيناً بهم على أخيه ، فاستجار أحياناً بالخطا محاولا أن يجذبهم إلى جانبه واستجار أحياناً أخرى بملوك الدولة الغورية ، إلى أن تلقفته أخيراً يد الموت فمات سنة ٥٨٩ هـ (١١٩٢ م)[2] . ولما كان تكش يدين بالسلطنة للخطا فقد ظل خاضعا لهم طيلة عهده رغم محاولته التخلص من هذه التبعية أكثر من مرة[3] .

ومما يستحق الاهتمام فى حياة تكش خوارزم شاه ، أن الدولة الخوارزمية استطاعت بفضل جهوده أن تتوسع غربا ، كما استطاع هو أن يجعل دولته مسموعة الكلمة بين أمراء العراق وحكامه ، وأصبح الخليفة الناصر لدين الله العباسى ينظر إلى هذه الدولة بمنظار آخر يخالف منظار من سبقه من الخلفاء ، حتى أننا نجد أن هذا الخليفة الذى كان يعمل منذ توليته عرش الخلافة على تثبيت ملكه وغسل الإهانة التى وصم السلاجقة الخلفاء بها ، نجد هذا الخليفة يلجأ إلى خوارزم شاه تكش ويستعين به ضد آخر سلجوقى فى العراق وهو طغرلبك ، ويعده إن هو تمكن من القضاء عليه أن يوليه ما كان بيد هذا السلجوقى من بلاد . وكانت هذه فرصة نادرة وجد فيها تكش كل ما اشتهى ، إذ تهيأت له الظروف لمد نفوذ دولته غربا ، كما وجد أمامه فرصة نادرة لتحقيق سياسة أجداده وتكوين دولة ذات كيان سياسى معلوم . وعلى كل حال فقد التقى العسكران الخوارزمى

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ص ١٦٨ — ١٦٩ .

(٢) المرجع نفسه ، ج ١١ ص ١٦٩ — ١٧٢ .

(٣) Barthold . Turkestan Down to the Mongol Invasion, p. 339.

والسلجوقى قريبا من الرى سنة ٥٩٠ هـ (١١٩٣ م) ، وكان نصراً مبيناً أحرزه الخوارزميون ، إذ استشهد طغرلبك فى الموقعة . وكأنما أراد تكش أن يسجل هذا النصر للخليفة ، فأرسل برأس غريمة إلى بغداد ، حيث علّق عدة أيام على أبواب الحاضرة الإسلامية الكبرى (١) .

أما عن الدولة الخوارزمية بعد هزيمة طغرلبك ، فنجد أنها قد شملت كل ما كان بيد السلاجقة فى العراق من مدن وقرى وقلاع ، فاستطاع تكش بعد هذا النصر أن يحتل همذان عاصمة سلاجقة العراق سنة ٥٩٠ هـ (١١٩٣ م) كما استطاع أن يحتل أصفهان والرى . وقد منح هذه البلاد والأقاليم لأتباعه من المخلصين ليحكموها باسمه . وبعد أن اطمأن على أملاكه الجديدة عاد إلى خوارزم (٢) .

قضى خوارزم شاه تكش البقية الباقية من عمره فى توطيد نفوذه فى البلاد التى فتحها ، كما حاول أن يكسب لدولته كسباً جديداً من البلاد الإسلامية ، ويغنم غنما جديداً يزيده مجداً فوق مجده ، لذلك لا نعجب إذا رأيناه يصطدم بقوى ثلاث ، ويحاول أن يكسب لنفسه ولدولته على حسابها . فحارب الخطا واستولى على إحدى مدنهم الهامة وهى مدينة بخارى سنة ٥٩٤ هـ (١١٩٧ م) (٣) . وفى الغرب نجده أمام قوتين لا يستهان بهما ، أما القوة الأولى فكانت طائفة الإسماعيلية التى اصطدم بها أثناء توسعه غربا ؛ وإن مبادىء هذه الطائفة التى تقوم على الفداء وتضحية النفس والنفيس جعلت تكش يخشى بأسهم ، فقتل عدداً كبيراً منهم سنة ٥٩٣ هـ (١١٩٦ م) حين حاصر أم قلاعهم «ألموت» ، فأذعنوا له وقبلوا ما فرضه عليهم إبنه قطب الدين (علاء الدين محمد فيما بعد) من أموال ، إذ لم يترك حصار قلاعهم إلا بعد أن تعهدوا بدفع مائة ألف دينار (٤) .

أما القوة الثانية التى اصطدم بها تكش فى الغرب فكانت قوة الخلافة العباسية ، فقد تعرضت سياسة الخوارزميين الذين كانوا يؤسسون لأنفسهم جاها عريضا ، مع سياسة الخلفاء العباسيين الذين تنفسوا الصعداء بعد زوال آخر سلجوقى عن أرض

(١) ابن الأثير: الكامل ، ج ١٢ ص ٥٠ .

(٢) Browne : An Account of a Rare Manuscript History of Seljuqs, p. 74.

(٣) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ٦٤ .

(٤) المرجع نفسه ، ج ١٢ ص ٧١ .

لوحة ٢



كسوة جدار من الجص ذى الزخارف البارزة باسم طغرلبك من إيران فى القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى)

(عن كتاب فنون الإسلام للدكتور زكى محمد حسن)

الدولة العباسية . وهكذا نشأ ذلك الصراع الذى أورثه تكش لخلفائه من الخوارزميين ، ولم ينته إلا بانتهاء الدولة الخوارزمية — كما سنرى

ولم تمهل الأيام علاء الدين تكش خوارزم شاه طويلا حتى يحقق ما كان يدور بخلده من مشروعات ، فقد مات سنة ٥٩٦ هـ (١١٩٩ م) إثر مرض ألم به وهو فى فى طريقه لتوسيع رقعة بلاده فى خراسان [١] ، تاركا لابنه قطب الدين محمد ، الذى اتخذ لنفسه لقب أبيه وتسمى علاء الدين محمد [٢] ، دولة عريضة تضم إقليم خوارزم وبعض البلاد الخراسانية والرى وغيرها من بلاد العراق العجمى . وقد أورث تكش إبنه فوق ذلك عبئا كبيراً ، إذ كان عليه أن يواجه أعداءه المحيطين بدولته ، الذين كانوا يحاولون جاهدين أن يحدوا من أطماع الخوارزميين ، فكان على علاء الدين خوارزم شاه أن يواجه كل هذه الصعاب التى خلفها له أبوه ، كما كان عليه أن يحافظ على هذا التراث الذى أورثه أبوه إياه ، بل يزيد من قوة بلاده ويوسع من رقعتها .

سار علاء الدين محمد خوارزم شاه على نهج أبيه من حيث التوسع والفتح ، فاستطاع أن يزيد دولته قوة فوق قوتها . على أن وفاة تكش كان لها أكبر الأثر فى طمع حكام البلاد المجاورة فى أراضى الدولة الخوارزمية ، فنرى شهاب الدين ملك الدولة الغورية يستولى سنة ٥٩٧ هـ (١٢٠٠ م) على الأقاليم الخراسانية فى الدولة الخوارزمية ، ويقتطع لنفسه مدنا تعتبر من صلب الدولة الخوارزمية ، من بينها مرو ونيسابور ؛ وبعد أن اغتصب هذه البلاد الخوارزمية أقطعها بعض أتباعه ثم رحل إلى أملاكه فى بلاد الهند [٣] فلما تخلص علاء الدين خوارزم شاه من متاعبه التى لحقت به عقب وفاة أبيه ، أرسل سنة ٥٩٨ هـ (١٢٠١ م) إلى غياث الدين أخى شهاب الدين وحاكم أملاك الدولة الغورية فى فارس كتابا يعتب فيه عليه ويؤنبه ، وقد جاء فى هذا الكتاب :

« كنت أعتقد أن تخلف على بعد أبى وأن تنصرنى على الخطا ، وتردهم »
« عن بلادى ، فحيث لم تفعل فلا أقل من أن لا تؤذينى وتأخذ بلادى . والذى »
« أريده أن تعيد ما أخذته منى إلىّ وإلا انتصرت عليك بالخطا وغيرهم من الأتراك »

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ٧٣ .
(٢) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدا والخبر ، ج ٥ ص ٩٦ .
(٣) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ٧٦ — ٧٨ .

« إن عجزت عن أخذ بلادى . فإنى إنما شغلنى عن منعكم عنها الاشتغال »
« بعزاء والدى وتقرير أمر بلادى وإلا فما أنا بعاجز عنكم وعن أخذ بلادك »
« خراسان وغيرها »(١) .

وقد أتبع علاء الدين خوارزم شاه كتابه هذا بعدة حملات عسكرية على البلاد الخراسانية وأملاك الدولة الغورية ، حتى استطاع أن يستولى على ما سلبه حكام هذه الدولة من خراسان ، بل اقتطع مدينتى بلخ وهراة . وهما من أملاك الدولة الغورية ، عام ٦٠٢ هـ (١٢٠٥ م)(٢) واستطاع بعد ذلك أن يستولى على إقليم مازندران فى جنوب بحر قزوين وأن يضمه إلى دولته(٣) .

وكان علاء الدين خوارزم شاه يعمل وفق خطة رسمها لنفسه وأخذ ينفذها بحذق ومهارة ، وترمى هذه السياسة إلى الإجهاز على قلب الدولة الغورية بالاستيلاء على حاضرتها غزنة فى النهاية . لذلك نراه منذ استيلائه على معظم خراسان يؤمن سلطانه فيها ويراوغ الخطا ، يعاديهم تارة ويصادقهم تارة أخرى ، ليكسب لنفسه ما يستطيع كسبه من البلاد حتى استطاع أن ينزل بهم هزيمة منكرة سنة ٦٠٦ هـ (١٢٠٩ م) ، تلك الهزيمة التى كان من نتيجتها أن وضع يده على بلاد ما وراء النهر كما سنفصله .

واصل علاء الدين سياسة التوسع ، فنراه يمد نفوذه وسلطانه سنة ٦١١ هـ (١٢١٤ م)(٤) على إقليم كرمان وإقليم مكران بما فى ذلك الساحل المطل على المحيط الهندى والذى يضم ميناء هرمز التجارى ، ويستولى على الأقاليم الواقعة غرب نهر السند .

وإن نظرة إلى الخريطة ، ترينا أن علاء الدين خوارزم شاه باستيلائه على هذه البلاد ، قد أحاط بغزنة حاضرة الدولة الغورية إحاطة تامة ، وضيق الخناق على من بها ، حتى إن حكام هذه المدينة لم يترددوا فى أن يخطبوا لعلاء الدين خوارزم شاه ويضربوا السكة باسمه عند ما طلب منهم ذلك سنة ٦١٢ هـ (١٢١٥ م) وهو على وشك دخول المدينة . ولما دخل علاء الدين هذه المدينة دخول الظافر ، أعمل القتل فى رقاب جنود

(١) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ٨١ .
(٢) المرجع نفسه ، ج ١٢ ص ١٠٥ — ١٠٧ .
(٣) Curtin : The Mongols' History, p. 94.
(٤) لا يستطيع ابن الأثير وهو حجتنا فى هذه الناحية أن يحدد السنة التى استولى فيها علاء الدين على هذه البلاد والراجح أن ذلك استغرق الفترة ما بين سنتى ٦١٠ و ٦١٢ هـ (١٢١٣ و ١٢١٥ م).

الدولة الغورية ، وأجهز على حاكمها (قتلغ تكين) ، ونهب المدينة ، وحمل ما استطاع حمله من الأموال إلى بلاده [١] . وقد استطاع علاء الدين خوارزم شاه أن يمد حدود بلاده بعد ذلك إلى مدينة كابل على نهر السند[٢] .

والأمر الذى يستحق الاهتمام فى استيلاء الخوارزميين على مدينة غزنة ، أن علاء الدين خوارزم شاه وجد بين ما وجد من مخلفات الدولة الغورية فى هذه المدينة ، كتبا كثيرة أرسلها الخليفة الناصر إلى حكام هذه الدولة ، يحثهم فيها على التحالف مع الخطا ومهاجمة الدولة الخوارزمية ووقف توسع الخوارزميين . وكانت هذه الكتب السبب فى الحملة التى شنها شهاب الدين الغورى على الدولة الخوارزمية فى أوائل عهد علاء الدين خوارزم شاه ، واقتطاعه الأملاك الخرسانية من الدولة الخوارزمية كما ذكرنا [٣] ، وكان لها أثر كبير فى ازدياد العداوة بين الخوارزميين والخلافة ، كما كانت أيضا من العوامل الأساسية التى حملت الخوارزميين على محاولة غزو بغداد ولما وطد علاء الدين نفوذه فى مدينة غزنة ، نصب ابنه جلال الدين منكبرتى عليها ثم فكر فى توسيع أملاكه فى الأقاليم الغربية .

كان الغرض الذى يرمى اليه علاء الدين خوارزم شاه من توجيه حملاته نحو الغرب أن ينتقم من الخلافة فى بغداد ، إذ لم يرق له أن يكون أقل من السلاجقة سلطة وهيبة فى أراضى الدولة العباسية ، بل فى حاضرتهم بغداد نفسها ؛ لذلك سار علاء الدين جهة الغرب سنة ٦١٤ هـ (١٢١٧ م) على رأس حملة وجهها بغداد . ومهما تكن النتيجة التى وصل اليها من حملته هذه ، فقد استطاع فى أثناء سيره نحو الغرب أن يوطد نفوذه فى العراق العجمى وأن يستولى على كثير من البلاد الواقعة فى هذه الجهات ومن أهمها الرى وهمذان وقزوين وقم وساوة وغيرها [٤] .

ومما يسترعى النظر أن علاء الدين خوارزم شاه جعل دولته مرهوبة الجانب ، يخشاها كبار الأتابكة فى هذه البلاد ، لذلك لم يتردد الأتابك سعد صاحب أتابكية فارس فى أن يستظل بالراية الخوارزمية ، وأن يتخذ من علاء الدين حاميا له ونصيرا ، فقبل عن طيب خاطر

---

(١) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدا والخبر ، ج ٥ ص ١٠٨ .

(٢) Bretschneider : Mediaeval Researches From Eastern Asiatic Sources, Vol. ii. p. 68.

(٣) D'ohsson : HistoireDes Mongols, Tom i. p. 185.

(٤) ابن الوردى : تتمة المختصر فى أخبار البشر ، ج ٢ ص ١٣٤ . وتراجع خريطة « الدولة الخوارزمية فى أقصى اتساعها » .

أن يسلم له جزءا من بلاده سمح للخوارزميين باحتلاله ، كما خطب لعلاء الدين على منابر هذه البلاد وضرب السكة باسمه وفق ما جرى به العرف عند المنتصرين من المسلمين[١] . ثم إن توغل علاء الدين خوارزمشاه فى العراق العجمى جعل أوزبك بن البهلوان صاحب أذربيجان وأران يحذو حذو الأتابك سعد ، فدخل فى طاعة الخوارزميين وخطب لهم على منابر بلاده[٢] .

على أن الخوارزميين لم يستطيعوا تحقيق الهدف الأساسى من حملتهم على الأقاليم الغربية ؛ وهو الاستيلاء على بغداد وفرض سلطانهم هناك . إذ أخفقوا إخفاقا ذريعا بعد أن ثارت الطبيعة فى وجوههم وأبادت جيوشهم فى بعض الأقاليم الجبلية من العراق العجمى[٣] . وقد آثر علاء الدين خوارزم شاه بعد هذا الفشل أن يسرع فى العودة إلى بلاده ، إذ بدأ يهدد كيان الدولة الخوارزمية خاصة والعالم الإسلامى عامة ، ذلك الخطر المغولى على يد چنكيز خان ، وأخذ الخوارزميون يفكرون فيما سيؤول اليه مصيرهم ومصير بلادهم .

هكذا نجد أن الدولة الخوارزمية قد بلغت أقصى اتساعها فى عهد علاء الدين خوارزم شاه . إذ امتدت من حدود العراق العربى غربا إلى حدود الهند شرقا ، ومن شمال بحر قزوين وبحر آرال شمالا إلى الخليج الفارسى والمحيط الهندى جنوبا . وقد ضمت هذه الدولة مدنا من أمهات المدن الإسلامية ، نخص بالذكر منها مدينة بخارى التى اشتهرت بعلمائها وفقهائها ، وسمرقند التى اشتهرت بأسوارها وحدائقها . ونجد أن الدولة الخوارزمية فوق ذلك تضم ثغوراً تجارية هامة فى الجنوب كثغر هُرمز عند مدخل الخليج الفارسى ، وهو من أكبر الثغور التجارية فى البحار الجنوبية ، إذ كانت تمر به تجارة الهند والصين من ناحية ، وتجارة اليمن ومصر من ناحية أخرى . ومما يدل على عظم أهمية هذا الثغر أن حكام بعض مدن عمان خطبوا على منابرهم لعلاء الدين خوارزمشاه بعد استيلائه على هذا الثغر تقربا منهم للخوارزميين ، وصونا لمصالحهم التجارية فى

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ١٤٦ .

(٢) المرجع نفسه ، ج ١٢ ص ١٤٥ .

(٣) Howorth : History of the Mongols, part. i. p. 8.

أراضيهم [١] . وكذلك نجد أن الدولة الخوارزمية كانت بموقعها الجغرافي وحدودها السياسية التي عرفناها تسيطر على مفاتيح الطرق البرية للتجارة الآسيوية .

ولم يكن من اليسير أن يتمكن علاء الدين خوارزم شاه من السيطرة على كل هذه الأراضي ويضمن بقاءها على ولائها لأسرته ، لذلك قسمها بين أبنائه الأربعة ، يحكم كل منهم جزءاً منها ويتولى تصريف أمور الإقليم الذي كان من نصيبه ، على أن يكون الأب هو المرجع الأول لكل من هؤلاء الأبناء إذا ما صادفه عائق أو وقف في سبيله حائل ، لذلك انقسمت الدولة إلى الأقاليم الأربعة الآتية :

١ ـ الركن الشرقي من الدولة الخوارزمية حيث مدينة غزنة حاضرة الدولة الغورية ومدينة باميان الواقعة في أعالي نهر جيحون ، فضلاعن بعض البلاد الغربية من حوض نهر السند التي اقتطعها الخوارزميون من أملاك الدولة الغورية ـ كان كل هذا الجزء من نصيب الإبن الأكبر جلال الدين منكبرتي

٢ ـ الأقاليم الشمالية من الدولة الخوارزمية وهي خوارزم وخراسان ومازندران ، وكانت من نصيب ابنه قطب الدين أزلاغ شاه .

٣ ـ الأقاليم الجنوبية من الدولة الخوارزمية وتشمل كرمان ومكران ، وكانت من نصيب غياث الدين شير شاه .

٤ ـ الأقاليم الغربية من الدولة الخوارزمية وهي العراق العجمي ، وكانت من نصيب ركن الدين غور شاه [٢] .

ومما تجب الإشارة إليه أن علاء الدين خوارزم شاه أوصى بالملك من بعده لإبنه الأصغر أزلاغ شاه تحت تأثير أمه (أم السلطان علاء الدين) تُركان خانون التي كانت تفضله على سائر إخوته [٣] . على أن علاء الدين ما لبث أن عدل عن وصيته وولى عهده إبنه الأكبر جلال الدين منكبُرتي [٤] . على أن ولاية العهد كانت مثار نزاع شديد بين هؤلاء الأبناء بعد الغزو المغولي كما سنرى .

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ١٤٠ .

(٢) ابن الوردي : تتمة المختصر في أخبار البشر ، ج ٢ ص ١٥٤ .

(٣) D'ohsson : Histoire Des Mongols, tom. i. p. 195.

(٤) ابن الوردي : تتمة المختصر في أخبار البشر ، ج ٢ ص ١٥٤ .

ولم تشأ الحوادث أن تمهل الدولة الخوارزمية طويلا ، فسرعان ما ظهر الخطر المغولى ماثلا للعيان ، فلم يستطع علاء الدين أن ينصرف إلى شئون دولته الداخلية ، إذ ما كاد يستقر على عرش مملكته بعد مجهود حربى عنيف ، حتى اتضح له أن دولته مهددة بالزوال ، فلم ينعم بثمرة انتصاراته لأن الفترة التى تلت عودته من البلاد الغربية حتى الغزو المغولى سنة ٦١٧ هـ (١٢١٩ م) ، كانت من القصر بحيث لم تتح له الفرصة لإصلاح أحوال دولته الداخلية وتنظيمها ، ومواجهة قوة المغول الحربية ، ووقف سيل جيوشهم المنهمر على الأراضى الإسلامية ، ولهذا نرى الخوارزميين فى هذه الفترة حيارى أمام تلك الأخطار التى أوشكت أن تقضى عليهم . وكأنما تكاثرت الأهوال على الخوارزميين ، فوقفوا مشدوهين ينتظرون غير مصدقين ما سيؤول إليه مصيرهم . واجتاح المغول الدولة الخوارزمية البلد تلو الآخر ، واستولوا على قلاعها واحدة بعد أخرى ، حتى أجهزوا على ذلك الملك العريض الذى كونه الخوارزميون ولم يمهلهم الوقت ليجنوا ثمار ما غرسوا .

٢ — موقف الدولة الخوارزمية من الخلافة العباسية

رأينا كيف أن الخوارزميين قد وسعوا بلادهم على حساب الدولة السلجوقية فى فارس ، حتى إذا ما قدر لهم أن يزيلوا عرشهم ويؤسسوا لأنفسهم دولة على أنقاضهم ، أخذوا بعد ذلك يوسعون سلطانهم على حساب القوى المجاورة لهم ، وهى دولة الخطا فى الشرق ، والدولة الغورية فى الجنوب ، والدولة العباسية فى الغرب .

وكانت للخوارزميين سياسة معلومة رسموها لأنفسهم وأورثها السلف للخلف ؛ وكانت هذه السياسة ترمى فى النهاية إلى تكوين امبراطورية عظيمة على أشلاء القوى الإسلامية المتناثرة ، التى كانت سببا فى تفكك العالم الإسلامى وانحلاله ، لذلك كان لا بد أن تتعارض هذه السياسة مع سياسة القوى الموجودة فى ذلك الوقت ، على أن هذه القوى كانت جميعها فى دور الاحتضار ، تنتزع أنفاسها انتزاعا ، فاستطاع الخوارزميون أن ينفذوا سياستهم . ولو أن الحوادث أمهلت الخوارزميين قليلا لاستطاعوا أن يسيطروا على عاصمة الخلافة ، وأن يتخذوا لأنفسهم ذلك المركز الذى اتخذه البويهيون والسلاجقة من قبل ، إلا أن الحوادث تعجلتهم ، فصرعهم المغول فى ميدان حرب لم يعرفها المسلمون من قبل .

كان الخلفاء العباسيون فى ذلك الوقت تحت سيطرة الفرع الساچوق فى العراق ، إذ بالرغم من زوال سلاچقة فارس بعد وفاة السلطان سنجر كما ذكرنا ، فقد استمر سلاچقة العراق يكيلون الضربات للخلفاء الذين كانوا يتوقون إلى إزالة ذلك الكابوس الذى فرض سلطانه عليهم ردحا طويلا من الزمن . وكانت الخلافة العباسية قد أخذت تفيق وتقوى بنسبة ما كان يصيب السلاچقة فى العراق من ضعف .

كان السلاچقة فى أواخر عهدهم لا يزالون يسيطرون على العراق العجمى ، فضلا عما كان لهم من نفوذ فى العراق العربى ، وما كان لهم من نفوذ فى بغداد نفسها . وقد أراد الخليفة الناصر لدين الله أن يجهز على بقايا السلاچقة ويزيل سلطانهم من هذه البلاد نهائياً ، غير أن مركز الخلافة العباسية لم يكن من القوة بحيث يستطيع الخليفة الناصر أن يأخذ هذه المهمة على عاتقه وحده ، لذلك لم يتردد فى الاستعانة بالخوارزميين — وهم القوة الوحيـــدة التى يمكن الإعتماد عليها فى تحقيق هذا الهدف — فأرسل إلى علاء الدين تكش خوارزم شاه ، يشكو طغرلبك ، آخر سلاطين السلاچقة فى العراق ويحثه على قتاله ، ويعده أن يقطعه ما بيده من البلاد إذا أنجز هذا الأمر [١] . وكانت هذه الدعوة هى كل ما اشتهى الخوارزميون وابتغوا ، إذ وجدوا فيها فرصة نادرة لتحقيق أمانيهم وأطماعهم التوسعية ، لذلك لبى تكش خوارزم شاه الدعوة سريعا ، وركب متن الريح فى سيره نحو الغرب ، لنجدة الخليفة فى الظاهر وتحقيق أمانيه وتوسيع رقعة بلاده فى الباطن ؛ وانتهى الأمر بأن التقى العسكر الخوارزمى بقيادة خوارزم شاه تكش بالعسكر السلچوقى بقيادة طغرلبك قرب مدينة الرى سنة ٥٩٠ هـ (١١٩٣ م) فى معركة دامية أحاط فيها الخوارزميون بشخص طغرلبك الذى ألقى بنفسه وسط المعركة ، فجذبه أعداؤه الخوارزميون عن فرسه وانتزعوا رأسه من جسده ، وأرسلوه إلى خوارزم شاه فأهداه بدوره إلى الخليفة فى بغداد إشادة بما أحرزه من نصر [٢] . وقد فرح الخليفة برأس طغرلبك فرحاً شديداً وأمر بأن يعلق على أحد أبواب بغداد عدة أيام .

---

(١) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدا والخبر ، ج ٥ ص ٩٤ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ٥٠ . المقريزى : السلوك ، ج ١ قسم ١ ص ٤٠ .

كان من أثر انتصار الخوارزميين على السلاجقة ، أن زال كابوسهم المميت الذى سيطر على الخلافة العباسية ردحا طويلا من الزمن ؛ إذ أن نفوذ البيت السلجوقى الذى زال من فارس تماما بموت السلطان سنجر ، إنتهى من العراق أيضاً بموت طغرلبك[١]. ومن أغرب المصادفات أن يكون إسم «طغرلبك» هو اسم أول سلاطين السلاجقة واسم آخرهم فى بغداد ، بمعنى أن الدولة السلجوقية ابتدأت بطغرل وانتهت بطغرل[٢].

وكان من أثر انتصار الخوارزميين على السلاجقة سنة ٥٩٠ هـ (١١٩٣ م) ، أن سيطروا على العراق العجمى ، وتقلدوا حكم هذه البلاد رسميا من الخليفة[٣] ؛ كما كان من أثر ذلك أيضا أن تاخمت أملاكهم أملاك الخليفة العباسى ، الذى لم يعد يمتلك سوى العراق العربى وخوزستان . وليس معنى تقلد الخوارزميين السلطة من الخلافة ، أن الخليفة العباسى كان يتمتع بأى نفوذ فى البلاد الخوارزمية ، أو أن الخوارزميين كانوا فى حاجة إلى الاستناد إلى قوته المادية ، فكلنا يعرف أن الخلفاء فى هذا العصر لم يكن لهم من حول أو قوة ، وأنهم كانوا أمواتا لبسوا أثواب الأحياء ، ولكن الخوارزميين حرصوا على أن يقلدوا أملاكهم الجديدة من قبل الخليفة مباشرة ، كى يستندوا فى حكم هذه البلاد إلى سلطة الخليفة الشرعية ، ويكسبوا بذلك صفة شرعية فى البلاد التى آلت اليهم بحد السيف ، شأنهم فى ذلك شأن حكام الدول المستقلة فى الدولة الإسلامية الكبرى[٤].

ولم تقف أطماع الخوارزميين عند هذا الحد ، وهم الذين اعتبروا أنفسهم وارثى عرش السلاجقة ، بعد أن أزالوا هذا العرش بموت سنجر فى فارس ومقتل طغرلبك فى العراق ، فادعوا أحقيتهم بما كان يتمتع به السلاجقة من حقوق لدى الخلافة ، فطلبوا السيطرة على بغداد وإحلال أسمهم محل أسلافهم السلاجقة فى خطبة الجمعة ، ونقش اسمهم إلى جوار اسم الخليفة على السكة ؛ وأكثر من ذلك فقد طلب خوارزم شاه تكش من الخليفة الناصر أن يعيد دار السلطنة فى بغداد إلى ما كانت عليه أيام السلاجقة ، حتى إذا ما

---

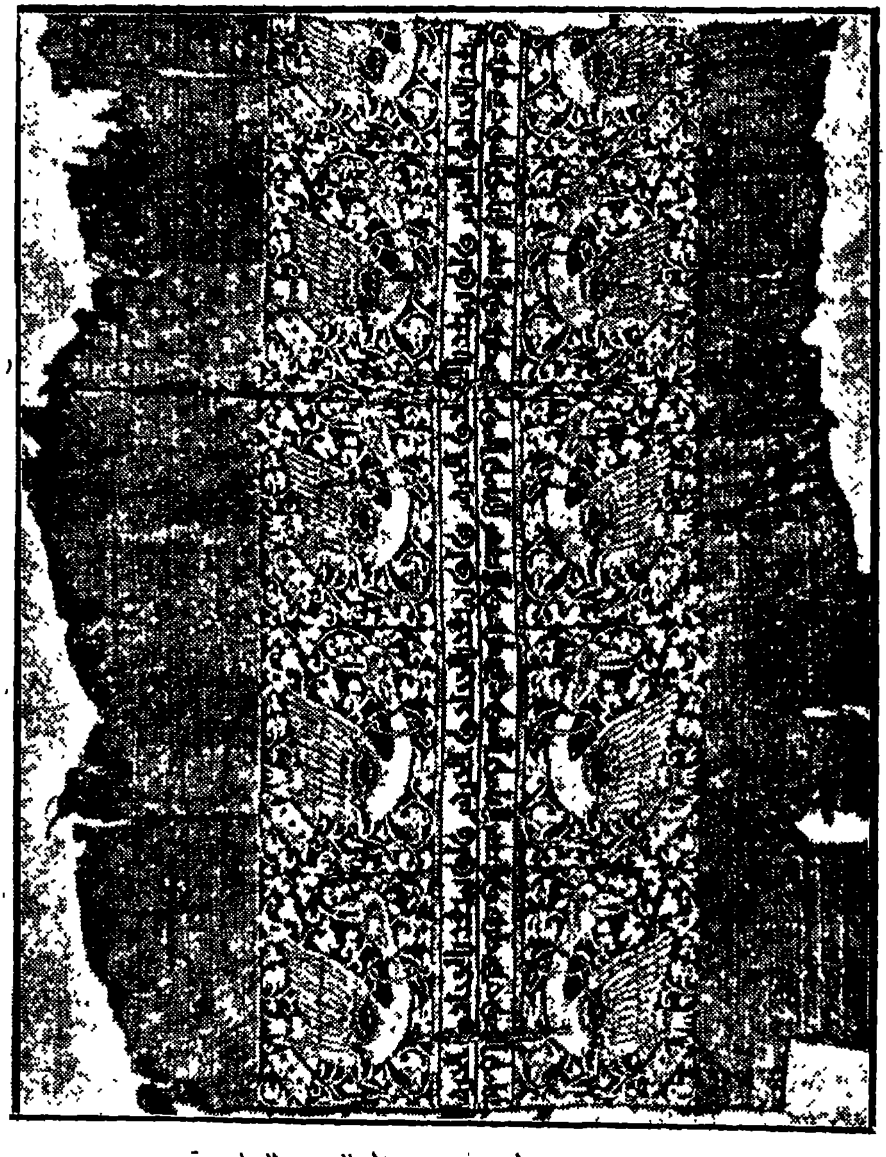
(١) Howorth : History of the Mongols, part. i. p. 7.

(٢) البندارى : تاريخ دولة آل سلجوق ، ص ٢٧٧ ٢٧٨ .

(٣) Curtin : The Mongols' History, p. 94.

(٤) الدكتور حسن ابراهيم حسن : النظم الاسلامية ، ص ١٠٠ — ١٠١ .

لوحة ٣



قطعة نسيج من الحرير ترجع إلى العصر السلجوقي .

(عن كتاب الفنون الإيرانية في العصر الإسلامي للدكتور زكي محمد حسن)

حضر إلى بغداد ، وخلعت عليه السلطنة ، أقام فى هـذه الدار وأصبح « الخليفة من تحت يده[١] » .

وهكذا نرى أن تكش إذا كان قد لبى دعوة الخليفة لمحاربة طغرلبك والقضاء عليه فإنه لم يفعل ذلك عطفا على الخليفة ، أو رعاية لمصالح بنى العباس ، بل الواقع أن تكش كان يبنى لنفسه ولدولته على حساب السلاجقة والخلافة معا ، كما كان يرمى إلى توسيع رقعة بلاده حتى يستطيع أن يقوى بما يفتحه من البلاد ، ويجند ما يستطيع تجنيده منها حتى إذا تم له ما أراد استطاع أن يحمل الخلافة العباسية على الإذعان لمطالبه . وكان يجب على الخوارزميين منذ أن استظلوا بسلطة الخليفة الشرعية ، أن يحترموا هذا الخليفة ولا يعملوا إلا بمشورته ، على أن ذلك كان معناه الحد من آمال الخوارزميين وأطماعهم فى الأقاليم الغربية ، وهذا مما يتنافى طبعا مع ما رسمـــه الخوارزميون لأنفسهم من سياسة متوارثة ، شجع الخوارزميين على السير فيهـا ما لمسوه من ضعف الخلفاء الذين لم يستطيعوا القضاء على أعدائهم السلاجقة رغم ما اعتورهم من ضعف فى آخر أيامهم ، فاستعانوا بالخوارزميين عليهم ، كما شجع الخوارزميـين على المضى فى هذه السياسة ، متاخمة أملاكهم التى اكتسبوها بعد مقتل طغرلبك ، لأملاك الخليفة فى العراق العربى .

على أن الخليفة الناصر وهو الذى تنفس الصعداء بعد زوال كابوس السلاجقة من بغداد ، لم يقبل أن يخضع لسلطة أخرى لا تقل إن لم تزد فى قوتها على قوة السلاجقة ، ولا سيما أن الخليفة الناصر قد وهب نفسه وجهوده لاستعادة سلطان خلفاء الدولة العباسية القديم[٢] . لذلك لم يتردد الخليفه الناصر فى رفض طلب علاء الدين تكش ، [٣] بل نجده على العكس يهدم دار السلطنة فى بغداد ويرد الرسول الخوارزمى بغير جواب[٤]

(١) السيوطى : تاريخ الخلفاء ، ص ٣٠٢ .

(٢) ذكر السيوطى فى هذه المناسبة أن جهود الخليفة العباسى الناصر لدين الله فى هذا السبيل كان نصيبها التوفيق . وقد بلغ من عظم نفوذه وسلطانه أنه استطاع أن يقيم الخطبة لنفسه بين سائر البلاد والجاليات الإسلامية من حدود الصين إلى بلاد الأندلس . ومن الواضح أن هـذه العبارة قد بولغ فيها إلى حد كبير ، على أنها إن دلت على شىء فإنما تدل على ازدياد نفوذ الخليفة الناصر بنسبة تفوق نفوذ من سبقه من الخلفاء . انظر السيوطى : تاريخ الخلفاء ، ص ٢٩٩ .

(٣) Vambery: History of Bokhara, p. 116.

(٤) السيوطى : تاريخ الخلفاء ، ص ٣٠٢ .

ولندع جانبا تلك المناوشات التى حدثت بين الخوارزميين فى عهد تكش ، وبين جيوش الخليفة الناصر العباسى ، فليس من المهم أن نتتبع حوادث استيلاء أحد الطرفين على بعض المدن واستعادة الطرف الآخر لها ، ولكن المهم أن نذكر أن الخليفة الناصر لم يجد ما يدفع به عن نفسه سوى الاستعانة على الخوارزميين بأعدائهم وتأليبهم عليهم ، فنراه يبعث إلى غياث الدين ملك الدولة الغورية يحثه على مهاجمة الخوارزميين من الشرق حتى يرغمهم على الانصراف عن سياستهم العدائية فى الغرب ؛ فلما أرسل غياث الدين إلى خوارزم شاه تكش « يقبح له فعله ويتهدده بقصد بلاده وأخذها »[(١)] ، لم ير الخوارزميون مخرجا سوى الالتجاء إلى الخطا يحرضونهم على الدولة الغورية ، ويحذرونهم تمادى الغوريين وازدياد سلطانهم ، ويبينون لهم ما ينطوى عليه ذلك من خطر يهدد دولة الخطا نفسها .

وهكذا هاجم كل من الخوارزميين والخطا سنة ٥٩٤هـ (١١٩٧م) أملاك الدولة الغورية كل من جهة ، على أنه كان من سوء حظ الخوارزميين أن هُزم الخطا ، فألقى هؤلاء تبعة هذه الهزيمة على الخوارزميين لأنهم أصحاب فكرة هذه الحرب التى سببت لهم خسائر فادحة وقد طالب الخطا الخوارزميين بتعويضهم عشرة آلاف دينار عن كل قتيل[(٢)]. واضطر الخوارزميون إزاء هذا التهديد والوعيد أن يعودوا فيميلوا بسياستهم إلى الدولة الغورية ويضعوا أيديهم فى أيدى ملوكها ليقف الطرفان صفاً واحداً أمام الخطا ، غير أن الغوريين اشترطوا لعقد هذا الحلف أن يطيع الخوارزميون الخليفة وأن يكفوا عن أعمالهم العدائية ضده[(٣)] .

وهكذا اضطر الخوارزميون إلى تحسين علاقاتهم مع الخلافة العباسية والعدول عن سياستهم العدائية التقليدية مؤقتا ، وانصرف تكش فى المدة الباقية من حكمه إلى معالجة مشاكله فى الشرق ، مع دولة الخطا . وكان من أثر تحسن العلاقة بين الخليفة الناصر وعلاء الدين تكش أن أرسل إليه الخليفة الهدايا والخلع ، واعترف له بسيادته على ما

(١) ابن الأثير : الكامل، ج ١٢ ص ٦٣ . ابن خلدون : العبر وديوان المبتدا والخبر ، ج ٥ ص ٩٥ .

(٢) ذكر ابن الأثير، ج ١٢ ص ٦٤ ، أن عدد القتلى كان حوالى ١٢,٠٠٠ قتيل فإذا أخذنا بهذا القول ، وصل المبلغ الذى طالب به الخطا ١٢٠,٠٠٠,٠٠٠ دينار ، وهذا يدلنا على أن هذا القول مبالغ فيه الى حد كبير .

(٣) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدا والخبر ، ج ٥ ص ٩٦ .

بيده من البلاد الإسلامية[١]. على أن هذا السلام لم يدم طويلا، فقد توفى تكش بعد سنة من هذه الحوادث ، أى سنة ٥٩٦ هـ (١١٩٩ م) ، وكان هذا نذيرا باستئناف سياسة العداء بين الخوارزميين والخلافة العباسية .

رأينا فى مكان آخر أن علاء الدين محمد خوارزم شاه أخذ يعمل ، بعد أن تولى عرش أبيه تكش ، على توسيع رقعة بلاده ، حتى بلغت أقصى ما بلغته فى هذا العهد ؛ كما أنه سار على نهج آبائه ووفق سياستهم إزاء الخلافة العباسية ، رغبة منه فى الوصول إلى المكانة التى كانت للسلاچقة فى قلب الدولة العباسية[٢] ، لذلك لم يدخر علاء الدين خوارزم شاه وسعا فى تحقيق هذه السياسة بكل وسيلة ممكنة ، ولم يتردد فى العمل على غزو بغداد عند ما فشل فى تحقيق هذه السياسة بالطرق السلمية ، ونستطيع أن نلخص أسباب هذا الغزو فيما يلى :

١ — أراد علاء الدين محمد خوارزم شاه أن يحقق سياسة آبائه وأجداده وهى إقامة الخطبة للخوارزميين على منابر بغداد ، لذلك لا نعجب إذا علمنا أن علاء الدين أرسل أحد رجاله المقربين ، وهو القاضى مجير الدين عمر بن سعد الخوارزمى ، إلى بغداد غير مرة ، يطالب بحق الخوارزميين فى إقامة الخطبة لهم ببغداد ، فأبى العباسيون ذلك وأنكروه ، وقالوا إن الظروف هى التى أدت إلى تحكم السلاچقة فى بغداد وقت أن كانت الخلافة فى حاجة إلى مساعدتهم ، وأعلنوا أن الخلافة لن تقبل أن يتحكم فيها المتحكمون . ثم قال الخليفة لمجير الدين :

« أو ليس فيما أنعم عليه به من الممالك الواسعة الأقاليم ، المتباعدة المتشاسعة ، »
« غنية عن الطمع فى دار ملك أمير المؤمنين ومشاهد آبائه الراشدين ؟ »[٣]

وقد عاد مجير الدين الخوارزمى يصحبه شهاب الدين السهروردى ، رسولا من قبل الخليفة ، ليثنى علاء الدين عن محاولة غزو بغداد[٤] . وفى الرسائل التى تبودلت بين

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ٧٢ .

(٢) Vambery : History of Bukhara, p. 116.

(٣) النسوى : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى ، ص ١١ — ١٢ .

(٤) قابل السُّهروردى علاء الدين خوارزم شاه فى مدينة همذان وهو فى طريقه الى غزو بغداد ، ومما هو جدير بالذكر فى هذا المقام أن السُّهروردى ينتسب الى قرية سُهرورد بإقليم زنجان ، وقد أقام معظم =

الخليفة الناصر وعلاء الدين خوارزم شاه، حاول الخليفة أن يمنع الخوارزميين عن فكرة غزو العراق العربي ، ولكن على غير جدوى . ومما هو جدير بالملاحظة أن الخليفة العباسي إذا كان قد امتنع عن إجابة مطالب علاء الدين فإنما فعل ذلك ، لا لثقته من نفسه ومن قوته ، بل لأنه كان يدرك تمام الإدراك أن علاء الدين كان في شغل شاغل عنه بمشاكله الداخلية والخارجية . إذ فضلا عن اضطراب أحوال دولته في الداخل ، فإن مشاكله في بلاد ما وراء النهر وحروبه هناك ، كانت كفيلة بأن تغل يده إلى حد كبير عن العمل في الأقاليم الغربية .

٢ — أما السبب الثاني الذي حمل الخوارزميين على غزو بغداد ، فهو أن علاء الدين خوارزم شاه ، اكتشف عند ما استولى على مدينة غزنة حاضرة الدولة الغورية سنة ٦١٢ هـ (١٢١٥م) ، في دار المحفوظات في هذه المدينة ، كثيرا من الكتب التي أرسلها الخليفة الناصر إلى ملوك الدولة الغورية ، يحثهم فيها على إيقاف توسع الخوارزميين بمهاجمتهم من الخلف . وكان من أثر وصول هذه الكتب ، أن حارب ملوك الدولة الغورية علاء الدين خوارزم شاه في بداية حكمه ، واقتطعوا الأقاليم الخراسانية من الدولة الخوارزمية[١] .

٣ — أخذ الخليفة الناصر منذ بداية حكمه ، يكيد للخوارزميين بشتى الوسائل ، فإذا تركنا جانبا تلك الرسائل التي أرسلها إلى ملوك الدولة الغورية ، يحثهم فيها على مهاجمة الخوارزميين ، نجد أنه يتبع نفس هذه السياسة مع الخطا ، فنراه يحرضهم على مهاجمة الخوارزميين ، بل ويعدهم بتأييد سلطانهم على البلاد الإسلامية التي يقتطعونها لأنفسهم من البلاد الخوارزمية ، كما أرسل إليهم الهدايا والخلع عربونا لصداقته ، وليس أدل على ذلك من الكتاب الذي أرسله جلال الدين منكبرتي بن علاء الدين خوارزم شاه إلى المعظم عيسى صاحب دمشق ، يحرضه فيه على غزو أملاك الخلافة ، فقد جاء في هذا الكتاب ما يلي :

« تحضر أنت ومن عاهدني فنتفق حتى نقصد الخليفة ، فإنه كان السبب في »

= أيام حياته في بغداد وتمتع بثقة الخليفة الناصر لدين الله العباسي . وكان هذا الرجل من كبار رجال الصوفية في عصره ، وألف في التصوف كتاباً سمي باسم « عوارف المعارف » . وقد توفي سنة ٦٣٢ هـ (١٢٣٤ م) . انظر كتاب الدكتور رضا زاده شفق « تاريخ الأدب الفارسي » ، ص ١٩٧ .

(١) D'ohsson: Histoire Des Mongols, tom. I. p.185.

« هلاك المسلمين ، وفى هلاك أبى ، وفى مجىء الكفار إلى البلاد ، ووجدنا كتبه »
« إلى الخطا ، وتواقيعه لهم بالبلاد والخلع والخيل » (١) .

ولم تقتصر دسائس الخليفة الناصر التى دبرها ضد الخوارزميين على تحريض الدولة الغورية ودولة الخطا ، بل إنه سار على هذه السياسة نفسها مع كل من أتابكى فارس وأذربيجان ، لحرضهما على الاستيلاء على العراق العجمى من الخوارزميين ، بل نجد الخليفة يتحالف مع الإسماعيلية لهذا الغرض نفسه . وقد سارت هذه القوى المعادية لاستخلاص العراق العجمى من أيدى الخوارزميين ، ونجحت إلى حد كبير فى السيطرة على الجزء الأكبر منه سنة ٦١٢هـ (١٢١٥ م) (٢) ، وخاصة بعد أن تمكن الفدائيون من طائفة الإسماعيلية من قتل «أغلمش» نائب الخوارزميين فى العراق العجمى (٣) بإيعاز من الخليفة (٤) . لذلك لا نعجب إذا رأينا علاء الدين خوارزمشاه يسارع إلى الغرب ، لينقذ هذه البلاد قبل أن تخرج عن طاعته ، وقد تمكن فعلا من هزيمة كل من الأتابك سعد صاحب أتابكية فارس ، وأوزبك بن البهلوان صاحب أذربيجان ، وتعهد كل منهما بأن يخطب للخوارزميين على منابر بلاده (٥) . ولما كان الخليفة هو الذى أثار كل هذه المتاعب ، لم يتردد علاء الدين خوارزم شاه — بعد أن تم له إخضاع العراق العجمى — فى أن يواصل السير سنة ٦١٤ هـ (١٢١٧ م) نحو الغرب ، لتحقيق هدفه الأول وهو السيطرة على حاضرة الخلافة العباسية ، انتقاما من الخليفة .

٤ — ومن الأسباب الرئيسية فى غزو بغداد ، أن علاء الدين خوارزمشاه اعتنق المذهب الشيعى ، وعمل على إزالة الخلافة العباسية من بغداد وإحلال خلافة علوية مكانها . وإذا كانت فكرة إقامة خليفة علوى فى بغداد قد جالت بذهن علاء الدين ، فإنه قبل أن يتوجه إلى بغداد ، أراد أن يكسب عمله هذا صبغة شرعية ، حتى يأمن

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، ج ٦ ص ٢٦٠ — ٢٦١ .
(٢) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ١٤١ .
(٣) المرجع نفسه ، ج ١٢ ص ١٩٠ .
(٤) النسوى : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى ، ص ١٣ .
(٥) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ١٤٥ . D'ohsson : Histoire Des Mongols, tom. i . p . 191.

معارضة المعارضين من رجال دولته ، لذلك جمع رجال الدين فى بلاده فى مجمع عام ، واستطاع فى هذا الاجتماع أن ينتزع منهم قراراً بشرعية عزل الخليفة العباسى ، بعدأن حملهم على إثبات عدم صلاحيته للخلافة ، بل استطاع أن يحمل المجتمعين على الاعتراف بأن العباسيين ليسوا أصحاب الحق الشرعى فى الخلافة ، وأنهم اغتصبوها من العلويين أصحاب الحق الشرعى فيها (١) . وقد أجمع المجتمعون على أن الخليفة الناصر غير أهل للخلافة ، بل لقد وصفوه بأنه قاتل (٢) ، وربما كان ذلك راجعا إلى أن الخليفة هو الذى أوعز إلى الإسماعيلية بقتل «أغلمش» نائب الخوارزميين بالعراق العجمى ، فضلا عن أنه ألب الفدائيين من الإسماعيلية على الخوارزميين دون استثناء . وكانت الخطوة التالية أن انتخب علاء الدين خوارزم شاه رجلا علويا من مدينة «ترمذ» يدعى علاء الملك ، وخطب له على منابر الدولة الخوارزمية ، وصك اسمه على السكة بعد أن قطع الخطبة للخليفة الناصر فى أنحاء الدولة الخوارزمية (٣) ، وقد سُر الشيعيون فى بلاد فارس أيما سرور بهذا النصر المبين الذى أحرزوه ، وظنوا أن الوقت قد حان لقلب الخلافة السنية وإقامة خلافة علوية بعد ستة قرون من وفاة الرســـول ، قضوها فى جهاد مستمر ومحاولات يائسة لتحقيق هذا الغرض .

٥ — ويجب أن نضيف عاملا هاما إلى العوامل التى دفعت الخوارزميين دفعا إلى غزو بغداد ، ألا وهو الظروف الطبيعية والعوامل التاريخية المتلاحقة ، التى لا يمكن إهمال أثرها . فإذا نظرنا إلى الدولة الخوارزمية فى ذلك الوقت ، نجد أنها قد اتسعت فى عهد علاء الدين خوارزم شاه اتساعا كبيراً ، فامتدت من حدود الهند إلى حدود بغداد ، ومن بحر آرال إلى الخليج الفارسى ، وأصبح سلطانه لا يعلوه سلطان آخر فى العالم الإسلامى ، ولا غرو فقد تخلص علاء الدين خوارزم شاه من سلطان الخِطا ، الذى فرضوه على آبائه ، بل إنه قد نكل بهم تنكيلا ، كما أتى على البقية الباقية من الدولة الغورية ، باستيلائه على حاضرتها غزنة ، ثم إنه أذل طائفة الإسماعيلية وأثار مخاوف أتباعها ، وجعلهم ينكمشون داخل حصونهم . فبعد أن وصل علاء الدين إلى هذ القوة وأحاط

D'ohsson: Histoire Des Mongols, tom. i. p. 189. (١)

Muir: The Caliphate, Its Rise, Decline & Fall, p. 588. (٢)

Barthold: Turkestan Down to the Mongol Invasion, p. 375. (٣)

بالخلافة العباسية من الشمال، وكذا من الشرق باستيلائه على أتابكية فارس وهو فى طريقه إلى بغداد ، بحيث لم يعد للخلافة بعد ذلك إلا العراق العربى وخوزستان ، لم يكن من المعقول بعد أن وصلت الدولة الخوارزمية إلى هذه الدرجة من الاتساع ، ألا يحاول حكامها الاستيلاء على البقية الباقية من الدولة العباسية، ولم تكن هذه البقية إلا بغداد نفسها.

وهكذا نشأت فكرة الغزو الخوارزمى لأراضى الدولة العباسية التى بدأ علاء الدين خوارزم شاه فى تنفيذها سنة ٦١٤ هـ (١٢١٧ م)[١] . ولكن هل وقف الخليفة العباسى الناصر مكتوف اليدين حيال هذا الخطر الداهم ؟ وهل نفض يده من كل شىء ، واستسلم للقدر يحركه كيفما شاء ؟

رأينا فيما سبق أن الخليفة الناصر حاول أن يوقف ازدياد القوة الخوارزمية بشتى الوسائل ، فلم يترك باباً إلا طرقه ، ولم يجد طريقاً يوصله إلى غايته إلا حاول أن يسلكه ؛ لذلك رأيناه يحيك للخوارزميين سلسلة من المكائد والدسائس ، ولم يترك عدواً لهم إلا ألبه عليهم ، فحرض عليهم ملوك الدولة الغورية كما رأينا ، وتحالف مع الخطا وحرضهم على مهاجمتهم من الشرق ليشغلهم عن الاتجاه نحو الغرب ، ثم رأيناه يحرض طائفة الإسماعيلية لاغتيال رجال الدولة الخوارزمية ، وأخيرا رأيناه يلجأ إلى كل من أتابكى فارس وأذربيجان ، يستعين بهما على اكتساح العراق العجمى.

وإذا نظرنا إلى خريطة الدولة الخوارزمية فى أقصى اتساعها ، وجدنا أن هذه العناصر التى حرضها الخليفة على الخوارزميين كانت تحيط بدولتهم من كل جهة ، فالدولة الغورية فى الجنوب الشرقى، والخطا فى الشرق ، والإسماعيلية وأتابكية أذربيجان فى الشمال الغربى، وأتابكية فارس فى الجنوب الغربى — فإذا كان الخليفة قد أثار هذه العناصر على الخوارزميين، فقد كان من الطبيعى أن يخلق هذا لهم ألوانا شتى من المتاعب ؛ ورغم ذلك كله، استطاع علاء الدين خوارزم شاه بما أوتى من قوة وعزم ، أن يحد من سلطان الخطا بإحلال الهزيمة بهم فى سنة ٦٠٦ هـ (١٢٠٩ م) ، وأن يقضى على الدولة الغورية شيئا فشيئا ، حتى أتى على رأسها سنة ٦١٢ هـ (١٢١٥م) بالاستيلاء على حاضرتها غزنة ، بل أرغم أتابكى فارس وأذربيجان على أن يستظلا بالراية الخوارزمية سنة ٦١٤ هـ (١٢١٧ م).

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ١٤٥ .

ووسط كل هذه المتاعب، كان الخوارزميون مرهوبى الجانب لدى طائفة الإسماعيلية، إذ انكمشوا فى قلاعهم جنوبى بحر قزوين.

وعلى هذا الأساس نكل علاء الدين خوارزم شاه بكل أعدائه المحيطين به، والذين استعان بهم الخليفة عليه ؛ ولم يجد الخليفة بعد ذلك من ينصره على عدوه الخوارزمى الذى عقد العزم على الاستيلاء على بغداد، وأخيرا هداه تفكيره إلى الاستعانة بعدو من نوع جديد يخالف كل تلك القوى التى رأيناها، عدو وثنى جاء من أقصى الشرق ليرتشف من دماء المسلمين فى أقصى الغرب، ولم يكن هذا العدو سوى جنكيزخان خاقان المغول. وهكذا نرى الخليفة بعد اجتماعات عدة عقدها فى بغداد — يقرر بحكمته أن جنكيزخان الذى ذاع صيته فى شرق آسيا وغربها، هو الرجل الوحيد الذى يستطيع أن يرد السلطان الثائر إلى صوابه، فلم يتردد فى أن يستعين به على عدوه الخوارزمى[١].

وقد أيد ابن الأثير هذه الرواية وهو فى معرض كلامه عن الغزو المغولى بقوله :

« وقيل فى سبب خروجهم (خروج المغول) إلى بلاد الإسلام غير ذلك مما »
« لا يذكر فى بطون الدفاتر، فكان ما كان مما لست أذكره، فظن خيراً ولا »
« تسأل عن الخبر »[٢].

والظاهر أن ابن الأثير، وهو من المعاصرين للغزو المغولى والخليفة الناصر، لم يجرؤ على المجاهرة باستدعاء الخليفة للمغول، ولم يقل ذلك فى صراحة ووضوح إلا عندما توفى الخليفة الناصر، فذكر هذه الحقيقة فى جلاء وجرأة وهو فى معرض كلامه عن شخصية الخليفة الناصر حين قال :

« وكان سبب ما ينسبه العجم إليه (إلى الخليفة الناصر) صحيحا من أنه هو الذى »
« أطمع التتر فى البلاد وراسلهم فى ذلك، فهو الطامة الكبرى التى يصغر »
« عندها كل ذنب عظيم »[٣].

وقد أيد أبو الفدا هذه الرواية أيضا[٤]، كما أيدها المقريزى بقوله :

« وفى خلافته (الناصر) خرب التتر بلاد المشرق حتى وصلوا إلى همذان، »

(١) Curtin: The Mongols' History, p. 99.

(٢) ابن الأثير : الكامل، ج ١٢ ص ٢٣٩.

(٣) المرجع نفسه، ج ١٢ ص ٢٠٢.

(٤) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر، ج ٣ ص ١٤٣.

لوحة ٤



مثال من الزخارف الكتابية ، على قطعة من النسيج الإيرانى ترجع إلى القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى)
ونص العبارة المكتوبة : « وفى القبر وحدتى وفى اللحد وحشتى »

(عن كتاب فنون الإسلام للدكتور زكى محمد حسن)

« وكان هو السبب فى ذلك ، فإنه كتب إليهم بالعبور إلى البلاد خوفا من »
« السلطان علاء الدين محمد بن خوارزم شاه ، لما هم بالاستيلاء على بغداد ، »
« وأن يجعلها دار ملكه كما كانت السلجوقية [1] » .

وقد جاءت هذه الرواية أيضا فى بطون كثير من الكتب الأوربية التى عالجت هذا الموضوع ، فأيدها كل من دوسون ، وهورث ، وبراون ، وكيرتن ، وميور ، وجرينار ، وهارولد لام ، على أن الأخير انفرد بذكر الحقيقة التالية ، وهى أن الخليفة عرض على جنكيزخان استعداده لمهاجمة الدولة الخوارزمية من الغرب ، إذا هو هاجمها من الشرق . وأما طريقة إرسال هذه الرسالة فهى من الطرافة بمكان ، إذ أنه لما كان لابد لرسول الخليفة من أن يمر فى البلاد الخوارزمية قبل أن يصل إلى حضرة جنكيزخان ، فقد كان على الخليفة أن يحتاط للأمر ، لذلك يقال إن هذه الرسالة وشمت على رأس الرسول بعد أن حلق شعر رأسه ، وبعد كتابتها ترك الشعر حتى نما ، وفضلا عن ذلك استظهر الرسول الرسالة ، ولما وصل إلى حضرة جنكيزخان رددها ، ولكى يبرهن على أن ما قاله صحيح أخبرهم بقصته ، فحلق رأسه ، وقرئت الرسالة على الحاضرين [2] .

ولا يسعنا إلا أن نصدق فكرة استدعاء الخليفة للمغول ، بعد أن علمنا أن سلطان الخليفة كان قاب قوسين أو أدنى من الزوال ، وأن الخليفة لم يجد طريقا يوصله إلى الحد من نفوذ الخوارزميين إلا سلكه ، فحاك حولهم سلسلة من الدسائس والفتن ، وألب عليهم أعداءهم من العناصر المحيطة بدولتهم ، وأثار كل ذلك متاعب جمة للخوارزميين ، ولولا انشغال علاء الدين خوارزم شاه بتلك المتاعب لاستطاع الخوارزميون حتما أن يسقطوا الخلافة العباسية ، ولكن تلك المشاكل الخارجية ، من حروب مع الخطا ومع الدولة الغورية فى الشرق ، ومع كل من أتابكى فارس وأذربيجان فضلا عن طائفة الإسماعيلية فى الغرب ، كل هذا أدى بلا شك إلى ضعف الدولة الخوارزمية وانحلالها . وإن موقف

---

(١) المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج ١ قسم ١ ص ٢١٨ .

(٢) Curtin: The Mongols' History, p. 99. & Lamb: Genghis Khan; The Emperor of All Men, p. 116.

ويبدو أن كلا من كيرتن وهارولد لام قد سار ، عند سرد هذه القصة ، على وتيرة أسطورة يونانية معروفة ، ولذا فإننا نشك فى صحتها ، وخاصة وأننا نفتقر إلى ما يؤيدها فى بطون المراجع العربية والتركية والفارسية والصينية التى اعتمدنا عليها .

الخلافة العباسية فى هذا الوقت وما يشوبه من ضعف ووهن ، واستنجادها بالعناصر السابقة يجعلنا لا نستبعد فكرة استنجادها بالمغول أيضا .

ثم إن فكرة استعانة الخلافة العباسية بالعناصر الخارجية لتثبيت أقدامها فى الدولة ، وتثبيت الخلفاء فوق عروشهم ، فكرة نهج عليها الخلفاء العباسيون فى ظروف كثيرة ، فقد استدعى الخلفاء بنى بويه ليخلصوهم من استبداد الأتراك ، واستنجدوا بطغرلبك السلجوقى على البساسيرى، بل استعانوا بالخوارزميين فى القضاء على سلاچقة العراق [١] . ففكرة الاستعانة بالمغول لم تكن بالفكرة الجديدة على خلفاء الدولة العباسية، رغم الاختلاف الدينى بين البويهيين والسلاچقة والخوارزميين المسلمين، وبين المغول الوثنيين . ولم يكن هذا الفارق مما يهم الخليفة الناصر كثيراً أو قليلا ، فقد استعان الخليفة الناصر نفسه بالخطا الوثنيين كما رأينا . لذلك لا يسعنا إلا أن نسلم بصحة فكرة استنجاد الخليفة الناصر بالمغول ، ولكن الذى يجب أن نعلمه ونؤكده أنه رغم وصول هذه الرسالة إلى المغول، فإنها لم تكن وحدها السبب فى غزو چنكيزخان للدولة الخوارزمية ، ففى الوقت الذى وصلت فيه رسالة الخليفة الناصر إلى المغول ، كان چنكيزخان قد توسع فى فتوحاته جهة الغرب حتى تاخمت بلاده حدود الدولة الخوارزمية ، واستطاع بعد ذلك أن يعقد معاهدة تجارية مع الخوارزميين ، ولذلك لم يعر چنكيزخان هذه الرسالة التفاتا [٢] .

وقد ذكر جرينار Grenard ، أن چنكيزخان رد على الخليفة الناصر رداً لطيفا ، معتذراً بوجود معاهدة صداقة بينه وبين علاء الدين خوارزم شاه [٣] على أنه إذا كان هناك ثمة أثر لهذه الرسالة ، فهو أنها نبهت أذهان چنكيزخان على الأقل ، إلى انحلال القوة الإسلامية وتفككها ، وانقسامها بعضها على بعض ، وصورت له ما كان عليه العالم الإسلامى من ضعف ، ولذلك لم يتردد چنكيزخان وخلفاؤه من بعده ، فى غزو الدولة الخوارزمية خاصة ، والبلاد الإسلامية عامة عند ما تغير مجرى الحوادث التاريخية .

---

(١) الدكتور حسن ابراهيم حسن : النظم الإسلامية ، ص ١٠٤ .

(٢) Curtin: The Mongols' History, p. 99.

(٣) Grenard: Gengis-Khan, p. 134.

ولنعد الآن إلى الحديث عن علاء الدين خوارزم شاه ، وقد رأينا أنه حاول أن يشغل بالطرق السلمية نفس المركز الذى كان يشغله السلاجقة فى بغداد ، ولـكن جهوده السلمية فى هذا السبيل ذهبت أدراج الرياح ، فإذا كان عـلاء الدين قد أفلح فى شىء ، فقد أفلح فى أن يوغر صدر الخليفة الناصر عليه وعلى دولته ، كما أفلح فى حمل الخليفة الناصر على تأليب العناصر المحيطة بالدولة الخوارزمية عليها .

ولما كان علاء الدين خوارزم شاه قد أخفق فى تحقيق أطماعه بالطرق السلمية ، فقد عمد إلى تحقيقها بطريق العنف ، فلم يتردد فى السير إلى بغـداد بعد أن أخضع العراق العجمى لسلطانه ، إذ أن هذا الإقليم كان قد ضاع من الخوارزميين ، بعد أن أوعز الخليفة العباسى إلى الإسماعيلية بقتل « أغلمش » نائب الخوارزميين هناك كما رأينا [١]. ولما كان علاء الدين قد عزم على إقامة خلافة علوية فى بغداد بدلا من الخلافة السنية القائمة ، فقد ظن العـلويون فى فارس — وكان عددهم كبيراً — أنهم سيصلون إلى الحكم [٢]، فساعد ذلك علاء الدين بلا شك على أن يجمع جيشاً كبيراً يحارب به الخليفة الناصر ، وسيره أولا إلى العراق العجمى ، لاستخلاص هذا الإقليم من أتابكى فارس وأذربيجان اللذين طمعا فيه ، بل استوليا على بعض المدن هناك بعد مقتل أغلمش [٣].

وبناء على دعوة الخليفة ، صمم كل من أتابكى فارس وأذربيجان على صد هجوم علاء الدين وقد أدى هذا الصراع إلى هزيمة الأتابك سعد صاحب أتابكية فارس ، بعد أن تفرق عنه أصحابه ، وأتى به أسيرا بين يدى علاء الدين خوارزم شاه الذى أمر بأن يظل فى محبس أمين ، مكبلا فى أغـــلاله ، حتى يرى فيه أمرا [٤]. وبعد أن اطمأن علاء الدين خوارزم شاه إلى طاعة الأتابك سعد ، الذى تعهد بأن يسلم إليه بعض بلاده ويخطب للخوارزميين على منابر أتابكية فارس بأسرها [٥]، وأن يبعث إلى الخوارزميين بثلث خراج هذه الأتابكية سنويا [٦]، بعد ذلك كله ، أطلق سراحه ، وسيره إلى بلاده

---

(١) النسوى : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى ، ص ١٣ .

(٢) D'ohsson : Histoire Des Mongols, tom. i. p. 190.

(٣) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ١٤٥ و ص ١٩٠ . النسوى ، ص ١٣ — ١٤ .

(٤) النسوى : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى ، ص ١٤ .

(٥) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ١٤٥ .

(٦) النسوى : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى ، ص ١٨ .

معززا مكرما ، محملا بالخلع والتشريفات ، كما حمله بزوجة من أهل بيت والدته تُركان خاتون (١). ولما وصل الأتابك سعد إلى حاضرة ملكه شيراز ، نشأ صراع طويل بينه وبين ابنه ، الذى كان قد استولى على مملكة أبيه فى غيبته ، وانتهى بأن سجن الابن واستعاد الأتابك سعد نفوذه هناك (٢). وظلت هذه البلاد تدين بالطاعة للخوارزميين حتى خضعت لحكم المغول فى عهد جنكيزخان (٣) .

ولم يكن الأتابك أوزبك بن البهلوان أتابك أذربيجان أحسن حالا من الأتابك سعد ، فقد هزم شر هزيمة وعاد إلى بلاده هاربا ، بعد أن فقد جيشه بأكمله بين أسر وتشريد . وقد أرسل علاء الدين خوارزم شاه يطلب منه أن يقيم الخطبة له على منابر بلاده ، وأن ينقش اسمه على السكة ويبعث إليه بإتاوة سنوية معينة . وقد أجابه أوزبك إلى المطلبين الأولين وسط أفراح أقامها ببلاده أذربيجان وأرّان ، واعتذر عن إجابة المطلب الثالث لضيق ذات اليد من جهة ، وبسبب استيلاء العناصر المتاخمة لبلاده فى الشمال على بعض أملاكه من جهة أخرى ، فقبل الخوارزميون عذره (٤) . وهكذا وصل نفوذ الخوارزميين إلى هذه البلاد النائية فى الشمال .

وبعد أن تخلص علاء الدين من متاعبه فى هذه البلاد النائية ، جمع قواته لتحقيق هدفه الأول وهو الاستيلاء على بغداد . وسار فى سنة ٦١٤ هـ (١٢١٧ م) ، من بلد إلى آخر ، وعلى مقربة من مدينة همذان ، تقابل مع الشيخ شهاب الدين السُّهروردى الذى جاء من قبل الخليفة الناصر العباسى ليكون رسول سلام بين الفريقين . ولما دخل الشيخ السُّهروردى على علاء الدين خوارزم شاه لم يحترمه ، بل أوقفه فى حضرته دون أن يأذن له بالجلوس . وقد وصف السُّهروردى مقابلته لعلاء الدين بقوله (٥) :

« استدعانى فأتيت إلى خيمة عظيمة لها دهليز لم أر فى الدنيا مثله .... ، وفى »
« الدهليز ملوك العجم على اختلاف طبقاتهم : صاحب همذان وأصبهان والرى ،

---

(١) النسوى : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى ، ص ١٨ . ويلاحظ أن « خاتون » لفظ تركى معناه زوجة .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ١٤٦ — ١٤٧ .

(٣) Malcolm: The History of Persia, vol. i. p. 235.

(٤) النسوى : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى ، ص ١٦ — ١٧ .

(٥) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، ج ٦ ص ٢١٩ — ٢٢٠ .

« وغيرهم ، فدخلنا إلى خيمة أخرى . . . . وفى دهليزها ملوك خراسان : مرو ، « ونيسابور وبلخ وغيرهم . ثم دخلنا خيمة أخرى وملوك ما وراء النهر فى « دهليزها ، كذلك ثلاث خيام » . ثم استطرد شهاب الدين فى وصف علاء الدين « فقال : هو صبى له شعرات ، قاعد على تخت ساذج وعليه قباء بخارى يساوى « خمسة دراهم ، وعلى رأسه قطعة من جلد تساوى درهما ، فسلمت عليه فلم يرد « ولا أمرنى بالجلوس . فشرعت فخطبت خطبة بليغة ذكرت فيها فضل بنى العباس « ووصفت الخليفة بالزهد والورع والتقى والدين ، والترجمان يعيد عليه قولى ، « فلما فرغت قال للترجمان : قل له هذا الذى وصفته ماهو فى بغداد؟ قلت : نعم « قال : أنا أجىء وأقيم خليفة يكون بهذه الأوصاف ، ثم ردنا بغير جواب . »

ومهما يكن من شىء فقد عاد السهروردى من سفارته دون أن يفوز بالنتيجة التى كان يرجوها . ولما فقد الخليفة كل أمل فى السلام ، حول حاضرة بلاده إلى منطقة حربية استعداداً للدفاع ، بينما ركز علاء الدين نفوذه وسلطانه فى مدينة همذان ، ثم سار منها إلى حلوان وهناك أخذ يعمل على زيادة عدد جيوشه .

ولما كانت الجيوش الخوارزمية تتقدم فى شهر الخريف ، فقد هبت عليها العواصف الثلجية على مسيرة يومين من مدينة همذان ، بينما كانت تعبر إحدى المناطق الجبلية فى العراق العجمى ، وكان من أثر هبوب هذه العواصف ، أن أهلك البرد كثيرا من الرجال والدواب ، وأما من بقى من الخوارزميين فقد تخطفتهم قبائل الأتراك والأكراد فى هذه البقاع . وهكذا قدر للجيش الخوارزمى أن يباد وألا يعود منه إلى خوارزم إلا قلة قليلة من الرجال[1] ، ولاسيما أن هذه الريح الباردة والعواصف الثلجية ، استمرت هاء عشرين يوما[2] . وقد وصف « الشاشى القفال » الشاعر هذه الريح العاتية بقوله :

نثر السحاب من السماء دراهما ... وكسا الجبال من الحواصل ملبسا
والريح باردة الهبوب كأنها ... أنفاس من عشق الحسان وأفلسا[3]

وقال النسوى فى هذه المناسبة :

(١) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ١٤٦ . D'ohsson : Histoire Des Mongols, tom. i. p. 193.

(٢) السيوطى ، تاريخ الخلفاء ، ص ٢٩٨ .

(٣) النسوى : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى ، ص ٢٠ .

« فعظم إذ ذاك البلاء ، وأعضل الداء ، وصارت الأرض كأنها ببياضها »
« سوداء ، وشمل الهلاك خلقا كثيراً من الرجال »[١] .

وكانت هذه الكوارث التى نزلت بالخوارزميين عامة ، وبعلاء الدين خوارزم شاه خاصة ، سبباً فى الاعتقاد بأن ما حدث لم يكن إلا غضباً من الله سلطه على علاء الدين لمحاولته إزالة بيت بنى العباس ، الذى يؤيده الله بملائكة سمائه ضد من يناصبه العداء[٢]. وقد قال له بعض خواصه : « إن ذلك غضب من الله حيث قصدت بيت الخلافة »[٣].

ومهما يكن من تلك الكوارث التى حلت بالجيوش الخوارزمية فى ذلك الوقت فقد وجد علاء الدين خوارزم شاه نفسه مضطراً إلى العودة بمن بقى من رجاله إلى خراسان، استعداداً لمواجهة الخطر المغولى، إذ أن جنكيزخان كان ينتظر الفرصة الملائمة للانقضاض على الدولة الخوارزمية وإبادتها ، فإن الحوادث التاريخية فى هذه الأثناء كانت قد بدلت علاقة الصداقة بين المغول والخوارزميين إلى علاقة عداء سلبى، تطور فيما بعد إلى هجوم حربى خاطف على البلاد الإسلامية . وهكذا ابتعد خطر التخريب عن بغداد إلى حين .

٣ — علاقة الدولة الخوارزمية بدولة الخطا[٤]

(١) علاقة الدولة الخورازمية بالخطا حتى نهاية أتسز خوارزم شاه .
٥١٩ — ٥٥١ هـ (١١٢٥ — ١١٥٦م)

* * *

قسمنا تاريخ العلاقات بين الخوارزميين وبين دولة الخطا إلى دورين: الدور الأول من سنة ٥١٩ إلى ٥٥١ هـ (١١٢٥ — ١١٥٦م) أى منذ ظهور قبائل الخطا وتأسيس دولتهم فى إقليم التركستان، وتنصيب زعيمهم إمبراطورا على ما اغتصبه من البلاد هناك، حتى وفاة أتسز خوارزم شاه . وتمتاز هذه الفترة من تاريخ العلاقات بين الفريقين بطابع

(١) النسوى : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى ، ص ٢٠ .
(٢) المرجع نفسه ، ص ٣١ .
(٣) السيوطى : تاريخ الخلفاء ، ص ٢٩٨ .
(٤) « الخِطا » بكسر الخاء وفتح الطاء . القلقشندى : صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ، ج ٤ ص ٤٨٣ . انظر أيضا الحاشية ٢ ص ٤٨ .

خاص من ناحية الدولة الخوارزميه نفسها، إذ كانت هذه الدولة فى بداية تكوينها ولم تكن قد تخلصت بعد من النير السلجوقى ، ولذلك نرى أن الدولة السلجوقية فى هذه الفترة تلعب دورا كبيرا فى العلاقات بين الفريقين ، كما نجد أن الدولة الخوارزمية الناشئة تستعين بالخطا على السلاجقة . ويفضل سلاطين الخوارزميين التحالف مع أعدائهم فى الدين — ذلك التحالف الذى كان يقوم على نوع من التبعية — على الاعتراف بالتبعية للسلاجقة ، أسيادهم بالأمس القريب .

والدور الثانى من تاريخ العلاقات بين الخوارزميين والخطا ، يبدأ منذ وفاة السلطان أتسز خوارزم شاه كما قلنا ، وينتهى سنة ٦١٥ هـ (١٢١٨م) أى بانتهاء دولة الخطا على يد المغول . وتمتاز هذه الفترة من تاريخ العلاقات بين الدولتين ، بخلوها من السياسة السلجوقية ؛ إذ أن القوة السلجوقية فى بلاد المشرق ، كانت قد زالت تماما بوفاة السلطان سنجر فى السنة التالية لوفاة السلطان أتسز خوارزم شاه ، وأصبح الخوارزميون والخطا وجها لوجه . وبعد أن كان الخطا يتدخلون فى الدور الأول فى الصراع القائم بين الخوارزميين والسلاجقة ، أصبحوا فى هذا الدور يتدخلون فى الصراع الداخلى الذى قام بين الحكام والأمراء من الخوارزميين وأخر ذلك من تبعية الخوارزميين للخطا ، إلى أن قدر لهذه التبعية أن تزول فى عهد علاء الدين محمد خوارزم شاه . وقد انتهى هذا الدور بانتهاء دولة الخطا نفسها على يد المغول فى هجومهم العام على غرب آسيا .

***

يرجع الأصل فى هجرة القبائل والشعوب المعروفة فى التاريخ وانتقالها من مكان إلى آخر ، إلى عوامل كثيرة متعددة . فقد تحدث الهجرة بسبب جدب وقحط يصيب الموطن الذى تسكنه هذه القبائل ، فتهاجر إلى مكان أكثر خصبا وأوفر ثروة . وقد يزدحم إقليم بساكنيه فلا يعود يقوى على احتمال هذا العدد الكبير من سكانه . فيضطرون إلى البحث عن مكان آخر يطيب لهم المقام فيه ؛ وقد تكون العوامل السياسية فى إقليم ما سببا فى هجرة بعض القبائل من مكان إلى آخر ، كأن يغتصب مغتصب أملاك دولة أخرى فيضطر قادة الدولة المهزومة — وقد ضاق أمامهم سبيل العيش فى بلدهم الأصلى — إلى البحث عن مكان أكثر أمنا وطمأنينة ، ويتبع هؤلاء القادة طبعا أنصارهم المخلصون. ولا بد أن يتوافر فى الإقليم الذى ينزح إليه هؤلاء مايجذبهم إليه ويشجعهم على الإقامة

فيه ، كأن يكون هذا الإقليم على شيء كبير من الثروة ووفرة العيش ، أو يكون ذا تاريخ وحضارة تبهر أبصار المهاجرين فيلذ لهم المقام فيه .

كانت الحالة السياسية في شرق آسيا في النصف الأول من القرن السادس الهجرى ، (الثانى عشر الميلادى) من الاضطراب بمكان ، مما أدى إلى هجرة قبائل الخطا من موطنهم الأصلى فى شمال بلاد الصين إلى أن هبطوا على غرب إقليم التركستان . فقد تداول حكم البلاد الصينية عدة أسرات متعاقبة ، ترتفع الواحدة على أكتاف سابقتها بعد ضعفها ، وبعد انقضاء فترة من فترات الانحلال . ومن أمثلة هذه الفترات ما حدث فى تاريخ هذه البلاد بين سنتى ٢٩٥ و ٣٤٩ هـ (٩٠٧ و ٩٦٠ م) فقد كانت فترة أشبه ما تكون بالعصر الإقطاعى فى أوربا فى العصور الوسطى ، ثم توحدت هذه الدولة على يد إحدى الأسرات القوية وهى أسرة « سونج » Sung (٣٤٩ — ٥٢١ هـ = ٩٦٠ — ١١٢٧ م) . وكانت تجاورها فى الشمال قبائل الخطا فى جنوب منشوريا فى الإقليم المعروف باسم إقليم « لياو Liao » . وكان هؤلاء الخطا من القوة بحيث استطاعوا أن يفرضوا على أسرة سونج جزية سنوية ، واضطر قادة هذه الدولة إلى دفعها دفعاً لشرهم[1] وفضلا عن ذلك كانت هذه الأسرة التى تسمت باسم « أسرة لياو » نسبة إلى الإقليم الذى يعيش فيه الخطا ، تسيطر بنفوذها على شمالى بلاد الصين[2] . وقد حدث لهذه الأسرة ما حدث لكل شعب محارب بطبيعته ينغمس فى تيارات المدنية وما فيها من مفاسد ، إذ بهرت المدنية والحضارة الصينية هؤلاء البدائيين فأفقدتهم روحهم الحربية ، فاعتورهم ضعف تدريجى وكان من أثر هذا الضعف أن ظهر عليهم عدو كان بالأمس القريب تابعا لهم ، وهم جماعة « كين » Kin الذين كانوا يسكنون أحد أقاليم منشوريا ، فحارب هؤلاء أسيادهم الخطا ، الذين لم يستطيعوا مقاومتهم ، وأدى هذا فى النهاية إلى انهيار دولة الخطا سنة ٥١٩ هـ (١١٢٥ م) .

---

(١) Fitzgerald : China, A Short Cultural History, pp. 373 — 380.

(٢) ورد اسم قبائل الخطا فى المراجع الصينية منذ القرن الرابع الميلادى أى قبل ظهور الإسلام بزمن طويل ، وهم خليط من المغول والتانجوت . وقد حدث فى بداية القرن الرابع الهجرى « العاشر الميلادى » أن ظهر بين هذه القبائل زعيم قوى أخضع هذه القبائل لسلطته ونصب نفسه إمبراطوراً عليها من سنة ٣٠٤ إلى ٣١٥ هـ (٩١٦ — ٩٢٧ م) وسمى نفسه تاى تسو T'ai tsu ، واستطاع خلفه أن يخضع شمال بلاد الصين ، ثم منح أسرته لقب لياو نسبة إلى الإقليم المسمى بهذا الاسم ، واستمرت هذه الأسرة حوالى مائتى عام (٣٠٤ — ٥١٩ هـ = ٩١٦ — ١١٢٥ م) . Bretschneider : Mediæval Researches From Eastern Asiatic Sources, vol. i. pp. 208—9.

بلاد الصين في أوائل القرن السادس الهجري
(الثاني عشر الميلادي)



خريطة ٢

وقد قبلت أسرة سونج الخضوع لأسرة كين فسمحت لأتباعها بالسكنى داخل سور الصين العظيم، بل دفعت لهم من الضرائب ما كانت تدفعه للخطا من قبلهم (١). على أنه قبيل سقوط دولة الخطا من أقصى الشرق، فر أحد أمرائها وهو «يى لوتاشى» Ye-lu-ta-shi نحو الغرب (٢)، باحثا عن ملجأ جديد؛ فسار هـــذا الرجل بين عامى ٥١٦ و ٥١٧ هـ (١١٢٢ و ١١٢٣ م) يصحبه نحو مائتين من رجاله المخلصين إلى الأراضى الواقعة فى الشمال الغربى من إقليم «شن سى» Schen-Si، حيث كانت تقيم بعض القبائل التركية التى كانت تضمهم إمبراطورية الخطا فى أيام سطوتها. وقد وجد «يى لوتاشى» من رعايا دولته القدامى كل ترحيب بمقدمه، فساعدوه على تكوين جيش كبير استطاع أن يسير به إلى إقليم التركستان (٣).

وإذا نظرنا إلى خريطة بلاد الصين فى أوائل القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) (٤)، نجدها توضح الحالة السياسية فى بلاد الصين عندما انهارت دولة الخطا وحلت محلها أسرة كين، فى الأقاليم الشمالية من هذه البلاد التى كان يحتلها الخطا من قبل. كذلك يتبين إقليم «لياو» Liao، وهو الموطن الأصلى لقبائل الخطا، والذى تسمت هذه الأسرة باسمه، كما يتضح لنا الأقاليم التى كانت تحتلها أسرة سونج التى كانت فى فترة من فترات الانحلال. وليس أدل على انحلالها من أنها سمحت للخطا أولا، ولقبائل كين ثانيا، بالسكنى جنوبى سور الصين.

كان إقليم التركستان الذى هاجر إليه الخطا إقليما ضعيفا، ظل حقبة من الزمن عرضة لهجمات بربرية من جانب القبائل البدوية الهمجية فى الشمال وفى الجنوب، بل استطاعت هذه القبائل أن تخضع لسلطانها أكبر مدن هذا الإقليم، ومن بينها كاشغر وخوتان (٥). وعلى هذا الأساس نجد سكان هذا الإقليم فى حالة اضطراب سياسى

---

(١) Fitzgerald : China, A Short Cultural History, pp. 386 – 7

(٢) Bretschneider : Mediæval Researches From Eastern Asiatic Sources, vol. i. p. 209

نقلا عن المصدر الصينى المعروف باسم «لياو شى» Liao Shi.

(٣) D'ohsson : Histoire Des Mongols, tom. i. p. 163.

(٤) الخريطة رقم «٢» ص ٤٩.

(٥) تراجع خريطة «الدولة الخوارزمية فى أقصى اتساعها».

كبير ، وفوضى إجتماعية أودت بحياة هذا الجزء من القارة الأسيوية . وكانت هذه الظروف خير عون لهذا الطريد الآتى من أقصى الشرق ، إذ أن خانات التركستان استدعوه لبلادهم مستنصرين به على أعدائهم ، فسار إلى هناك ، واستطاع بسرعة فائقة أن يستولى على عاصمتهم المسماه « بلاساغون » شمالى مدينة كاشغر ، ثم استطاع أن يضم إلى حوزته مدينتى كاشغر وخوتان ، كما نجح فى أن يرد عن هذه البلاد عادية المغيرين من رجال القبائل التركية (١) . وقد تمكن « يى لوتا شى » تدريجيا من أن يحل نفوذه محل نفوذ أصحاب البلاد الأصليين ، وأن يوسع مملكته الجديدة شرقا وغربا حتى وصلت حدودها من صحراء جوبى إلى نهر سيحون ، ومن هضبة التبت إلى سيبيريا . وأخيرا اجتمع قواد الخطا ونصبوا هذا الغاصب إمبراطورا على مابيده من البلاد ، فاختار هذا الرجل لنفسه من بين الألقاب المعروفة فى ذلك الوقت ، لقب « غورخان » أى ملك الملوك (٢) ، كما اتخذ من الديانة البوذية ديانة رسمية لدولته (٣) ؛ على أن هذه البلاد كانت باستمرار عرضة لتأثير الديانة البوذية ، لمتاخمة هذه البلاد لبلاد الهند . وعلى الرغم من ذلك فقد وجدت الديانة المسيحية لنفسها مجالا للانتشار هناك بفضل مجهودات المبشرين ، فانتشرت إلى حد ما بين السكان (٤) .

وكان تأسيس هذه الدولة ومتاخمتها لأملاك المسلمين ، من الأمور التى شغلت أذهان القوى الإسلامية فى ذلك الوقت ، لأن وجود هؤلاء قد أثار كثيرا من المتاعب للمسلمين فى الدولة السلجوقية ، والدولة الخوارزمية الناشئة . ولا غرو فقد كان لامتداد دولة الخطا ومتاخمتها للبلاد الإسلامية ، أكبر الأثر فى اتجاه أنظار المسئولين فى هذه الدولة الحديثة العهد، إلى محاولة توسيع سلطانهم على حساب القوى الإسلامية . وليس أدل على أن سياسة الخطا كانت تتجه إلى هذه الناحية ، من أن « يى لوتاشى » نفسه ،

---

(١) Howorth : History of the Mongols, part. i. p . 6.

(٢) Skrine & Ross : The Heart of Asia, p. 137.

(٣) D'ohsson : Histoire Des Mongols, tom i. p. 165.

(٤) أضاف المغول لفظ « قرة » Kara إلى اسم الخطا فأصبحوا يسمون Kara Khitai ؛ ولفظ « قرة » لفظ مغولى أو تركى معناه أسود . أما سبب اطلاق المغول لون السواد عليهم فغير معروف ، ولعل ذلك يرجع إلى عداوتهم وكراهيتهم لهم .
Bretschneider: Mediæval Researches From Eastern Asiatic Sources, Vol.i p.210. نقلا عن المصدر الصينى المعروف باسم « لياو شى » Liao Shi.

إنتقل من «بلاساغون» حاضرته القديمة ، إلى حاضرة تكون أقرب إلى البلاد الإسلامية ، ومن ثم وقع اختياره على مدينة كاشغر (١) .

وقد وافق قيام دولة الخطا عصر تدهور وانحلال فى القوة الإسلامية ، وذلك بعد وفاة ملكشاه السلجوقى ، إذ ساد الانقسام والتنازع بين أفراد الأسرة السلجوقية ، وتبع ذلك انقسام سياسى فى أقاليم الدولة فتناثرت أجزاؤها واختص كل فريق بنصيب ، وكان للسلطان سنجر بن ملكشاه أكبر نصيب وأوفره ، إذ سيطر على القسم الشرقى من الإمبراطورية السلجوقية . وقد اجتمعت القوى المختلفة التى أوجدتها الظروف فى هذا المسرح التاريخى على إضعاف هذه القوة السلجوقية فى بلاد المشرق ، ومن بين هذه القوى ، الدولة الخوارزمية الناشئة .

وقد ساعد على هذا الصراع الذى قام بين هذه القوى الإسلامية ، إستفحال شأن جماعة الخطا الذين بدأوا يكونون دولة لأنفسهم ، فى الوقت الذى كانت فيه الدولة الخوارزمية لا تزال فى مهدها ؛ ففى أواخر عهد قطب الدين محمد خوارزم شاه وسع «يى لوتا شى» أملاكه فى بعض بلاد ما وراء النهر ، ولذا خشى الخوارزميون توسع الخطا هناك ، حتى لا توجه الضربة التالية إليهم ، فسار قطب الدين محمد فى مائة ألف رجل ، ظنا منه أنه يستطيع بذلك أن يقضى على الخطا دفعة واحدة ، ولكن الهزيمة لم تلبث أن حلت به ، واضطر أن يدفع لهم جزية سنوية (٢) .

كان النزاع على أشده طيلة عهد السلطان سنجر السلجوقى والسلطان أتسز خوارزم شاه ، إذ كان الأول يعمل جهده للمحافظة على ما ورثه من أملاك ، وكان الثانى يسعى ليقوى نفسه ويكسب له ولدولته ما يستطيع كسبه من أملاك السلاجقة . وبسبب هاتين السياستين المتعارضتين ، نشأ الصراع بين الطرفين . والمهم فى هذا النزاع أن أتسز خوارزم شاه لما لم يجد فى نفسه القدرة على مقاومة عدوه السلجوقى منفردا ، لم يجد بدا من الاستعانة عليه بعدو قوى الشكيمة وهو قبائل الخطا . لذلك لا نعجب إذا رأينا أتسز خوارزم شاه يحرضهم على الاستيلاء على كل بلاد ما وراء النهر ، ويطمعهم فى محاربة السلطان سنجر ، ويهون عليهم الأمر ، حتى إذا ما قبل الخطا ، إندفعوا فى سنة

---

(١) Skrine & Ross : The Heart of Asia, p. 138.

(٢) Ibid, pp. 137 — 8.

٥٣٦ هـ (١١٤١م) ، وهي السنة التي توفى فيها « يى لوتا شى »[1] إلى بلاد ماوراء النهر ، فى ثلاثمائة ألف فارس واستطاعوا أن يوقعوا بالسلطان سنجر وجنوده هزيمة منكرة لم يرها سلطان سلجوقى من قبل ، إذ بلغ عدد القتلى مائة ألف فارس ولحق العار بالسلطان السلجوقى حين أسرت زوجته[2]. على أن هذه الهزيمة التي حلت بالسلطان سنجر ، كان لها أكبر الأثر فى سياسة كل من الخوارزميين والسلاجقة والخطا فى السنوات التالية ؛ فقد تمكن الخطا من أن يسيطروا على كل بلاد ماوراء النهر[3]، بحيث لم يعد للمسلمين فى هذه الأقاليم أى نفوذ زهاء نصف قرن ، بل نجد أن هذه القوة قد أصبحت بسيطرتها على بلاد ماوراء النهر ، تثير مخاوف الخوارزميين والسلاجقة معا . كما أن هذه الهزيمة التي لحقت بالسلطان سنجر على يد الخطا، كان لها أكبر الأثر فى إضعاف هيبة السلاجقة ونفوذهم فى فارس وخراسان ، مما ساعد على تقوية نفوذ الخوارزميين هناك . ولا يفوتنا أن نذكر أن تلك الهزيمة التي يرجع السبب فيها إلى أتسز لم تحسم النزاع بين السلاجقة والخوارزميين، بل على العكس أدت إلى إطالة النزاع بين الطرفين ، ذلك النزاع الذى لم ينته إلا بانتهاء حياة كل من أتسز وسنجر ، رغم ماكان يسود هذا النزاع من فترات تهادن فيها الطرفان.

وقد نهج الخطا الوثنيون فى حكم بلاد ما وراء النهر ، حيث يدين السكان بالدين الإسلامى ، على سياسة استطاعوا بها الى حد ما أن يكسبوا الأهالى إلى جانبهم ، فاستمالوا كبار رجال الدين فى البلاد الإسلامية واستعانوا بهم فى حكم هذه البلاد ، مستغلين ما لهؤلاء من نفوذ دينى فى بلادهم ؛ ومن أقرب الأمثلة على ذلك ، أحمد بن عبد العزيز إمام مدينة بخارى ، إذ لما كانت له الكلمة النافذة فى عصره ، نصبه الخطا إماما لهذه المدينة وحاكما عليها ، فاستطاعوا بفضل ماكان يتمتع به هذا الرجل من احترام بين الأهلين بسبب علمه وتقواه ، أن تكون لهم الكلمة المسموعة فى هذه البلاد[4] .

ولما كانت أملاك الخوارزميين تجاور أملاك الخطا ، فقد طمع هؤلاء فى امتلاك

---

(١) يلاحظ أن « يى لوتاشى » إمبراطور الخطا توفى سنة ٥٣٦ هـ (١١٤١م) دون أن يترك خلفا ذكرا ، نورث دولته أميرتان هما شقيقته وابنته .Skrine & Ross : The Heart of Asia, p. 139 .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ٣٧ . ويظهر أن عدد القتلى الذى ذكره ابن الأثير مبالغ فيه إلى حد كبير .

(٣) Nidhami-i-Arudi-i-Samarquandi : The Chahàr Maqala, p. 38.

(٤) Ibid , p. 39.

الأراضى الخوارزمية غربى نهر جيحون ، إذ بعد هزيمة سنجر وسيطرة الخطا على بلاد ماوراء النهر، نجد هؤلاء يندفعون فى سنة ٥٣٧ هـ (١١٤٢ م) إلى الأقاليم الخوارزمية غربى نهر جيحون ، ويستولون على بعض البلاد هنـــاك ، منها سرخس ومرو ونيسابور ، ولـكن يظهر أنهم أدركوا خطر هذا التوسع فعادوا أدراجهم من حيث أتوا ، مكتفين بأن يكون نهر جيحون الحد الفاصل بينهم وبين الخوارزميين[١] .

ويظهر أن الخطا لم يعودوا إلى بلادهم إلا بعـــد أن خضع أتسز واعترف لهم بتبعيته ، وبعد أن تعهد بدفع ضريبة كبيرة[٢]، بل إنهم لم يرحلوا إلى بلادهم إلا بعد أن أعطاهم الـكثير من منتجات البلاد الخوارزمية[٣] ، ووعدهم بالمزيد .

مات أتسز خوارزم شاه كما قلنا سنة ٥٥١ هـ (١١٥٦م) ، ولحق به سنجر بن ملـكشاه فى السنة التالية ، وانتهى هذا الصراع الطويل بين الخوارزميين والسلاجقة لسبب واحد ، هو وفاة السلطان سنجر آخر شخصية سلجوقية قوية فى هذه البلاد . وباختفاء هاتين الشخصيتين الخوارزمية والسلجوقية ، يبدأ عصر جديد فى العلاقات بين الخطا والدولة الخوارزمية ، واجهت فيه كل من هاتين القوتين القوة الأخرى وجهاً لوجه ، دون تدخل من القوة الثالثة وهى قوة السلاجقة ، كما حدث فى عصر السلطان سنجر .

وهنا ننتقل إلى الدور الثانى من تاريخ العلاقات بين الخطا والخوارزميين الذى انتهى بظهور چنكيز خان .

(ب) علاقة الدولة الخوارزمية بالخطا منذ وفاة أتسز حتى ظهور چنكيز خان
(٥٥١ — ٦١٥ هـ (١١٥٦ — ١٢١٨ م)

تمتاز هذه الفترة كما ذكرنا بطابع جديد يختلف عن ذلك الذى عهدناه فى الفترة السابقة من تاريخ العلاقات بين الدولة الخوارزمية والخطا ، إذ زالت الدولة السلجوقيه

(١) Skr e & Ross : The Heart of Asia, p. 139.

(٢) Bretschneider : Mediæval Researches From Eastern Asiatic Sources, vol. i. p. 229.
نقلا عن كتاب جهان كشاى Djihan Kashai لمؤلفه علاء الدين الجوينى .

(٣) Ibid, vol. i. p. 215.
نقلا عن المرجع الصينى المعروف باسم لياو شى Liao Shi .

من بلاد فارس كما قلنا ، بعد موت السلطان سنجر سنة ٥٥٢ هـ (١١٥٧م)، أى فى السنة التالية لوفاة أتسز خوارزم شاه . وقد ورثت الدولة الخوارزمية ما كان للدولة السلجوقية من ممتلكات فى فارس وخراسان ، ولذلك لا نعجب إذا اعتبر المؤرخون أن أيل أرسلان بن أتسز (٥٥١ - ٥٦٨ هـ = ١١٥٦ - ١١٧٢ م) أول سلاطين الدولة الخوارزمية المستقلين (١) . وفى هذه الفترة لا نجد ذلك الأثر الهام الذى كان يحدثه السلاجقة فى تاريخ العلاقات بين الخطا والخوارزميين .

قضى أيل أرسلان بن أتسز السنوات الأولى من حكمه ، فى تثبيت ملكه والقضاء على البقية الباقية من السلاجقة فى فارس وخراسان ، وقد نجح فعلا فى إقامة الخطبة له فى بعض البلاد الخراسانية ، التى كانت لا تزال على ولائها للسلاجقة (٢) .

والظاهر أن الخطا لم يكونوا راضين عن ترك الخوارزميين يقوون أنفسهم ، ويشدون من ساعد دولتهم ، حتى لا تكون النتيجة أن توجه هذه القوة إليهم بعد ذلك ؛ لهذا لا نعجب إذا بادر الخطا الخوارزميين بالعدوان ، فعبروا نهر جيحون سنة ٥٦٧ هـ (١١٧١ م) قاصدين خوارزم ؛ وإذ علم أيل أرسلان بهذا الهجوم ، سارع إليهم بجيش كبير . وقد مرض السلطان الخوارزمى وهو بمعسكره بمدينة «أموية» إحدى المدن الواقعة على نهر جيحون ، ولكن المرض لم يثنه عن الدفاع عن بلاده رغم أن الإخفاق كان حليفه فى النهاية . عاد السلطان المنهزم المريض إلى بلاده كسيراً ، وتوفى سنة ٥٦٨ هـ (١١٧٢م) حزناً على هزيمته (٣)؛ ثم عاد الخطا إلى بلاد ما وراء النهر ، مكتفين بما أحدثوه فى نفوس الخوارزميين من ذعر .

ولما مات أيل أرسلان كما قلنا ، إغتصب ابنه الأصغر «سلطانشاه محمود» عرش الخوارزميين بمساعدة أمه ومعونة بعض الموالين من الجنود الخوارزمية ؛ كما كان من حسن حظ هذا الإبن الصغير ، أن كان أخوه الأكبر صاحب الحق الشرعى فى العرش وهو «علاء الدين تكش» بعيداً عن خوارزم فى «مدينة «جَند» إحدى مدن بلاد ماوراء النهر ، وكانت بأيدى الخوارزميين ، إذ أن تكش كان قد تولى حكم هذه المدينة بتفويض من أبيه (٤) . وإذا نظرنا إلى موقع هذه المدينة ، يتبين لنا أنها كانت تتاخم أملاك الخطا ،

---

(١) Skrine & Ross : The Heart of Asia, p. 140.

(٢) ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ص ١٣٠ — ١٣١ .

(٣) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ، ص ٣٧٤ .

(٤) ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ص ١٦٨ .

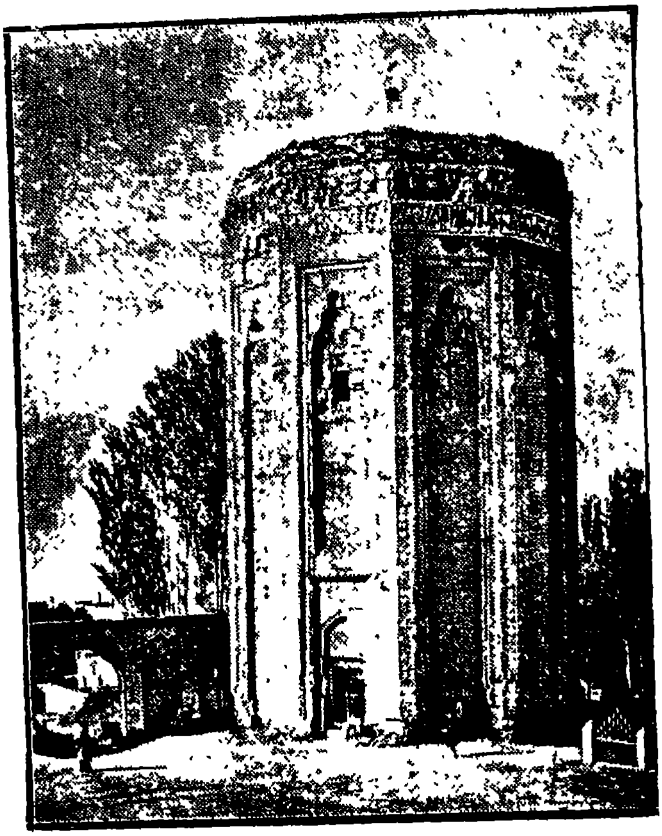
وربما عيَّن أيل أرسلان ابنه الراشد عليها ليكون عينا له على الخطا ، وليستطيع الوقوف على خطواتهم وأطماعهم فى الدولة الخوارزمية .

ولم يرض الإبن الأكبر علاء الدين تكش طبعاً عن تولى أخيه الأصغر عرش الخوارزميين ، فلما أعيته الحيلة ، لم يجد وسيلة لانتزاع هذا العرش من أخيه المغتصب سوى الاستعانة عليه بالخطا ، ففر إليهم وهو فى مدينة «جَند» القريبة منهم كما قلنا ، مستنجدا بهم على أخيه الغاصب ، وزيَّن لهم ما سيجنونه من مال ومتاع إذا تم لهم الانتصار ، وتعهد لهم بأن يكون مخلصاً ونصيرا ، إذا مكنوه من عرش الخوارزميين ، كما تعهد أن يمدهم بما يطلبونه من ذهب وفضة .

أمام كل هذه العروض السخية ، وأمام أطماع الخطا فى التوسع ، سير هؤلاء جيشاً إلى خوارزم ، يقوده قائد من قوادهم يدعى « كرما » K.rama وصحب تكش هذا الجيش ، إذ كان أعرف بمسالك بلاده . وقد استطاع تكش بمساعدة هذا الجيش أن يوقع الهزيمة بأخيه فى النهاية وأن يتبوأ عرش آبائه ، ثم انتقم تكش من أم أخيه — وكانت قد ساعدت هذا الإبن الصغير على اعتلاء عرش الخوارزميين — فقتلها . أما الأخ الصغير الذى حلت به الهزيمة ، فقد هام على وجهه بين البلاد المختلفة مستعيناً بحكامها على أخيه ، منتهزا الفرصة السانحة التى تمكنه من أن يثأر لنفسه ويعتلى العرش من جديد . وقد أتيحت له فرصة ظنها موائية ، وذلك حينما بعث الخطا برسلهم إلى علاء الدين تكش خوارزم شاه يطالبون بتنفيذ ما وعدهم به ، من خضوع تام لسيطرته ، ومال وفير يبعث به إليهم ؛ وكان تكش بعد أن تولى العرش قد نسى تماماً — أو تناسى — ما وعد به الخطا ، وعزّ عليه أن يخضع لأعدائه ، كما عزّ عليه أن يبعث إليهم بخلاصة ما تنتجه بلاده ، فقتل رسلهم شر قتلة بأن أعطى كل رسول لخوارزمى ليقتله ويمثل به . فلما عاد الخطا بأخبار هذه المجزرة البشرية ، غضبوا وثاروا ، وأقسموا أن يضحوا بكل عزيز لديهم فى سبيل الانتقام .

وانتهز سلطانشاه هذه الفرصة وسارع إليهم ، واستطاع أن يزين لهم طريق النصر على أخيه تكش ، كما استطاع أن يقنعهم بحب الخوارزميين له وكراهيتهم لأخيه ، وأكد لهم أن النصر سيكون حليفه وحليفهم إن هم سيروا معه جيشاً يشدون به أزره ، وسار

لوحة ٥



قبر مؤمنة خاتون في نخجوان شمال غرب إيران مؤرخ سنة ٥٨٢ ﻫ (١١٨٦م)

(عن كتاب فنون الإسلام للدكتور زكي محمد حسن)

الخطا فى سنة ٥٦٨ هـ (١١٧٢ م) فى جيش كبير بقيادة « كُرَماه » نفسه ، قاصدين البلاد الخوارزمية ولكن هذا الجيش هزم شر هزيمة ، بعد أن قطع الخوارزميون مياه نهر جيحون التى أغرقت الجيوش الخطائية (١) .

أما سلطانشاه فإنه أخذ يتنقل بين البلاد الإسلامية ، يكيد المكائد لأخيه ؛ ثم أخذ كل من الأخوين يحاول القضاء على الآخر ، غير أن أحدا منهما لم يستطع أن يظفر بخصمه ؛ ولم ينته هذا النزاع إلا بوفاة سلطانشاه سنة ٥٨٩ هـ (١١٩٣ م) ، واستراح تكش خوارزم شاه من شر وبيل كان يشغل باله (٢) .

رأينا أن تكش أخذ يوسع نفوذه ودولته على حساب القوى الإسلامية الموجودة فى ذلك الوقت ؛ وقد أتيحت له فرصة للتدخل فى ذلك الصراع الذى كان محتدما بين الخليفة الناصر لدين الله العباسى ، وبين طغرلبك آخر سلاطين السلاچقة فى العراق ، إذ وعد الخليفة علاء الدين تكش أن يقلده ما بيد السلاچقة من أملاك ، إن هو تمكن من القضاء على طغرلبك ، وقد تمكن تكش ، كما رأينا ، من إلحاق الهزيمة بطغرلبك وإرسال رأسه هدية إلى الخليفة ؛ غير أن تكش طمع ، كما ذكرنا ، فى أن يمد نفوذه على بغداد نفسها ، وأن يحل اسمه محل سلاطين السلاچقة فى الخطبة . وكانت هذه الرغبة مما يتعارض طبعاً مع رغبات الخليفة العباسى ، الذى تنفس الصعداء بزوال الكابوس السلچوقى . ولما أعيته الحيلة وعجز عن أن يثنى تكش عن رغبته ، لم يجد بدا من أن يستنجد « بغياث الدين » ملك الدولة الغورية وأن يحرضه على مهاجمة الخوارزميين من جهة الشرق ، فينشغلون عن الطمع فى أملاك الخليفة فى الغرب . فلما استجاب الغوريون لنداء الخليفة ، ووجد الخوارزميون الشرر يتطاير فى أعينهم بعد أن هددوا بتخريب المدن الخوارزمية ، لم يجد علاء الدين تكش مفرا من أن يضع يده فى أيدى الخطا ويحرضهم على الغوريين ، بل زيّن لهم الطريق لمهاجمة أملاك الدولة الغورية ، وحذرهم عاقبة تأخرهم عن مهاجمة هذه الدولة . وهكذا سارت جموع الخطا لمهاجمة الدولة الغورية ، إستجابة لدعوة علاء الدين تكش ، ولكن كان من سوء طالعه أن هزم الخطا شر هزيمة .

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ص ١٦٨ — ١٦٩ .

(٢) المرجع نفسه ، ج ١١ ص ١٧٢ Skrine & Ross :The Heart of Asia, p. 146.

ولما كان علاء الدين تكش هو السبب فى نشوب هذه الحرب التى دارت على الخطا فقد طلب هؤلاء من الخوارزميين أن يدفعوا لهم عشرة آلاف دينار عن كل قتيل من قتلاهم الذين بلغ عددهم اثنى عشر ألفا (١) ، كما طلبوا من تكش أن يحضر إلى بلادهم ويؤدى فروض الولاء والطاعة (٢) .

وقد وجد تكش أن الخطا كانوا متطرفين فى مطالبهم ، وأن فى الاستجابة لها معنى الإذلال لدولته ، لذلك فضل أن يعود إلى الدولة الغوريه ويضع يده فى أيدى حكامها ، وآثر التحالف مع أقرانه فى الدين على التحالف مع الخطا الوثنيين ، وعلم أنه باتفاقه مع الخطا لن يصيبه هو ودولته إلا كل أذى . وقد قبل علاء الدين تكش فى سبيل إبعاد الخطا عن بلاده ما عرضه عليه غياث الدين الغورى ، وهو أن يكف عن عداوته الخلافة.

ولما اطمأن تكش إلى تحالفه مع الدولة الغورية ، بعث إلى ملك الخطا برسالة جافية ، رفض فيها أن يجيبه إلى مطالبه التى أشرنا اليها ؛ وقد ورد فى هذه الرسالة :

« إن عسكرك ، إنما قصد انتزاع بلخ (٣) ، ولم يأتوا إلى نصرتى ، ولا إجتمعت »
« بهم ، ولا أمرتهم بالعبور (عبور نهر جيحون) وإن كنت فعلت ذلك فأنا »
« مقيم بالمال المطلوب منى ، ولكن حيث عجزتم أنتم عن الغورية ، عدتم »
« علىَّ بهذا القول وهذا الطلب ، وأما أنا فقد صالحت (اصطلحت فى الأصل) »
« الغورية ودخلت فى طاعتهم ولا طاعة لكم عندى » (٤) .

وكان من أثر هذه السياسة العدائية ، أن جهز الخطا جيشا كبيراً عبروا به إلى البلاد الخوارزمية ، ولكن خوارزم شاه تكش استطاع أن يصده عن طريق حرب أشبه ما تكون بحرب العصابات ؛ فكان لا يهاجم عدوه إلا ليلا ، وساعده على ذلك فريق من المتطوعين الخوارزميين . وقد نتج عن هذه الحرب الهمجية أن قتل أكثر جنود الخطا الذين عبروا الأراضى الخوارزمية ، وتقهقر من بقى منهم إلى بلادهم ، تتبعهم الجيوش

---

(١) ذكرنا فى موضع آخر أن هذا الخبر مبالغ فيه الى حد كبير . أنظر صفحة ٣٤ حاشية ٢ .

(٢) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدا والخبر ، ج ٥ ص ٩٥ .

(٣) كانت مدينة بلخ تخضع للخطا ، وكان حكامها يدفعون لهم جزية سنوية ، واستمر ذلك حتى سنة ٥٦٤ هـ (١١٦٨ م) حين انتقل حكمها الى أيدى الدولة الغورية ، لذلك عمل الخطا فى هذه الحرب على استرجاع هذه المدينة . ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ٦٣ .

(٤) المرجع نفسه ، ج ١٢ ص ٦٤ .

الخوارزمية المنتصرة سنة ٥٩٤ هـ (١١٩٧ م)، تريد انتزاع مدينة بخارى من أيديهم .

ومن طريف ما يروى فى هذا الصدد، أن أهالى مدينة بخارى كانوا يفضلون حكم الخطا على حكم الخوارزميين، لذلك شاركوا الخطا فى الدفاع عن المدينة، وفى أثناء حصار الخوارزميين لها أحضر الأهالى كلبا أعور، وألبسوه قباء وقلنسوة، وأخذوا يصيحون بقولهم «هذا خوارزم شاه» (وكان تكش أعور)، وقد استمروا يطوفون بهذا الكلب على سور المدينة، وأخيرا قذفوا به بواسطة منجنيق على الجنود الخوارزمية وهم يصيحون «هذا سلطانكم». ومع ذلك فان تكش لما استولى على هذه المدينة عفا عن أهلها وأحسن اليهم(١) .

أمضى تكش البقية الباقية من حياته فى توطيد نفوذه فى البلاد التى تحت يده، واضطر إلى تحسين علاقته بالخلافة العباسية، كما اضطر أن يتناسى — بعد أن عجز أمام قوة الدولة الغورية — عداوته القديمة مع هذه الدولة، تاركا لولده مهمة تنفيذ سياسة الخوارزميين التقليدية فى التوسع والفتح كلما استطاع إلى ذلك سبيلا . كذلك نرى علاء الدين تكش يقوى علاقاته مع دولة الخطا، ويعمل على المحافظة على هذه الدولة فى شرق بلاده، رغم عداوته لها، فتناسى هذه العداوة، بل اتفق فى معاهدة عقدها مع المسئولين فى هذه الدولة على دفع جزية معينة، وأكثر من ذلك أوصى ابنه باتباع هذه السياسة، بعد أن تبين له أن دولة الخطا كانت بمثابة حصن قوى بين الدولة الخوارزمية والقبائل الهمجية فى الشرق(٢) . ويرى المؤرخان سكرين وروس (Skrine & Ross)، أن تكش وجد من مصلحته المحافظة على دولة الخطا، لأنها كانت بمثابة حاجز بين الخوارزميين والمغول(٣). ولا عجب فى ذلك إذا علمنا أن القبائل المغولية فى ذلك الوقت كانت قد تجمعت فى شرق آسيا تحت سيطرة جنكيزخان، وأن الخطر المغولى قد بدا ظاهرا للدولة الإسلامية فى غرب آسيا .

(١) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول، ص ٣٩١ — ٣٩٢ .

(٢) Bretschneider : Mediæval Researches From Eastern Asiatic Sources, vol. i. p. 229.

نقلا عن كتاب جهان كشاى لعلاء الدين الجوينى. ولعل القبائل التى يشير اليها هذا المؤلف هى قبائل الكارلوك Karluks وكانكالى Kankalis والقرغيز Kurghises ، التى كانت تغير دائما على إقليم التركستان انظر كتاب Howorth : History of the Mongols, part. i. p.6.

(٣) Skri oss : The Heart of Asia, p. 147.

تولى علاء الدين خوارزم شاه العرش بعد وفاة أبيه تكش، وقد ورث عن أبيه تركة محملة بالمصاعب ، إذ كان عليه أن يقوى دولته فى الداخل ، ليستطيع أن يواجه أعداءه آمنـــا فى الخارج ، كما كان عليه أن يواجه الدولة الغورية والخلافة العباسية ، ويسيطر بقوة جيوشه على الأولى ، ويحاول على الأقل فرض نفوذه الأدبى على الثانية . وقد وجد أن سياسة التحالف والمسالمة مع هاتين القوتين — وهى السياسة التى نهج عليها أبوه فى أواخر أيامه — تتعارض تماما مع ما رسمه لنفسه من سياسة قوامها التوسع ما أمكن على حساب القوى المجاورة ، واكتساب ما يمكن اكتسابه من أملاكها . وقد رأينا كيف نجح علاء الدين خوارزم شاه فى الاستيلاء على بعض أملاك الدولة الغورية فى غرب نهر السند ، كما رأينا كيف فشل فى السيطرة على بغداد .

كذلك كان على علاء الدين خوارزم شاه أن يواجه قوة ثالثة ، أهم من القوتين السابقتين وهى قوة الخطا ، فقد وجد من العار أن تدفع دولته جزية سنوية لأعدائه فى الدين ، لذلك عوّل منذ البداية على التخلص من هذه التبعية ، واقتطاع ما يمكن اقتطاعه من الأراضى الإسلامية التى كان يظلها الخطا برايتهم ، وبدأ يعمل على تنفيذ هذه السياسة منذ بداية حكمه ، وظل يترقب الفرص ، ويقوى من شأن جيشه فى جميع أقاليم الدولة الخوارزمية ، مترقبا الفرصة لتنفيذ سياسته .

حدث فى سنة ٦٠٤ هـ (١٢٠٧ م) أن أرسل عثمان سلطان سمرقند وبخارى (١) — وكان تابعا للخطا ويدفع لهم جزية سنوية — إلى علاء الدين خوارزم شاه رسالة يعرب له فيها عن أسفه لخضوع المسلمين لأعدائهم فى الدين ، ويظهر آلامه وتضجره من هذه التبعية . وقد عرض عليه فى هذه الرسالة ، أن ينفض الطرفان يدهما من التبعية للخطا ، ويعلنا عصيانهما عليهم . ومما يدل على أن تبعية المسلمين للخطا قد أثقلت كاهل المسلمين لدرجة باتوا معها يتوقون إلى الخلاص منها ، أن سلطان سمرقند وبخارى لم يكن فى نيته الاستقلال ببلاده عن كل تبعية ، بل عرض على علاء الدين خوارزم شاه أن يكون له حليفا أمينا وتابعا مخلصا ، كما تعهد أن يدفع إليه ما كان يدفعه للخطا ، بل يصك السكة باسمه ويدعو له على منابر سمرقند وبخارى ، كما يتبين ذلك من هذه الرســالة :

(١) كان يلقب هذا السلطان باسم « خان خانان » أى سلطان السلاطين . ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ١٢١ .

« إن الله عز وجل ، قد أوجب عليك بما أعطاك من سعة الملك وكثرة »
« الجنود، أن تستنقذ المسلمين وبلادهم من أيدى الكفار، وتخلصهم مما يجرى »
« عليهم من التحكم فى الأموال والأبشار [١] . ونحن نتفق معك على محاربة »
« الخطا، ونحمل إليك ما نحمله إليهم، ونذكر اسمك فى الخطبة وعلى السكة [٢] » .

ولكى يزيد سلطان سمرقند من ثقة الخوارزميين به ، أرسل إلى علاء الدين خوارزم شاه بعض أعيان بخارى وسمرقند ، ليكونوا رهينة لديه، ودليلا حسيا ملموسا على صدق نواياه . وإزاء هذا التشجيع من جانب حكام بلاد ما وراء النهر ، لم ير علاء الدين خوارزم شاه بدا من أن ينتهز هذه الفرصة ليتخلص من تبعية الخطا ، تلك التبعية التى ألزمته كما ألزمت آباءه الثلاثة السابقين ، أن يدفعوا هذه الضريبة السنوية [٣]، وكان عليه قبل أن يبدأ هجومه على الخطا ، أن يثبت أقدامه فى الدولة الخوارزمية ، فولى على أقاليمها المختلفة ومدنها العديدة، أشخاصا من أقاربه وأقارب أمه، وزود كل حاكم من هؤلاء الحكام بقوة عسكرية كافية ، حتى يضمن طاعة هذه المدن له فى غيبته ، وإذا ما تحقق من استقرار أموره فى داخل دولته ، شرع فى تنفيذ خطته الهجومية على أعدائه ، معلنا الجهاد فى سبيل الله [٤] .

إزاء هذه الرغبة فى الجهاد أعلن علاء الدين العصيان على الخطا ، حتى إذا ما أرسلوا رسولهم سنة ٦٠٤ هـ (١٢٠٧م) فى طلب الجزية السنوية، قتله شر قتلة ، بأن شطر جسده شطرين، وهكذا أعلن الخوارزميون العداء، وجاهروا به . وكانت الخطوة التالية ، أن سار علاء الدين خوارزم شاه بما اجتمع لديه من جيوش وعبر نهر جيحون ، حتى إذا ما انضم إلى حليفه السمرقندى ، سارت هذه الجموع لمقاتلة العدو المشترك [٥] . وبعد أن التحم الجيشان دارت الدائرة على الجيوش الإسلامية فهزمت شر هزيمة ، وكان علاء الدين خوارزم شاه نفسه بين الأسرى ، على أنه استطاع أن يهرب بحيلة طريفة ، ذلك بأن ادعى أنه خادم لأمير خوارزمى وقع أيضا فى الأسر ، وكان الإثنان فى حراسة رجل خطائى ، وقد استطاع هذا الأمير الخوارزمى [٦] أن يقنع الحارس الخطائى بأنه

---

(١) أبشار جمع بشر (٢) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢، ص ١٢١ .
(٣) Curtin : The Mongol's History, p. 94.
(٤) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ١٢١ . (٥) المرجع السابق والصفحة .
(٦) يدعى هذا الأمير الخوارزمى ، شهاب الدين مسعود .

يملك فى بلدة خوارزم ذهبا وفضة ، وأنه يُسره أن يسمح لغلامه (علاء الدين خوارزم شاه) بالذهاب إلى بلده لإحضار ما يملكه منها . ودخلت الحيلة على الخطائى وسمح للسلطان الخادم بالرحيل ، وهكذا عاد خوارزم شاه سالما الى بلاده[١] .

لم يعبأ علاء الدين خوارزم شاه بالهزيمة، ولم يثنه هذا الإنكسار عن تحقيق غرضه الأساسى وهو القضاء على دولة الخطا، فخرج اليهم فى العام التالى (٦٠٥ هـ = ١٢٠٨م)[٢] . ولما التقى الجمعان سنة ٦٠٦ هـ (١٢٠٩ م) دارت الدائرة هذه المرة على الخطا وقتل وأسر منهم عدد كبير ، وكان ملكهم « طاينكوه » — وهو شيخ جاوز المائة — ضمن الأسرى ، غير أنه كان موضع عناية الخوارزميين وتكريمهم[٣] .

وكان من أثر هذا الانتصار ، أن وضع الخوارزميون أيديهم على كل بلاد ما وراء النهر بعد أن استولوا على مدنها المدينة تلو الأخرى، ووصلت حدود الدولة الخوارزمية بعد ذلك حتى مدينة «أوزكند» على نهر سيحون . ولما فرغ علاء الدين خوارزم شاه من توطيد نفوذه فى البلاد المفتوحة ، عاد إلى خوارزم يصحبه حليفه السمرقندى . وقد وطد علاء الدين علاقته مع هذا السلطان الحليف بأن زوّجه من ابنته[٤] ، ثم أعاده إلى بلاده محملا بكثير من الهدايا ، على أنه لم ينس أن يرسل معه إلى سمرقند جنود الاحتلال من الخوارزميين[٥] .

وقد وصل علاء الدين بهذا الإنتصار إلى قمة مجده ، واعتقد أتباعه أنه ظل الله على الأرض، كما اتخذ هو لنفسه لقب «سنجر» تيمنا باسم السلطان سنجر السلجوقى، وتفاؤلا بطول مدة حكمه[٦] .

ويظهر أن الخوارزميين أساءوا حكم بلاد ماوراء النهر ولم يقيموا وزنا لحكام البلاد الأصليين ، كما لم يحترموا شعور المواطنين مما حدا بصاحب سمرقند إلى أن يعود ثانية فيميل إلى الخطا ويستصرخهم ليخلصوه من النير الخوارزمى . وأكثر من ذلك أمر بقتل من

---

(١) الديار بكرى : تاريخ الخميس فى أحوال أنفس نفيس ، ج ٢ ص ٣٦٧ .
(٢) المرجع السابق والصفحة .
(٣) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ١٢٤ .
(٤) يقول ابن خلدون (العبر ، ج ٥ ص ١٠٦) أن هذه الزوجة كانت شقيقة علاء الدين .
(٥) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ١٢٤ — ١٢٥ .
(٦) Curtin : The Mongols' History, p.95.

كان بسمرقند من الخوارزميين ، ومثّل بمندوبي علاء الدين خوارزم شاه ، إذ كان يأمر بشطر الرجل شطرين، ويعلق جثته بعد ذلك فى الأسواق ؛ كما نراه يشرع فى قتل زوجته الخوارزمية ابنة علاء الدين ، ولولا أنها استغاثت بضعفها لكان نصيبها الهلاك كما حدث لباقى الخوارزميين. كل هذه الحوادث أثارت الخوارزميين الذين ثاروا لكرامتهم وأعلنوا النضال فى وجه هذا السفاح السمرقندى ، وسار علاء الدين على رأس جيشه ليثأر لكرامته التى اعتدى عليها صاحب سمرقند فى شخص ابنته وجنوده هناك [١] .

إنتصرت الجيوش الخوارزمية فى هذا النضال ، وترك علاء الدين مدينة سمرقند بعد أن فتحها للجيوش الخوارزمية ثلاثة أيام بلياليها ، فاعملوا فيها النهب والسلب والقتل ، كما أمر خوارزم شاه بقتل صاحب سمرقند نفسه . وهكذا عادت هذه المدينة وسائر بلاد ماوراء النهر فدانت بالطاعة للخوارزميين الذين أقاموا حاكما خوارزميا على كل مدينة ، وضمنوا بذلك ولاء هذه البلاد لهم [٢] .

ذكرنا أن أقاليم آسيا الشرقية فى هــــذه الفترة من التاريخ ، كانت أشبه ما تكون بخلية النحل من حيث تعدد قبائلها ، وكثرة حركاتها وتنقلاتها من مكان إلى مكان، سعيا وراء غنم سياسى أو ثروة مادية على حساب بعضها البعض. ولم يكن هناك من طريقة لإنهاء هذه الفوضى إلا على يد زعيم قوى يظهر من بين هذه القبائل، فيستطيع أن يلم شملها ، ولم يكن هذا الزعيم إلا تيموچين (چنكيزخان فيما بعد) الذى ركز جهوده لتوحيد هذه القوى المتعادية المتنافرة حتى تخضع لسلطانه .

جاء فى المصادر الصينية أن چنكيزخان بعد أن أخضع قبائل نيمان Naimans فر «كُشلو» ـــ خان هذه القبيلة ـــ إلى دولة الخطا فى الغرب . وقد سمح له خان الخطا بأن يجمع بقايا جنوده التى تفرقت على أيدى چنكيزخان ، واستطاع هذا الزعيم الفار أن أن يكوّن لنفسه قوة هناك ، بل ويعتلى عرش الخطا بعد سلسلة من المؤامرات والفتن وانتهاز للفرص ، وكان أول ماعمله للوصول إلى غرضه ، أن عرض تحالفه مع

---

(١) يروى فى هذا الصدد أن صاحب سمرقند ـــ توطيدا لعلاقته الجــديدة مع الخطا ـــ تزوج من ابنة خان الخطا ، وامعانا فى إذلال الزوجة الخوارزمية ، أجبرها على أن تخدم فى حفــل زواجه الجديد .
Skrine & Ross ; The Heart of Asia, P. 95.

(٢) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ١٢٥ .

الخوارزميين ، منتهزاً فرصة العداوة التى قامت إذ ذاك بين الخوارزميين والخطا [١] .

وقد تظاهر علاء الدين خوارزم شاه بقبول هذا التحالف وتعهد بمساعدة «كشلو» فى حربه ضـــد الخطا ، ونرى فى نفس الوقت أن «غورخان» الخطا يرسل إلى الخوارزميين يعرض عليهم تناسى العداوة القائمة والاتحاد على «كشلو» عدوهما المشترك . ولم يرفض علاء الدين خوارزم شاه هذا العرض أيضا، بل تظاهر بالقبول بعد أن وعد هؤلاء بالمساعدة ضد «كشلو». وسارت القوتان المتعاديتان بعد ذلك كل لمحاربة الأخرى ، وكل منهما يظن أن الجيوش الخوارزمية فى جانبه . أما علاء الدين خوارزم شاه فقد وقف من هاتين القوتين موقف المتفرج ، ينتظر رجحان كفة إحداهما على الأخرى لينضم إلى القوة المنتصرة . فلما التقى الجمعان، انهزمت جيوش الخطا هزيمة منكرة على يد جيوش «كشلو» ، وشردت الجيوش الخطائية وفر ملكهم . ولما رأى علاء الدين خوارزم شاه ذلك ، أعمل السيف فى رقاب البقية الباقية من الجيوش الخطائية [٢] .

وقد أدت هذه الحرب إلى نتيجة هامة وهى اعتلاء «كشلو» عرش دولة الخطا وأدى هذا بدوره إلى أمرين : الأمر الأول أن أملاك «كشلو» أصبحت تجاور أملاك الدولة الخوارزمية مما جعل الخوارزميين فى موقف لا يحسدون عليه ، والأمر الثانى أن «كشلو»، بعداوته القديمة لجنكيزخان، وجه أنظار هذا الطاغية نحو الأقاليم الغربية من آسيا، رغبة منه فى الانتقام من عدوه القديم ، وأدى هذا إلى الكوارث التى حلت بالدولة الخوارزمية خاصة والعالم الإسلامى عامة ، على أيدى المغول .

وبعد أن اعتلى «كشلو» عرش الخطا ، أخذ يقوى نفوذه على حساب القوى المتناثرة هناك ، فأخضع عددا كبيرا من القبائل فى هذه الأقاليم — وكان بعضها تابعا للمغول — فوسع أملاكه حتى شملت الأقاليم الممتدة من بلاد التبت حتى حدود الدولة الخوارزمية [٣] .

ولم يحترم كشلوخان الشعور الدينى للسكان فى دولته ، إذ حاولت زوجته المسيحيـة نشر دينها ، كما أخذ هو يعمل على نشر الديانة البوذية التى كان يعتنقها ، كل ذلك كان

---

(١) Douglas : The Life of Jenghis-Khan, p. 12.

(٢) ابن الأثير: الكامل ، ج ١٢ ص ١٢٦ . Lamb : Genghis Khan, p.110

(٣) كانت القبائل التى خضعت لكشلوخان تسمى قبائل الأوغز Uguts والماليك Almalyk والمركيت Merkits .

على حساب الأهالى من المسلمين، فلا عجب إذا جلبت له هذه السياسة عداوتهم [١] . ثم إن كشلو عندما أراد إخضاع بعض المدن العاصية فى دولة الخطا، ومن بينها كاشغر وخوتان، صادف أن هاجمهما فى موسم حصاد القمح واستولى على المحصول. وأدى ذلك إلى حدوث المجاعات فى هذه الأقاليم مما أثار كراهة الأهالى لحكمه [٢].

أما عن موقف الدولة الخوارزمية من دولة الخِطا فى عهدها الجديد، أى فى عهد كشلوخان، فقد ادعى علاء الدين خوارزم شاه أحقيته لنصف أملاك دولة الخطا، بحجة مساعدته لكشلوخان على إزالة هذه الدولة وثمناً لاعتلائه العرش، وقد أرسل إلى كشلوخان رسالة بهذا المعنى. على أن كشلوخان رفض إجابة الخوارزميين إلى طلبهم، بل هدد علاء الدين بشن حرب ضروس على الدولة الخوارزمية، إذا لم يكف يده عن العمل على حساب دولة الخطا. ولم يجد علاء الدين فى نفسه وفى جيشه من القدرة ما يمكنه من إعلان الحرب على كشلوخان، لذا اقتصرت عداوته له على شن عدة هجمات خاطفة على أراضى دولة الخطا، تلك الهجمات التى لا تخرج عن أعمال السطو على بعض المدن فى غفلة من جنود كُشلوخان. ولم يمنع كشلوخان من التوجه إلى عدوه الخوارزمى - رغم تفوقه عليه فى العدد والعدة - إلا اشتغاله بمحاربة المغول الذين بدأوا يندفعون نحو الغرب [٣].

لم يكن جنكيزخان بالرجل الذى يستطيع أن يسكت على عدوه القديم كشلوخان، فسير جيوشه - بعد أن وطد سلطانه فى شرق آسيا - لإخضاع القبائل العاصية التى دخلت فى نطاق دولة كشلوخان، ومن ثم أرسل قائده سوبوتاى Suboutai لإخضاع قبائل المركيت Merkits التى انضمت إلى بلاد كشلوخان، كما أرسل قائده شبى Chepé للبحث عنه وإحضاره حيا أو ميتا [٤].

سار «شبى» فى سنة ٦١٥ هـ (١٢١٨ م) على رأس جيش مؤلف من عشرين ألف مقاتل، واستطاع هذا القائد أن يثير شعور السكان الدينى ضد كشلوخان بأن أعلن الحرية

---

(١) Vambery : History of Bokhara, p. 121.
(٢) D'ohsson : Histoire Des Mongols, tom. i. p. 169.
(٣) ابن الأثير : الكامل، ج ١٢ ص ١٢٦ .
(٤) Lamb : Genghis Khan; Emperor of All Men, p. 110.

الدينية فى كل مكان،فثار الأهالى فى وجه حكامهم ، واستقبلوا المغول كمحررين لهذه البلاد[1] . وقد نعم المسلمون بهذه الحرية الدينية كما نعم بها البوذيون ، بعد أن فتحت معابدهم التى كانت قد أغلقت بسبب تلك الحروب الطاحنة التى نشبت فى هذه الأقاليم . وأخيرا استطاع المغول أن يقبضوا على عدوهم كشلوخان ويبعثوا برأسه هدية إلى چنكيزخان فى حاضرته « قرهقورم » .

وكان لهذا الفوز المغولى نتائج هامة كثيرة ، منها أن جميع القبائل التركية فى ذلك الوقت دخلت فى حوزة الحكم المغولى ؛ ثم إن خضوع دولة الخطا للمغول جعل الخوارزميين يجاورون عدوا أقوى من عدوهم القديم قوة وشكيمة . وقد ساد علاقة الجواربين المغول والخوارزميين طابع السلام فى بادىء الأمر ، ثم تطورت الأمور فيما بعد وحلت تلك الكارثة العظمى ، لا للدولة الخوارزمية وحدها ، بل للعالم الإسلامى أجمع ، حينما تدفقت سيول الجيوش المغولية على هذا المسرح التاريخى كما سنرى .

٤ — علاقة الدولة الخوارزمية بالمغول قبل الغزو المغولى

ذكرنا من قبل ، كيف أن المغول بسطوا نفوذهم على أملاك دولة الخطا ، وأنهم جاوروا الدولة الخوارزمية من جهة الشرق بامتلاكهم هذه البلاد . وكانت الدولة الخوارزمية دولة عسكرية فى نشأتها ، عمدت فى تكوينها إلى الاعتماد على عنصر القوة دون سواه ، ويرجع هذا إلى اضطراب الأحوال الداخلية فى وسط آسيا فى هذه الفترة من التاريخ الوسيط . لذلك لم تعمل الدولة الخوارزمية فى تكوينها على تقوية نفسها بروابط الصداقة مع القوى المجاورة لها ، بل اعتمدت على عنصر القوة وحده ، فسادتها الفوضى السياسية والاجتماعية .

وكان الحال لا يختلف عن ذلك فيما يتعلق بالمغول ، فنرى أن چنكيزخان قد أسس دولته على أساس تحطيم كل القوى القبلية الموجودة فى شرق آسيا ، محاولا تكوين صرح قوى على أشلاء هذه القوى مجتمعة . وهكذا كانت الدولة المغولية كالدولة

---

(١) Skrine & Ross : The Heart of Asia, p. 157.

الخوارزمية من حيث نشأتها واعتمادها على القوة العسكرية وحدها .

وقد جاورت هاتان القوتان العسكريتان كل منهما الأخرى على ما تقدم، ولم يعد خافياً على كلا الدولتين ما تسكنه كل دولة للأخرى ، وبات كل منهما ينتظر الفرصة المواتية للوثوب على الآخر . وقد حدث فعلا بعض المناوشات الحربية فى أوائل احتلال المغول لدولة الخطا ، وانتهت بحمل الخوارزميين على عقد معاهدة صداقة بقصد التبادل التجارى بين الدولتين . على أننا سنرى أن هــــذه المعاهدة قد قبلها الخوارزميون مضطرين، تحت تأثير ما عرفوه عن قوة المغول.

لم يشأ چنكيزخان ، وقد جاور الدولة الخوارزمية ، أن تكون علاقته بجــــيرانه الخوارزميين مستندة إلى حق السيف وحده ، ولـكنه رأى أن مشاكله فى شرق آسيا واضطراره إلى توطيد نفوذه فى الأقاليم الصينية، تمنعه من أن يشغل جيوشه فى البلاد الخوارزمية أيضا ، لذلك هداه تفكيره إلى عقد معاهدة تجارية مع الدولة الخوارزمية ، يمليها على الخوارزميين ، وتتضمن بعض نصوصها معانى التبعية لدولة المغول .

وقد حدث أن استقبل علاء الدين خوارزم شاه فى سنة ٦١٥ ﻫ (١٢١٨م)، أى بعد عودته من الأقاليم العراقية،وبعد أن حلت به الهزيمة وهو يحاول إخضاع الخلافة العباسية ، حدث فى هذه السنة أن استقبل علاء الدين فى مدينة بخارى ثلاثة من تجار المسلمين من أتباعه قادمين من قبل چنكيزخان، وهم محمود الخوارزمى،وعلى خواجه البخارى ، ويوسف كنكا الأترارى . وقدحمَّلهم چنكيزخان بكثير من الهدايا مما تنتجه آسيا الوسطى ، منها سبائك من الفضة وبعض العطور الثمينة والأحجار الكريمة ، كما أرسل إليه بعض المنسوجات الصوفية . وحمل هؤلاء الرسل معهم رسالة وجهها چنكيزخان إلى علاء الدين خوارزم شاه جاء فيها :

« ليس يخفى عليّ عظيم شأنك وما بلغت من سلطانك وقد علمت بسطة ملكك »
« وإنفاذ حكمك فى أكثر أقاليم الأرض . وأنا أرى مسالمتك من جملة الواجبات ، »
« وأنت عندى مثل أعز أولادى ، وغير خاف عليك أيضا أننى ملـكت الصين »
« وما يليها من بلاد الترك ، وقد أذعنت لى قبائلهم، وأنت أخبر الناس بأن بلادى »
« مثارات العساكر ومعادن الفضة، وأن فيها الغنية عن طلب غيرها،فإن رأيت أن »

« تفتح للتجار في الجهتين سبيل الترددا ، عمت المنافع وشملت الفوائد » [1] .

إذا نظرنا إلى هذه الرسالة، وجدناها تحمل في طياتها معاني التهديد والوعيد في أكثر من موضع ، فقول چنكيزخان إن علاء الدين خوارزم شاه في منزلة الإبن معناه التبعيه لچنكيزخان ، إذ أن العلاقة بين الإبن وأبيه وبين الأخ الصغير والأخ الكبير وبين العم وابن الأخ ، كل هذه العلاقات تدل على أنواع مختلفة من التبعية التي كانت تكتب في المعاهدات بين أمراء آسيا ، الذين كانوا لا يعرفون معنى للعلاقات السياسية التي تقوم على المساواة بين الطرفين المتحالفين [2] .

وإذا علمنا فوق ذلك أن چنكيزخان تعمَّد أن يخبر علاء الدين خوارزم شاه أنه أخضع العناصر التركية ، فإن هذا القول أيضاً يحمل معاني التهديد والوعيد ، ولا سيما إذا علمنا أن علاء الدين كان تركي الأصل .

قرأ علاء الدين هذه الرسالة فاستشاط غيظاً ، إذ كانت هذه الرسالة أول صدمة حقيقية صدمت سياسته الخارجية ، فبعد أن كان صوته يجلجل ويدوّي كالرعد بين أمراء المسلمين وحكامهم ، أصبح بين يوم وليلة هدفاً لأطماع هذا الطاغية في أقصى الشرق ، فأهانه وأمعن في إهانته ، وهدده وأمعن في التهديد .

إستدعى السلطان الخوارزمي الشارد الذهن أول هؤلاء التجار وهو محمود الخوارزمي ، فهو رجل خوارزمي قبل كل شيء ، ووعده بالاحسان ، ومناه بالوعود ، بل أعطاه جوهرة ثمينة عربونا لصداقته ، ثم طلب منه أن يكون عينا للخوارزميين في بلاد المغول . ولم يستطع محمود الخوارزمي أن يرفض هذا الطلب طبعا وهو في حضرة سلطان ثائر ، فوعده بأن يواتيه بالأخبار وأن يعمل ما من شأنه صلاح الدولة الخوارزمية . ثم دار الحديث بين السلطان والتاجر فأخذ أولها يستوضح الثاني عن بعض ما جاء في رسالة چنكيزخان ليعلم مدى صحة ما قال ؛ فقال علاء الدين : « أصدقني فيما يقول چنكيزخان إنه ملك الصين . » ؛ فقال التاجر : « ومثل هذا الأمر المعظم ليس يخفى حاله وعن قريب يتحقق السلطان ذلك » ؛ فقال : « أنت تعرف ممالكي وبسطتها وعساكري وكثرتها ، فمن هذا

---

(١) النسوي : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ، ص ٣٣ .

(٢) D'ohsson : Histoire Des Mongols, tom. i. pp. 202 — 3.

اللعين حتى يخاطبنى بالولد ؟ ما مقدار ما معه من العساكر ؟ » . فلما وجد محمود الخوارزمى علامات الغيظ قد ظهرت على السلطان خاف عاقبة الاسترسال فى ذكر أخبار المغول وقال : « ليس عسكره بالنسبة إلى هذه الأمم والجيش العرمرم إلا كفارس فى خيل أو دخان فى جنح ليل »(١) .

وبعد أن عرف علاء الدين خوارزم شاه حقيقة موقفه أسقط فى يده ، ولم ير بدا من الإذعان لرغبة چنكيزخان ، وعقد معه هذه المعاهدة التجارية التى لم تقم كما قلنا على أساس المساواة بين الفريقين ، بل قامت تحت تأثير التهديد والوعيد ، ولم يجد علاء الدين خوارزم شاه فى نفسه من الشجاعة ما يكفى لرفض عقد هذه المعاهدة التى قامت على الأساس سالف الذكر ، بل لم نجد بين بطون الكتب ما يشير إلى أى احتجاج على ما جاء فى رسالة چنكيزخان من عبارات جافية . وكل ما حدث أن علاء الدين كظم غيظه ، وأعاد الرسل إلى بلاط چنكيزخان يحملون الرد بقبول الاتفاق .

تبودلت التجارة بين الدولتين ، واخترقت جموع التجار من المسلمين والصينيين الطرق التجارية فى أواسط آسيا . ولما كانت هذه الطرق فى أيدى القبائل المختلفة المنتشرة فى أواسط آسيا ، فقد عمل چنكيزخان أولا على إخضاع هذه القبائل والضرب على أيدى المعتدين من قطاع الطرق . ولكى تكون التجارة فى مأمن من هؤلاء اللصوص ، زود الطرق الرئيسية بحراس من قبله ، وكلفهم بأن يرافقوا كل أجنبى يحمل تجارة إلى معسكرات المغول(٢) ، وكان هؤلاء الحراس يسمون (قراقچية) أى مستحفظين(٣) . غير أن الأطماع السياسية فى دولتى المغول والخوارزميين ، وخوف كل دولة من الأخرى ولا سيما خوف الدولة الخوارزمية من ناحية المغول — كل ذلك مالبث أن بدل هذه العلاقات الطيبة بعلاقات عدائية . وقد حدث أن سار ثلاثة من التجار من أهل مدينة بخارى إلى أقصى الشرق حيث بلاط چنكيزخان ، يحملون معهم البضائع من الثياب المذهبة والكرباس(٤) ، وغير ذلك . وقد خفرهم حراس الطرق (المستحفظون)

---

(١) النسوى : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى ، ص ٣٣ .

(٢) D'ohsson : Histoire Des Mongols, tom. i. p. 204.

(٣) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ، ص ٤٠٠ .

(٤) الكرباس لفظ فارسى معرب ومعناه الثوب الخشن .

وقادوهم إلى بلاط چنكيزخان بعد أن وُقفوا على ما معهم من السلع، وعرفوا أن مع أحدهم ويدعى «أحمد» من الثياب مايليق بمقام چنكيزخان نفسه . فلما مثل هذا الرجل بين يدى الخان المغولى طلب أثمانا باهظة لبضاعته، فحنق عليه واغتصب بضاعته وجعلها حلالا لأفراد حاشيته ، ثم قبض على التاجر الشره . ولما مثل التاجران الآخران أمام چنكيزخان لم يجرؤ أحدهما على طلب ثمن لبضاعته ، وتظاهرا بأنهما إنما جاءا بها هدية للخان . وأخيرا أمطر چنكيزخان هذين التاجرين بالذهب والفضة وأخذته الشفقة بالتاجر الثالث فعفا عنه[١] .

أقام هؤلاء التجار الثلاثة في أراضي الدولة المغولية فترة كانوا فيها موضع التكريم، وعاملهم المغول معاملة ممتازة ، فأعطوهم على سبيل المثال خياما جديدة من نسيج أبيض يقيمون فيها مدة ضيافتهم . ولما همّ هؤلاء بالرحيل أمر چنكيزخان بأن يرسل كل أمير في دولته ، وكل قائد من قواده العسكريين ، رجلا أو رجلين من أتباعه يحملون سلعا مغولية إلى غرب آسيا لبيعها في الأسواق الخوارزمية، وشراء مايحتاج اليه المغول من منتجات هذه البلاد . وقد تكوّن هذا الوفد بسرعة وبلغ عدد هؤلاء المبعوثين كما ذكر الجوينى أربعمائة وخمسين رجلا كلهم من المسلمين[٢] ؛ ويرى ابن العبرى أن عددهم بلغ مائة وخمسين فقط ومن جميع الأديان دون تفريق[٣] . وقد زوّد چنكيزخان هذه الجماعة برفيق مغولى حمّله رسالة الى علاء الدين خوارزم شاه جاء فيها :

« إن التجار وصلوا الينا وقد أعدناهم إلى مأمنهم سالمين غانمين ، وقد سيرنا «معهم جماعة من غلماننا، ليحصلوا من طرائف تلك الأطراف ، فينبغي أن يعودوا «الينا آمنين ليتأكد الوفاق بين الجانبين، وتنحسم مواد النفاق في ذات البين »[٤] .

ويرى النسوى أن عدد التجار كانوا أربعة فقط ،وهم عمر خواجه الأتراري والحمال المراغى، وفخر الدين الدنزكي البخاري، وأمين الدين الهروري[٥].ونحن نستطيع أن نأخذ بما جاء في رواية النسوى وإن كان هذا لايمنعنا من القول بأن هؤلاء التجار

(١) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ، ص ٤٠٠ .

(٢) D'ohsson : Histoire Des Mongols, tom. i. p. 204.

(٣) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول، ص ٤٠٠ . (٤) المرجع نفسه ، ص ٤٠٠ — ٤٠١ .

(٥) النسوى : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى ، ص ٣٤ . ومما هو جدير بالملاحظة أن هؤلاء التجار ينتسبون الى مدن أترار ومراغه وبخارى وهراه على التوالى .

الأربعة كانوا بصحبة جمع غفير من رسل چنكيزخان ، يؤيد هذا ماذكره «يي لوشو تساى» Ye-Lu Ch'u ts'ai، وزير چنكيزخان والذى صحبه فى أثناء غزواته للبلاد الإسلامية[1].

سار هذا الجمع الغفير قاصدا البلاد الخوارزمية ، ووصلت القافلة فى النهاية إلى مدينة أترار على نهر سيحون التى كانت تعد مفتاح التجارة بين شرق آسيا وغربها . وكان يحكم هذه المدينة فى الوقت الذى وصلت فيه القافلة « ينال خان » ابن خال السلطان علاء الدين خوارزم شاه[2] يؤيده عشرون ألف فارس .

هال هذا الأمير ، هذا الجمع الحاشد من التجار ومن تبعهم من الرجال العسكريين، فخشى الأمر وأدرك أن هؤلاء لم يقصدوا بلاد خوارزم للتجارة ، وإنما كان غرضهم التجسس واستطلاع قوة الخوارزميين ، تمهيدا لإغارة المغول على البلاد الخوارزمية . وقد كتب هذا الحاكم إلى خوارزم شاه يخبره بأمر هؤلاء التجار حتى يرى فيهم رأيه . ولا نعجب إذا رأينا خوارزم شاه يأمر بمراقبة هؤلاء التجار حتى ، يرى فيهم أمرا[3] ؛ ثم أمر بعد ذلك بمصادرة أموالهم وإرسالها إليه كما أمر بقتل جميع أفراد القافلة . أما السلع فقد باعها علاء الدين لتجار بخارى وسمرقند[4] ، ولا بد أنها درت عليه أرباحا طائلة ولا سيما إذا عرفنا أن القافلة كانت تتكون من خمسمائة جمل[5] .

ويرى النسوى أن أفراد هذه القافلة كانوا تجاراً حقا وينفى عنهم صفة الجاسوسية ويؤكد الغرض التجارى الذى جاءوا من أجله ، بل يقبّح ما فعله حاكم أترار بشأنهم

---

(١) ألف « يى لوشو تساى » كتابا وصف فيه حملات چنكيزخان على البلاد الإسلامية عرف باسم سى يو لو Si Yu Lu أى : Account of a journey to the west.
Bretschneider : Mediæval Researches From Eastern Asiatic Sources, vol. i. p. 10 & Seq.

(٢) يرى السيوطى فى كتابه تاريخ الخلفاء ص ٣١١ ، والدياربكرى فى كتابه تاريخ الخميس فى أحوال أنفس نفيس ، ج٢ ص ٣٦٨ ، أن حاكم هذه المدينة هو خال السلطان علاء الدين خوارزم شاه وليس ابن خاله كما ذكر النسوى (ص ٣٤) ، على أننا نميل الى تصديق النسوى ، إذ أنه فضلا عن كونه من المؤرخين المعاصرين ، فإنه كان يعمل فى بلاط الخوارزميين فى وظيفة حامل أختام السلطان (مهردار) هذا فضلا عن أنه تدرج بعد ذلك فى وظائف الخوارزميين حتى آخر سلطان من سلاطينهم ، وهو جلال الدين منكبرتى .

(٣) النسوى : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى ، ص ٣٤ .

(٤) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ١٦٦ .

(٥) Barthold : Turkestan Down to the Mongol Invasion, p. 398. نقلا عن كتاب تاريخ جهان كشاى لعلاء الدين الجوينى .

إلا أننا نخالفه فى هذا الرأى ، إذ لا نستبعد أن يكون هؤلاء قد جاءوا من أجل التجسس فى أراضي الدولة الخوارزمية ؛ فإذا كانوا قد قصدوا الاتجار فقط فَلِمَ وجد بينهم الكثيرون من الرجال العسكريين على ما ذكرنا ؟ وليس من المعقول البتة أن يطمع حاكم أترار فى أموال هؤلاء التجار فيسعى إلى قتلهم ؛ فإذا كان الغرض من قتلهم هو سلب أموالهم كما ذكر النسوى ، فَلِمَ لم تسلب هذه الأموال دون أن يقتل أصحابها ، مع العلم بأن قتلهم لابد أن يحدث أثرا بين المغول أعظم مما يحدثه خبر السطو عليهم فقط ؟ وإذا كان حاكم هذه المدينة يعرف أن هذه الأموال لن تؤول إليه فى النهاية بل ستذهب إلى خوارزم شاه نفسه ، فما هى الفائدة التى ستعود عليه من الوشاية بهؤلاء التجار ؟ فالحقيقة التى يقرها المنطق ، هى أن هؤلاء الرجال كانوا عيونا حقا للمغول فى جوف الدولة الخوارزمية ، وأن علاء الدين خوارزم شاه وحاكم أترار قد عاملاهم بما يقضى به العرف السائد وهو إعدام الخونة والجواسيس . ويجب ألا ننسى هنا أن علاقة الصداقة التى قامت بين المغول والخوارزميين ، كانت قائمة على أساس التهديد من ناحية المغول كما ذكرنا .

ولما وصلت أخبار هذه المذبحة البشرية إلى علم جنكيز خان ، إستشاط غضبا وهاله الأمر ، فهجره النوم ، وقضى وقته يفكر فيما يفعل . وقد روى ابن العبرى قصة طريفة فى هذا الصدد ، مؤداها أن جنكيز خان صعد إلى رأس تل عال وكشف رأسه ودعا الله أن ينصره على عدوه الخوارزمى ، ووقف على هذا التل ثلاثة أيام لم يذق فيها طعاما ما . وفى الليلة الثالثة رأى فى منامه راهبا فى أثوابه السوداء وبيده عصاه يقول :

« لا تخف ، إفعل ما شئت فإنك مؤيد »

فانتبه جنكيز خان مذعورا ذعرا مقرونا بالفرح ، وعاد إلى منزله وقص قصته على زوجته ، فطمأنته بأن مجىء هذا الأسقف إليه بداية لسعادته . وقد استدعى جنكيز خان أحد الأساقفة إلى حضرته ، ففسر له حلمه بأن بيّن له أن من رآه فى منامه لم يكن إلا قديساً من القديسين ثم زيّن له رؤيته . ولهذا كان جنكيز خان يكرم المسيحيين ويميل اليهم[١] .

---

(١) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ، ص ٤٠١ .

ورغم ما حدث ، فقد رغب چنكيزخان فى أن يسوى حسابة مع الخوارزميين بطريق سلمى ، فأرسل إلى علاء الدين رسولا مسلماً يدعى « ابن كفرج » كان أبوه أميراً من أمراء السلطان تكش ، فسار هذا الرسول مع رسولين آخرين من المغول ، يحملون رسالة من چنكيزخان كلها تهديد ووعيد ، ويطلب فيها تسليم حاكم أترار ، تكفيرا عما حدث . وقد ذكر لنا النسوى نص هذه الرسالة التى جاء فيها:

« إنك قد أعطيت خطك ويدك بالأمان للتجار ، وأن لاتتعرض إلى »
« أحد منهم ، فقدرت ونكثت ، والغدر قبيح ، ومن سلطان الإسلام أقبح . »
« فإن كنت تزعم أن الذى ارتكبه ينال خان كان من غير أمر صدر منك ، »
« فسلم ينال خان إلىّ لأجازيه على ما فعل ، حقنا للدماء وتسكينا للدهماء ، وإلا »
« فأذن بحرب ترخص فيها غوالى الأرواح » (١) .

قلنا إن ينال خان كان ابن خال السلطان علاء الدين خوارزم شاه ، أى من عشيرة أمه ، وقد رأينا فى موضع آخر أن معظم رجال الجيوش الخوارزمية كانوا من عشيرة أم السلطان ، ولذلك كان نفوذها لا يقل عن نفوذ علاء الدين نفسه ، بفضل تعضيد هذه الجيوش لها . أضف إلى ذلك أن كثيرين من رجال الدولة كانوا من أقربائها ، يتفانون فى خدمتها ويأتمرون بأوامرها (٢) . وهكذا نرى أنه ليس من السهل على علاء الدين خوارزم شاه أن يجيب چنكيزخان إلى طلبه فيسلم ينال خان إليه ، إذ أن ذلك سيؤدى بلا شك إلى ثورة عسكرية من جانب رجال الجيش ، فضلا عما سيؤدى إليه من اختلال فى الدولة ، بعد أن ينفض رجال الجيش من حول خوارزم شاه ؛ وكيف يجرؤ خوارزم شاه على تنفيذ هـذا الأمر وكبار رجال الدولة من أقرباء ينال خان ؟ ثم إن علاء الدين وجد أنه إذا سلم ينال خان للمغول ، فإن ذلك يعتبر بلا شك تسليما منه بضعفه أمامهم . ومن ثم لم يتردد فى قتل ابن كفرج وزميليه ، سنة ٦١٥هـ (١٢١٨ م) ،

= ونلاحظ أن هذه القصة على ما فيها من طرافة ، إنما هى فى الغالب من نسج خيال ابن العبرى ، إذ أنه كان من كبار رجال الدين المسيحيين الذين عاصروا الغزو المغولى . وربما يكون غرضه من وضع هذه القصة الإيحاء بميل المغول عامة وچنكيزخان خاصة ، للديانة المسيحية دون سواها من الديانات .

(١) النسوى : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى ، ص ٣٤ — ٣٥ .

(٢) كانت ترخان خاتون أم السلطان تنتمى إلى إحدى القبائل الساكنة شمالى بحر قزوين ، ولهذا هاجر كثيرون من أفراد عشيرتها إلى أراضى الدولة الخوارزمية ، وتحكموا فى الدولة ووظائفها ، بل أفرد لهم الخوارزميون إقطاعات خاصة فى قلب الدولة .

« فيالها من قتلة ما كان أقبحها، أجرت كل قطرة من دماء الرسل سيلا من الدماء »[١].

وقد ذكر دوجلاس Douglas ، أن علاء الدين لم يقتل الرسل الثلاثة بل قتل زعيمهم «ابن كفرج» ، وأطلق سراح الاثنين الآخرين بعد أن حلقت لحيتاهما ، حتى يرويا قصة مصرع الرسول المغولى لجنكيزخان كما شاهداها[٢] . وهكذا نجد أن علاء الدين قد أجاب على رسالة جنكيزخان إجابة عملية . وتحددت بعد ذلك سياسة المغول تجاه الخوارزميين ، بحيث لم يبق هناك من أمل فى تجنب الاصطدام بين القوتين .

وقد أخذ الخوارزميون والمغول بعد ذلك فى الاستعداد كل لمواجهة الآخر ، فنرى علاء الدين خوارزم شاه يستطلع أخبار المغول ويجهز الجيوش ويبنى الأسوار حول المدن ، ويرسم خططه الحربية . أما جنكيزخان فقد انصرف بدوره إلى الاستعداد للمهمة الشاقة التى أخذها على عاتقه ، فنظم دولته فى الداخل وجهز جيوشه كما جهز معدات القتال ، حتى إذا أمن أعدائه فى داخل دولته ، وأمن شر القبائل التى كانت تتوق إلى التخلص من النير المغول ، قرر سنة ٦١٥هـ (١٢١٨م) التوجه إلى عدوه الخوارزمى .

وهكذا نرى أن مذبحة أترار جرت على المسلمين أكبر المصائب التى عرفوها فى تاريخهم ، حتى أن الجوينى علق على هذه المذبحة بقوله ، إن كل قطرة من دماء هؤلاء التجار قد كفّر المسلمون عنها بسيل من الدماء ، كما كلفتهم كل شعرة من رءوسهم مائة الف من أرواحهم[٣] .

وهكذا حلت بالعالم الإسلامى تلك الكارثة الكبرى ، إذ حطم المغول حضارة المسلمين ، وأعملوا فيهم القتل والتعذيب والتشريد ، وأصبحت مدنهم أثرا بعد عين

٥ – بعض مظاهر الحياة الداخلية فى الدولة الخوارزمية

(ا) الحياة الاجتماعية

نشأت الدولة الخوارزمية كما رأينا ، على أكتاف القوى التى كانت موجودة فى

---

(١) الديار بكرى : تاريخ الخميس فى أحوال أنفس نفيس ، ج ٢ ص ٣٦٨ .

(٢) Douglas : The Life of Jenghiz Khan, p. 15.

(٣) Vambery : History of Bokhara, p. 117.

ذلك الوقت بعد أن قضت عليها قضاء تدريجيا ، فابتلع الخوارزميون أملاك السلاجقة فى فارس ، وأجهزوا على الدولة الغورية بعد الاستيلاء على عاصمتها غزنه ، كما استولوا على بلاد ما وراء النهر . وكان طبيعيا أن ترث الدولة الخوارزمية ما وجدته فى هذه الأقاليم ، من نظم وحضارات وثقافات متباينة أوجدتها العناصر الحاكمة المختلفة التى توالت على حكم هذه الأقاليم ، فضلا عما جلبته العناصر المحكومة المختلفة الأجناس التى نزحت إلى هذا المسرح الجغرافى ، فى أوقات وظروف مختلفة .

نعلم أن سكان الأقاليم التى شغلتها الدولة الخوارزمية والتى كانت جزءا رئيسيا من أملاك الدولة العباسية ، كانوا مزيجا من الفرس والعرب والأتراك ، الذين تجمعوا نتيجة للأحداث التاريخية المختلفة التى دفعت بكل عنصر من هذه العناصر إلى هذه البلاد ، فقد فتح العرب بلاد فارس وسلبوها من أيدى حكامها الفرس ثم استوطنوا أقاليمها المختلفة ، وحاولوا أن يطبعوها بطابع عربى صميم ، رغم أن العناصر الفارسية أخذت تعمل منذ البداية على استرجاع نفوذها القديم ، فتعددت حركات الفرس السياسية والدينية التى امتلأ بها العصر العباسى الأول .

وفى الوقت الذى كانت العناصر الفارسية تحاول استرجاع نفوذها القديم ، كانت العناصر التركية تتسلل إلى جوف الدولة العباسية حتى عظم نفوذها وأصبحت تتحكم فى الدولة ، وجاءت أوقات اندفعت فيها هذه العناصر إلى الدولة العباسية اندفاعا فى شكل هجرات عامة ، ومن أقوى الأمثلة على ذلك ، الأتراك الغز ، الذين تفرع عنهم السلاجقة ، وهم من أقوى الأمثلة على تحكم العناصر التركية فى الدولة العباسية

ظهرت الدولة الخوارزمية على المسرح التاريخى ، وكانت فى بداية أمرها لا تعدو أن تكون إحدى الأتابكيات التى ظهرت نتيجة لانحلال الدولة السلجوقية . وأخذت تتوسع على حساب هذه الدولة نفسها بقدر ما كان يصيبها من ضعف ، حتى قدر لدولة السلاجقة فى فارس والعراق أن تزول على أيديهم . وهكذا نرى أن الدولة الخوارزمية باتساع رقعتها ، قد شملت عناصر السكان الذين ضمتهم الدولة السلجوقية وهى العناصر الفارسية والعربية والتركية ، على أن الغلبة كانت للعنصر الأخير بعد أن لبس العنصران الآخران ثوب المغلوب على أمره .

وكانت سياسة الدولة الخوارزمية نحو العناصر التركية خير مشجع لهذه العناصر على النزوح إلى أراضيها والإستيطان فيها ، فقد نزح إلى أراضى هذه الدولة عدد كبير من رجال القبائل التركية المرابطة على حدودها فى الشمال ، ومنها قبائل كانكالى Cancalis ، وخاصة بعد أن ارتبط علاء الدين تكش خوارزم شاه بأحد فروع هذه القبائل برباط المصاهرة ، فكان من أثر هذه الرابطة أن نزح عدد كبير من رجالها إلى قلب الدولة ، وتكونت منهم جالية قوية أخذت تتحكم بالتدريج فى وظائف الدولة المختلفة ، كما أخذت تسيطر على أقاليمها المتعددة ، وانتهى الأمر بهؤلاء الحكام إلى أن نافسوا سلاطين الخوارزميين أنفسهم(١) ، بل نراهم فى كثير من الأحيان يعمدون إلى إرهاب الأهالى المغلوبين على أمرهم ، وإعمال السلب والنهب فى أموال المسالمين منهم حتى اضطرب الأمن فى البلاد ، وعجزت الدولة كما عجز الأهالى عن رد عادية المعتدين منهم .

وقد امتلأت الدولة الخوارزمية أيضا بالأتراك الذين ينتمون إلى قبائل القفجاق فى شمال البحر الأسود ، فقد نزح عدد كبير من أفراد هذه القبائل إلى قلب الدولة نتيجة لارتباط الخوارزميين بهم بروابط المصاهرة(٢) كما حدث مع قبائل كانكالى ، ومن الطبيعى أن تزيد هذه العناصر الجديدة من متاعب الخوارزميين ، إذ فضلا عما تسببه من اضطراب سياسى فى قلب الدولة ، كان من الصعب عليها أن تخضع للقوانين الإجتماعية التى تجدها فى البلاد ، إذ لابد لها من أن تحافظ على نظمها وتقاليدها الإجتماعية التى عرفتها فى بلادها الأصلية ، مما جعلها تقف موقفا أقرب إلى الشذوذ منه إلى الحياة العادية ، بالنسبة لأهالى البلاد الأصليين .

وقد توغل نفوذ الأتراك فى الدولة الخوارزمية لدرجة عجز معها سلاطين هذه الدولة عن كبح جماحهم ، فاضطروا إلى إرضائهم بشتى الوسائل والأساليب . تارة بمنحهم الخلع والهبات والأعطيات ، وتارة أخرى بإسناد حكم أقاليم الدولة إليهم . ولما أفلس الخوارزميون من هذا وذاك ، لم يجدوا أمامهم إلا ألقاب الشرف فأسرفوا فى إعطائهم إياها ، كما حدث فى عهد كل من علاء الدين خوارزم شاه وجلال الدين منكبرتى .

---

(١) النسوى : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى ، ص ٣٠ — ٣٢ ، ص ٤٢ .
(٢) المرجع السابق ، ص ١٧٢ .

ومن الثابت أن الحروب المستمرة التي سادت عصر الخوارزميين ، كان لها أثرها في حياتهم العامة في مدنهم المختلفة ، فنراهم يحيطون هذه المدن بالأسوار المنيعة ، ويشيدون قصورهم ومبانيهم داخل هذه الأسوار ، وفضلا عن ذلك شيدوا القلاع داخل المدن ليلجأ إليها السكان المدنيون والعسكريون إذا ما هدد المدينة خطر خارجي ، ولذلك لم يقتصر الأهالي على تشييد الثكنات العسكرية فيها ، بل امتلأت هذه القلاع بالمنازل التي أعدت خصيصا لإيواء الأهالي إذا ما دعا الداعي ، وكان غالبية السكان من أثرياء المدينة وفقرائها ، يملكون المنازل في هذه القلاع ، واحتفظ السلطان لنفسه بقصر جميل في كثير منها (١) .

إذا انتقلنا إلى قصور سلاطين الدولة الخوارزمية ، نرى أنهم رغم انشغالهم بالحروب في الداخل والخارج ، لم ينسوا أن يحيطوا أنفسهم بأنواع من الأبهة والعظمة ، كما لم ينسوا أن يملئوا قصورهم بكل مباهج الحياة ومسراتها ، كما ملئوا قصورهم بالأدباء والشعراء من الفرس والعرب ، وكان لهؤلاء نصيب كبير من عنايتهم وتشجيعهم رغم أن سلاطين الدولة الخوارزمية كانوا لا يعرفون من اللغات إلا اللغة التركية ، وإن كان بعضهم يعرف من اللغتين العربية والفارسية النذر اليسير (٢) . ولم ينس الخوارزميون أن يملئوا قصورهم أيضاً بالأعداد الكبيرة من المماليك الذين اشتروهم من أسواق النخاسة ، وكان أكثرهم من الأتراك ممن اشتهروا بجمال الخلقة ، وكان يقوم بالإشراف على هؤلاء رجل سمي « مشرف المماليك » يتولى النظر في الأمور المتعلقة بهم ، وينظر في مشاكلهم ، ويتولى الحكم فيهم (٣) ومن الوظائف الهامة في قصور الخوارزميين وظيفة « مقدم الفراشية » (٤) ، وهو الذي يشرف على « بيت الفراش » الذي يحوي البسط العديدة والخيام التي كانت من مستلزمات الحياة عند الخوارزميين . ومن وظائف قصور الخوارزميين أيضا « الطشت دار » (٥) ، وهو أحد الموظفين الذين

---

(١) النسوي: سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ، ص ٥٠ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٣ ، ٢٤٧ .

(٣) القلقشندي : صبح الأعشى في صناعه الإنشا ، ج ٤ ص ٢١ والنسوي : ص ١٤٣ .

(٤) النسوي : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي، ص ١٩٢ .

(٥) المرجع السابق ، ص ٢٣ .

يعملون فى « الطشت خاناه » أى المكان الّذى يحوى الطشت الذى تغسل فيه الأيدى ، والطشت الذى تغسل فيه الأقمشة (١) .

وقد حرص الخوارزميون على أن يلحقوا بقصورهم بيوتا عرف كل منها باسم « بيت الركاب » ، ويحوى خيل السلطان وحاشيته ، والعربات التى كان يستعملها هؤلاء السلاطين فى تنقلاتهم . ومما هو جدير بالذكر هنا أن السلطان الخوارزمى كان يحرص ، إذا انتقل من مكان إلى مكان ، على أن يحيط نفسه بمظاهر الأبهة والعظمة ، فيركب عربته يتقدمها حرسه الخاص كما يتقدمه رجل يدعى « مقدم الجاويشية » (٢) مهمته ، إفساح الطريق أمام عربة السلطان ، وتنبيه الناس إلى شخصية راكبها .

ولم يفت سلاطين الخوارزميين أن يقيموا الأسمطة والولائم فى مختلف المناسبات ، يدعون إليها وزراءهم وكبار رجال دولتهم ، وكانت هذه الأسمطة تمد غالبا فى المواسم والأعياد وعند استقبال سفراء الملوك ، وفى هذه الحالة كان « الساقى » هو الذى يشرف على مد السماط وتقطيع اللحوم وتقديم الماء والمشروبات أثناء الطعام وبعده (٣) .

أما أموال السلطان فكان يشرف عليها رجل يعرف باسم « أستاذ الدار » أو « الأستادار » ، ترد إليه الأموال من خزانة الدولة ومن ولاياتها المتعددة ، فيتولى هو الصرف على المخابز والمطابخ والاصطبلات وجرايات الحاشية (٤) ، وبمعنى آخر كان هذا الرجل يتصرف فى كل ما يحتاجه بيت السلطان من النفقات والكساوى إلى غير ذلك (٥) .

---

(١) كان « الطشت خاناه » يحوى ملابس السلطان وكذا القماش والمخاد والسجاد الذى يصلى عليه السلطان ؛ ويُعرف الصبيان الذين يعملون فى هذا المكان بالطشت دارية ، ويعرف بعضهم بالرختوانية .
القلقشندى : صبح الأعشى ، ح ٤ ص ١٠ — ١١ .

(٢) النسوى : ص ١٣٣ . والجاويش أو الشاويش أو الجاووش لفظ تركى وجمعه جاويشية . والجاويش أيضا جندى من رتبة بسيطة يكلفه مخدومه بحمل الرسائل وتبليغها .
أنظر المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج ١ قسم ٣ ص ٨٧٠ حاشية ٢ .

(٣) القلقشندى : صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ، ج ٥ ص ٤٦٩ . ومما هو جدير بالذكر أنه كانت توجد هناك وظيفة أخرى تتعلق بطعام السلطان وهى وظيفة « الجاشنكير » ، وهو الذى يقوم بذوق أصناف الطعام والشراب المختلفة قبل أن يأكل منها السلطان ، خوفا من أن يكون هذا الطعام أو الشراب مسموما . وتتركب هذه الكلمة من لفظين فارسيين « جاشنا » ومعناه الذوق والثانى « كير » ومعناه المتعاطى .
القلقشندى : صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ، ج ٥ ص ٤٦٠ .

(٤) النسوى : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى ، ص ١٧٨ — ١٧٩ .

(٥) القلقشندى : صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ، ج ٤ ص ٢١ .

ولا يفوتنا أن نذكر هنا أن الحجابة كانت من أهم مميزات السلطنة عند الخوارزميين ، وخاصة فى أواخر أيامهم (١) فقد كان للخوارزميين حجاب مهمتهم حجب السلطان عن العامة وغلق بابه دونهم أو فتحه لهم فى الأوقات المناسبة ، وليس هناك من شك فى أن ذلك من أكبر الأدلة على ضعفهم .

وإن ما نراه فى قصور سلاطين الخوارزميين من مظاهر الأبهة والترف ، وما نراه فيها من وظائف اقتبسوها عن البلاد التى آلت إليهم بعد اتساع رقعة دولتهم ، كل ذلك نراه ظاهراً واضحاً ولكن بصورة مصغرة فى قصور الوزراء وحكام المقاطعات فى الدولة الخوارزمية ، إذ لم يتردد هؤلاء الوزراء والحكام فى أن يسيروا سيرة سلاطينهم ، وخاصة بعد أن تبينوا ضعفهم ، وأصبحت سلطتهم فى أقاليم الدولة لا تكاد تعدو السلطة الإسمية ، وكان هؤلاء الوزراء والحكام فى الأقاليم يتحكمون فى موارد الدولة ، ولا يبعثون إلى خزانة السلطان إلا ما يجودون به . وقد أسس كل حاكم فى ولاية أو مدينة دواوين متعددة ، ولكن على نماذج مصغرة ، تحاكى دواوين السلطان نفسه .

ومما هو جدير بالذكر أن سلاطين الدولة الخوارزمية لم يستقروا فى بلد واحد يشرفون منه على شئون دولتهم المتباعدة الأطراف ، ولكن على العكس من ذلك اتخذوا لأنفسهم أكثر من عاصمة ، فنراهم تارة فى مرو عاصمة خراسان ، وتارة أخرى فى سمرقند عاصمة بلاد ما وراء النهر ، وتارة ثالثة نراهم يقيمون فى أصفهان كبرى مدن العراق العجمى . وكانت تنقلاتهم الكثيرة من الضروريات التى أملتها عليهم سياستهم الخارجية وحروبهم المتواصلة .

ومما هو جدير بالذكر أيضاً ، أن سلاطين الخوارزميين كانوا فى حاجة إلى أن يوطدوا علاقاتهم السياسية مع أمراء دولتهم ومع الحكام المجاورين لهم ، بكثير من الروابط التى تضمن لهم ولاءهم ، وكانت أهم هذه الروابط هى رابطة الزواج من بنات هؤلاء الحكام ، وسنرى أن جلال الدين منكبرتى قد رحب بالزواج من بنات أتابكة كرمان وفارس ويزد وغيرهم ، توطيداً لأواصر الصداقة بينه وبين هؤلاء الحكام ، وتعزيزاً للروابط السياسية بينه وبينهم .

---

(١) النسوى : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى ، ص ٦٥ .

(ب) نظام الحكم

على الرغم من أن العصر الذى قامت فيه الدولة الخوارزمية، كان عصراً سادت فيه الحروب كما سادت فية القلاقل والثورات فى قلب الدولة، فإن ذلك لم يمنع الخوارزميين من أن يحاولوا إصلاح شئون دولتهم فى الداخل، فأخذوا تلك النظم التى وجدوها فى البلاد التى آلت إلى حكمهم، واقتبسوا الكثير من نظم السلاچقة بوجه خاص.

علمنا أن السلاچقة دخلوا بغداد لينقذوا الخلفاء العباسيين من تلك الآلام التى قاسوها على أيدى البويهيين، واستطاعوا فعلا أن يزيلوا سلطانهم وأن يفكوا تلك الأغلال التى وضعها البويهيون فى أيدى الخلفاء، على أن السلاچقة بعد أن استقر لهم الأمر فى العراق وفارس، أخذوا هم بدورهم يلعبون مع الخلفاء نفس الدور الذى لعبه البويهيون معهم، ومن ثم أصبح الخلفاء العوبة فى أيديهم، يعزلون ويشردون إذا حاولوا الحد من سلطة آل سلچوق، بل استطاع السلاچقة أن يقتلوا أو يوعزوا بقتل من يحاول أن يرفع من شأن الخلافة. وعلى الرغم من ذلك فمن الثابت أن البويهيين والسلاچقة، مع عظم نفوذهم فى الدولة العباسية، لم يحاولوا أن يزيلوا الخلافة، بل على العكس حرصوا على بقائها، كما حرصوا على أن يتقلدوا السلطة بتفويض من الخلفاء باعتبار الخليفة مصدر قوة المسلمين، وبذلك يمكنهم أن يكسبوا حكمهم صفة شرعية فى نظر الشعوب المحكومة [1]. وعلى هذا الأساس كان الخليفة العباسى يمثل السلطة الدينية فى الدولة، وكان البويهيون والسلاچقة يمثلون السلطة الزمنية، وهذا يشبه من بعض الوجوه ما حدث فى أوروبا فى العصور الوسطى، حين كان الأباطرة يمثلون السلطة الزمنية وكان البابوات يمثلون السلطة الروحية. ويشبه النزاع الذى قام بين الأباطرة وبين البابوات فى أوروبا، النزاع الذى قام بين الخلفاء العباسيين من جهة وبين البويهيين والسلاچقة من جهة أخرى.

ورث الخوارزميون أملاك السلاچقة كما رأينا، وورثوا أيضا ذلك النزاع التقليدى بين السلطتين الزمنية والدينية حين نشأ الصراع بينهم وبين الخلافة العباسية، على أن

(١) الدكتور حسن ابراهيم حسن: النظم الإسلامية، ص ١٠٠.

لوحة ٦



صحن من الخزف السلجوقي ذى الزخارف المحفورة والمتعددة الألوان ، من القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى)
فى متحف كليفلاند

(عن كتاب الفنون الإيرانية فى العصر الإسلامى للدكتور زكى محمد حسن)

الخوارزميين كانوا يحرصون فى كل دور من أدوار النزاع على بقاء الخلافة ، وأكثر من ذلك نراهم يحرصون على أن يعترف الخلفاء بسيادتهم على الأملاك التى تؤول إليهم بحد السيف [١] . وإذا كان الخلاف قد استفحل بين الخوارزميين أيام علاء الدين خوارزم شاه ، وبين الخليفة الناصر لدين الله العباسى ، وحاول الخوارزميون إزالة الخلافة العباسية من بغداد ، فانهم لم يشرعوا فى تنفيذ هذه الفكرة إلا بعد أن أقاموا خليفة من صنائعهم ، استندوا إلى شرعية سلطته ، على الرغم من أن هذا الخليفة كان شيعيا . وبعد أن استند الخوارزميون إلى ذلك التفويض الذى منحهم الخليفة الجديد إياه ، شرعوا فى تنفيذ خطتهم التى ترمى إلى إزالة الخلافة العباسية من بغداد . على أن الخوارزميين أصيبوا فى ذلك بفشل ذريع كما رأينا ، فاضطروا بعد ذلك إلى الاعتراف بسلطان الخليفة العباسى الشرعى على دولتهم ، كما حرصوا على إرسال الهدايا إلى بلاط بغداد ، كيما يبعث إليهم الخلفاء الخلع والهدايا فى شتى المناسبات .

من كل ما سبق نرى أن الخوارزميين وجدوا ألا سبيل إلى استقرار الحكم فى دولتهم إلا بالاستناد إلى سلطة دينية شرعية ، تقوى من مركزهم فى نظر الشعوب التى حكموها ، هذا على الرغم من تجدد النزاع بين الطرفين كما سنرى .

وقد سار الخوارزميون فى حكم دولتهم ، وفق النظم التى وجدوها فى البلاد التى دخلت تحت أيديهم ، والتى تعاقبت الأسرات الإسلامية المختلفة على حكمها ، منذ قيام الدولة العباسية ، فلا عجب إذا رأينا بعض نظمهم مقتبساً عن السلاجقة ، والبعض الآخر كان نتيجة لتطور هذه النظم فى الدولة الإسلامية . فنظام السلطنة كان نظاماً وراثياً كما كان الحال فى عصر السلاجقة ، وقد احترم الخوارزميون هذا النظام ، وحرصوا على ألا يرث السلطنة إلا الأرشد من أبناء السلطان الراحل ، ولم يشذ الخوارزميون على هذه القاعدة إلا فى عهد علاء الدين خوارزم شاه ، حين اضطر هذا السلطان أن يعهد بالملك من بعده لابنه أزلاغ شاه متخطياً ابنه الأكبر جلال الدين منكبرتى ، وكان فى ذلك مدفوعا بنفوذ أمه تركان خاتون ، ومع ذلك عاد علاء الدين خوارزم شاه إلى

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ٧٢ .

صوابه وهو على فراش الموت ، وعهد بولاية العهد لابنه جلال الدين منكبرتى حرصاً منه على مصلحة دولته [١].

ولم يظهر السلطان الخوارزمى بمظهر الحاكم المستبد فى دولتـــه ، لذلك استعان بالوزراء فى تصريف الأمور . وقد أحاط الخوارزميون وظيفة الوزارة بكل مظاهر الهيبة والجلال ، وليس أدل على هيبة هذا المنصب عندهم من أنهم كانوا يعظمون وزراءهم ويجلسونهم على يمينهم فى المجالس العامة ؛ هذا فضلا عن أن الوزير كان لا يقف لمن يدخل عليه وهو فى دست الوزارة مهما علت منزلته [٢] .

وقد عهد الخوارزميون بحكم أقاليم دولتهم إلى رجال أطلقوا على الكثيرين منهم لقب «وزير» ، فكان لكل مدينة أو مقاطعة حاكم يُلقب فى غالب الأحيان بهذا اللقب . وكان الوزراء يعيشون فى الأقاليم التى تسند إليهم الوزارة فيها ، من إقطاعات خاصة يمنحهم السلطان إياها ، فيستولون على دخلها ، وتكون لهم بمثابة ضيعات خاصة ، هذا إلى جانب مرتباتهم بحكم الوظيفة [٣]؛ أما ما يدفعه الوزير لخزانة الدولة سنويا فكان فى العادة عشر خراج الإقليم الذى يحكمه [٤] .

وكان منصب الوزارة أكبر عون للخوارزميين طالما كان السلطان الخوارزمى مهيمناً على شئون الدولة ، ولكن لما ازداد نفوذ الأتراك وتحكمت تركان خاتون وعشيرتها فى الدولة بحيث أصبحت تنافس نفوذ السلطان نفسه ، صار هذا المنصب من أكبر عوامل إضعاف الدولة الخوارزمية ، إذ خرج الوزراء على طاعة السلطان واستبدوا بموارد الدولة وثرواتها ، وأصبحوا لا يرسلون إلى خزانة الدولة إلا ما يتصدقون به على السلطان . ومما هو جدير بالذكر فى هذا المقام أن علاء الدين خوارزم شاه لما انعدمت ثقته فى وزرائه ، أمر بتشكيل مجلس يتكون من ستة من كبار رجال الدولة ، وأسند إليهم تصريف شئونها ، ولكن شرط عليهم ألا يبتوا فى أمر إلا بإجماع الآراء [٥] .

---

(١) النسوى : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى ، ص ٥٥ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ١٠٤ .

(٣) المرجع نفسه ، ص ١٤٩ .

(٤) المرجع نفسه ، ص ١٥٣ .

(٥) المرجع نفسه ، ص ٣٢ .

ولا شك أن هذا يدلنا على عدم ثقة الخوارزميين فى وزراء الدولة ، عندما اتسعت رقعتها وتدخل الأتراك فى الحكم .

اتسعت الدولة الخوارزمية على نحو ما رأينا ، وأصبح الخوارزميون بحكم موقع دولتهم ومجاورتهم لكثير من الدول والإمارات والأتابكيات ، فى حاجة إلى تنظيم علاقاتهم الخارجية ، إما بإرسال مبعوثيهم وسفرائهم إلى هذه القوى ، وإما بتبادل المعاهدات معها . وقد أوجد الخوارزميون ديوان الإنشاء [1] ليكون وسيلتهم فى تنظيم هذه العلاقات وكان رئيسه عندهم يعرف ، كما يقول النسوى ، بصاحب ديوان الإنشاء ، أما من كان يتولى الكتابة فى هذا الديوان فكان يلقب بكاتب الإنشاء [2].

وقد رأينا كم من معاهدة عقدها الخوارزميون مع الدولة الغورية ودولة السلاجقة ودولة الخطا قبل زوالها ، ومع أتابكيتى فارس وأذربيجان فضلا عن الخلافة العباسية وطائفة الإسماعيلية ، بل ومع المغول أنفسهم قبل أن يكتسحوا هذه الدولة . ومن أشهر السفراء الذين عرفناهم فى الدولة الخوارزمية ، محمد النسوى مؤرخ حياة السلطان جلال الدين منكبرتى ، والذى كان سفيرا له لدى الخلافة العباسية وطائفة الإسماعيلية وغيرهما .

أما نظام الدولة المالى فقد أفرد الخوارزميون له ديواناً خاصاً [3] يشرف عليه

---

(١) كان ديوان الإنشاء أول ديوان وضع فى الإسلام ، إذ كان النبى فى حاجة إلى أن يكاتب أمراءه وأصحاب سراياه ، كما كان فى حاجة إلى الكتابة إلى الملوك العديدين بغية دعوتهم إلى الإسلام ، وكان يقوم بالكتابة فى عهد النبى أبو بكر الصديق ، وعلى بن أبى طالب . على أن الكتابة فوضت إلى كاتب مختص فى عهد الأمويين ، ومن أشهرهم عبد الحميد الكاتب . فلما جاءت الدولة العباسية كان ديوان الإنشاء يُضاف تارة إلى الوزارة وتارة يعهد إلى كاتب يختص به ، وفى الحالة الأولى أضيف لقب الكتابة إلى الوزارة ، أما فى الحالة الثانية ، فقد عرف هذا الديوان بديوان الرسائل ، وكان من يتولاه يسمى صاحب ديوان الرسائل أو متولى ديوان الرسائل ، وربما قيل صاحب ديوان المكاتبات أو متولى ديوان المكاتبات؟ وقد عرف هذا الديوان فى أحيان أخرى بديوان الإنشاء ، وفى هذه الحالة لقب من يتولاه بصاحب ديوان الإنشاء ، ومن أشهر كتاب العباسيين ووزرائهم ، يحيى بن خالد البرمكى ، وابن المقفع مترجم كتاب كليلة ودمنة .

القلقشندى : صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ، ج ١ ص ٩١ — ١٠٤ ، ج ٣ ص ٤٩٠ — ٤٩٢ ، ج ٥ ص ٤٦٤ — ٤٦٥ . والمقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج ١ قسم ١ ص ٢٤٥ حاشية ٢.

(٢) النسوى : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى ، ص ٣٢ .

(٣) الديوان كلمة فارسية معناها سجل أو دفتر ، ثم تطور استعمال هذا اللفظ فأطلق من باب المجاز على =

رجل عرف بالخازن (١) أو الخازندار ، يساعده موظفون مختصون يقومون بتسجيل الوارد والمنصرف من الأموال. أما موارد الدولة فكانت فى العادة عبارة عن الضرائب التى يفرضها السلطان على أقاليم الدولة المختلفة ، وكانت هذه الضرائب تختلف باختلاف ثروة الأقاليم . ويجب أن نذكر ، من باب إحقاق الحق ، أن الجزء الأكبر من الضرائب المفروضة على أقاليم الدولة كان يذهب إلى جيوب الحكام ولا يصل منه إلى خزانة الدولة إلا النذر اليسير ، وخاصة بعد أن زالت هيبة سلاطين الدولة الخوارزمية ، وأصبح حكام الأقاليم شبه مستقلين عن السلطان ، ولا يبعثون إلى سيد الدولة إلا ما يجودون به ، وكان السلطان لا يملك إلا أن يوافق مجبراً . وفضلا عن هذا المورد الضئيل ، كان الخوارزميون يجمعون بعض المال من البلاد التى تدخل تحت أيديهم بحد السيف ، سواء أكانت هذه البلاد من التى دخلت تحت حكم الخوارزميين المباشر ، أو التى ترك الخوارزميون حكامها فى مناصبهم نظير جزية سنوية ، كأتابكيتى فارس وأذربيجان . وكان كل ما يتجمع لدى الخوارزميين يصرف فى العادة إما فى قصور السلاطين على نحو ما ذكرنا ، وإما على شئون الدولة العامة وعلى الأخص على الجيوش ، بسبب استمرار الحروب مع القوى المختلفة المحيطة بالدولة الخوارزمية .

وكان « ديوان الجيش » من أهم دواوين الدولة الخوارزمية ، ففيه يدبر كل مايلزم الجيش من أسلحة وذخائر وعتاد وأموال ، ويتبع هذا الديوان « بيت السلاح » الذى تحفظ فيه الأسلحة المختلفة ، ويقوم بالعمل فيه عدد كبير من الصناع يشتغلون فى إصلاح الأسلحة (٢) ، ويشرف على هذا البيت رجل عرف « بالسلاح دار » (٣). أما جيوش الدولة فكان ينظر فى شأنها رجل عرف « بصاحب الجيش » (٤) ، فيعرض

= للمكان الذى تحفظ فيه السجلات الخاصة بأمور الدولة المختلفة. وقد اقتبس عمر بن الخطاب نظام الدواوين فى الدولة الإسلامية بعد أن اتسعت الفتوحات فى عهده ، وأصبحت الحاجة ماسة إلى ضبط أمور الدولة ، فأنشأ ديوان الجند لكتابة أسماء الجند ، وديوان الخراج لتدوين مايرد إلى بيت المال من أموال . ثم اتسعت هذه الدواوين وتعددت فى عصر الدولتين الأموية والعباسية .
الدكتور حسن ابراهيم حسن : النظم الإسلامية ، ص ٢١٥ — ٢٢٣ .

(١) النسوى : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى ، ص ١٤٨ .
(٢) القلقشندى : صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ، ج ٤ ص ١٢ .
(٣) النسوى : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى ، ص ١٤٤ .
(٤) المرجع نفسه ، ص ١٠١ .

الأجناد وخيولهم إذا ما خرجوا للقتال . ويجب ألا نفهم من هذه الصورة أن الخوارزميين كان لهم جيش ثابت قوى ، فالحقيقة أن جيشهم كان يتكون كما ذكرت فى مواضع أخرى من عناصر متباينة لا يربطها رابط ، فلم يستطع الخوارزميون أن يثقوا بجيوشهم كل الثقة ؛ وكان السلطان فى الغالب يقود الجيوش بنفسه ويلازمه حرسه الخاص .

وكان النظام القضائى فى عصر الدولة الخوارزمية من الأمور التى أولاها سلاطينهم عناية كبيرة ، فعينوا لكل مدينة قاضياً يحكم فى الناس حسب الشريعة الإسلامية [١] . وفى المدن الكبرى التى يبدو فيها الاختلاف المذهبى بين السكان واضحاً ، كان الخوارزميون يعينون فيها أكثر من قاض لينظر كل فيما يعرض عليه من قضايا ويحكم فيها وفق مذهبه . وكان القضاة ، إلى جوار النظر فى القضايا ، يقومون بتدريس العلوم الدينية فى المدارس والمساجد [٢] .

وكان نظام الحسبة عند الخوارزميين من المسائل التى ترتبط بنظامهم القضائى [٣] ، وكان المحتسب يقوم بمراقبة حركة البيع والشراء ، فكان يسير فى صحبة بعض رجال الشرطة فى الأسواق ، يراقب المكاييل والموازين ويضبط من يحاول الغش فيها ، كذلك كان يراقب المأكولات المختلفة ويوقع العقوبات على من يبيع طعاماً فاسداً ؛ وفضلا عن ذلك كان عليه أن يحافظ على النظام فى الأسواق ، وأن يحول دون بروز الحوانيت فى طرقاتها ، مما يعوق نظام المرور [٤] . ونلاحظ أن المحتسب كان ينظر فى القضايا التى تتعلق بالنظام العام والجنايات أحياناً ، مما يحتاج الفصل فيها إلى السرعة وهذا يخالف اختصاصات القضاة الذين كانوا يقومون بفض المنازعات التى ترتبط بالدين بوجه عام [٥] .

---

(١) النسوى : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى ، ص ٢٩ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ٤٩ . (٣) المرجع نفسه ، ص ٩٤ .

(٤) كانت وظيفة المحتسب من الوظائف ذات الشأن عند المسلمين بوجه عام وعند الفاطميين بوجه خاص ، « إذ كان للمحتسب نواب يطوفون فى الأسواق فيفتشون القدور واللحوم وأعمال الطهاة ويلزمون رؤساء المراكب ألا يحملوا أكثر مما يجب حمله من السلع ، ويشرفون على السقايين لضمان تغطيتهم القرب ، ولبس السراويل بما لا ينافى الآداب العامة ، ويمنعون معلمى الكتاتيب من ضرب الصغار ضربا مبرحا ... واتسعت سلطته حتى ألزم رجال الشرطة أن يقوموا بتنفيذ أحكامه » . الدكتور حسن ابراهيم حسن : النظم الإسلامية ص ٣٥٥ .

(٥) الدكتور حسن ابراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى ، ج ٣ ص ٥٠٠ .

وقد أدخل الخوارزميون فى نظمهم « ديوان المظالم » (١) وهو هيئة قضائية عليا تشبه محكمة الاستئناف فى الوقت الحاضر ، ويسمى رئيس هذا الديوان « صاحب المظالم » ، وكانت سلطته أعلى بكثير من سلطة القاضى (٢) . أما القضايا الكبرى التى يكون لها أهمية خاصة ، فكان السلطان فى الغالب ينظر فيها بنفسه ، إذ يعرضها عليه رجل يدعى « القصه دار » ، فى ليلة الجمعة من كل أسبوع .

وليس معنى ما تقدم أن نظام الحكم عند الخوارزميين كان نظاماً مستقراً ، فإن انصراف الخوارزميين إلى الحروب الداخلية والخارجية كان له أكبر الأثر فى انصرافهم عن الاهتمام بحالة الدولة الداخلية وأدّى ذلك إلى اضطراب نظم الحكم فى دولتهم .

(ج) الحيـــــاة الثقافية

وسط الحروب الدامية التى سادت الشطر الأكبر من حكم الخوارزميين ، نرى كثيرين من الأدباء والشعراء والكتاب يبرزون فى عهود سلاطينهم المختلفة ، بفضل تشجيع الخوارزميين أنفسهم ، وبفضل الحروب نفسها التى تكون فى كثير من الأحيان من أكبر العوامل وأقواها فى نشاط الشعراء والأدباء ، إذ يكثر فى أثنائها الشعر الحماسى ، كما يكثر مديح الأنصار وهجاء الأعداء .

وعلى هذا الأساس نرى الخوارزميين على الرغم من انشغالهم بتلك الحروب المتواصلة ، يولون العلم والأدب شطرا من عنايتهم ، فبرز كثيرون ممن كتبوا باللغة الفارسية فى شتى النواحى ؛ وكان عدد كبير منهم قد نزح إلى أقاليم هذه الدولة بدعوة من سلاطين الخوارزميين أنفسهم ، ومن هؤلاء ، زين الدين أبو ابراهيم اسماعيل بن حسن الجرجانى ، الذى قصد خوارزم سنه ٥٠٤ هـ (١١١٠ م) ، بغية الإقامة فيها ، على أثر دعوة وجهها إليه قطب الدين محمد خوارزم شاه (٤٩٠ - ٥٢١ هـ = ١٠٩٦ - ١١٢٧ م) . وقد عاش هذا الرجل فى كنف الخوارزميين ردحا طويلا من الوقت ، إلى أن توفى سنة ٥٣١ هـ (١١٣٦ م) ، وألف كتابا عرف باسم « ذخيرة خوارزم شاه » ، وهو من كتب الطب الشهيرة ويبحث فى الأمراض المختلفة وتشخيصها ، كما يبحث فى

(١) النسوى : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى ، ص ١٦٧ .

(٢) الدكتور حسن ابراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى ، ج ٣ ص ٤٩٨ .

الأدوية والسموم وغيرها (١) . ومن الكتاب البارزين أيضا رشيد الدين محمد عبد الجليل البلخي ، الذى لقب بالوطواط بسبب قصر قامته وقبح منظره (٢) . وقد دخل هذا الرجل فى خدمة الخوارزميين منذ أيام السلطان أتسز خوارزمشاه (٥٢١ — ٥٥١ هـ = ١١٢٧ — ١١٥٦ م) ، فاتخذ منه رفيقا خاصا ، كما جعله شاعراً للبلاط فى أيامه (٣).

وقد عمل الوطواط منذ دخل فى خدمة الخوارزميين على أن يكيل المديح للسلطان أتسز فى بعض المناسبات ، ويكيل الهجاء لأعدائه فى بعض المناسبات الأخرى . ومن أبرز هذه المناسبات ، ماحدث فى أثناء الصراع الطويل الذى قام بين الخوارزميين وعلى رأسهم السلطان أتسز من جهة ، وبين السلاجقة وعلى رأسهم السلطان سنجر من جهة أخرى ؛ ففى ذلك النزاع الذى أفضنا الكلام عنه ، لم يقتصر الطرفان المتحاربان على تبادل التراشق بالسهام والنبال ، بل تعديا ذلك الميدان إلى ميدان الشعر ، فاتخذ كل فريق شاعرا اختص بمديح صاحبه وهجو عدوه ، فكان رشيد الدين الوطواط شاعر الخوارزميين ، لا ينى عن كيل المديح لصاحبه أتسز وذم عدوه سنجر ؛ ولم يختلف الموقف بالنسبة للأنورى شاعر السلطان سنجر (٤) .

ومن المناسبات التى ظهرت فيها المباريات الشعرية واضحة جلية ، ما حدث فى خريف عام ٥٤٢ هـ (١١٤٧ م) حين ذهب السلطان سنجر لمحاربة عدوه السلطان أتسز خوارزم شاه وحاصر إحدى قلاعه المسماه هزاراسب (٥) ، إذ نظم الأنورى ، شاعر سنجر ، قصيدة ألقاها فى سهم على القلعة المحاصرة جاء فيها :

أيهـا ذا المليك ذو التاج يامن	كل مُلْك بالأرض فى راحتيكا
قدّر الله أن تسود بنى الدنيا	بمجد ألقى الزمام إليكا
فانتزع فى الهجوم حصن هزاراسب	بجيش يموج فى جانبيكا

(١) الدكتور رضا زاده شفق : تاريخ الأدب الفارسى ، ص ١٢٤ .

(٢) Browne : A Literary History of Persia, Vol. ii. p. 309.

(٣) Ibid , p. 309.

(٤) ولد أوحد الدين محمد الأنورى فى قرية من قرى خراسان ، وذاع صيته فى أيام السلطان سنجر . وقد تنقل الأنورى فى أغلب مدن خراسان وأقام فى كثير منها وخاصة فى مدينة بلخ . وكان فضلا عن أنه من أعظم الشعراء فى ذلك العصر ، واسع الاطلاع فى علوم الفلك . الدكتور رضا زاده شفق : تاريخ الأدب الفارسى ، ص ٩١ — ٩٣ .

(٥) هزاراسب قلعة حصينة بخوارزم غربى نهر جيحون . القلقشندى : صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ، ج ٤ ص ٤٥٥ .

مئة الألف من مهارى خوارزم   أراها الغداة بين يديكا (١)

ولما أرسلت هذه القصيدة ، رد عليها الوطواط بقصيدة قذفها فى سهم على عسكر الخوارزميين جاء فيها :

إذا كان رستم (٢) ياذا المليك   أهاج لحربك نقعا (٣) مثارا

فدون هزاراسب شم الجبال   وصيد الكواكب دون المهارى

أيحلم فى ألفك الصافنات (٤)   ويعجز ، لو رام منها حمارا (٥) ؟!!

اغتاظ السلطان سنجر لسماعه هذه الأبيات ، وأقسم إلا أن يقتل هذا الشاعر إن هو وقع فى يده ، فلما ساعده الحظ وتمكن من أسره ، أمر بقتله والتنكيل به ، وذلك بأن يقطع إلى سبعة أجزاء ، على أن السلطان سنجر ما لبث أن عفا عنه حينما قال له أحد خواصه مازحاً ، إن الوطواط طائر صغير لايحتمل أن يقطع إلى سبع ، فمن أن يقطع إلى قطعتين فقط . فلما سمع سنجر هذا القول ابتسم وصفح عنه (٦) .

ومما هو جدير بالذكر فى هذا المقام أن تشجيع السلطان أتسز خوارزم شاه لرشيد الدين الوطواط ، كان أكبر حافز له على تأليف كتابه المسمى « حدائق السحر فى دقائق الشعر » ، وهو من أقدم المؤلفات الفارسية المعروفة التى تعالج صناعة الشعر (٧) . ويجب أن نذكر هنا أن الوطواط لم يكتب بالفارسية فحسب ، بل كتب باللغة العربية أيضا ، وله فى ذلك رسائل معروفة (٨) . وقد استمر الوطواط فى خدمة

---

(١) نلاحظ أن هذه القصيدة ألفت بالفارسية وترجمها براون Browne إلى الانجليزية ، وقد حاولت قدر الإمكان أن أنقلها إلى شعر عربى لايختلف فى معناه عن الشعر الفارسى ؟ أما الأصل الفارسى لهذه الأبيات فهو :

أى شاه ! همه ملك زمين حسب تراست   وز دولت واقبال جهان كسب تراست

امروز بيك حمله هزاراسب بكير   فردا خوارزم وصد هزاراسب تراست

(٢) رستم ، من أشهر أبطال الفرس ، وكان الشعراء يكثرون من ذكره فى أشعارهم ويضربون الأمثال ببطولته . أنظر مقال الدكتور عبد الوهاب عزام عن « الصلات بين العرب والفرس وآدابهما فى الجاهلية والإسلام » فى عدد أكتوبر سنة ١٩٣٨ من مجلة المقتطف ص ١٦٠ .

(٣) النقع = التراب (٤) الصافنات = الخيول . (٥) الأصل الفارسى لهذه الأبيات هو :

گرخصم تو ، أى شاه ، شود رستم كرد   يك خرز هزاراسب تو نتواند برد

(٦) Browne : A Literary History of Persia vol. ii. pp. 309- 310.

(٧) الدكتور رضا زاده شفق : تاريخ الأدب الفارسى ، ص ١٢٤ .

(٨) أنظر مقال الدكتور عبد الوهاب عزام عن « الصلات بين العرب والفرس وآدابهما فى الجاهلية والإسلام » فى عدد أكتوبر سنة ١٩٣٨ من مجلة المقتطف ص ١٥٩ .

الخوارزميين فى عهد كل من السلطانين أيل أرسلان (٥٥١ — ٥٦٨ ﻫ = ١١٥٦ — ١١٧٢م) ، وابنه علاء الدين تِكِش (٥٦٨ - ٥٩٦ ﻫ = ١١٧٢ — ١١٩٩م) ، ونراه يمدح تكش بكثير من أشعاره عنـد توليه السلطنة . وعلى الرغم من تلك الحروب المتواصلة التى استغرقت عهـد السلطان تكش ، فقد طرق بابه كثيرون من الشعراء والأدباء والعلماء .

أما فى عهد علاء الدين خوارزم شاه (٥٩٦ — ٦١٧ ﻫ = ١١٩٩ — ١٢١٩ م) ، فقد برز كثيرون من الشعراء والأدباء وعلى رأسهم محمد بن قيس الذى كتب كتاب « المعجم فى معايير أشعار العجم » ، وهو من أهم الـكتب الفارسية التى تبحث فى العروض والقوافى ونقد الشعر . وقد ذكر المؤلف كثيرين من الشعراء المعاصرين له ، كما ذكر الـكثير من أشعارهم ؛ وقد كُتب هذا الـكتاب بالعربية ثم ترجم إلى الفارسية (١) .

ومما يدل على اهتمام علاء الدين خوارزم شاه وابنه جلال الدين منكـبرتى بالعلم والأدب ، أنهما كانا يقلدان من يبرز من العلماء والأدباء والشعراء بعض مناصب الدولة الهـامة ، ومن هؤلاء نصرة الدين حمزة بن محمد ، الذى تقلب فى مناصب الدولة المختلفة ومن بينها حكم مدينة «نَسَا» . وكان هذا الرجل يجيد نظم الشعر العربى والفارسى ؛ فمن أشعاره تلك القصيدة التى نظمها عند ما ألقت به المقـادير فى أحد السجون (٢) :

وإنى لفى قيـد هذا الزمان ... لكالدّر إذ بات حشو الصـدف
تحـلى بقـــدرى جيدُ العلى ... ونظّـم فضلى عِقـد الشرف
وإنى على الرغم من حسدى ... لأسلافى الصيدِ نعم الخلف
وإن كان أنكر قدرى الزمان ... فذا هفوةٌ صدرت عن حرف

---

(١) كان محمد بن قيس من أهالى مدينة الرى ، وعاش ردحا من الزمن فى خدمة علاء الدين محمد خوارزم شاه . ولما هاجم المغول بلاد الدولة الخوارزمية أخذ يتنقل من مدينة إلى أخرى إلى أن استقر فى أتابكية فارس ودخل فى خدمة الأتابك سعد بن زنكى سنة ٦٢٣ ﻫ (١٢٢٠ م)، وفى خدمة ابنه أبى بكر من بعده . الدكتور رضا زاده شفق : تاريخ الأدب الفارسى ، ص ١٩٥ .

(٢) النسوى : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى ، ص ١٠٥ . ولم يذكر هـذا المؤلف مع الأسف الظروف التى أحاطت بهذا الشاعر والتى كانت سببا فى سجنه .

فعن أمم تنجلى غمتى كبدر الدجى بعد ما قد خسف
وتاتى المقـــادير منقادة يقولون عفوك عما سلف

وليس أدل على احترام الخوارزميين لذوى المكانة العلمية ، من رعايتهم لأسرة الجوينى ، التى عظم نفوذ أفرادها فى عهدهم ، ووصل كثيرون منهم إلى أرقى مناصب الدولة فى عهد علاء الدين خوارزم شاه وجلال الدين منكبرتى[١] . ولا يفوتنا أن نشير هنا أن محمد النسوى الذى كتب عن الدولة الخوارزمية فى عهد جلال الدين منكبُرتى كان ممن شملهم هذا السلطان برعايته ، كما ذكرت فى مواضع أخرى .

ولم يقتصر تشجيع الخوارزميين على كبار رجال الأدب والعلم ، بل نراهم يهتمون بتثقيف الطبقات الدنيا من الشعب، فأسسوا المدارس فى مدن الدولة المختلفة ، أو على الأقل فى أمهات مدنهم . وكان يقوم بالتدريس فيها كبار الفقهاء والأدباء فى الدولة ، ومن هؤلاء شهاب الدين أبو سعد بن عمران ، الذى برز فى عهد كل من علاء الدين خوارزم شاه وجلال الدين منكبُرتى، وكان من المتضلعين فى أصول المذهب الشافعى ، كما كان أيضا من المتضلعين فى اللغة والطب ؛ ولعلو منزلته فى الدولة ، عُهِد إليه بالتدريس فى خمس مدارس بمدينة خوارزم ؛ وفضلا عما تقدم كان لهذا الرجل فضل كبير فى تأسيس دار للكتب فى هذه المدينة [٢] .

من كل ماسبق يتضح لنا أن الخوارزميين على الرغم من انشغالهم بمشاكلهم الحربية مع القوى المختلفة المتعددة فى داخل دولتهم وخارجها ، لم ينسوا أن يوجهوا طرفا من عنايتهم إلى العلم والعلماء .

---

(١) تنتسب أسرة الجوينى الى مقاطعة جوين من نواحى خراسان . وكان لهذه الأسرة من المكانة فى فارس ما كان لأسرة البرامكة فى بغداد فى عهد هارون الرشيد . وعقب غزوات جنكيزخان استعان حكام المغول فى فارس بأفراد هذه الأسرة فى حكم البلاد الإسلامية ، ومن هؤلاء بهاء الدين الجوينى الذى تولى تصريف شئون المغول المالية فى فارس فى عهد مانجوخان ، ومن المحتمل أن يكون ابنه علاء الدين عطا ملك الجوينى مؤلف كتاب « جهان كشاى » قد تولى هذا المنصب بعد وفاة أبيه ، واستمر بشغله الى أن توجه هولاكو بحملته الى غرب آسيا فرافقه فى هذه الحملة . وكان عطف هولاكو على هذه الأسرة عظيما ، فعين شمس الدين محمد — أخا علاء الدين عطا ملك — وزيرا له كما عين علاء الدين نفسه حاكما على العراق العربى وخوزستان ، واستمر فى حكم هاتين المقاطعتين طيلة عهد كل من هولاكو وابنه أباقاخان من بعده ، حتى توفى سنة ٦٨١ هـ (١٢٨٣م) . أنظر D'ohsson : Histoire des Mongols, Tom. 1. L'exposition, pp. 15. — 20.

(٢) النسوى : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى ، ص ٤٨ — ٤٩ .

الباب الثانى

جنكيزخان وغزو الدولة الخوارزمية

١ — الشرق الإسلامى إبان غزوات المغول .
٢ — المغول قبل غزو الدولة الخوارزمية .
٣ — المغول فى بلاد ما وراء النهر .
٤ — خضوع الأقاليم الغربية من الدولة الخوارزمية .
٥ — المغول فى إقليم خوارزم .
٦ — المغول فى خراسان
٧ — المغول فى إقليم غزنه .

الباب الثاني

جنكيزخان وغزو الدولة الخوارزمية

١ – الشرق الإسلامي إبان غزوات المغول

كان العالم الإسلامى وما أصابه من تدهور تدريجى بطىء ، من أكبر العوامل التى ساعدت المغول على نجاحهم عندما هم جنكيزخان بغزو الدولة الخوارزمية . لذلك كان لزاما علينا أن نصور حالة الشرق الإسلامى فى ذلك الوقت لنرى كيف مهدت الحوادث التاريخية فى الدولة الإسلامية لهذا الغزو . وأقصد بالشرق الإسلامى هنا ، بلاد العراق وفارس ، ومصر وبلاد الشام . ورغم أن الحوادث التاريخية فى هذه الفترة التى تعنينا فى هذا المسرح الجغرافى متشابك بعضها ببعض ، فقد حاولنا أن نميز أبرز الحوادث التاريخية كلا على حدة . فتكلمنا عن الخلافة العباسية وما أصابها من ضعف ، ثم تكلمنا عن انحلال الدولة الإسلامية فى داخل نطاق النظام السلجوقى ، كما تكلمنا عن مصر وبلاد الشام .

نشأت الدولة العباسية كما نعلم نشأة فارسية ، إذ اعتمد الخلفاء العباسيون على العنصر الفارسى فى تصريف شئون دولتهم ، ووصل هذا العنصر إلى ذروة المجد فى عهد الرشيد حينما تحكمت أسرة البرامكة فى الدولة ، ثم بدأ الخلفاء ينحرفون عن العناصر الفارسية عندما أدركوا أن زمام الأمور قد أفلت من أيديهم . على أن الخلفاء بدلا من أن يعودوا إلى العنصر العربى ، سلموا مقاليد الأمور فى دولتهم إلى العنصر التركى الذى أخذ يتغلغل فى الدولة . ويُعتبر الخليفة المعتصم أول من ألقى بهؤلاء الأتراك فى ميدان السياسة ، وربما كان فى ذلك متأثراً بأمه التركية الأصل [1] . وقد تفاقم أمر الأتراك فى بغداد فى عهد المعتصم نفسه ، وأصبح هؤلاء يدوسون النساء

---

(١) الدكتور حسن ابراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى ، ج ٢ ص ١٧١ .

والأطفال بخيولهم . فلما شكا أهل بغداد للمعتصم بنى لهم مدينة سامرا سنة ٢٢١ هـ (٨٣٦م) وأسكنهم فيها (١) . ولما استفحل أمر الأتراك ، استعان الخلفاء عليهم بالبويهيين الذين استولوا على بغداد سنة ٣٣٤هـ (٩٤٥ م) ، وكان الخلفاء فى ذلك كمن استجار من الرمضاء بالنار . وإذا تتبعنا تاريخ بنى العباس فى عهد البويهيين وجدناه عبارة عن سلسلة من المنازعات لا تنتهى بين هؤلاء وأولئك . على أن نتائج هذه المنازعات كانت واحدة دائما ، وهى الفوز للبويهيين يؤازرهم الأتراك ، والذلة للخلفاء . وكان الخليفة فى ذلك العهد لا يملك إلا ذكر اسمه فى الخطبة ونقشه على السكة . وفضلا عن ذلك كان البويهيون يتحكمون فى الخلفاء أنفسهم فيضعون فى كرسى الخلافة من يأنسون فيه الضعف ، ويخلعون منها من يحاول الخروج على طاعتهم ، هذا فضلا عما كان يلاقيه الخلفاء المعزولون من قتل وتعذيب وتشريد .

ولم يكن الخلفاء أحسن حالا فى عهد سلاطين السلاجقة الذين دخلوا بغداد سنة ٤٤٧ هـ (١٠٥٥م) . وعلى الرغم من أن نفوذ الخلفاء العباسيين قد ضعف أمام نفوذ السلاجقة الذين استبدوا بالسلطة ، فان الفترة الواقعة بين دخولهم بغداد ووفاة السلطان ملكشاه سنة ٤٨٥ هـ (١٠٩٢م) ، كانت من أزهى العصور الإسلامية ، إذ استطاع السلاجقة أن يوحدوا عالما إسلاميا لم يكن بالأمس غير أجزاء متناثرة متعادية ، بل إنهم أخذوا يوسعون أملاك المسلمين تدريجيا ، فاستطاع طغرلبك أن يمد نفوذه على بلاد الجزيرة وأرمينية ، كما استطاع خلفه ألب أرسلان أن يمد نفوذه على حساب الدولة الرومانية الشرقية ، حتى امتدت الدولة السلجوقية إلى بحر مرمرة بعد أن أوقع الهزيمة بالإمبراطور البيزنطى رومانوس Romanus وتمكن من أسره فى موقعة ملازكرد (٢) . ثم تمكن ملكشاه من أن يخضع سوريا وجورجيا فى الغرب ، وبخارى وسمرقند وخوارزم فى الشرق . ومن الحق أن نعترف بأن السلاجقة إذا كان لهم من فضل على العالم الإسلامى ، فهو أنهم أزالوا الدويلات الصغيرة القائمة فى ذلك الوقت ، وأوجدوا عالما موحدا يأتمر بأمرة حاكم واحد دفعوا به البيزنطيين إلى الوراء

(١) ابن طباطبا : الفخرى فى الآداب السلطانية ، ص ٢٠٥ — ٢٠٦ .

(٢) Defremery : Histoire des Seldjoukides. p. 437. (Journal Asiatique, Avril - Mai. 1848.)

كما أنهم أوجدوا جماعة من المحاربين المسلمين يرجع إليهم إخفاق الصليبيين ، وهذا ماجعل للسلاجقة أهمية كبرى فى التاريخ الإسلامى [١] .

وفى وسط هذه الظروف والأحوال التى تمتع فيها السلاجقة بمنزلة كبرى فى العالم الإسلامى ، نرى الخلفاء العباسيين فى المرتبة الثانية من الأهمية ، ذلك أن حالة هؤلاء الخلفاء فى ذلك العصر لم تختلف اختلافا كبيرا عما كانت عليه فى أيام البويهيين ، فإذا كان البويهيون قد استبدوا بالسلطة ، وغلوا أيدى الخلفاء ، فإن هذه السلطة انتقلت إلى أيدى السلاجقة ففعلوا بهؤلاء الخلفاء ما فعله البويهيون والأتراك بهم من قبل . ومما يدل على ضعف الخلفاء العباسيين فى هذا العصر ، أنهم كانوا يعيشون من إقطاعات مقررة يستولون على دخلها [٢] ؛ ولم يبق لهم من سلطانهم القديم سوى ذكر اسمهم فى الخطبة ونقشه على السكة . كما نلاحظ أن الخلفاء قد انصرفوا إلى الترف وحياة الدعة حتى قبل دخول السلاجقة بغداد ، فبنوا القصور الفخمة واحتجبوا عن الناس [٣] ؛ وليس هناك من شك فى أن مغالاتهم فى اتخاذ الحجاب تعد من أقوى مظاهر ضعفهم .

ويرجع ضعف الخلفاء العباسيين فى هذا العصر إلى السلاجقة أنفسهم ، فإن هؤلاء لم يحاولوا منذ دخلوا بغداد أن يأخذوا بأيدى الخلفاء ، بل على العكس وضعوا نصب أعينهم أن يسيروا فى سياستهم مع الخلفاء على غرار البويهيين ، فحدّوا من نفوذهم ، حتى إذا ما حاول أحد الخلفاء استعادة نفوذ أجداده ، سلطوا عليه جام غضبهم ، فعزلوه أو طردوه من بغداد ، ودسوا إليه من يقتله . وهكذا نرى أن السلاجقة إذا كانوا قد حطموا تلك الأغلال التى وضعها البويهيون فى أيدى الخلفاء ، فإنهم صنعوا من الأغلال القديمة أغلالا جديدة قيدوا بها الخلافة من جديد .

على أن ذلك ليس معناه أن الخلفاء العباسيين ركنوا إلى الذلة والمسكنة ، بل إنهم أخذوا منذ أيام الخليفة المسترشد (٥١٢ — ٥٢٩ هـ = ١١١٨ — ١١٣٥ م) يثورون لكرامتهم التى سلبت ، فانتهز الخلفاء منذ ذلك الحين ما آل إليه السلاجقة من ضعف

(١) Browne : A Literary History of Persia, Vol. ii. p. 165.

(٢) ابن الأثير : تاريخ دول الأتابكة : ملوك الموصل ، ص ٩١ — ٩٢ .

(٣) Le Strange : Baghdad During The Abbasid Caliphate, p. 327.

وما آلت إليه دولتهم من انحلال ، وأخذوا يعملون لأنفسهم غير مبالين بما يترتب على على ذلك من نتائج . وقد أثر عن الخليفة المسترشد أنه قال :

« فوضنا أمورنا إلى آل سلجوق فبرزوا علينا ، فطال عليهم »

« الأمـــد ، فقست قلوبهم ، وكثير منهم فاسقون » (١) .

لذلك لا نعجب إذا وجدنا الخليفة المسترشد يعمل منذ البداية وفق الخطة التى رسمها لنفسه ، فتجرأ على محاربة السلطان محمود السلجوقى فى سنة ٥٢٠ هـ (١١٢٦ م) (٢) .

وعلى هـذا النحو ، استمر الخلفاء العباسيون فيما بعد فى صراعهم حتى نجحوا فى إزالة نفوذ السلاجقة من العراق نهائيا بالقضاء على طغرلبك آخر سلاطينهم هناك فى سنة ٥٩٠ هـ (١١٩٣ م) .

على أن السلاجقة أنفسهم كانوا قد أخذوا فى الضعف منذ وفاة ملكشاه سنة ٤٨٥ هـ (١٠٩٢ م) لأسباب متعددة ، فإذا تركنا جانبا ذلك الصراع الذى نشب بين أبناء ملكشاه وأحفاده من جهة وبين الخلفاء العباسيين من جهة أخرى ، نرى أن هذه الدولة قد انهارت نتيجة عوامل ثلاثة :

١ – النزاع بين أفراد البيت السلجوقى .

٢ – استفحال شأن طائفة الإسماعيلية التى كان رائدها هدم جميع القوى الموجودة فى ذلك الوقت .

٣ – اتساع نطاق النزعة الإستقلالية بين دول الأتابكة ؛ إذ أن الضعف السياسى الذى أصاب دولة السلاجقة ، ولّد حركة انفصالية كان لها أكبر الأثر فى زيادة ضعف الدولة السلجوقية خاصة والعالم الإسلامى عامة . ويجب ألا يغيب عن بالنا أثر العوامل الخارجية التى شغلت أذهان سلاطين السلاجقة ومن أهمها الحروب الصليبية وظهور الدولة الخوارزمية الفتية ، التى بدأت تعمل لمصلحتها على حساب الدولة السلجوقية .

أورث السلطان ملكشاه لأبنائه إمبراطورية كبيرة ، كما أورث للعالم الإسلامى

---

(١) Nidhami - i - Arudi - i - Samarqandi : The Chahàr Maqàla, p. 38.

(٢) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ٢٧٠ – ٢٧٢ .

أبناء لم يستطيعوا أن يحافظوا على هذه الإمبراطورية ، فقد أعمتهم المصلحة الشخصية فأسكرتهم فانشقوا على أنفسهم ، واستهوتهم الحروب الداخليه حتى أعمتهم عن النظر فى مصالح تلك الإمبراطورية التى تعب الأولون فى تكوينها . ففى فارس والعراق ، نرى أبناء ملكشاه يتنازعون فيما بينهم كل يريد السلطة لنفسه ، وفى بلاد الشام طمع تتش بن ملكشاه فى مد نفوذه على مملكة أبيه ، وأدى ذلك إلى قيام حروب داخلية طال أمدها . وكان من أثر استمرار النزاع بين أبناء ملكشاه أن تفككت القوى الإسلامية وتحطمت ، وساعد ذلك على نجاح القوى الخارجية الطامعة فى اغتصاب ما تستطيع اغتصابه من العالم الإسلامى .

أما العامل الثانى الذى أدى إلى اضمحلال الدولة السلجوقية فهو طائفة الإسماعيلية (١) . فمنذ أن استتب الأمر للفاطميين فى مصر أخذوا يروجون للمذهب الشيعى فى بلاد المشرق، وكانوا يرمون من وراء ذلك إلى إضعاف الخلافة العباسية إذا لم يتمكنوا من القضاء عليها . غير أنه حدث أن انقسم أنصار هذه الدعوة منذ أيام الخليفة المستنصر الفاطمى (+٤٨٧ هـ = ١٠٩٤ م) ، فادعى بعض أنه أوصى بالخلافة من بعده لابنه نزار، وادعى بعض آخر أنه أوصى بها لابنه المستعلى، واتخذت الفرقة الأولى من بلاد المشرق مهدا لها بزعامة الحسن بن الصباح ، أما الفرقة الثانية فقد ظل أتباعها فى مصر . ولا يعنينا من تتبع تاريخ هذه الجماعة أن نتحدث عن دعوتهم الدينية إلا بالقدر الذى يعيننا على إيضاح هدفنا الأول ، وهو تأثير هذه الطائفة فيما أصاب بلاد المشرق من ضعف .

لم يأت الحسن بن الصباح إلى بلاد المشرق ليضعف العالم الإسلامى ولكنه استطاع أن ينتهز فرصة ما كان عليه هذا العالم من ضعف ، ليقوى هو بمذهبه ، فكانت النتيجة أن نشأ عامل جديد من عوامل إضعاف المسلمين ، عامل عنيف أدى إلى زيادة التفكك والانحلال ، إذ كانت السياسة المرسومة لنجاح هذه الطائفة تهدف إلى تقويتها على حساب

---

(١) سميت هذه الطائفة بالإسماعيلية لأن أتباعها كانوا يدينون بإمامة اسماعيل بن جعفر الصادق ؛ كما عرفوا بالباطنية لأنهم كانوا يبطنون خلاف ما يظهرون ؛ وسموا بالملاحدة لأن مذهبهم يقوم على الالحاد . القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ١٣ ص ٢٤٥ ؛ وقد سموا أيضا بالحشيشية لاعتمادهم على مادة مخدرة فى نشر مذهبهم .

الإنقسام الذى حدث فى قلب الدولة إذ ذاك ، سواء أكان ذلك الإنقسام دينياً أم عنصريا[١]. وكان لمدارس الدعوة الشيعية فى القاهرة الأثر الأكبر فى نجاح الدعوة لأنها كانت ترسل دعاتها إلى بلاد فارس رغم أنهم كانوا موضع اضطهاد العباسيين ، وعرضة للهلاك أنى وجدوا ، وهذا أدى إلى تماسك هذه الفئة وتكاتفها ، شأنها فى ذلك شأن كل أقلية مضطهدة . وكان البطل الذى استغل كل هذه الظروف لمصلحته ومصلحة جماعته ، هو الحسن بن الصباح الذى استطاع أن يكوّن قوة لم يستطع المسلمون أن يقفوا فى تيارها . ويعتبر السلطان ألب أرسلان السلجوقى مسئولا إلى حد كبير عن نجاح هذه الدعوة ، لأنه ألغى نظام البريد الذى كان سائدا فى الدولة الإسلامية ، فلم يتمكن السلاجقة من استقصاء أخبار دولتهم . وقد اتخذ الحسن بن الصباح من قلعة « ألموت » التى بناها ملكشاه مركزا لنشر مذهبه ، ومنها كان يرسل الدعاة للدعوة للخليفة المستنصر الفاطمى ، ولابنه نزار من بعده [٢] . ومن ذلك الوقت شرع الحسن بن الصباح فى الاستيلاء على كثير من البلاد والقلاع المجاورة فى قوهستان وخوزستان ، مستعملا اللين تارة والعنف تارة أخرى ، كما أكثر من بناء القلاع فوق الجبال ، وأصبح يهدد منها البلاد الإسلامية فى غرب آسيا [٣] .

وسواء أكان الحسن بن الصباح يعمل لنفسه كما يقول فون هامر Von Hammer[٤] ، أم كان يعمل للخليفة المستنصر ثم لابنه نزار من بعده ، فإنه كان هو وأتباعه يهدفون إلى إسقاط الخلافة العباسية بطرق القتل والإرهاب وسفك الدماء فى كل ناحية من نواحى البلاد الإسلامية ، وساعده على ذلك جماعة الفدائيين الذين اختارهم من الشبان المتحمسين والذين كانوا لا يترددون فى التضحية بأنفسهم فى سبيل طاعة رئيسهم طاعة عمياء . وقد أصبح هؤلاء أداة للانتقام ، فأوقعوا الرعب فى قلوب السكان مما جعل لهذه الطائفة قوة ونفوذا فى بلاد المشرق[٥] . وقد مهر الفدائيون فى فن التخفى واستعمال

---

(١) يتجلى الإنقسام العنصرى فى النزاع بين الأتراك والفرس والعرب .

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ، ج ١٣ ص ٢٣٧ و ٢٤٤ .

(٣) Bretschneider : Mediæval Researches From Eastern Asiatic Sources, vol. i. p. 116.

(٤) Von Hammer : Histoire de L'ordre des Assassins, p. 84.

(٥) Sykes : A History of Persia, p. 55.

السلاح، كما مهروا فى معرفة اللغات الأجنبية، وكانوا يقتلون المسلمين أيام الجمع فى المساجد، كما كانوا يقتلون الأمراء المسيحيين فى الكنائس علنا[١].

على أن شر طائفة الإسماعيلية لم يستفحل إلا بعد وفاة ملكشاه، نتيجة لانصراف أبنائه إلى الحروب الأهلية[٢]؛ فانتهز زعماء الإسماعيلية هذه الفرصة وأخذوا يروجون لمذهبهم بطرق فوضوية قاسية، منها خطف من يخالف مذهبهم وقتله. وعلى الرغم من انصراف السلاجقة إلى مشاكلهم الداخلية والخارجية، فإننا نلاحظ أن سلاطينهم المتعاقبين لم يتوانوا عن التنكيل بأفراد هذه الطائفة ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا، وأدى هذا الاضطهاد من جانب السلاجقة إلى تماسك طائفة الإسماعيلية، وتفانى أتباعها فى خدمة مذهبهم.

ولما نشب ذلك الصراع الطويل بين السلاجقة والخلافة، نتيجة لرغبة الخلفاء العباسيين فى استعادة نفوذهم الذى سلبهم السلاجقة إياه، بدأ السلاجقة أنفسهم — وقد ضعفت قوتهم فى ذلك الوقت — يستعينون بطائفة الإسماعيلية على خصومهم الخلفاء، من ذلك أنه لما دب الخلاف بين الخليفة المسترشد والسلطان مسعود، أوعز الأخير إلى الإسماعيلية بقتل الخليفة، وتم له ذلك سنة ٥٢٩ هـ (١١٣٤م)[٣]، ومثلوا به بأن قطعوا أنفه وأذنيه[٤]. ويدلنا مقتل الخليفة المسترشد على مبلغ استهتار الإسماعيلية بأكبر رأس فى قلب الدولة الإسلامية. ولما حاول الخليفة الراشد أن يثأر لمقتل أبيه قتلوه أيضاً فى سنة ٥٣٢ هـ (١١٣٧م) فى مدينة أصفهان[٥].

وكثيرا ما كان يقوم أفراد جماعة الإسماعيلية بحروب أشبه ما تكون بحروب العصابات على المدن والقرى، بغية إثارة الذعر والرعب فى قلوب المسلمين، فحدث مثلا سنة ٥٥٣ هـ (١١٥٨م) أن أغاروا على البلاد القريبة من قلاعهم فى قوهستان؛ بقصد السلب والنهب، وسبى النساء، وأسر الأطفال، وإحراق ما لا يستطيعون حمله. وقد نجحوا فى مهمتهم إلى حد كبير[٦] كما نراهم لا يدخرون وسعا فى مهاجمة التجار والحجاج[٧]،

---

(١) Browne : Literary History of Persia, vol. ii. p. 209.

(٢) Browne : Account of a Rare Manuscript History of Seljuqs, p 39.

(٣) السيوطى : تاريخ الخلفاء، ص ٢٨٩.

(٤) الديار بكرى : تاريخ الخميس فى أحوال أنفس نفيس، ج ٢ ص ٣٦٢.

(٥) ابن الأثير : تاريخ الدولة الأتابكية؛ ملوك الموصل، ص ٩٨.

(٦) ابن الأثير : الكامل، ج ١١ ص ٩٧.

(٧) المرجع السابق، ج ١٠ ص ١٦٤ و ج ١١ ص ١١٣.

وأصبحوا بذلك لا يختلفون عن قطاع الطرق ، فانتشر الذعر فى البلاد ، ولم يعد التاجر يأمن على بضاعته ، ولا الفرد العادى يأمن على حياته . وإذا كانت الدولة السلجوقية قد زالت من بلاد المشرق بعد وفاة السلطان سنجر سنة ٥٥٢هـ (١١٥٧م) وقامت الدولة الخوارزمية على أكتافها ، فإن عداوة سلاطين الخوارزميين لهذه الطائفة لم تقل عن عداوة أسلافهم السلاجقة ، كما لم يتوان زعماء الإسماعيلية فى محاربة الدولة الخوارزمية الفتية ومناهضتها، فنراهم يتقربون إلى المغول الذين بدأوا يظهرون على المسرح التاريخى.

وهكذا نرى من هذه العجالة ، أن طائفة الإسماعيلية كانت من أقوى العوامل التى أضعفت الدولة السلجوقية خاصة والشرق الإسلامى عامة ، مما سهل على المغول مهمتهم عندما شرعوا فى اكتساح الدولة الخوارزمية .

ومن أهم الأسباب التى أدت إلى ضعف الدولة السلجوقية ، وبالتالى إلى ضعف الشرق الإسلامى ، نظام الأتابكة الذى ابتدعه السلاجقة أنفسهم .

ذكرنا من قبل ، أن الخلفاء والأمراء المسلمين وكذا سلاطين السلاجقة قد أكثروا فى بلاطهم من الأتراك الذين اشتروهم من أسواق النخاسة ، وأسندوا إليهم الوظائف الرئيسية فى قصورهم، منها رئاسة الخدم . ومن الأتراك من كان يلتحق بحرس الخليفة أو السلطان ، فإذا أظهر أحدهم كفاءة خاصة أو صفة حربية ممتازة وصل إلى أعلى المراتب فى الجيش وفى البلاط . وقد يسعد الحظ أحد هؤلاء فيُسند إليه حكم إقليم من أقاليم الدولة ، ومن أقرب الأمثلة على ذلك نوشتكين الذى ينتسب إليه حكام الدولة الخوارزمية ، فقد كان يشغل وظيفة الساقى[1] فى بلاط ملكشاه السلجوقى . وليس من المعقول أن يظل هذا الحاكم خاملا فى مدينته ، بل يعمل على أن يتوسع على حساب جيرانه ، وقد ينجح فيؤسس لنفسه دولة ، وإذا فشل فيكون قد نجح فى إلقاء بذور الفوضى والانقسام فى جزء من أجزاء الدولة .

كان نظام الأتابكة عنصراً هاماً من عناصر النظم الإجتماعية والسياسية عند السلاجقة . أما لفظ أتابك فمعناه الأمير الوالد[2] . والأصل فى ذلك أن سلاطين

---

(١) أنظر ما كتبناه عن وظيفة «الساقى» فى ص ٧٨ .

(٢) السيوطى : تاريخ الخلفاء ، ص ٢٧٩ . ويلاحظ أن لفظ أتابك مكون من مقطعين « بك » ومعناه أمير و «أتا » ومعناه أب . وقد ذكر نظام الملك فى كتابة « سياسة نامة » أن الأتابكة كانوا =

السلاچقة كانوا يعهدون فى تربية الأمراء من أبنائهم إلى المقربين إليهم من الأتراك الذين ترعرعوا فى كنفهم ، فإذا عين السلطان أحد أبنائه على مدينة من المدن ، ذهب معه هذا التركى (الوالد) ليعينه بما أوتى من حكمه على حكم هذه المدينة ، ويسدى إلى هذا الأمير الصغير ما يراه من النصائح . على أن السلاچقة توسعوا بعد ذلك فى معنى هذا اللقب ، بحيث أصبح يمنح كلقب من ألقاب الشرف لكبار رجال الدولة وقواد الجيوش(١) . والمهم أن الحكام من الأتابكة ، سواء أكانوا مربين للأمراء من السلاچقة ، أم من قواد جيوش الدولة السلچوقية ، فقد جاء وقت أصبحوا فيه أصحاب النفوذ الفعلى فى البلاد التى يحكمونها ، وكانوا يعملون مستقلين عن سلاطين السلاچقة فى بغداد ، كما اتخذوا لأنفسهم الألقاب التى استحسنوها(٢) ، وأحاطوا أنفسهم بكل مظاهر الأبهة والعظمة .

ولم يكن هناك من خوف على الدولة السلچوقية خاصة والشرق الإسلامى عامة من نظام الأتابكة ما دام سلاطين السلاچقة من القوة بحيث يستطيعون فرض سيطرتهم ونفوذهم على هؤلاء الحكام ، وما دام فى الدولة جيش قوى تسيطر عليه قوة واحدة . ولكن الخوف كل الخوف أن يضعف سلاطين السلاچقة فتضعف دولتهم ، وينفرد كل حاكم من هؤلاء الحكام بحكم ما بيده من البلاد . وهذا ما حدث فعلا ، إذ أنه لما ضعفت الدولة السلچوقية بعد وفاة السلطان ملكشاه للأسباب التى بيناها ، استقل كل أمير بما فى يده سواء أكان مقاطعة بأسرها أم مدينة صغيرة ، بل لقد تسابق الأتابكة فى توسيع رقعة البلاد التى كانت تحت أيديهم، كل على حساب جاره ، ولذلك قام الصراع بين هؤلاء الحكام ، فى الوقت الذى قام فيه الصراع بين أفراد البيت السلچوقى . وهكذا أصبحت أقاليم فارس والعراق مفككة الأوصال ، لا تأتمر بإمرة حاكم واحد . وإن نظرة واحدة إلى خريطة الشرق الإسلامى بعد عصر

= لا يختارون من بين أفراد البيت السلچوقى، إذ أن كل سلچوقى كان يعتبر نفسه مساويا للسلطان نفسه ولا يقل عنه . وعلى هذا الأساس كان سلاطين السلاچقة يختارون الأتابكة من بين رعايا دولتهم المخلصين .

(١) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ، ص ٣٤٣ .

(٢) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٨٤ . ومن الألقاب التى اتخذوها لقب « شاه » كما حدث فى بلاد خوارزم

ملكشاه ، ترينا كيف تجزأ الشرق الإسلامى بين هؤلاء الأتابكة فى الوقت الذى قامت فيه الإمارات الصليبية فى بلاد الشام[1] ، كما نستطيع أن نتبين من هذه الخريطة أيضاً كيف انكمشت أملاك الخلفاء العباسيين وأصبحت مقصورة على العراق العربى وخوزستان .

إذا تركنا أقاليم العراق وفارس ، وانتقلنا إلى مصر وبلاد الشام ، نرى أن هذا الجزء من العالم الإسلامى قد أعملت فيه الأحداث التاريخية وحطمت قوته ، حتى إذا ما جاء العصر المغولى نرى حكامه لا يستطيعون أن يمدوا يد المساعدة إلى إخوانهم فى الشرق ، كما نرى هذا الجزء من العالم الإسلامى لا يقوى على الوقوف فى وجه هولاكو عندما عزم على غزوه . ولولا تطور الأحداث التاريخية فى بلاد المغول نفسها ، تلك الأحداث التى اضطرت هولاكو إلى العودة إلى بلاده ، لحل بمصر ما حل بسائر بلاد الشرق الإسلامى فى ذلك الوقت .

انفصلت مصر عن الدولة العباسية منذ أيام الطولونيين ، واستطاع أحمد بن طولون أن يستولى على البلاد الشامية سنة ٢٦٤ هـ (٨٧٧ م) . ثم زالت الدولة الطولونية وحلت محلها الدولة الإخشيدية ، فسار محمد بن طغج الإخشيد على منوال

---

(١) الأتابكيات التى قامت على مسرح الشرق الإسلامى هى :

أتابكية دمشق : ٤٩٧ — ٥٤٩ هـ = ١١٠٣ — ١١٠٤ م .
أتابكية حلب : ٥٤١ — ٥٧٧ هـ = ١١٤٦ — ١١٨١ م .
أتابكية الجزيرة : ٥٧٦ — ٦٤٨ هـ = ١١٨٠ — ١٢٥٠ م .
أتابكية الموصل : ٥٢١ — ٦٦٠ هـ = ١١٢٧ — ١٢٦٢ م .
أتابكية سنجار : ٥٦٦ — ٦١٧ هـ = ١١٧١ — ١٢١٩ م .
أتابكية اربل : ٥٣٩ — ٦٣٠ هـ = ١١٤٤ — ١٢٣٢ م .
أتابكية دياربكر : ٤٩٥ — ٨١١ هـ = ١١٠١ — ١٤٠٨ م .
أتابكية أرمينيه : ٤٩٣ — ٦٠٤ هـ = ١١٠٠ — ١٢٠٧ م .
أتابكية أذربيجان : ٥٣١ — ٦٢٢ هـ = ١١٣٦ — ٢٢٢٥ م .
أتابكية فارس : ٥٤٣ — ٦٨٦ هـ = ١١٤٨ — ١٢٨٧ م .
أتابكية لورستان : ٥٤٣ — ٨٢٧ هـ = ١١٤٨ — ١٤٢٣ م .
أتابكية كرمان : ٦١٩ — ٧٠٣ هـ = ١٢٢٢ — ١٣٠٣ م .

أنظر كتابى Zambour : Manuel de Généalogie et de Chronologie.
Lane - Poole: The Mohammadan Dynasties.

الطولونيين ، فوطد نفوذه فى مصر ، ثم مد هذا النفوذ على سوريا وفلسطين ومكة والمدينة ، ولم يكن هناك من منافس لهذه الدولة سوى الدولة الحمدانية ، التى استطاع أحد أمرائها وهو سيف الدولة الحمدانى أن يستولى على حلب من الإخشيد سنة ٣٣٣هـ (٩٤٢ م) . ثم ورث الفاطميون أملاك أسلافهم الإخشيديين فى مصر وفى بلاد الشام وفى مكة والمدينة ، وأصبح الفاطميون ينافسون بغداد ، بل طمعوا فى السيطرة عليها .

على أن الضعف الذى أصاب الدولة الفاطمية منذ عهد الخليفة المستنصر الفاطمى (٤٢٧ — ٤٨٧هـ = ١٠٣٥ — ١٠٩٤م) ، نتيجة للثورات التى قام بها الأتراك الذين أتلفوا قصور الخلفاء وخربوا كل ما وصل إلى أيديهم ، ونتيجة لانتشار المجاعات والأوبئة ، كل ذلك أدى إلى انتقال الأملاك الحجازية والشامية من أيدى الفاطميين إلى أيدى العباسيين ، وذلك بفضل مساعدة السلاجقة ، الذين عملوا منذ دخلوا بغداد سنة ٤٤٧ هـ (١٠٥٥م) على توسيع أملاكهم شرقا وغربا وكان التوفيق حليفهم . فى سنة ٤٦٤هـ (١٠٦٩ م) ، أرسل أمير مكة إلى السلطان ألب أرسلان السلجوقى يخبره بقطع الخطبة للخليفة المستنصر الفاطمى فى بلاده وإقامتها للخليفة العباسى القائم [1] ؛ وفى السنة التالية تمكن العباسيون من فرض سلطانهم على حلب وإقامة الخطبة للخليفة القائم العباسى وللسلطان ألب أرسلان [2] ؛ وفى سنة ٤٦٨هـ (١٠٧٥ م) استولى السلاجقة على دمشق فى عهد الخليفة المقتدى ، وأبطلت عبارة الفاطميين المشهورة « حى على خير العمل » من الأذان . [3]

وهكذا أدى ضعف الفاطميين وما قابله من قوة السلاجقة إلى ضياع البلاد الشامية من أيديهم . ومما هو جدير بالذكر أن السلطان ملكشاه أقطع بلاد الشام أخاه تتش فى سنة ٤٧٠ هـ (١٠٧٧ م) ، فاستطاع أن يوطد نفوذه فى حلب ودمشق [4] .

على أن الدولة السلجوقية نفسها أخذت فى الضعف بعد وفاة ملكشاه كما ذكرنا ، وكان من المنتظر أن يعود الهدوء إلى بلاد الشام بعد مقتل تتش سنة ٤٨٨هـ (١٠٩٥م) .

---

(١) السيوطى . تاريخ الخلفاء ، ص ٢٢٩ .

(٢) ابن الأثير الكامل ، ج ١٠ ص ٢٦ .

(٣) السيوطى تاريخ الخلفاء ، ص ٢٨٠ .

(٤) ابن الأثير الكامل ، ج ١٠ ص ٤٥ .

ولكن الصراع عاد بين ابنيه رضوان ودقاق ، واستولى أولهما على حلب ، وخطب للخليفة المستعلى الفاطمى فى بلاده، بغية اجتذاب المصريين إليه فى نزاعه ضد أخيه الذى حكم فى دمشق (١).

وفى وسط هذا الاضطراب الذى انتشر فى قلب الدولة السلجوقية فى العراق وفارس وشمال بلاد الشام ، وفى الوقت الذى أخذت فيه الدولة الفاطمية فى التدهور ، ظهر عدو أشد خطراً وهو الصليبيون . فقد استجاب البابا لاستغاثة الإمبراطور البيزنطى ألكسيوس كومنين Alexius Comnenus ، الذى استصرخه لإنقاذه من السلاجقة الذين أوقعوا به الهزيمة وأصبحوا يهددون القسطنطينية بعد موقعة « ملازجرد » ، وانتهى الأمر بغزو الصليبيين بلاد الشام ، ومجىء الحملة الصليبية الأولى سنة ٤٩٠ هـ (١٠٩٦ م) . وكان من أثر هذه الحملة أن تكوّنت الإمارات الصليبية الأربع ، وهى بيت المقدس وأنطاكية وطرابلس والرها ، كما ضاعت المدن الساحلية من أيدى المسلمين ، ولم يبق فى أيديهم إلا بعض المدن الداخلية كدمشق وحلب (٢) . ومنذ ذلك الوقت طمع الصليبيون فى الاستيلاء على مصر ذاتها ، ولولا ظهور عماد الدين زنكى فى الميدان ، لسهل على الصليبيين تحقيق ما رنوا إليه .

وقد أخذ عماد الدين زنكى يقاوم نفوذ الصليبيين ، وكان استيلاؤه على الرها سنة ٥٣٩ هـ (١١٤٤ م) ضربة أصابت الصليبيين ، مما أدى إلى قيام الحملة الصليبية الثانية (٥٤٢ — ٥٤٤ هـ = ١١٤٧ — ١١٤٩ م) ، فى عهد نور الدين محمود بن زنكى . ولكن هذه الحملة فشلت لانحراف زعمائها عن غرضهم الأصلى وهو استرداد الرها ، إلى محاولة الاستيلاء على دمشق ، مع أن هذه المدينة كانت الحليف الوحيد للصليبيين فى بلاد الشام ، ولم يكسب زعماء هذه الحملة أكثر من الاساءة إلى سمعة الصليبيين (٣). وكان نور الدين محمود، منذ آل إليه القسم الغربى من مملكة أبيه ، قد أخذ يوسع نفوذه فى بلاد الشام ، فاستولى على دمشق سنة ٥٤٩ هـ (١١٥٤ م) ، كما طمع فى الاستيلاء

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ، ص ١١١ — ١١٢ .

(٢) Barker : The Crusades, pp. 25—32.

(٣) Ibid, p. 54.

على مصر ، ووجد فى ضعف الخلفاء الفاطميين فرصة للاستيلاء عليها ، وقد تم له ذلك فى سنة ٥٦٤ هـ (١١٦٨ م) بمساعدة أسد الدين شيركوه .

وقد أدت الحوادث التاريخية بعد ذلك إلى استقلال صلاح الدين الأيوبى بمصر ، وكانت سياسته ترمى إلى توطيد نفوذه فى مصر أولاً ، ثم توحيد جميع القوى الإسلامية فى مصر والشام ثانيا، لتوجيهها ضد الصليبيين. وقد نجح صلاح الدين فى النهاية فى الاستيلاء على دمشق وحلب وبلاد ما بين النهرين بما فى ذلك مدينة الموصل ، كما نجح فى توجيه هذه القوى مجتمعة لمحاربة الصليبيين . وقد أدت هزيمة الصليبيين فى حطين سنة ٥٨٣ هـ (١١٨٧ م) ، إلى دخول صلاح الدين بيت المقدس وهذا أدى بدوره إلى قيام الحملة الصليبية الثالثة (٥٨٥ — ٥٨٨ هـ = ١١٨٩ — ١١٩٢ م) ، بقيادة فردريك بربروسا إمبراطور ألمانيا ، وريتشارد قلب الأسد ملك انجلترا ، وفيليب أغسطس ملك فرنسا . ولم يكسب الصليبيون من وراء هذه الحملة أكثر من بعض المدن الساحلية .

ترك صلاح الدين بعد وفاته سنة ٥٨٩ هـ (١١٩٣ م) إمبراطورية موحدة الأركان يخشاها المسلمون كما يخشاها المسيحيون، ولكن سرعان ما أصبحت هذه الإمبراطورية المتماسكة الموحدة تتهددها عوامل التفكك والإنحلال، لأسباب يرجع أكثرها إلى الأيوبيين أنفسهم، فقد أراد أبناء صلاح الدين وأخوته أن يقتسموا أملاكه ،وأصبح كل يريد نصيبا فيها حسب نظام الوراثة فى الشريعة الإسلامية ، على أن أحداً من هؤلاء لم يرث عن صلاح الدين عبقريته. ومهما يكن من شىء ، فإنه لما مات صلاح الدين كان ابنه « الأفضل » حاكما على دمشق وأواسط سوريا ، وابنه « العزيز » فى مصر ، كما كان « الظاهر » يحكم حلب . وعلى هذا المنوال وزع بقية أعضاء البيت الأيوبى أنفسهم على حماه وحمص وبعلبك وبلاد ما بين النهرين . وكان النزاع على أشده بين أعضاء الأسرة الأيوبية ، مما هدد الدولة بالضياع ، ولا سيما أن بيت المال فى مصر كان قد أصبح قاب قوسين أو أدنى من الإفلاس[١] .

لما رأى العادل أخو صلاح الدين ما آلت إليه الدولة الأيوبية من انحلال ، عوّل على توحيدها تحت إمرة رجل واحد ، واختار نفسه ليكون هذا الرجل . وقد سلك

(١) Marcel : Egypte Depuis la Conquète des Arabes Jusqu'a la Domination Française, p. 145.

العادل فى سبيل هذا الغرض مسالك مشروعة وغير مشروعة، ولم يبال بشىء ما دامت هذه الأساليب المشروعة وغير المشروعة ستوصله إلى غايته . من ذلك أنه أخذ يوقع بين أبناء صلاح الدين ويوغر صدور بعضهم على البعض حتى يضعف الجميع فيرتفع هو على أشلائهم . وفى النهاية استطاع أن يفرض سيادته على مصر (٥٩٧ — ٦١٥ هـ = ١٢٠٠ — ١٢١٨ م) بالإضافة إلى أملاكه فى البلاد الشامية وبلاد ما بين النهرين ، وبذلك أصبح يسيطر على معظم أملاك صلاح الدين .

وقد أدى العادل بتوحيد هذه الأملاك للعالم الإسلامى أجل الخدمات ، إذ أنه انتشل بلاد الشام ومصر من الانقسام ، ولولاه لحل بهما ما حل بالدولة السلجوقية فى أواخر أيامها ، عندما انقسمت إلى الدويلات الأتابكية التى رأيناها . وليس معنى ذلك أن العادل وخلفاءه[١] كانوا يهيمنون على كل ما تركه صلاح الدين من أملاك ، بل نرى أن الدولة الأيوبية ظلت منقسمة إلى أقسام سبعة رئيسية[٢] .

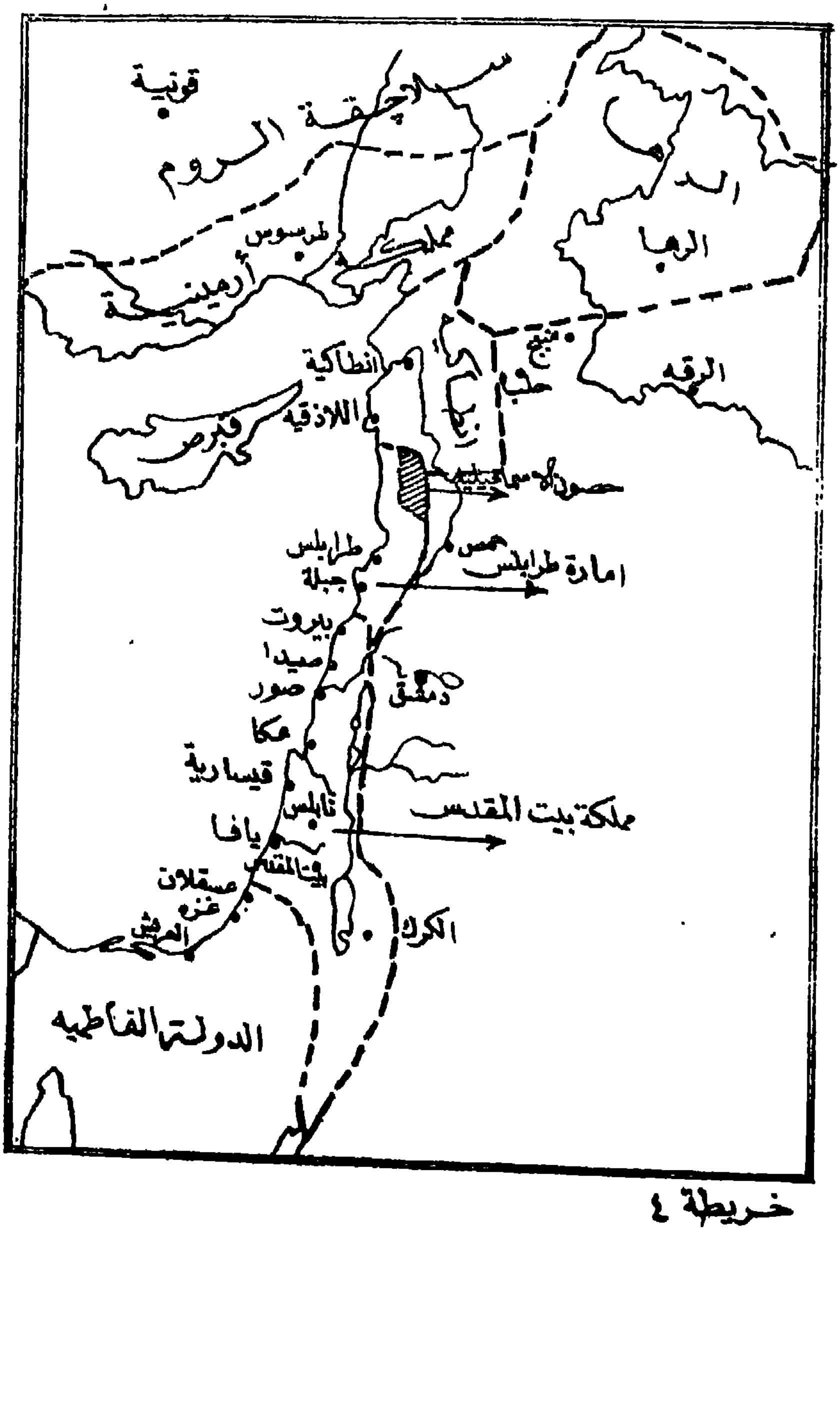
وهكذا نرى أن مصر وبلاد الشام كانتا فى الفترة السابقة للغزو المغولى على يد چنكيزخان ، بل وفى أثناء هذا الغزو ، فى حالة ضعف شديد نتيجة لقيام الشقاق بين حكام هذا الجزء من العالم الإسلامى ؛ وقد زاد هذه الحالة سوءاً ما أحدثه الصليبيون من تأثير سيىء من الناحيتين السياسية والاقتصادية فى هذا المسرح التاريخى ، مما جعله يشارك بلاد العراق وفارس فيما أصابهما من ضعف ووهن ، فلم يستطع حكام مصر والشام أن يمدوا يد المساعدة للدولة الخوارزمية خاصـــة والشرق الإسلامى عامة عندما زحف المغول إلى الغرب ، بل وقف حكام مصر كما وقف الخلفاء العباسيون ينتظرون ما سيحل بهم على يد هؤلاء الطغاة .

---

(١) الكامل : ٦١٦ — ٦٣٥ هـ = ١٢١٩ — ١٢٣٨ م .
العادل الثانى : ٦٣٥ — ٦٣٧ هـ = ١٢٣٨ — ١٢٤٠ م .
الصالح أيوب : ٦٣٧ — ٦٤٦ هـ = ١٢٤٠ — ١٢٤٨ م .
المعظم طورانشاه : ٦٤٧ - ٦٤٨ هـ = ١٢٤٩ — ١٢٥٠ م .

(٢) هى مصر ودمشق وحلب وبلاد ما بين النهرين وحماه وحمص وبلاد العرب . وكانت دمشق منذ وفاة العادل تخضع خضوعا إسميا لمصر ، وكذلك كان الحال بالنسبة لبلاد ما بين النهرين ، إذ كان حكامها من أبناء العادل . أما حلب وحماه وحمص وبلاد العرب فكانت مستقلة تماما . ونلاحظ أن هذه البلاد جميعها -

المتلكات الصليبيه فى بلاد الشام سنة ٥٣٥هـ (١١٤٠م)



خريطة ٤

٢ — المغول قبل غزو الدولة الخوارزمية

كانت الأقاليم الشمالية الشرقية من آسيا منذ فجر التاريخ، المورد الذى انبعثت منه الهجرات القبلية المتعددة التى غزت أقاليم آسيا المختلفة ؛ وترى بعض القبائل الآسيوية تندفع صوب غربى آسيا ، وأدى ذلك إلى هجرة كثير من القبائل التى اندفعت إلى القارة الاوروبية ، وكانت من العوامل الهامة التى قوضت أركان الإمبراطورية الرومانية[١].

ولسنا هنا فى معرض التحدث عن الهجرات الآسيوية التى انبعثت من شمال شرقى آسيا ، ولكن المهم أن نذكر أن هذه الجهات كانت بوجه خاص زاخرة بالقبائل الرحل ، التى تنتقل من مكان إلى مكان نتيجة لظروف البيئة المحلية فى هذه الجهات ومن هذه القبائل ، قبائل المغول التى نحن بصدد التحدث عنها .

نشأ المغول فى الهضبة المعروفة باسم هضبة منغوليا شمالى صحراء جوبى ، وهى أراض واسعة تنعدم المياه فى بعض جهاتها ، وتكون حاجزا منيعا بين الأقاليم الصينية الحارة ، وبين الأراضى الباردة فى سيبيريا . وإن الظروف الجغرافية فى هذا الإقليم قد جعلت منه إقليما قفرا ، فإن الجبال المحيطة بهذه الهضبة تمنع عنها الرياح الدافئة الممطرة فى فصل الصيف ، وأما فى فصل الشتاء فترى مناخها شديد البرودة ؛ وكان من أثر ذلك أن انعدمت الزراعة فى أكثر جهاتها ، بحيث لم تشاهد إلا فى أماكن متفرقة . وهكذا نرى أن ظروف البيئة تملى على سكان هذه البلاد أن يعيشوا عيشة رعوية ، وأن ينتقلوا من مكان إلى آخر ، سعيا وراء الرزق[٢] ؛ فالهجرة من مكان إلى مكان وعدم الاستقرار فى مكان معين ، قد أصبحا من أهم الصفات التى يمتاز بها الشعب المغولى ؛ ونتيجة لذلك نرى المغولى يكره الزراعة كرها شديدا . وعلى الرغم من أن المغول كانوا يحتلون بعض السهول الخصبة أحيانا ، فانهم لم يحاولوا زراعتها ، بل كانوا يهاجرون من السهول إلى

= — ماعدا حمص — كانت خاضعة لسلالة أيوب الحسة وهم صلاح الدين والعادل وشاهنشاه وطورا نشاه وطغتكين ؛ أما حمص فكانت خاضعة لسلالة شيركوه عم صلاح الدين الأيوبى .

Lane-Poole : The Mohammadan Dynasties, pp. 77 — 79.

(١) Hart : Mongol Compaigns, p. 705.
(Encyclopædia Britannica, vol. XV.)

(٢) Little : The Far East, p. 171.

الجبال فى فصل الصيف ولا يتركون هذه الجبال إلا إذا انعدم العشب فيها ، وأصبح من المتعذر عليهم البقاء مع ماشيتهم(١).

هكذا كان يسكن هذه الأقاليم ، القبائل الرحل التى لا تعرف معنى لحضارة ، والتى لاهم لها إلا التنازع والتنافس على موارد الرزق القليل من العشب . على أن كل قبيلة من هذه القبائل كانت تكوّن وحدة متماسكة من ناحية الجنس واللغة(٢) . ونجد هذه القبائل ، ومن بينها قبائل المغول، تعيش عيشة بربرية بحتة وتتوق إلى تعرف كنه الحضارة الصينية المتاخمة لها فى الجنوب، فنراهم يغيرون عليها ، وينهبون كل ما تصل إليه أيديهم(٣). وهذا هو السر فى بناء سور الصين العظيم الذى بناه أهل الجنوب فى عصور التاريخ الأولى دفعا لغارات المتبربرين من الشمال (٤) . ومن هذه القبائل المختلفة المتعددة ، القبائل المغولية وكانت فى العصر الذى نتحدث عنه ، تحتل الأراضى الواقعة بين بحيرة بيكال فى الغرب ، وجبال كنجان على حدود منشوريا فى الشرق(٥) .

وليس من المعقول أن يستقر الكيان السياسى فى هذه البلاد ، وهى على هذه الحال من الفوضى السياسية والاضطراب الاجتماعى . وكانت الحالة هناك تستلزم ظهور شخصية قوية توحد القبائل المغولية أولا، وتسيطر على سائر القبائل المبعثرة هنا وهناك ثانيا . ولم تكن هذه الشخصية إلا شخصية شاب مغولى ، مات أبوه وهو فى الحادية عشرة من عمره . وكان من أثر وفاة أبيه وهو فى هذه السن المبكرة ، أن انفضت من حوله القبائل المغولية التى كانت خاضعة لحكم أبيه . وظل هذا الفتى شريدا تتلقفه أيدى من يشفق عليه من أصدقاء أبيه ، حتى إذا ما بلغ السابعة عشرة ، بدأ نجمه يلمع ، إذ استطاع بفضل ذكائه وحنكته أن يجتذب إليه كبار رجال المغول من أتباع أبيه ، حتى إذا ما أقنع أفراد عشيرته بالانضواء تحت لوائه ، عوّل على إخضاع القبائل المنتشرة فى صحراء جوبى(٦) .

(١) Huntington : The Pulse of Asia, p. 313.

(٢) Grenard : Gengis - Khan, p. 8.

(٣) Ibid, p. 7.

(٤) Little : The Far East, p. 184.

(٥) Lamb : Genghis Khan ; The Emperor of All Men, p. 25.

(٦) Ibid, p. 26 & seq.

ولن يدخل فى نطاق هذا البحث أن نتتبع أدوار هذا النزاع ، بل إن كل ما يمكن أن يقال فى هذا الصدد ، إن «تيموچين» الشاب استطاع بدهائه وذكائه ، أن يوحد كل أهالى أقاليم آسيا الشرقية شمالى بلاد الصين تحت لوائه ، فتراه يستعين بالقبيلة ضد الأخرى ويتحالف مع القوى منها على الضعيف فيهزمه . وأخيرا تربع تيموچين على عرش هذه القبائل جميعها فاختارته إمبراطورا عليها . وبعد أن تم له ما أراد ، سمى نفسه باسم چنكيزخان أى « أعظم الحكام » The greatest of rulers أو « إمبراطور البشر » The emperor of all men ، واتخذ بعد ذلك من مدينة « قره قورم » حاضرة للملك .

بعد أن تربع چنكيزخان على هذا العرش ، رسم لنفسه سياسة واضحة ترمى إلى التوسع فى الجنوب على حساب البلاد الصينية ، ثم التوسع فى الغرب لاخضاع بعض أعدائه الذين فروا من وجهه ، وكانت قبائل الخطا التى أفضنا الحديث عنها فى الباب السابق ، أهم هذه القبائل . على أن چنكيزخان قد وضع لشعبه ، قبل أن يبدأ بتنفيذ هذا البرنامج الواسع النطاق ، دستوراً اجتماعيا قويا ، ودستوراً حربياً لا يقل عنه قوة . ففى اجتماع عام عقده چنكيزخان سنة ٦٠٣ هـ (١٢٠٦ م) ، أعلن قانون « الياساق » ، هو قانون مختصر بسيط ، ولكنه حازم صارم ، أساسه الطاعة العمياء ، وقوامه احترام المجتمع المغولى ، واحترام الصغير لقدر الكبير (١) . ونستطيع أن نجمل قانون الياساق فى أمور ثلاثة : الخضوع لچنكيزخان ، والاتحاد فى قبيلة واحدة ، والعقاب الصارم لكل مخطىء .

أما نظام چنكيزخان الحربى ، فكان قوامه الطاعة العمياء ، بحيث يحترم الصغير من يعلوه فى الرتبة العسكرية ، كما سن عقوبات لكل من يخالف واجبه من الضباط (٢) . وقد زوّد هذا الجيش بما استطاع أن يقتبسه من نظم حربية من البلاد الأكثر حضارة كالبلاد الصينية (٣) . وبهذا النظام الحربى والنظام الاجتماعى ، واصل چنكيزخان

---

(١) Grenard : Gengis - Khan, pp. 65 — 66.

(٢) De Guignes : Histoire Générale des Huns, des Turcs, des Mongols et des autres Tartares Occidentaux, tom. iii. p. 73.

(٣) أنظر ما كتبناه عن نظم المغول الاجتماعية والحربية فى الباب الرابع .

سياسته التي تهدف إلى إخضاع أقاليم آسيا الشرقية ، وفرض سلطانه على أعدائه الذين فروا من وجهه ناحية الغرب ، فقاده هذا إلى الاصطدام بالعالم الإسلامي، حيث هدمت معاول المغول حضارة المسلمين .

وإذا رجعنا إلى القرن الأول الهجري (السابع الميلادي) نجد بلاد الصين تحت حكم أسرة تانج Tang ، ولكن الانحلال التدريجي بدأ ينخر في عظام هذه الأسرة ، إلى أن انهارت سنة ٢٩٥ هـ (٩٠٧ م) وحل محلها عدة أسرات [١] ، وبذلك أصبحت البلاد الصينية لا تفترق عن العصر الإقطاعي في أوروبا في العصور الوسطى ، وعن دويلات الأتابكة في أواخر العصر السلجوقي . على أن هذه البلاد ما لبثت أن توحدت من جديد ولكن على يد أسرة جديدة هي أسرة سونج Sung (٣٤٩ — ٥٢١ هـ = ٩٦٠ — ١١٢٧ م) ، التي ما لبثت أن أخذت بدورها تتدهور تدهوراً تدريجياً . وكانت بعض القبائل والجماعات تنتظر الفرصة المواتية للوثوب على هذه الدولة الضعيفة الواهنة بشيء من الاهتمام ، فاندفعت أسرة جديدة تدعى أسرة كين Kin من إقليم منشوريا في الشمال ، واستطاعت أن ترغم دولة سونج على السماح لها بالسكنى في داخل سور الصين ، في الإقليم الشمالي من بلاد الصين ، واضطرت أسرة سونج بعد ذلك أن تدفع للأسرة كين جزية سنوية . ومما هو جدير بالملاحظة أن أسرة كين حكمت هذا الجزء الشمالي من بلاد الصين بالإضافة إلى أملاكها الأصلية في منشوريا [٢]. ولم تعد البلاد الصينية جنوبي سور الصين العظيم بلاداً موحدة كما كانت من قبل ، بل أصبحت موزعة بين حكام أسرة سونج ، حكام البلاد الأصليين ، وبين حكام أسرة كين المغتصبين [٣] .

هكذا كان الحال في البلاد الصينية عندما هم جنكيزخان باجتياحها . وقد ذكرنا من قبل أن تيموچين توّج في سنة ٦٠٣ هـ (١٢٠٦ م) على عرش المغول ، وسمى نفسه جنكيزخان ، ومنذ ذلك الحين أخذ يستعد للإغارة على البلاد الصينية في الجنوب [٤] .

---

(١) Wells, H. G. : Outline of History, vol ii. p. 473.

(٢) Fitzgerald : China, A Short Cultural History, pp. 386 — 388.

(٣) Douglas : The Story of Nations, China, p. 22.

(٤) Giles : The Civilization of China, p. 162.

ولا يخفى علينا أن الحضارة الصينية من أقدم الحضارات المعروفة فى التاريخ ؛ وقد بهرت هذه الحضارة المغول المتبربرين وجذبتهم إليها ، فبدأوا يشنون حروباً خاطفة على أعدائهم فى الجنوب ، بغية اختبار قوتهم ومعرفة مدى استعدادهم للحرب. على أن أخبار البلاد الجنوبية ، كان يحملها إلى چنكيزخان بعض الجنود الذين يقعون فى الأسر ، والذين كان المغول يختطفونهم من الحدود الصينية . وعن هذا الطريق استطاع چنكيزخان أن يقف على مدى ضعف أسرة كين ، كما عرف الكثير عن الحضارة الصينية ، وما كانت عليه تلك البلاد من ثراء لا حد له . وقد شجعت هذه الأخبار جنكيزخان وجنوده على المضى فى تنفيذ خطتهم دون تردد .

وبعد أن تأكد چنكيزخان من تفوقه على أعدائه ، سار بجيوشه جنوبا ، وبدأ أولى حملاته فى سنة ٦٠٨ هـ (١٢١١ م) ، ثم تبعتها حملات أخرى حتى سنة ٦١١ هـ (١٢١٤ م) . على أن المغول لم يوفقوا فى حملتهم الأولى ، إذ لم يستطيعوا أن ينفذوا إلى إمبراطورية كين إلا عن طريق منفذ واحد ، وعن طريق الخيانة . وكل ما أفاده چنكيزخان من هذه الحملة ، أنه عرف الكثير عن أحوال هذه الإمبراطورية ومدنها العامرة [١] . ولم تنقطع حملات المغول على هذه البلاد ، حتى إذا ما حل عام ٦١١ هـ (١٢١٤م) هاجم چنكيزخان إمبراطورية كين من نواح متعددة، ولم تكن الجيوش المغولية على شىء من القوة حتى أن قوادهم فكروا فى الصلح . وقوبلت هذه الفكرة قبولا حسناً من « واى وانج » Wai Wang إمبراطور كين ، الذى نراه يبعث بالهدايا إلى چنكيزخان ، كما بعث إليه بزوجة من أسرته .

والظاهر أن إمبراطور كين لم ترقه فكرة الصلح ولم يطمئن إلى المغول ، بدليل أنه فكر فى الرحيل عن حاضرته بكين ، إلى حاضرة أخرى فى الجنوب ، رغم معارضة قواده ورجال حاشيته . وقد ترك ولده بادىء الأمر للدفاع عن حاضرة ملكه ، ثم عاد فاستدعاه وترك هذه المهمة لأحد قواده . وقد أدى رحيل هذا الملك إلى قيام ثورة دامية فى أنحاء الإمبراطورية ، كما أدى إلى حدوث اضطراب شديد ساعد جنكيزخان على التوغل فى هذه البلاد ، والاستيلاء على بكين حاضرة إمبراطورية كين فى سنة

---

(١) Hart : Mongol Compaigns, p. 706. (Encyclopædia Britannica, Vol. XV.)

لوحة ٧



رسم يمثل اجتماع زعماء المغول للمناداة بجنكيزخان خاقانا عليهم .
في مخطوط من كتاب جامع التواريخ لرشيد الدين .

(من كتاب .Blochet : Musulman Painting)

٦١٢هـ (١٢١٥ م) [(١)]. وقد اتخذ المغول من مدينة بكين حاضرة لهذه المستعمرة المغولية الجديدة مدة نصف قرن تقريباً [(٢)]. وبعد أن وضع جنكيزخان يده على كل أملاك إمبراطورية كين فى الأشهر التالية لهذا الانتصار، لجأ «واى وانغ» Wai Wang إلى الجنوب حيث أسرة سونغ، عدوته بالأمس القريب [(٣)].

امتدت الفتوحات المغولية بعد هذا النصر حتى وصلت حدود الدولة المغولية إلى نهر هوانهو. على أن جنكيزخان اكتفى بهذا القدر مؤقتاً، وعاد إلى حاضرة ملكه «قره قورم»، تاركا أحد قواده لحكم هذه البلاد التى آلت إلى المغول بحد السيف، ولحفظ الأمن فيها [(٤)]. ومهما تكن النتائج التى ترتبت على غزو المغول لإمبراطورية كين، فقد استفاد المغول كثيرا من هذا الغزو، فأثروا بما استولوا عليه من كنوز الصينيين ونفائسهم، التى لم يكن للمغول بها عهد من قبل. ونرى هذا الثراء واضحاً فى الخيام التى صنعها المغول من الحرير بعد غزوهم البلاد الصينية، وفى سيوفهم التى كانوا يرصعونها بالجواهر [(٥)]. كذلك نراهم يقتبسون عن الصينيين استعمال البارود [(٦)]؛ ومما هو جدير بالذكر أن الصينيين عرفوا استعمال البارود منذ القرن الأول الهجرى (السابع الميلادى) [(٧)].

وقد حرص جنكيزخان فوق ما تقدم على الاستفادة من عقول كبار المفكرين

---

(١) Bretschneider : Recherches Archeologiques et Historiques Sur Pekin et Ses Environs, p. 14.

(٢) ومما هو جدير بالذكر، أن أباطرة أسرة كين اتخـذوا من مدينة بكين حاضرة لهم فى سنة ٥٤٦هـ (١١٥١ م)، بعد أن تم لهم السيطرة على هـذه الأقاليم التى اقتطعوها من أسرة سونغ. أنظر المرجع السابق والصفحة.

(٣) Lamb : Geghis - Khan ; The Emperor of All Men, pp. 99 — 103.

(٤) Hart, B. H. L: Mongol Compaigns, p. 706. (Encyclopædia Britannica, vol. XV.)

(٥) Fitzgerald : China, A Short Cultural History, p. 429 & seq.

(٦) Wells, H. G. : The Outline of History, vol. ii. p. 473.

(٧) Giles : The Civilization of China, p. 118.

ويرى بعض المؤرخين أن البارود كان يستعمل فى ذلك الوقت فى شكل قنابل يقذف بهـا الفرسان على الجيش المعادى. ولم يستعمل الصينيون البارود فى المدافع إلا بعد أن علمهم الأوربيون هذه الطريقة، بعد العصر الذى نتحدث عنه بثلاثة أو أربعة قرون.

Lamb ; The Crusades ; The Flame of Islam, p. 338.

الذين لقيهم فى البلاد المفتوحة ، ومن أشهر هؤلاء « يى لو شو تساى Ye-Lu Ch'u Ts'ai الذى أسره چنكيزخان فى مدينة بكين سنة ٦١٢ هـ (١٢١٥ م) ، وظل سجيناً لدى المغول حتى وقف چنكيزخان على كفايته ومقدرته ، فاتخذه وزيراً له ، يستشيره فى كل مهام دولته وكان من حسن الحظ أن صحبه فى غزواته للبلاد الإسلامية ، فقد وصف لنا هذا الرجل فتوحات چنكيزخان وغزواته للدولة الخوارزمية وصفاً يعد من أدق ما كتب فى هذا الموضوع (١) . وهكذا نرى أن المغول فى عهد چنكيزخان يستفيدون كثيراً من حضارة الصينيين المادية والأدبية ، بالقدر الذى ساعدهم على النجاح فيما بعد . ولم تسلم البلاد الصينية من التخريب ، كما لم يسلم سكانها من التشريد والتعذيب والقتل ، حتى أننا نرى أن الغزو المغولى يكلف الصينيين خمسين مليوناً من الأنفس ؛ ومن هذا نرى مدى حب المغول لإراقة الدماء فى البلاد المغلوبة على أمرها (٢) .

ولم يأل چنكيزخان جهداً منذ عودته إلى حاضرته قره قورم ، فى الاستعداد لمطاردة أعدائه العديدين وزعماء القبائل المختلفة فى غرب دولته الذين كانوا لا يفترون عن الكيد له . وهكذا دفعت الظروف چنكيزخان إلى التوجه بجيوشه إلى الغرب ، رغبة منه فى القضاء على هؤلاء الأعداء ؛ ومن هؤلاء كشلوخان الذى تبوأ عرش دولة الخطا وأسس لنفسه دولة قوية على حدود البلاد الإسلامية (٣) .

وقد رأينا كيف نجح چنكيزخان فى القضاء على غريمه كشلو ووضع يده على دولته ، وأصبحت مملكته الواسعة تجاور أملاك الدولة الخوارزمية . كذلك رأينا كيف أن چنكيزخان قد حاول منذ ذلك الحين ، أن تكون علاقته بالدولة الخوارزمية علاقة وفاق ، ومن أجل هذا عقد مع علاء الدين خوارزم شاه هذه المعاهدة السلمية ، التى فتحت الطريق عبر آسيا لتجار الدولتين . ثم وقعت حادثة مقتل التجار فى مدينة أترار فأفسدت تلك العلاقة السلمية وأصبحت الحرب بعد ذلك حقيقة واقعة لم يستطع الخوارزميون ولا المغول دفعها . وتأهب چنكيزخان لاكتساح هذه الدولة وتحطيمها كما سنرى .

---

(١) Bretschneider : Mediæval Researches From Eastern Asiatic Sources, vol. i. pp. 9 — 10.

(٢) Fitzgerald : China, A Short Gultural History, p. 431.

(٣) De Guignes : Histoire Générale des Huns, des Turcs, des Mongols et des Autres Tartares Occidentaux, tom. iii. pp. 39 —41.

٣ — المغول فى بلاد ماوراء النهر

كانت الفترة التى اكتسح فيها چنكيزخان الدولة الخوارزمية فترة قصيرة جداً بالنسبة إلى عظم المساحة التى اخضعها المغول ، فهى لا تزيد على سنوات أربع ، إذ وصل چنكيزخان إلى الحدود الخوارزمية سنة ٦١٦ هـ (١٢١٩ م) وأتم إخضاع هذه الدولة ثم عاد فعبر نهر سيحون عائداً إلى منغوليا سنة ٦٢٠ هـ (١٢٢٣ م) .

رأينا من قبل كيف أن الجيوش المغولية استولت على أملاك دولة الخطا ، واتصلت بذلك أملاك المغول بأملاك الدولة الخوارزمية ، كما رأينا كيف تبدلت علاقة الصداقة التى قامت بين المغول والخوارزميين بعد مقتل التجار فى مدينة أترار . لذلك بدأ چنكيزخان يعد جيوشه لملاقاة أعدائه من المسلمين منذ سنة ٦١٥ هـ (١٢١٨ م) ، وهى السنة التى قتل فيها التجار فى أترار [١] .

وكان الغزو المغولى للعالم الإسلامى عنيفاً كل العنف ، فقد خرب المغول كل شىء ونكلوا بالمسلمين وتفننوا فى تعذيبهم بشتى الوسائل والأساليب . وقد وصف كل من عالج هذا الموضوع من مؤرخى المسلمين حوادث المغول وصفاً يعبر تعبيراً صادقاً عما حل بالعالم الإسلامى فى ذلك الوقت من تخريب وتقتيل وتعذيب . كما أبدى بعض المؤرخين من الأوربيين آراءهم فى هذا الموضوع ، وصوّروا ما قاساه العالم الإسلامى على أيدى المغول أدق تصوير .

ويعتبر ابن الأثير عمدة مؤرخى المسلمين الذين عاصروا هذه الحوادث وكتبوا عنها ؛ ويتضح من كتاباته فداحة الخطب ، كما تتضح آلام المسلمين النفسية ، وضعف حالتهم المعنوية ، حتى أن ابن الأثير نفسه كاد يقلع عن سرد حوادث هذا الغزو كما يتبين ذلك من هذه العبارة :

« لقد بقيت عدة سنين معرضاً عن ذكر هذه الحادثة ، إستعظاماً لها ، »
« كارهاً لذكرها ، فأنا أقدم رجلا وأؤخر أخرى ، فمن الذى يسهل عليه »
« أن يكتب نعى الإسلام والمسلمين ، ومن الذى يهون عليه ذكر ذلك ، »

---

(١) الديار بكرى : تاريخ الخميس فى أحوال أنفس نفيس ، ج ٢ ص ٣٦٨ .

« فياليت أمى لم تلدنى ويا ليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا .... ثم »
« رأيت أن ترك ذلك لا يجدى نفعاً .... هذا الفعل يتضمن »
« ذكر الحادثة العظمى والمصيبة الكبرى .... فلو قال قائل إن »
« العالم منذ خلق الله سبحانه وتعالى آدم إلى الآن لم يبتلوا بمثلها لكان »
« صادقا ؛ فإن التواريخ لم تتضمن ما يقاربها ولا ما يدانيها ...... »
« وهؤلاء لم يبقوا على أحد ، بل قتلوا النساء والرجال والأطفال »
« وشقوا بطون الحوامل ، وقتلوا الأجنة ، فإنا لله وإنا إليه راجعون »
« ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ؛ لهذه الحادثة استطار »
« شررها ، وعم ضررها ، وسارت فى البلاد كالسحاب استدبرته »
« الريح [١] .

أما السيوطى فقد عبر عن هذه المأساة بقوله :
« هو حديث يأكل الأحاديث ، وخبر يطوى الأخبار ، وتاريخ ينسى »
« التواريخ ، ونازلة تصغر كل نازلة ، وفادحة تطبق الأرض وتملؤها »
« ما بين الطول والعرض »[٢]

ولن يفوتنا فى هذا المقام أن نأتى بمثالين من أقوال المؤرخين الأوربيين الذين عالجوا الغزو المغولى ، ووصفوا ما لحق بالعالم الإسلامى من تخريب ؛ فنرى هارولد لام Harold Lamb يشبه هذه القوة البدائية بالريح العاصفة والزلزال العالمى ، فقد استطاعت هذه القوة البشرية أن تصل إلى حدود آسيا الشرقية والغربية ، وأن تعبر سفوحها الوعرة بعقل لا يختلف عن عقل الحيوان، الذى لا يكترث لتعذيب البشر، الشره لكل ما هو جديد براق ، والذى يندفع اندفاع الأطفال الذين لا يدركون معنى المسئولية[٣]. ونرى سيكس Sykes يُرجع حب المغول للتخريب إلى طبيعتهم البدائية، بحيث كانوا إذا احتكوا ببلد من البلدان المتحضرة، اندفعوا إلى تدمير حضارته بسبب

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ١٦٤ — ١٦٥ .
(٢) السيوطى : تاريخ الخلفاء، ص ٣١٠ .
(٣) Harold Lamb : The Crusades ; The Flame of Islam, p. 337.

خوفهم منهـــا ، لذلك نرى المغول وقد احتكوا بالبلاد الصينية ولمسوا طرفا من حضارتها ، يندفعون إلى كراهية المخلوقات المجاورة لهم. فيهاجمونها ، وينكلون بالرجال والنساء والأطفال ، ويحرقون القرى ، ويحولون المدن العامرة إلى صحراء جرداء ، بحيث لم يتركوا وراءهم إلا بلداناً مخربة مكتظة بجثث القتلى[١]. وعن طريق هذا التحليل النفسانى نستطيع أن نلمس السبب الذى حدا بالمغول إلى تخريب المدن الإسلامية العامرة بسكانها ومبانيها ، التى تفنن الصناع المسلمون فى تزيينها .

وبهذه الروح المخربة ، سار چنكيزخان لغزو البلاد الإسلامية فبلغها سنة ٦١٦ هـ (١٢١٩ م) . ومن الخطأ أن نعتقد أن چنكيزخان سار إلى هذه البلاد على غير خطة رسمها لنفسه، بل الواقع أن نظامه الحربى كان من أهم الأمور التى وضعها نصب عينيه ، فاستطاع بهذا النظام وبفضل خططه الهجومية على البلاد الإسلامية ، أن يحرز ما أحرزه من نجاح . فقد استولى أولا على كل البلاد الواقعة بين نهرى سيحون وجيحون ، ثم وزّع أمر الاستيلاء على أقاليم الدولة الخوارزمية المختلفة بين أبنائه وقواده ؛ فبينما توجه جيش إلى إقليم خوارزم، توجه جيش آخر إلى خراسان ، بينما كان چنكيزخان يتم إذلال المدن الواقعة فى أعالى نهرى سيحون وجيحون ويمهد للاستيلاء على إقليم غزنة . وفى الوقت نفسه كان قواد المغول الذين طاردوا علاء الدين خوارزم شاه وألجأوه إلى الفرار إلى إحدى جزر بحر قزوين حيث مات ، يعيثون فى أقاليم العراق العجمى وأذربيجان وجورجيا[٢] .

بلغ چنكيزخان بجيوشه ، كما ذكرنا ، نهر سيحون على مقربة من مدينة أترار Otrar ، وهناك أخذ يستعد لغزو بلاد ما وراء النهر ، وهى البلاد الواقعة بين نهرى سيحون وجيحون ، والتى يفصلها عن إقليم خوارزم من جهة الغرب إقليم صحراوى . وكان يسكن هذه البلاد أقوام من الترك والفرس والعرب ، كانوا يعمرون مدنها إبان الغزو المغولى . وقد وضع چنكيزخان لغزو هذا الإقليم خطة محكمة . فلم يشأ أن يهاجمه من جهة واحدة ، بل رأى أن ينقض عليه من جهات أربع ؛ لذلك نراه يقسم

---

(١) Sykes : A History of Persia, pp 55 -- 56.

(٢) أنظر خريطة « الدولة الخوارزمية فى أقصى اتساعها ».

جيشه إلى فرق أربعة ، عهد إلى كل فرقة بمهمة الاستيلاء على جزء معين من هذا الإقليم ؛ وبهذه الخطة أخذ جنكيزخان أعداءه على غرة ، ولم يترك لهم فرصة كافية للاستعداد .

أما أول هذه الجيوش فكان تحت قيادة ابنيه «جغتاى» Tchagataï و «أجتاى» Ogtaï ، وقد ألقى جنكيزخان على عاتق هذا الجيش إخضاع مدينة أترار . أما الجيش الثانى فكان تحت قيادة «جوجى» Djoutchi الابن الأكبر لجنكيزخان ، وكان عليه أن يخضع مدينة «جَنْد» إحدى الحصون الإسلامية الهامة على نهر سيحون . أما الجيش الثالث فقد أمّر عليه جنكيزخان ثلاثة من كبار قواده ، وكان على هذا الجيش الاستيلاء على مدينتى «بنكت» و «خُجندة» ، وكانا من أهم المعاقل والمنافذ على نهر سيحون[١] . أما رابع هذه الجيوش فكان تحت قيادة جنكيزخان نفسه ومعه ابنه تولوى Touloui . وقد اتجه جنكيزخان بجيشه إلى قلب إقليم ما وراء النهر ، حتى إذا ما سيطر على مدن هذا الإقليم ومن أهمها بخارى وسمرقند ، استطاع أن يحول دون وصول علاء الدين خوارزم شاه إلى المدن المحاصرة على نهر سيحون فى الشرق[٢] .

من هذا نرى أن خطة جنكيزخان كانت خطة محكمة ، ترمى إلى الاستيلاء دفعة واحدة على أهم الثغور والمدن فى بلاد ما وراء النهر، حيث تتجمع الجيوش الخوارزمية ، ولكى يضمن قطع الإمدادات والمؤن عن هذه المدن المحاصرة، توجه بنفسه للاستيلاء على قلب هذا الإقليم، وحال بذلك دون وصول جيوش علاء الدين إلى المدن المحاصرة على نهر سيحون .

ولما كانت مدينة «أترار» Otrar هى المدينة التى حدثت فيها مذبحة التجار التى أدت إلى هذا الغزو كما كانت مفتاح إقليم ما وراء النهر ، لذلك كان هجوم المغول عليها عنيفاً . فقد كانوا يتوقون للثأر من «ينال خان» حاكم هذه المدينة وقاتل التجار. وقد أسرع هذا الرجل فأصلح حصون المدينة وقلعتها ، وزودها بحامية كبيرة ، وأسلم شئون الدفاع عنها الى أحد قواده المهرة . وقد حاصر كل من أجتاى وجغتاى المدينة خمسة أشهر ، فقد الخوارزميون فيها رباطة جأشهم ، حتى أن القائد الخوارزمى فكر فى التسليم.

---

(١) أنظر «خريطة الدولة الخوارزمية فى أقصى اتساعها» .

(٢) D'ohsson : Histoire Des Mongols, tcm. i. pp. 217 — 219.

وقد أدرك المغول أن قائد الجيوش الخوارزمية فى المدينة وكذا من يريد التسليم من جنود الحامية ، لم يفكروا فى التسليم إلا خوفاً من المغول ، بحيث أنهم قد لا يتورعون عن أن يقلبوا لهم ظهر المجن إذا سنحت لهم الفرصة، ولذلك لم يقبل المغول خضوعهم (١).

ومن الأمور الطبيعية ألا يوافق « ينال خان » على فكرة تسليم المدينة للمغول فهو يعرف المصير الذى ينتظره إذا هو وقع فى أيديهم فهو لا محالة هالك ، جزاء له على قتل التجار ورسل چنكيزخان ، لذلك أعلن ينال خان أنه سيدافع عن هذه المدينة إلى النهاية رغم ما أبداه القائد العسكرى من ميل إلى التسليم ، تظاهراً منه بالاخلاص لعلاء الدين خوارزم شاه . على أن المغول ما لبثوا أن استولوا على المدينة عنوة سنة ٦١٦ هـ (١٢١٩ م) ونهبوها وطاردوا سكانها . وقد تقهر ينال خان إلى قلعة المدينة واحتمى بها نحواً من شهر (٢) فقد فى أثنائه معظم رجاله ، ومع ذلك ظل يدافع دفاع اليائس المستميت . ولما وجد نفسه محاصراً من كل جانب قذف بنفسه إلى سقف أحد المنازل ، فتبعه جنديان مغوليان وهو لا يملك أن يدافع عن نفسه الا بقذفهما بالحجارة التى كان يناوله إياها بعض النسوة . وأخيراً وقع فى أيدى المغول الذين قادوه إلى معسكر چنكيزخان الذى كان فى ذلك الوقت أمام مدينة سمرقند . ولكى ينتقم چنكيزخان منه عمد إلى التنكيل به فأمر بعض رجاله أن يصهروا كمية من الفضة ويسكبوها فى عينيه وأذنيه، وهكذا نفذ چنكيزخان وعيده فى قاتل تجاره ورسله . وبسقوط مدينة أترار سقط مفتاح بلاد ما وراء النهر (٣) .

أما عن الجيش الثانى الذى كان تحت قيادة چوچى أكبر أبناء چنكيزخان، فكانت قبلته مدينة « جند Djend» إحدى معاقل المسلمين على نهر سيحون ؛ وقد وصل هذا القائد إلى هذه المدينة بعد أن استولى على كثير من المعاقل والمدن الواقعة على نهر سيحون ، وتمكن بذلك من السيطرة على كل مجرى هذا النهر تقريبا . فلما اقترب من مدينة جند ، غادرها حاكمها ليلا تاركا لسكانها أمر الدفاع عن أنفسهم وعن مدينتهم . وقد نصب المغول المجانيق حول المدينة استعداداً لتحطيم أسوارها . وأزاء هذا الاستعداد من قبل

---

(١) Douglas : The Life of Jenghis- Khan, p. 16.

(٢) ذكرنا فى موضع آخر أنه كانت توجد بكل مدينة قلعة حصينة ، تشبه قلعة الجبل التى بناها صلاح الدين الأيوبى فى مصر ، ليحتمى فيها السلطان الخوارزمى وأفراد حاشيته إذا هدد المدينة عدو ما . راجع ص ٧٧.

(٣) D'ohsson : Histoire Des Mongols, tom, i. pp. 219. — 221.

المغول انقسم الأهالى على أنفسهم ، فرأى فريق منهم ضرورة الدفاع عن المدينة ، ورأى فريق آخر أنه لا فائدة من الدفاع وآثر أن يسلم المدينة فى الحال ، لعل الأهالى يجدون فى ذلك خير شفيع ينجيهم من الوقوع تحت سيوف المغول . والظاهر أن هذا الرأى كان يناصره أكثرية السكان بدليل أن المغول لم يجدوا مقاومة ماداخل المدينة وهم يدكون أسوارها من جميع جهاتها . وأخيراً سلمت المدينة وسلم من سلّم من أهلها ، وقُتل من قاتل المغول . وبعد أن وضع چوچى على المدن المفتوحة حكاماً مخلصين ، أصدر أوامره لجنوده بالعبور إلى إقليم خوارزم [١] .

أما ثالث جيوش چنكيزخان التى سيرها للاستيلاء على بلاد ماوراء النهر فقد سار إلى مدينة « بنكَت » على نهر سيحون و « خجَندة » إلى الجنوب منها . وقد تمكن المغول من دخول مدينة بنكَت بعد أن سلمها الأهالى ، وكان المغول قد أمنوهم على حياتهم . ولكن هؤلاء المغول الذين لا يعرفون معنى للعهود والمواثيق ، لما دخلوا المدينة فصلوا الجند عن المدنيين وأعملوا القتل فى رقاب الفريق الأول ، واختاروا من الفريق الثانى خيرة شبابه لينتفعوا بهم فى أعمالهم الحربية . ثم سارت هذه الفرقة المغولية نحو الجنوب ميممة شطر مدينة خُجَندة الواقعة على نهر سيحون ، وهى مدينة جميلة اشتهرت بحدائقها وانتعاش التجارة فيها ، كما اشتهرت بشجاعة أهلها وقوة بأسهم [٢] ، ومما يسترعى النظر أن « تيمور ملك » قائد الحامية الخوارزمية فيها ، فضّل أن يغادر المدينة مع ألف من جنوده إلى جزيرة صغيرة فى وسط النهر ، بعيدة عن شاطئيه ، حتى يكون فى مأمن من غارات المغول ، وعلى بعد كاف من مرمى سهامهم .

وقد سار ما يزيد على عشرين ألف جندى مغولى ، من أولئك الذين انتصروا انتصارا مبينا على الخوارزميين فى مدينة أترار وغيرها من المدن ، يتبعهم خمسون ألفا من خيرة شباب الخوارزميين ، لمساعدة هذه الفرقة المغولية التى كانت تحاصر « تيمور ملك » . وقد كلفت هذه الجموع بإحضار الأحجار من الجبال المجاورة وإلقائها فى النهر ، ليكوّنوا بذلك طريقا يستطيع المغول أن يعبروا منه إلى هذا الخوارزمى الذى كان معتصما فى جزيرته على أن « تيمور ملك » صمم على إفساد خطتهم ، فصنع إثنى عشرة سفينة كبيرة

(١) D'ohsson : Histoire Des Mongols, tom. i. pp. 221 - 223.

(٢) Howorth : History of the Mongols, Part. i. p. 77.

لوحة ٨



صورة تمثل فرسان چنكيزخان بعد غارة موفقة فى آسيا الوسطى ، ترجع فى الغالب إلى سنة ١١٦٤ هـ (١٧٥٠ م)

(عن كتاب .Harold lamb : Genghis-Khan)

غطى جدرانها بالجلود ؛ وكان يرسل فى كل يوم ستا من هذه السفن للإغارة على المغول الذين كانوا يعملون فى هذا الطريق الموصل إلى الجزيرة ، فيرمونهم بسهامهم . ولـكن «تيمور ملك» وجد فى النهاية أن مقاومته لن تجدى نفعـا فصمم على الهرب ؛ وبعد أن شحن جنوده وأمتعته فى سبعين مركبا ، سار فى النهر متجها نحو الشمال ، على أن المغول كانوا يراقبونه من جانبي النهر . وقد علم وهو يسير فى النهر أن چوچى بن چنكيزخان قد حشد قوة كبيرة من المغول على مقربة من مدينة « جند » ، على جانبى نهر سيحون ، وأنه سد هذا النهر بقنطرة من السفن ، فاضطر «تيمور ملك» أن يترك النهر إلى الساحل حيث امتطى جواده ، وقاتل أعداءه قتال اليائس . ومع ذلك استطاع أن يخدع مطارديه ، وأن يصل فى النهاية إلى مدينة خوارزم حيث كان يرابط جلال الدين منكبرتى بن علاء الدين خوارزم شاه [١] .

أما الجيش الرابع الذى كان يقوده چنكيزخان وابنه تولوى ، فقد توجه إلى مدينة بخارى . وقد استطاع چنكيزخان أن يستولى على المدن التى صادفته فى طريقه إلى هذه المدينة وأن يعين على كل منها حاكما من قبله ، وكان قد جرد هذه المدن مما فيها من ذهب وفضة . كذلك نلاحظ أن چنكيزخان انتقى من يصلح من سكان هذه المدن المفتوحة ليستعين بهم فى حصار مدينة بخارى . وقد بدأ چنكيزخان حصار هذه المدينة سنة ٦١٦ هـ (١٢١٩م) ؛ [٢] وعلى الرغم من أن القوة الإسلامية التى وكل إليها أمر الدفاع عن المدينة بلغت عشرين ألف رجل ، فان هذه القوة مالبثت أن انهارت أمام استعداد المغول وقوة روحهم المعنوية وما يقابل ذلك من ضعف فى الروح المعنوية عند المسلمين .

وقد هاجم المغول هذه المـدينة أيامـا متتالية شعر المدافعون فى أثنائها باليأس وقرروا الانسحاب ليلا ، علهم يجدون مخرجا من هذا المأزق . ولـكى يخترق المسلمون صفوف المغول قاتلوهم قتالا عنيفا حتى أرغموهم على الارتداد ولـكن بدلا من أن يتتبع الخوارزميون أعداءهم الفارين فضلوا طريق الهرب ، فعاد المغول وطاردوا أعداءهم الهاربين واشتبكوا معهم فى قتـال عنيف بالقرب من نهر سيحون ، وكان النصر حليف المغول [٣] . ولما وجد الخوارزميون الذين بقوا فى المدينة أنه لم يعد لهم حول ولا قوة

(١) D'ohsson : Histoire Des Mongols, tom. i. pp. 224 — 6.

(٢) Abulgasi : Histoire Généalogique des Tatars, p. 255.

(٣) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ، ص ٤٠٧ .

ولاسيما بعد أن غادرها خيرة الجنود ، ضَعفت نفوسهم فأرسلوا قاضى المدينة وهو «بدر الدين قاضيخان» ، رسولا لجنكيزخان يعرض عليه تسليم المدينة ويطلب الأمان لسكانها . فلما أجابه جنكيزخان إلى طلبه فُتحت أبواب المدينة للمغول ، وكان ذلك فى نفس السنة التى حاصروها فيها (٦١٦ هـ = ١٢١٩ م) (١) .

دخل جنكيزخان المدينة ، ومر أمام مسجدها ثم دخله ممتطيا جواده ، وسأل عما إذا كان هذا هو قصر السلطان ، فلما قيل له إن هذا إنما هو بيت الله ، نزل إلى أرض المسجد وصعد المنبر ، وصاح قائلا بأعلى صوته . « لقد قطع العلف إعطوا الخيل طعاماً » وقد فهم المغول من هذه العبارة أن جنكيزخان يشير على جنده بأن ينهبوا المدينة . وقد حمل المغول إلى فناء المسجد عدة صناديق تحوى نسخاً كثيرة من القرآن الكريم وقعت تحت حوافر الخيل ، كما أهان هؤلاء البرابرة الدين الإسلامى بإحضارهم قرب الخمر إلى المسجد كما أحضروا المغنين من المدن المختلفة ، وأخذوا يشربون ويطربون وأعيان البلد وكبار الأئمة ممسكون بعنان خيولهم .

خرج جنكيزخان بعد ذلك وجمع سكان المدينة وطلب منهم أن يعينوا له أكثر هذا الجمع ثراء . فعينوا له مائتين وعشرين ، بينهم ثمانون من الأغراب ، فطلب منهم أن يقتربوا منه وأخذ يتحدث إليهم ، وبعد أن بين لهم أن الغرض من حملته هو أن يثأر من السلطان الخوارزمى قال :

« لقد ارتكبتم خطأ فاحشاً ، وإن الرؤساء هم المجرمون ، وإذا سألتمونى »
« عن نفسى قلت لكم إننى نقمة الله على الأرض ، فإذا لم تكونوا »
« مجرمين فإن الله ما كان يسمح لى بأن أعاقبكم (٢) »

وبعد أن فرغ جنكيزخان من حديثه أمرهم بأن يخرجوا كنوزهم المدفونة ، وأن لا يبالوا بما ليس مدفوناً لأنه يستطيع أن يعثر عليه . وقد ترك جنكيزخان كل رجل من هؤلاء الأغنياء فى حراسة رجل مغولى ، على أنه وجد أن هناك أربعمائة فارس خوارزمى لم يخرجوا من المدينة مع سائر رجال الحامية فأرغمهم على الالتجاء إلى القلعة . وقد جند المغول من سكان المدينة من يقدر على حمل السلاح وساروا إلى القلعة وحاصروها ، وبعد أن أحدثوا فى حوائطها عدة ثغرات دخلوها ، وحينئذ لم يتركوا فيها شخصاً واحداً على قيد

(١) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ١٦٨ .

(٢) D'ohsson : Histoire Des Mongols, tom. i. p. 231.

الحياة . على أن هذه الحامية الضعيفة دافعت عن نفسها بكل شجاعة أحد عشر يوما وقتلت عدداً كبيراً من المغول ، كما قتلت عدداً كبيراً من السكان الذين استخدموا في الحصار (١) .

ويظهر أن جنكيزخان ركب رأسه عند ما سقط عدد كبير من المغول صحايا فى ساحة القتال ، فأمر جميع السكان أن يخرجوا من المدينة مجردين من أموالهم، لا يحمل أحد منهم غير ملابسه التى يرتديها ، ثم دخل المغول المدينة فأعملوا فيها النهب وقتلوا من صادفهم من السكان . وقد وصف ابن الأثير يوم سقوط المدينة بقوله :

« وكان يوما عظيما من كثرة البكاء من الرجال والنساء والولدان »
« وتفرقوا أيدى سبأ ، وتمزقوا كل ممزق ، واقتسموا النساء أيضا وأصبحت »
« بخارا (كذا فى الأصل) خاوية على عروشها ، كأن لم تغن بالأمس . »
« وألقوا النار فى البلد والمدارس والمساجد وعذبوا الناس بأنواع العذاب »
« من طلب المال » (٢) .

ومما هو جدير بالذكر أن المغول أشعلوا النار فى المدينة فاحترقت بأسرها إذ أن معظم مبانيها كانت من الخشب ؛ ولم يبق من مبانى المدينة إلا تلك المبنية من الآجر ، وأخيراً نزح من بقى من أهلها إلى إقليم خراسان (٣) . وهكذا شرد المغول أهالى مدينة بخارى الذين اشتهروا بولعهم بالعلوم والفنون . ومما هو جدير بالذكر أن أحد سكان هذه المدينة لما وصل إلى إقليم خراسان ، أجمل ما أحدثه المغول فى مدينته فى هذه العبارة القصيرة التى عبر فيها تعبيراً صادقا عما حدث :

« أتوا فخربوا وأحرقوا وقتلوا ونهبوا ، ثم ذهبوا (٤) »

They came, destroyed, burnt,
Murdered, robbed, and went.

وقد أصبحت مدينة بخارى أطلالا بالية واستمرت على هذا النحو حتى أخذ جنكيزخان نفسه فى إصلاحها وإعادة بنائها ، قبل موته بزمن قصير (٥) .

وقد ترك جنكيزخان أنقاض مدينة بخارى وسار إلى مدينة سمرقند حاضرة إقليم ما وراء النهر ، وصحب معه عدداً كبيراً من الأسرى الذين أسرهم من مدينة بخارى

(١) D'ohsson : Histoire Des Mongols, tom. I. pp. 231 — 232.

(٢) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ١٦٨ — ١٦٩ .

(٣) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ، ص ٤٠٨ .

(٤) Vambery : History of Bokhara, p. 130.

(٥) Abulgasi : Histoire Généalogique des Tatars, p. 266.

ليستعين بهم فى حصار هذه المدينة الجديدة ؛ على أنه قتل منهم فى الطريق عدداً كبيراً ، وخاصة هؤلاء الذين ظهر عليهم علامات التعب ولم يقووا على مواصلة السير(١).

لم تكتسب سمرقند شهرتها من أنها كانت حاضرة بلاد ما وراء النهر فحسب ، بل لأنها كانت فى ذلك الوقت من أعظم مدن العالم التجارية ، وكانت محاطة بأسوار عليها أبراج للدفاع عنها ، ولها إثنا عشر باباً من الحديد . أما حامية الدفاع فكانت على ما ذكره الجوينى(٢) تتألف من ستين ألفاً من الأتراك وخمسين ألفاً من الفرس . ويرى ابن العبرى(٣) أن حامية المدينة كانت تتكون من أربعين ألف فارس . أما ابن الأثير(٤) ، فقد ذكر أنها كانت تتألف من خمسين ألفا . ومما هو جدير بالذكر أنه كان بالمدينة عشرون فيلا أعدت للدفاع(٥) . ومهما يكن عدد الحامية التى كانت بالمدينة فقد كانت الروح المعنوية التى ظهر بها الخوارزميون تنبىء بسقوط المدينة فى وقت سريع ، على الرغم من مناعة حصونها وقلعتها(٦) .

سارت الجيوش المغولية بقيادة چنكيزخان كما قلنا لحصار هذه المدينة وانضم إليها كثير من رجال الفرق المغولية الثلاثة الأخرى وكانت قد أخضعت بلاد ما وراء النهر ، كما ضم المغول إلى جيوشهم عدداً كبيراً من الأسرى الذين يصلحون للخدمة العسكرية . وقد سار الفرسان (الخيالة) فى مقدمة الجيش ، ولم يظهر المشاة والأسرى إلا فى اليوم التالى . وقد قسّم المغول الأسرى إلى فرق صغيرة وأعطوا كل عشرة منهم علما ، فظن الخوارزميون أنهم أمام جيش مغولى لا قدرة لهم على الوقوف فى وجهه ، وبذلك دب الذعر فى نفوس المحاصرين(٧) .

وقد قضى چنكيزخان اليومين الأولين فى اختبار حصون المدينة ، وفى صباح اليوم الثالث أمر الأسرى من المسلمين وكذا جند المغول بالتقدم ، وفى هذه الفترة خرج جماعة من ذوى البأس من قلعة المدينة لمحاربة المغول ، ولكن هذا الجيش الخوارزمى حلت به

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ١٦٩ .

(٢) Barthold : Turkestan Down to the Mongol Invasion, p. 411.

(٣) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ، ص ٤٠٨ .

(٤) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ١٦٩ .

(٥) Howorth : History of the Mongols, part i. p. 79.

(٦) D'ohsson : Histoire Des Mongols, tom. i. p. 235.

(٧) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ١٦٩ .

الهزيمة ، وكان لذلك أكبر الأثر فى إثارة مخاوف الجنود المحاصَرين ، ولما كانت أكثرية الحامية الخوارزمية من القبائل التركية التى تقيم على حدود الدولة الخوارزمية الشمالية ، رأى هذا الفريق من الجند أن يستسلم للمغول ويعرض الصلح على أساس أنهم هم والمغول من أصل تركى واحد . فلما عرضوا هذه الفكرة على چنكيزخان ، وعد بإدخالهم فى خدمته ، ومن ثم خرجوا من المدينة مع عائلاتهم وانضموا إلى المعسكر المغولى ، وفى اليوم الرابع للقتال ، خرج قاضى المدينة يتبعه كبار رجال الدين فيها ، وذهبوا إلى معسكر چنكيزخان ليعرضوا عليه تسليم المدينة بشرط أن يؤمنهم على حياتهم . وقد وعدهم چنكيزخان بإجابة رغبتهم ، وحينئذ فتحت الأبواب . على أن المغول كما قلنا كانوا لا يقدرون قيمة العهود والمواثيق ، لذلك لا نعجب إذا أمر چنكيزخان السكان — على عادته — بالخروج من المدينة ، وأعمل القتل فى رقاب الذين لم يخرجوا . ولما دخل الجيش المغولى المدينة استولى على قلعتها ، وذبح عدداً كبيراً من السكان ، بعد أن اختار چنكيزخان عدداً كبيرا منهم أهداهم أولاده وحريمه وقواده ، وبعد أن اختار عددا كبيرا منهم للانتفاع بهم فى الأعمال الحربية . وأخيرا سمح لخمسين ألفا من السكان بالعودة إلى المدينة بعد أن دفعوا مائة ألف قطعة ذهبية [١] . وقد قدر ابن العبرى هذه الفدية بمائتى ألف دينار قام بجمعها إثنان من كبار رجال سمرقند [٢] . وهكذا تم استيلاء المغول على هذه المدينة فى أوائل سنة ٦١٧ هـ (١٢٢٠ م) .

وصف ابن الأثير [٣] ما أحدثه المغول فى المدينة فقال :

« فلما كان اليوم الرابع ، نادوا فى البلد أن يخرج أهله جميعهم ومن »
« تأخر قتلوه ، فخرج جميع الرجال والنساء والصبيان ، ففعلوا مع »
« أهل سمرقند مثل فعلهم مع أهل بخارا (كذا فى الأصل) من النهب »
« والقتل والسبى والفساد ، ودخلوا البلد فنهبوا مافيه وأحرقوا الجامع »
« . . . . وافتضوا الأبكار وعذبوا الناس بأنواع العذاب »
« فى طلب المال وقتلوا من لم يصلح للسبى . »

---

(١) D'ohsson : Histoire Des Mongols, tom. i. pp. 239 — 236.
نقلا عن كتاب جهان كشاى لعلاء الدين الجوينى ، وكتاب جامع التواريخ لرشيد الدين .

(٢) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ، ص ٤٠٩ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ١٦٩ .

ورغم ما حدث من تخريب فى هذه المدينة فقد فرض چنكيزخان على أهلها جزية سنوية قدرها ثلاثمائة ألف دينار[١] هذا فضلا عن أن چنكيزخان قاد إلى «قره قورم» حاضرة المغول ثلاثين ألفا من العمال والصناع من أهالى هذه المدينة ليعملوا هناك لحساب المغول . وقد اتبع المغول هذه السياسة التقليدية فى كل بلد غزوه . وكان لذلك أثر كبير فيما أفاده المغول من حضارة المسلمين وصناعاتهم وفنونهم[٢] .

ولكى ندرك ما حل بحاضرة بلاد ماوراء النهر إثر الغزو المغولى ، نورد ما ذكره شانج شون Chang Chun ، وهو أسقف صينى صحب چنكيزخان فى غزواته ، وكتب مؤلفا بالصينية عن هذه الرحلة . فقد ذكر أن مدينة سمرقند كانت قبل اكتساح الدولة الخوارزمية تضم أكثر من مائة ألف أسرة ، ولكن بعد استيلاء المغول على هذه المدينة لم يبق فيها سوى ربع عدد سكانها . كذلك ذكر أن كثيرين من العمال الصينيين انتشروا فى هذه المدينة ، ورغم أن الممتلكات ظلت فى أيدى المسلمين فإن إدارتها كانت تحت إشراف جيش الاحتلال المغولى[٣] .

وهكذا استطاع چنكيزخان أن يجهز على كل بلاد ما وراء النهر التى اتخذ منها الخوارزميون مركزا هاما للدفاع . ومن أجل هذا وضع چنكيزخان خطته الحربية التى كفلت له القضاء على هذه البلاد دفعة واحدة ، ولم يترك للخوارزميين فرصة لإصلاح شأنهم .

وبانهيار هذا الجزء الهام من الدولة الخوارزمية ، انهارت الخطوط الدفاعية التى اعتمد الخوارزميون عليها ، وسهل على المغول بعد ذلك ، الاستيلاء على أقاليم الدولة الخوارزمية الباقية من غير عناء .

---

(١) Abulgasi : Histoire Généalogique des Tatars, p. 278.

(٢) Cahun, M.L. : Gengis - Khan et L'Empire Mongol, p. 944.
('Lavisse et Rambout : Histoire générale, tom. ii.)

(٣) Bretschneider : Mediæval Researches From Eastern Asiatic Sources, vol. i. p. 35 & 78.

ويلاحظ أن المؤلف الذى كتبه « شانج شون » والذى يسمى Si yu ki عبارة عن يوميات هذا الأسقف التى كتبها فى أثناء هذه الرحلة ، كما يلاحظ أنه لم يهتم بالكتابة عن الناحية التاريخية بقدر اهتمامه بالكتابة عن جغرافية البلاد التى مر بها .

٤ – خضوع الأقاليم الغربية من الدولة الخوارزمية

لما وصل جنكيزخان إلى سمرقند على ما ذكرنا ، أرسل جيشين فى إثر علاء الدين خوارزم شاه ، يتكون كل منهما من ألف فارس ويقودهما قائدان من أمهر قواده يدعى أحدهما شبى Tchébé والثانى سوبوتاى Souboutai . وقد أمرهما جنكيزخان بالسير رأسا فى إثر علاء الدين، فإذا وجداه على رأس جيش كبير فليتجنبا الاصطدام بجيوشه انتظاراً لوصول المدد من الجيوش المغولية ؛ أما إذا ركن علاء الدين إلى الفرار فيجب عليهما أن يتبعاه بلا تردد . وقد أخذ هذان القائدان يبحثان عن السلطان الهارب ، واستوليا عن المدن التى صادفاها فى الطريق ، وخربا المدن التى قاومت ، وأبقيا على تلك التى لم تقاوم (١) .

وبينما كان المغول يكتسحون بلاد ما وراء النهر ، صمم علاء الدين على الابتعاد عن مسرح السياسة والحرب معاً ، وكان يبدو عليه اليأس الذى ما لبث أن تسرب إلى رجاله . وقد بدأ رحلته فى طريقه إلى الهرب من مدينة سمرقند وعوّل على الرحيل إلى الأقاليم الغربية من بلاده . وفى ذلك الوقت عقد مجلساً من وزرائه وكبار قواده للتشاور فيما يفعله الخوارزميون لمواجهة الموقف ، فانقسم المجتمعون فى الرأى ، فريق منهم يرى أنه لم يعد هناك من الوقت ما يتسع لحماية بلاد ما وراء النهر ويجب على الخوارزميين أن يركزوا جهودهم لحماية الأقاليم الواقعة غربى نهر جيحون ، وفريق آخر يرى وجوب انسحاب علاء الدين إلى غزنة ، وهناك يجمع جيوشه المتفرقة ويواجه بها القوات المغوليه ، وإذا حلت الهزيمة بالجيش الخوارزمى تمكن من الانسحاب إلى بلاد الهند . وقد فضل علاء الدين الرأى الثانى وسار فى طريقه إلى غزنة ، ولكن حدث وهو فى مدينة بلخ ما دفعه إلى تغيير خطته والاتجاه نحو العراق العجمى ، فقد التقى فى هذه المدينة بالوزير « عماد الملك » الذى أوحى اليه بالعدول عن الذهاب إلى غزنة والاتجاه نحو العراق العجمى ، فقبل السلطان مشورته (٢) . ومما هو جدير بالذكر أن

---

(١) D'ohsson : Histoire Des Mongols, tom. i. p. 240.

(٢) كان « عماد الملك » وزيراً لركن الدين بن السلطان علاء الدين خوارزم شاه ، الذى كان يحكم =

فريقا من جيش علاء الدين تآمر فى ذلك الوقت على قتله ليلا ، فلما علم السلطان الخوارزمى بهذا النبأ ، أسرع فغير خيمته فى الليل ، ومن الغريب أنه وجد فى الصباح أن تلك الخيمة التى تركها ليلا قد رشقها أعداؤه بالسهام(١) .

وصل علاء الدين إلى نيسابور ، إحدى مدن خراسان ، وبعد أن قضى هناك بعض الوقت ، علم أن المغول قد عبروا نهر جيحون وأنهم يجدون فى البحث عنه ، ولذلك بادر إلى مغادرة المدينة ويمم شطر العراق العجمى . ومما هو جدير بالذكر أن المغول عبروا نهر جيحون بطريقة طريفة ، إذ أنهم لما اقتربوا من النهر ، لم يجدوا هناك سفنا تصلح للعبور ، فصنعوا أحواضاً من الخشب ، وكسوها بجلود البقر لئلا يتسرب الماء إليها ، ثم وضعوا فيها أسلحتهم وأمتعتهم وألقوا بخيولهم فى الماء وتعلقوا بأذنابها بعد أن شدوا تلك الأحواض إلى أجسادهم «فكان الفرس يجذب الرجل ، والرجل يجذب الحوض المملوء من السلاح وغيره ، فعبروا كلهم دفعة واحدة»(٢) .

سار المغول إلى نيسابور ، وأرسلوا رسلهم إلى المدن التى صادفتهم يعلنون قدوم جنكيزخان بجيشه العظيم ويطلبون منها التسليم ، ويتوعدون من يرفض الإذعان لمشيئتهم من حكامها ، فإذا خضعت مدينة ما ، عين المغول عليها حاكما من قبلهم . ويلاحظ أن المغول أخضعوا المدن الصغيرة التى أبت التسليم وخربوها ، أما المدن الكبيرة الحصينة التى رفضت التسليم فإنهم تركوها إلى حين ، إذ أن مهمتهم الأصلية كانت تنحصر فى مطاردة السلطان علاء الدين خوارزم شاه والقبض عليه .

ولما استولى المغول على نيسابور ، تابعوا السير للحاق بعلاء الدين ، واستطاع القائدان شي وسوبوتاى أن يستوليا على ما صادفهما من البلاد ، حتى وصلا إلى العراق العجمى ، واستوليا على مدينة الرى كما سنفصله . وكان لنبأ سقوط هذه المدينة وقع أليم فى نفوس الخوارزميين ، فقد أيقن الأمراء وقواد الجيوش أنه لا فائدة

= إقليم العراق العجمى من قبل أبيه . فلما وجد حرج مركز أبيه أرسل إليه وزيره ليستفيد من خبرته فى ذلك الوقت العصيب . ولما كان إقليم العراق العجمى هو الموطن الأصلى لهذا الوزير وبه أسرته وأولاده ، رغب ألا يبتعد عنه واستطاع أن يغرى علاء الدين بتغيير خطته ، وأن يتجه إلى العراق العجمى ، وأوهمه أنه سيجد هناك المال والرجال الذين يساعدونه على صد المغول .

(١) D'ohsson : Histoire Des Mongols, tom. i. p. 243.

(٢) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ١٧٠ .

من الدفاع ، وأخذ كل منهم يفكر فى الطريق الذى ينجيه من الهلاك ، وانصرف كل إلى شأنه ؛ وهكذا تفرقت بقايا الجيش الخوارزمى واستولى الفزع على نفوس الجميع[١] .

وقد فكر علاء الدين فى الرحيل إلى بغداد علّه يجد مخرجا من هذا المأزق عند الخليفة العباسى ، الذى كان عدوه بالأمس القريب ، غير أنه اضطر إلى العدول عن هـذه الفكرة عندما علم أن المغول يتابعونه ، وأن الفرصة ضاعت ، ولم تعد تسنح له بتحقيق هذه الخطة[٢] ؛ لذلك سار إلى إقليم « مازندران » جنوبى بحر قزوين ووصل وحيداً معدماً ، ولكنه كان موضع احترام أمراء هذه الجهات . ولما سأل علاء الدين خوارزمشاه عن قلعة أمينة يمكنه أن يحتمى فيها ، أشاروا عليه بالالتجاء إلى إحدى الجزر فى بحر قزوين لا تبعد كثيرا عن ساحل مازندران .

وقد رأى علاء الدين أن يعمل بهذه النصيحة ، وانتظر عدة أيام فى إحدى القرى الواقعة على ساحل البحر ، ولكن المغول لم يلبثوا أن هجموا عليها فركب إحدى السفن وتوارى عن الساحل وبذلك تخلص من الخطر . وقد أراد بعض الخيالة المغول أن يلحقوا به ، ورموا بأنفسهم فى الماء فابتلعتهم الأمواج .

وقد وصف النسوى[٣] حالة علاء الدين وهو فى هذه السفينة فى العبارة الآتية :

« حدثنى غير واحد ممن كانوا مع السلطان فى المركب ، قالوا : كنا »
« نسوق المركب وبالسلطان من علة ذات الجنب ما أيسه من الحيوة »
« (جعله ييأس من الحياة) ، وهو يظهر الاكتئاب ضجيرا ويقول : »
« لم يبق لنا مما ملكناه من الأرض قدر ذراعين نحفر فنقبر ، فما الدنيا »
« لساكنها بدار لا ركونه إليها سوى انخداع واغترار ، ما هى إلا »
« رباط يدخل من باب ويخرج من باب ، فاعتبروا يا أولى الألباب . »

وقد وصل علاء الدين أخيرا إلى إحدى الجزر الصغيرة طلباً للأمان ، وأقام فى إحدى الخيام . على أن الأهالى الذين يقيمون على شاطىء مازندران كانوا يأتونه بما يلزمه من مأكل وما يحتاجه من ضرورات الحياة ؛ وفى نظير ذلك كان السلطان يوصى

---

(١) Curtin : The Mongols' History, p. 116.

(٢) D'ohsson : Histoire Des Mongols, tom. i. pp. 251 — 252.

(٣) النسوى : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى ، ص ٤٦ — ٤٧ .

بإقطاعهم الإقطاعات . ولما استعاد جلال الدين منكبرتى أملاك أبيه بعد بضعة سنين ، أقر هذه الإقطاعات لأصحابها . ونلاحظ أن كل من كان معه علامة من علاء الدين ، كان جلال الدين منكبرتى يقطعه إقطاعاً .

لما أحس علاء الدين أن المرض يشتد عليه يوما بعد يوم ، وأن أمه تركان خاتون قد وقعت أسيرة فى أيدى المغول ، استدعى أبناءه جلال الدين منكبرتى وأزلاغ شاه وأق شاه ، ووكل أمور دولته إلى ابنه جلال الدين ، بعد أن أعلن أنه هو الوحيد الذى يستطيع حماية الدولة الخوارزمية . ومما قاله لأبنائه ، هذه العبارة التى ذكرها النسوى : (١)

« إن عرى السلطنة قد انفصمت ، والدولة قد وهنت قواعدها »
« وتهدمت ، وهذا العدو قد تأكدت أسبابه ، وتشبثت بالملك أظفاره »
« وتعلقت أنيابه ، وليس يأخذ بثأرى منه إلا ولدى منكبرتى ، وها أنا »
« موليه العهد ، فعليكما بطاعته » .

وبعد أن قضى علاء الدين فى هذه الجزيرة شهرا ، قضى نحبه ودفن فيها (٢) ، (سنة ٦١٧هـ = ١٢٢١م) . ومما يؤسف له أن أتباعه عجزوا عن إيجاد كفن يكفنونه به حتى أن شمس الدين محمود — وكان من المقربين إليه — خلع قميصه وكفنه به (٣) ؛ ويروى السيوطى أنه كفن بشاش فراش كان معه (٤) . وقد وصف ابن الوردى (٥) حالة السلطان علاء الدين خوارزم شاه فى أواخر أيامه فقال :

وفارق المسكين أوطانه   وملكه ممتحنا بالمرض
وكم حوى من جوهر مثمن   فما فدى الجوهر هذا العرض

وقد ذكر النسوى الذى عاصر هذه الحوادث ، وخدم فى بيوتات الخوارزميين ،

---

(١) النسوى : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى ، ص ٥٥ .

(٢) Bretschneider : Mediæval Researches From Eastern Asiatic Sources, vol. i. p. 288.

(٣) النسوى : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى ، ص ٤٨ .

(٤) السيوطى : تاريخ الخلفاء ، ص ١١٣ .

(٥) ابن الوردى : تتمة المختصر فى أخبار البشر ، ص ١٥٥ .

بعض أبيات تصوّر حال علاء الدين فى أيام سطوته الأولى وحاله بعد أن مالت به الأيام أبدع تصوير[١] :

أذل الملوك وصاد القروم ... وصير كل عزيز ذليلا
وحف الملوك به خاضعين ... وزفوا إليه رعيلا رعيلا
فلما تمكن من أمره ... وصارت له الأرض إلا قليلا
وأوهمه العز أن الزمان ... إذا رامه ارتد عنه كليلا
أتته المنية مغتاظة ... وسلت عليه حساما صقيلا
فلم تغن عنه حماة الرجال ... ولم يجد قيل عليه فقيلا
كذلك يفعل بالشامتين ... ويفنيهم الدهر جيلا لجيلا

أما عن القائدين شبي وسوبوتاى الذين كانا يقتفيان أثر علاء الدين خوارزم شاه حتى أوصلاه إلى هذا المصير ، فإنهما استوليا على كل ما كان يحمله السلطان من كنوز وأحجار كريمة وآنية فضية وبعثا بها إلى جنكيزخان[٢] كما نجد أنهما استوليا على ما مرا به من الأقاليم الغربية من الدولة الخوارزمية أثناء مطاردتهما للسلطان . وقد استولى هذان القائدان على مازندران جنوبى بحر قزوين سنة ٦١٧ هـ (١٢٢٠ م) ، رغم مناعة هذا الإقليم وقوة قلاعه . ولما كان استيلاء المغول على هذا الإقليم قد حدث فى الفترة التى كانوا يواصلون البحث فيها عن ذلك السلطان الهارب ، فإنهم صبوا جام غضبهم على كل ما امتدت إليه أيديهم ، فقتلوا وسبوا ونهبوا وأحرقوا كل ما صادفهم فيه[٣] .

وبعد أن سيطر المغول على هذا الجزء من الدولة الخوارزمية ، ساروا إلى مدينة «الرى» ، إذ ترامى إلى مسامعهم أن السلطان يقيم فى هذا الجزء الغربى من الدولة . وفى الطريق عثروا صدفة على تركان خاتون والدة السلطان التى أرادت أن تعتصم فى العراق

---

(١) النسوى : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى ، ص ٤٨ .
(القروم جمع قرم وهو السيد المعظم فى قومه . وكليلا = ضعيفاً) .

(٢) Bretschneider : Mediæval Researches From Eastern Asiatic Sources, vol. i. p. 288.

(٣) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ١٧٠ .

العجمى فأسروها ، ووضعوا أيديهم على ما معها من نفائس وكنوز وجواهر ، وبعثوا بهذا كله مع أسيرتهم إلى چنكيزخان [١] .

وصل المغول إلى مدينة الرى ، وكانت الحالة الداخلية فيها خير معين لهم على الاستيلاء عليها ، فقد اختلف أصحاب المذاهب الإسلامية الأربعة فى تفسير بعض نصوص القرآن ، وانضم أصحاب المذهبين الحنفى والشافعى بعضهما إلى بعض ووقفوا فى وجه أصحاب المذهبين الآخرين . وقد أراد قاضى القضاة الشافعى أن ينتقم من خصومه ، ففتح باباً من أبواب المدينة للمغول فدخلوها ، وقتلوا أعداء قاضى القضاة الذين كانوا يكوّنون نصف عدد سكان المدينة ، فلما فرغوا من مهمتهم تحولوا إلى أصحاب المذهبين المناصرين لهم ، فقتلوهم جميعاً بعد أن أعلنوا أنهم لا يستطيعون التعاون مع من خانوا إخوانهم فى الدين[٢] . وكان لسقوط مدينة الرى أثر كبير فى تفرق الجيوش الخوارزمية ونرى أن اليأس قد استولى على علاء الدين خوارزم شاه الذى كان حتى ذلك الوقت يفكر فى المقاومة ، ولكن بعد سقوط هذه المدينة أخذ يفكر فى الهرب والخلاص ، على ما ذكرنا .

سار المغول بعد ذلك إلى « همذان » ، فلما اقتربوا منها خرج حاكمها يعرض عليهم الصلح وحمّلهم بالهدايا النفيسة من الأموال والثياب والدواب ، فأمنت المدينة من التخريب[٣] . ثم اتجه المغول إلى مدينة « قزوين » حيث دافع الأهالى عن أنفسهم فى الطرقات . وقد قتل عدد كبير من الفريقين ، على أن عدد القتلى من أهل المدينة زاد على أربعين ألفا[٤] .

وهكذا وضع المغول أيديهم على العراق العجمى بعد أن استولوا على أهم مدنه . وعلى الرغم من أن هذين القائدين لم يهتما أول الأمر بالاستيلاء على بعض هذه المدن ،

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ١٧١ — ١٧٢ . وقد اختلف المؤرخون فى المكان الذى كان فيه چنكيزخان عندما وصلته تركان خاتون ، فيقول ابن الأثير إنه كان فى سمرقند ، بينما يقول دوسون إنه كان يحاصر « الطالقان » ، وهى إحدى مدن أعالى نهر جيحون ، عندما وصلت تركان خاتون إليه .

(٢) Howorth : History of the Mongols, part i. p. 93.

(٣) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ١٧٤ .

(٤) D'ohsson : Histoire Des Mongols, tom. i. p. 325.

فإن حالة الذعر التي استولت على نفوس الخوارزميين في هذه الجهات ، سهلت على المغول الاستيلاء على مدن هذا الإقليم الواحدة تلو الأخرى . على أنه بالرغم مما حل بهذا الإقليم من دمار ، وعلى الرغم من كثرة عدد القتلى في كثير من المدن كالرى وهمذان ، فإننا نلاحظ أن هذا الإقليم كان أسعد حظا من سائر أقاليم الدولة الخوارزمية ، إذ أن الخراب هنا كان أقل نسبيا من الخراب الذي حل بإقليم خراسان مثلا ، وربما يرجع ذلك إلى قلة عدد الجيوش التي سارت إلى هذه الجهات ، أو ربما يرجع إلى أن القائدين المغوليين كان هدفهما الأول القبض على السلطان الخوارزمى . ومما يدل على صحة ما نقول أن ما حل بأقاليم أذربيجان وأران وجورجيا ، وهي الأقاليم التي استولى عليها المغول بعد موت السلطان علاء الدين في بحر قزوين ، كان أكثر عنفا مما حل بإقليم العراق العجمى ، إذ انحصر غرض المغول هنا في الاستيلاء على هذه الأقاليم دون أن يكون لهم هدف آخر .

وقد اتفق القائدان المغوليان ، شبي وسوبوتاى في سنة ٦١٧ هـ (١٢٢٠ م) على الخطط الحربية لغزو أتابكية أذربيجان التي يفصلها نهر « كور » عن إقليم أران في ناحية الشمال ، وكان هذان الإقليمان تحت حكم الأتابك أوزبك بن البهلوان ، الذي كان طاعنا في السن ، يقضى أكثر وقته في مجالس الشراب ، ولا يفيق من نشوة الخمر ليلا ونهاراً ؛ لذلك لا نعجب إذا رأيناه يفضل مسالمة أعدائه المغول الذين صالحوه بعد أن غمرهم بهداياه من مال وثياب ودواب[١] . وقد دخل المغول مدينة تبريز عاصمة أذربيجان ، وقبل أوزبك أن يكون تابعالهم ؛ على أن هذه التبعية لم تكن شيئا جديداً على هذا الأتابك ، فقد خضع من قبل للخوارزميين وأجزل لهم العطاء ودفع لهم ضريبة سنوية مقررة ، وكل ما حدث أنه أبدل تبعية بتبعية أخرى ، وإن كانت التبعية الثانية أسوأ من الأولى .

وكان الشتاء قد حل عند ما اكتسح المغول هذا الإقليم ، لذلك رحلوا إلى سهول « موقان » على الساحل الغربي لبحر قزوين ، حيث كان الجو أكثر اعتدالا . ويظهر أن

(١) Defremery : Fragments de Géographes et d'Historiens Arabes et Persans Inédite, p. 448.
(Journal Asiatique, Novembre — Décembre 1849.)

المغول اندفعوا فى ذلك الوقت إلى حدود جورجيا، واستطاعوا أن يهزموا جيوشها التى كانت تتألف من عشرة آلاف رجل، غير أنهم عادوا وفضلوا الانتظار إلى أن ينقضى فصل الشتاء (١). وقد وجد حكام جورجيا أن الدائرة لابد دائرة عليهم إذا ما جاء الربيع، لذلك فكروا فى المقاومة، على أنهم لما وجدوا أنه لا قدرة لهم على مواجهة المغول منفردين، سعوا إلى عقد حلف بينهم وبين أتابكية أذربيجان ويضم الأشرف بن الملك العادل صاحب مدينة خلاط وبلاد الجزيرة، واتفق الجميع على مهاجمة المغول فى الربيع، ظنا منهم أنهم سيركنون إلى الهدوء طيلة فترة الشتاء.

والظاهر أن الجيوش المغولية تنبهت إلى ما يحاك حولها من دسائس، فلم تنتظر حتى يحين فصل الربيع وسارعت إلى مباغتة هذه القوى الثلاث. وكانت طلائع الجيوش المغولية تتكون من الجيوش المرتزقة من التركمان والأكراد من أهالى هذه الجهات الذين انضووا تحت لواء المغول، لمهاجمة شعب مسيحى سبب لهم الخسائر فى كثير من الأحيان، هذا فضلا عن أنهم منوا أنفسهم بالاستيلاء على ثروة طائلة فى إقليم جورجيا. وكان يقود هذه الجيوش المرتزقة «أقوش»، وهو مملوك تركى من مماليك أوزبك آثر الانضواء تحت الراية المغولية. وقد توغلت هذه الجيوش التى كانت تتألف من المرتزقة فى جورجيا دون أن تلقى مقاومة تذكر حتى وصلت إلى مدينة تفليس حاضرة هذا الإقليم، وقد قتل عدد كبير من جند «أقوش» فى بادىء الأمر؛ وإذا كان أقوش قد أفلح فى شىء فقد أفلح فى إنهاك قوى الجيوش الجورجية التى تمكن المغول من إبادتها فيما بعد (٢).

وفى سنة سنة ٦١٨ هـ (١٢٢١ م) توجه المغول إلى أذربيجان للمرة الثانية انتقاماً من أهلها لمؤازرتهم ذلك الحلف الذى كان يهدف إلى القضاء عليهم. ولما وصل المغول إلى حاضرتهم تبريز، سارع الأهالى إلى التسليم وتعهدوا بدفع جزية كبيرة. ثم توجهت الجيوش المغولية إلى مدينة «مراغة» إحدى أمهات مدن أذربيجان، وكانت تحت

---

(١) D'ohsson : Histoire Des Mongols, tom. i. p. 326.

(٢) ابن الأثير : الكامل، ح ١٢ ص ١٧٢ — ١٧٣ . و

Defremery : Fragments de Géographes et d'Historiens Arabes et Persans Inédits, pp. 448 — 449.

(Journal Asiatique, Novembre — Décembre 1849.)

حكم إحدى الأميرات التى عزمت على مقاومة المغول ؛ وكما هى عادة المغول فى حروبهم وضعوا الأسرى فى الصفوف الأولى وأمروهم بالهجوم ، وبعد فترة قصيرة سقط ذلك المكان . ولما كانت عادة المغول أن يقتلوا جميع السكان فى المدن التى يفتحونها ، فإنهم لما وجدوا أن عدداً كبيرا منهم قد اختفى فى داخل دروب المدينة ، لجأوا إلى حيلة طريفة لإخراجهم ، فأمروا بعض الأسرى بأن ينادوا فى شوارع المدينة ويعلنوا رحيل المغول ، فاطمأن السكان الذين اختفوا فى الدروب وخرجوا من مخابئهم ، فقبض عليهم المغول وقتلوهم عن آخرهم .

ومما يروى فى هذا المقام أن امرأة مغولية دخلت إحدى الدور فى هذه المدينة وقتلت بعض من فيها من السكان ، الذين لم يستطيعوا المقاومة ظناً منهم أنها رجل مغولى ، فلما كُشف أمرها قتلها أحد أسراها . ومما يدل على أن اسم المغول أصبح يثير الرعب فى نفوس الأهلين ، وأن رؤية المغولى كانت كفيلة بأن تشل حركة السكان المغلوبين على أمرهم ، تلك القصة التى سمعها ابن الأثير بنفسه ورواها ، ذلك أن رجلا مغوليا دخل أحد دروب المدينة وفيه مائة رجل فأخذ يقتلهم الواحد تلو الآخر دون أن يفكر أحدهم فى المقاومة ، وظل هكذا حتى أفناهم عن آخرهم (١) . وعلى الرغم من أن هذه القصة وغيرها من القصص التى رويت فى هذه الأثناء لا تخلو من المبالغة ، إلا أنها تعبر تماما عما كان يعانيه المسلمون فى هذه الفترة من خوف وذعر .

توجهت الجيوش المغولية بعد ذلك إلى أتابكية إربل ، وقد أثار ذلك قلق الأمراء الأتابكة هناك ، بل أثار قلق الخليفة العباسى نفسه . وكان هذا الإقليم جبلياً وعراً ، لذلك خشى أمراء المسلمين ومعهم الخليفة أن يتحول عنه المغول إلى العراق العربى ، لذلك نرى الخليفة ينادى بضرورة عقد حلف إسلامى يقف فى وجه المغول ، كما نراه يستنجد بأمراء إربل والموصل والجزيرة . وقد أرسل كل من أميرى إربل والموصل ما جمعه من جيوش إلى مدينة « دقوقا » إحدى مدن أتابكية إربل ، واعتذر الملك الأشرف صاحب بلاد الجزيرة بأن جنده قد رحلوا إلى مصر لنجدة أخيه الكامل ومساعدته فى حروبه مع الصليبيين الذين كانوا قد استولوا على مدينة دمياط أما الخليفة

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ١٧٤ — ١١٥ .

فقد أمدهذه الجيوش بثلاثمائة فارس ، وبكل ما أمكنه جمعه من الرجال . ولما تجمعت هذه الجيوش فى مدينة دقوقا ، وجد قائدها أمير إربل أنها لا تكفى لمواجهة الجيش المغولى فاعتذر عن المسير لملاقاة أعدائه . وكان من حسن حظ المسلمين أن ظن المغول أنهم أمام حلف قوى لا يستطيعون الوقوف فى وجهه ، فلم يتجاسروا على السير لمواجهة الجيوش الإسلامية المتجمعة ، ورحلوا إلى العراق العجمى ، وكان من أثر ذلك أن تفرقت الجيوش الإسلامية وعادت إلى أوطانها (١) .

قضى المغول الفترة التالية متنقلين بين المدن الإسلامية المختلفة فى العراق العجمى وأذربيجان وأران وجورجيا ، مدمرين مخربين ما بقى من مدنها ، حاملين ما يستطيعون حمله من خيراتها ، ، ثم عبر شبى وسوبوتاى المنطقة الواقعة بين بحر قزوين والبحر الأسود إلى بلاد القفچاق وروسيا ، وسار المغول بقيادة هذين القائدين إلى بلغاريا وأوصلوا الرعب إلى أقصى حدود أوروبا (٢) مما لا يدخل فى نطاق موضوعنا .

٥ — المغول فى إقليم خوارزم

كان إقليم خوارزم من الأقاليم التى تسيطر عليها تركان خاتون أم السلطان علاء الدين خوارزم شاه ، فقد كان نفوذها فى هذا الإقليم يفوق نفوذ السلطان نفسه ، وذلك بفضل أتباعها المخلصين من قبيلة كانكالى ، التى تسكن السهول الواقعة شمال خوارزم وشمال شرقى بحر قزوين (٣) .

وبرغم هذا الشقاق الذى قام بين علاء الدين وأمه ، فإنه لما رأى الخطر ماثلا أمام عينيه ، أرسل إليها فى خوارزم يطلب منها أن تتقهقر هى وحاشيتها إلى إقليم مازندران ، جنوبى بحر قزوين ، حرصا على حياتها . كما نرى چنكيزخان يرسل إليها ،

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ١٧٤ — ١٧٥ .

(٢) D'ohsson : Histoire Des Mongols, tom. i. pp. 331 — 4.

(٣) تزوج السلطان علاء الدين تكش خوارزم شاه من تركان التى تنتسب إلى قبيلة «كانكالى» التى تسكن شمال إقليم خوارزم ، فأنجبت له علاء الدين محمد . وكان من أثر هذه المصاهرة أن نزح عدد كبير من كبار رجال هذه القبيلة إلى الدولة الخوارزمية نفسها ، وتكونت من هؤلاء قوة كبيرة ، أصبحت تناهض قوة السلطان نفسه . النسوى : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى ، ص ٤٢ .

لوحة ٩



منظر لهجوم الفرسان المغول فى مخطوط من مخطوطات الشاهنامه يرجع إلى القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى)
ومحفوظ فى متحف اللوفر .

(عن كتاب التصوير فى الإسلام عند الفرس للدكتور زكى محمد حسن)

عندما سمع بذلك الشقاق الذى قام بين علاء الدين وأمه ، يستميلها إلى جانبه ووعدها بأن يترك لها ما بيدها من أملاك بعد أن يتم فتوحاته ؛ على أن السلطانة لم تهتم بما جاء فى هذه الرسالة(١) .

ولما علمت تركان خاتون(٢) بتقهقر السلطان علاء الدين محمد ، عزمت فى أواخر سنة ٦١٦ هـ (١٢١٩ م)(٣) على مغادرة إقليم خوارزم مع وصيفاتها ، ومع أبناء علاء الدين ، وحملت معها كل ما يمكن حمله من كنوز ؛ وقبل أن ترحل ارتكبت عملا بربريا فاحشا ذلك أنها أمرت بقتل أولئك الأمراء الذين كان علاء الدين قد استولى على أملاكهم والذين كانوا فى سجون خوارزم ، فقتلت أبناء طغرلبك آخر سلاطين السلاجقة فى العراق ، وأمراء بلخ وترمذ وباميان ، وابنى آخر ملوك الدولة الغورية ، وكثيرين من الأمراء الآخرين(٤) .

رحلت تركان خاتون من إقليم خوارزم بغية الالتجاء إلى العراق العجمى(٥) ، ثم اعتصمت وهى فى الطريق بإحدى قلاع مازندران الحصينة . وقد استولى القائد المغولى « سوبوتاى » فى أثناء مطاردته علاء الدين خوارزمشاه على هذه القلعة ، التى سلمت بعد ثلاثة أشهر حين نفذ ما ادخره المحاصرون من مياه للشرب . والمهم أن تركان خاتون وقعت أسيرة فى أيدى المغول الذين قادوها هى وحاشيتها وأبناء علاء الدين إلى معسكر چنكيزخان . وقد ظلت تركان خاتون أسيرة فى أيدى المغول حتى رحلوا إلى بلادهم وصحبوها معهم إلى هناك ، حيث ماتت سنة ٦٣٠ هـ (١٢٣٣ م) . أما أبناء علاء الدين الصغار فقد قتلهم چنكيزخان رغم حداثة سنهم ، كما أعطى ابنه چغتاى اثنتين من بنات علاء الدين فتزوج واحدة ، وأعطى الثانية لأحد رجاله المقربين ، كما أعطى چنكيزخان ابنة ثالثة من بنات علاء الدين لحاجبه دانشمند Danishmend(٦) .

---

(١) D'ohsson : Histoire Des Mongols, tom. i. p. 258.

(٢) يلاحظ أن لفظ « خاتون » لفظ تركى معناه الزوجة وجمعه خواتين .

(٣) النسوى : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى ، ص ٣٨ .

(٤) D'ohsson : Histoire Des Mongols, tom. i. pp. 258 — 259.

(٥) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ١٧١ — ١٧٢ .

(٦) D'ohsson : Histoire Des Mongols, tom. i. p. 260.

وهكذا خلا إقليم خوارزم من الحكام الخوارزميين ، وبات ينتظر مصيره المحترم على أيدى المغول .

بعد وفاة علاء الدين فى هذه الجزيرة المنعزلة فى بحر قزوين على نحو ما رأينا ، عبر أولاده الثلاثة ، جلال الدين منكبرتى ، وأزلاغ شاه ، وأق شاه ، عبروا البحر إلى إقليم خوارزم حيث استقبلوا بمظاهر الفرح والسرور ، إذ كانت حاضرة هذا الإقليم فى فوضى مستمرة منذ غادرتها تركان خاتون التى انشغلت بنفسها ، وفاتها أن تعين حاكما على هذا الإقليم . وقد وصف النسوى وصول جلال الدين منكبرتى وأخويه إلى إقليم خوارزم فى عبارة نوردها فى هذا المقام :

« لما اندرج السلطان إلى رحمة الله ودفن بالجزيرة ، ركب جلال الدين »
« البحر إلى خوارزم بأخويه المذكورين (أزلاغ شاه وأق شاه) »
« . . . . وتباشر الناس بقدومهم تباشر من أعضل داؤه فظفر »
« بدوائه . . . . . . واجتمعت عندهم من العساكر السلطانية . . . . . . »
« زهاء سبعة آلاف فارس[١] » .

وعلى الرغم من أن جلال الدين منكبرتى وأخويه استطاعوا أن يجمعوا جيشاً كبيراً لمواجهة المغول ، فقد كان من سوء حظ الخوارزميين أن هذا الجيش كان يتكون من تلك القبائل التركية التى تنتمى إليها تركان خاتون والتى لم ترض عن تولى جلال الدين منكبرتى الحكم بعد أبيه[٢] . وقد أراد جلال الدين أن يخضع هذه الجيوش الثائرة بالقوة فتآمروا على قتله . ولم يجد جلال الدين مخرجا إلا الفرار والنجاة بنفسه من الهلاك ، ففر إلى خراسان يصحبه ثلاثمائة فارس تحت إمرة « تيمور ملك » حاكم مدينة خُجَندة ، وكان قد فر إلى إقليم خوارزم بعد غزو المغول مدينته كما رأينا.

---

(١) النسوى : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى ، ص ٥٦ .

(٢) كان علاء الدين خوارزم شاه قد اضطر أن يوصى لابنه أزلاغ شاه بالحكم من بعده تحت تأثير تركان خاتون ، متخطيا فى ذلك ابنه الأكبر جلال الدين منكبرتى . غير أن علاء الدين عاد وهو على فراش الموت فنقض العهد الذى أعطاه لابنه الصغير وأوصى بالحكم لجلال الدين بعد نأكد أنه هو الوحيد الذى يستطيع حماية الدولة الخوارزمية . وطبيعى أن يثير هذا حفيظة الجيوش الخوارزمية من قبيلة كانكالى التى تنتمى إليها تركان خاتون ، والتى كانت تؤيد الابن الأصغر أزلاغ شاه .

وقد عبر جلال الدين هذه الصحراء التي تفصل إقليم خوارزم عن خراسان ، في ستة عشر يوما ، وصل بعدها إلى الأراضي القريبة من مدينة « نسا »[١] .

أما الجند المتآمرون فقد بقوا في خوارزم بعد رحيل جلال الدين عنها ، ولكنهم ما لبثوا أن رحلوا أيضاً إلى خراسان بعد أن سار إليهم المغول. وبرحيل جلال الدين منكبرتي عن إقليم خوارزم ، ضاع آخر أمل في إنقاذ هذا الإقليم ، إذ لم يعد هناك من قوة تستطيع أن تقف في وجه التيار المغولي .

وكان في قدوم أولاد علاء الدين خوارزم شاه مدينة خوارزم وجمعهم الجيوش الكثيرة فيها ، ما استلفت نظر چنكيزخان ، فسير إلى هذه المدينة جيشا تحت قيادة أبنائه جوجي وجغتاي وأجتاي الذين كانوا قد أتموا فتح بلاد ما وراء النهر بالاشتراك مع جيوش چنكيزخان . ولكي يحاصر چنكيزخان أبناء علاء الدين من كل جهة أمر جيوشه في خراسان بأن تقف على الحدود الجنوبية للصحراء التي تفصل خوارزم عن خراسان[٢] . وقد عسكر سبعمائة فارس بالقرب من مدينة « نسا » وكان ذلك عند ما قدم جلال الدين منكبرتي إليها . فأدى هذا إلى اشتباكه بالمغول ردحا من الوقت ثم فر إلى نيسابور .

أما أزلاغ شاه وآق شاه فكانا أسوأ حظا من أخيهما جلال الدين منكبرتي ، إذ أنهما لما فرا إلى خراسان ، لحق بهما المغول بالقرب من مدينة « نسا » ، ولما أرادا الاشتباك معهم حلت بهما الهزيمة ثم وقعا في الأسر . وقد قطع المغول رأسيهما ورشقوهما في سهمين ثم طافوا بهما في أنحاء هذه المقاطعة ، إمعانا في السخرية بالخوارزميين ، وإرهابا للأهالي المتمردين .

وفي هذه الأثناء (ذي القعدة سنة ٦١٧ هـ = مايو سنة ١٢٢٠ م) ، كان الجيش المغولي يتقدم نحو مدينة خوارزم[٣] ، حاضرة الإقليم المسمى بهذا الإسم ، وتقع على

---

(١) D'ohsson : Histoire Des Mongols, tom. i. p. 262.
نقلا عن كتاب جهان كشاى لمؤلفه علاء الدين عطا ملك الجويني .

(٢) كان چنكيزخان في مدينة سمرقند عندما بعث بجيشين أحدهما إلى خوارزم والآخر إلى خراسان .
ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ١٨١ — ١٨٢ .

(٣) Howorth : History of the Mongols, part i. p. 85.

مقربة من مصب نهر جيحون فى إقليم صحراوى ، إذ لا نجد فيما عدا هذه المدينة وما يحيط بها من مدن صغيرة وقرى متناثرة ، إلا أراض صحراوية .

وكانت الجيوش المغولية تحت قيادة چوچى وأجتاى من أبناء چنكيزخان كما ذكرنا ، ولكن القيادة العليا كانت فى يد چوچى أكبر أبنائه ؛ وهكذا كان المغول أقوياء بروحهم المعنوية وبرجالهم وبمؤازرة چنكيزخان لهم . أما الجيوش الخوارزمية فكانت لا ضابط لها وخاصة بعد أن فر جلال الدين منكبرتى وأخواه ، كما كانت أكثرية هذه الجيوش من قبيلة كانكالى التركية ، وهى لا تعدو أن تكون من الجيوش المرتزقة التى لا يهمها فى كثير أو قليل أن تدافع عن الأراضى الخوارزمية .

وصل القواد الثلاثة إلى المدينة وطلبوا من أهلها التسليم ووعدوهم حسن المعاملة ، وأعلنهم چوچى أن أباه أعطاه إقليم خوارزم ليحكمه وأنه حريص على أن يبقى حاضرة هذا الإقليم من التخريب ، كما أخبرهم أنه حذر جنوده ألا يمسوا هذا الإقليم بأذى[1]. هذا إلى أن السلطان المتوفى علاء الدين خوارزم شاه كان قد أرسل إلى أهالى هذه المدينة ، على أثر تقهقره وفراره ينصحهم بالتسليم وعدم المقاومة ، صونا لأرواحهم ، وقد جاء فى رسالته لهم ما يأتى :

« إن لأهل خوارزم علينا وعلى سلفنا من الحقوق المتلاحقة »
« والسوالف الحاضرة والسابقة ما يوجب علينا النصح لهم »
« والإشفاق عليهم ، وهذا العدو عدو غالب فعليكم بالمسالمة »
« والطريق الأرفق ودفع الشر بالوجه الأوفق »[2] .

ورغم تحذير چوچى ونصح السلطان الخوارزمى ، انقسم السكان إلى معسكرين ، فريق منهما يؤمن بضرورة التسليم وفريق آخر يرى ضرورة المقاومة والدفاع عن وطنهم ؛ وقد انتصر أنصار الرأى الثانى ووقفت المدينة موقف الدفاع ، واستعد السكان للمقاومة .

ولما أدرك المغول عزم الخوارزميين على المقاومة ، استعدوا بدورهم للقتال

---

(١) D'ohsson : Histoire Des Mongols, tom. i. p. 266.

(٢) النسوى : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى ، ص ٩٣ .

نصبوا حول المدينة آلات الحرب من مجانيق ومتاريس وغيرها . ولما كانت الأراضي المحيطة بالمدينة فقيرة من الأحجار التي يحتاج إليها المغول في أعمال الحصار والتي يقذفونها على المدن المحاصرة بوساطة المجانيق ، فقد اقتلعوا عددا كبيرا من أشجار التوت ، وقطعوا سيقانها قطعا مستديرة تركوها فترة من الزمن في الماء حتى ازدادت قوة ، واستطاعوا بعد ذلك أن يستعملوها في مجانيقهم لتحطيم أسوار المدينة[1] . وبينما كانت استعدادات المغول قائمة على قدم وساق ، وصل كثير من أسرى البلاد الخاضعة الذين استغلهم المغول في حفر الخنادق حول المدينة والذين أنجزوا هذا العمل في غضون عشرة أيام[2] .

ولما اطمأن المغول إلى استعداداتهم الحربية قام ثلاثة آلاف منهم بهجوم كان النصر فيه حليف الخوارزميين ، فظنوا أن انتصارهم أصبح من الأمور المحققة، وساعد ذلك على تقوية روحهم المعنوية . على أن هزيمة المغول في هذه المرة ترجع إلى تلك الفوضى التي حلت بالجيوش المغولية نتيجة لخلاف نشأ بين جوچي وجغتاي ابني جنكيزخان . ورغم هذا النزاع ، استمر حصار هذه المدينة ستة أشهر أرسل قواد المغول في خلالها إلى جنكيزخان — وكان إذ ذاك أمام مدينة الطالقان في أعالي نهر جيحون — يطلبون منه مددا يعوض ما خسروه أمام مدينة خوارزم ، كما نقلوا إليه أنباء ذلك الخلاف الذي نشأ بين ابنيه ، وما أدى إليه من شقاق وفساد وفوضى في صفوف الجيش المغولي .

وقد استاء جنكيزخان عندما سمع هذه الأنباء ، فارسل المدد وبعث أوامره باسناد قيادة الجيش إلى ابنه الثالث أجتاى ، وأمره أن يصلح من أمر أخويه . ولما أعاد القائد الجديد تنظيم جيوشه وقضى على تلك الفوضى التي انتشرت في صفوف الجيش ، أمر جنده بالهجوم على المدينة ، واستطاع المغول في النهاية أن يخترقوا أسوارها ، وأن يرفعوا أعلام النصر على هذه الأسوار ، ثم أشعل المغول النار في منازل المدينة ومبانيها .

---

(١) النسوى : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى ، ص ٩٣ .

(٢) D'ohsson : Histoire Des Mongols, tom. I. p. 267.

وعلى الرغم من نجاح المغول فى اختراق حصون المدينة ، صمم الخوارزميون على الاستماتة فى الدفاع عن أنفسهم وعن مدينتهم ، فحاربوا فى شوارعها التى خربها المغول ، الشارع تلو الآخر ؛ وقد ساهم النساء والأطفال فى هذا النضال[١] . واستمرت مقاومة الخوارزميين على هذا النحو سبعة أيام ؛ واخيرا وجد السكان أنفسهم قد تجمعوا فى أحياء ثلاثة . وبعد أن أعيتهم الحيلة وضاقت بهم السبل عرضوا على المغول التسليم ، فارسلوا الفقيه « عالى الدين » محتسب خوارزم إلى قائد الجيش المغولى الذى أولاه احترامه وأمر بان تفرد له خيمة خاصة . ولما آن الوقت الذى مثل فيه الرسول الخوارزمى فى حضرة القائد المغولى قال له : « إننا شاهدنا من هيبة الخان ، وقد آن أن نشاهد من مرحمته» . فغضب القائد المغولى[٢] وقال : « ماذا رأوه من هيبتى ، وقد أفنوا الرجال وطاولوا القتال ؟ ، فأنا الذى شاهدت هيبتهم وها أنا أريهم هيبتى[٣] » .

وقد أمر القائد المغولى الأهالى بالخروج من المدينة وطلب من أصحاب الحرف أن يقفوا فى مكان منعزل ، فنهم من فعل ونجا من الموت ، ومنهم من امتنع وظن أن هؤلاء سيؤخذون إلى بلاد المغول وأن الباقين سيتركون أحياء . وقد صدقت نبوءة الخوارزميين عن رحيل أصحاب المهن والحرف إلى بلاد المغول وكذبت نبوءتهم الثانية إذ أعمل المغول السيف فى رقاب من بقى من السكان . وكان على كل جندى من المغول أن يقتل أربعة وعشرين رجلا خوارزميا ، فإذا علمنا أن الجيش المغولى كان يتكون من مائة ألف رجل ، أدركنا ذلك العدد الغفير من السكان الذين كان نصيبهم الهلاك[٤] ؛ وأخيرا لم يبق من السكان فى المدينة إلا الفتيات الصغيرات والأطفال الذين استرقهم المغول[٥] .

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، ١٢ ص ١٨٧ .

(٢) يقول دوسون إن هذا القائد المغولى كان جوجى ، وهذا لا يتفق مع الحقيقة وهى أن جنكيزخان أسند قيادة جيشه لفتح هذه المدينة إلى ابنه أجتاى بعد أن عزل منها ابنه جوجى ، على أثر ذلك الخلاف الذى قام بينه وبين جغتاى . أنظر D'ohsson : tom. i. p. 269 .

(٣) النسوى : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى ، ص ٩٤ .

(٤) إذا أخذنا بهذا الرأى بلغ عدد المسلمين الذى قتلوا فى هذه المدينة ٢,٤٠٠,٠٠٠ وهذا العدد كما يبدو بعيد عن التصديق .

(٥) D'ohsson : Histoire Des Mongols, tom. i. pp. 269 — 270.

ولكي يجهز المغول على المدينة ويجعلوها أثرا بعد عين ، فتحوا سدود نهر جيحون فغرقت المدينة وتهدمت أبنيتها وأصبحت كأن لم تغن بالأمس . وقد صور ابن الأثير(١) ما أصاب هذه المدينة تصويرا دقيقا فى هذه العبارة :

« ثم إنهم فتحوا السد الذى يمنع ماء جيحون عن البلد ، فدخله الماء »
« فغرق البلد جميعه ، وتهدمت الأبنية ، وبقى موضعه ماء ، ولم يسلم »
« من أهله أحد البتة ، فإن غيره من البلاد قد كان يسلم بعض أهله ، »
« منهم من يختفى ، ومنهم من يهرب ، ومنهم من يخرج ثم يسلم ، ومنهم »
« من يلقى نفسه بين القتلى فينجو ، وأما أهل خوارزم فمن اختفى من »
« التتر غرقه الماء ، وقتله الهدم ، فأصبحت خرابا يبابا . »

هكذا سيطر المغول على إقليم خوارزم ، وبسيطرتهم على حاضرة هذا الإقليم ، لم تعد هناك مدينة أوقرية تستطيع أن تقف فى وجوههم ، كما أصبح الجيش الخوارزمى فى هذا الإقليم محطما تماما .

وفى نفس الوقت الذى سيطر فيه المغول على إقليم خوارزم ، نرى چنكيزخان يتم إخضاع المدن الواقعة فى أعالى نهر جيحون ، ومن أشهرها ترمذ وبلخ . ومن الطريف المؤلم أن چنكيزخان لما استولى على مدينة ترمذ ، أمر بإخراج جميع السكان من المدينة وأمر جنده بقتلهم جميعا . وقد حدث أن هم أحد المغول بقتل امرأة عجوز فأرادت هذه المرأة أن تفتدى نفسها بجوهرة ثمينة كانت تمتلكها ، فلما طالبها المغولى بهذه الجوهرة ذكرت أنها ابتلعتها فى جوفها ، فشق المغولى بطن المرأة وأخرج الجوهرة من جوفها . وقد انتشر الخبر سريعا بين المغول فظنوا أن السكان جميعا قد خبأوا الجواهر فى بطونهم ، لذلك أمر چنكيزخان بشق جميع بطون الموتى للبحث عما عسى أن يكون فيها من جواهر(٢) .

والمهم أنه باستيلاء المغول على إقليمى ما وراء النهر وخوارزم ، استطاعوا أن يحيطوا تماما بإقليم خراسان حيث وجهوا ضربتهم التالية ، فاستولوا على مدن هذا الإقليم المدينة تلو الأخرى ، ولم يقف فى طريقهم عائق أو يمنعهم مانع .

(١) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ١٨٢ .
(٢) D'ohsson : Histoire Des Mongols, tom. I. p. 271.

٦ – المغـــــول فى خراسان

ذكرنا كيف أن جنكيزخان استولى على بلاد ما وراء النهر حيث أخضع هو وابنه « تولوى » أمهات مدن هـذا الإقليم ، ومن أهمها بخارى وسمرقند ؛ كما ذكرنا كيف عبرت بعض الجيوش المغولية التى كانت قد فرغت من إخضاع إقليم ما وراء النهر إلى الضفة الغربية من نهر جيحون ، واستولت على إقليم خوارزم ، وكيف أن جنكيزخان كان يحطم الحصون والمدن الخوارزمية فى أعالى نهر جيحون فى الوقت نفسه .

على أن جنكيزخان بينما كان يواصل أعماله الحربية فى إقليم ما وراء النهر ، كان يوجه الجيوش المغولية الأخرى إلى الوجهة التى يراها ، فإذا شعر أن مدينة ماشقت عصا الطاعة على المغول سارع إلى إرسال فرقة مغولية لابادتها ، وإذا وجد أن إقليما من أقاليم الدولة الخوارزمية قد ظهرت فيه روح التمرد والعصيان ، أرسل الفرق التـأديبيـة ليعطى الخوارزميين دروسا فى الخضوع والذلة والاستسلام . وكان جنـكيزخان يجد فى هذه الفترة فى البحث عن زعماء الدولة الخوارزمية وقادة الرأى فيها ، ليقضى بقضائه عليهم ، على ما قد يساور الخوارزميين من روح التمرد ؛ كما أنه كان إلى جانب ذلك يدافع عن مؤخرة الجيوش المغولية ، ويمد الجيوش المختلفة بما تحتاج إليه من مساعدات .

إذا فهمنا هذه السياسة التى سار عليها جنـكيزخان أدركنا السبب فى إرسال حملته المطاردة فى إثر علاء الدين خوارزم شاه ، كما أدركنا السبب الذى حدا إلى إبطائه بإرسال جيوشه التى كانت قد فرغت من إخضاع بلاد ما وراء النهر إلى إقليم خوارزم عندما علم أن أبناء علاء الدين قد عادوا إلى هذا الإقليم وأخذوا يجمعون الجيوش لمواجهة المغول ، وكذلك نستطيع أن ندرك السبب الذى من أجله صمم المغول على القبض على أبناء علاء الدين خوارزم شاه ، حتى إذا ما قبضوا على اثنين منهما نكلوا بهما أشنع تنكيل . ويتجلى حرص جنـكيزخان على تحقيق هذه السياسة فيما رأيناه من إرساله إحدى فصائله إلى خرسان فى نفس الوقت الذى أرسل فيه جيشا إلى إقليم خوارزم ويظهر أن الغرض الأساسى الذى من أجله بعث جنكيزخان بهذا الجيش

لوحة ١٠



رسم يمثل جنكيزخان واقفاً بباب خيمته الجميلة النقش ومن حولها خيام حاشيته في مخطوط من كتاب جامع التواريخ لرشيد الدين.

(عن كتاب Universal History of the world, vol 5.)

كان مساعدة الجيش المغولى الذى سار لغزو إقليم خوارزم، وسد المسالك على الخوارزميين، حتى لا يترك لهم سبيلا للهرب[١]؛ وقد أدت هذه السياسة إلى نجاح المغول فى إقليم خوارزم وأسر اثنين من أبناء علاء الدين خوارزم شاه على ما رأينا.

ولم تكن هذه الفصائل المغولية أولى الفصائل التى وطئت أقدامها إقليم خراسان، فهذا الإقليم كان معرضا لغزو مفاجىء خاطف على أيدى القائدين شبى وسوبوتاى بينما كانا يطاردان علاء الدين خوارزم شاه، فاستولى هذان القائدان على بعض المدن الخراسانية الهامة كمدينة نيسابور. ويلاحظ أن هذين القائدين لم يهتما كثيرا بإخضاع إقليم خراسان إذ كان غرضهما الأساسى مطاردة علاء الدين وأسره، ومع ذلك فقد وضعا قوادا من المغول على المدن الخاضعة[٢].

ولم تظهر جيوش مغولية بعد رحيل شبى وسوبوتاى غير تلك الفصائل الصغيرة التى أرسلها چنكيزخان لمساعدة الجيوش المغولية فى إقليم خوارزم، والتى لم يكن فى خططها غير سد المسالك على الخوارزميين إذا حاولوا التقهقر نحو الجنوب. لذلك نرى بعض المدن الخراسانية كمدينة طوس، التى كانت قد خضعت لشبى وسوبوتاى، تحاول الخلاص من الحكم المغولى، إذ قتل الخوارزميون الحاكم المغولى فى هذه المدينة وخلصوها من العبودية. وقد استمرت الحال فى خراسان على هذا النحو حتى صدرت الأوامر لتولوى بن چنكيزخان بالسير إلى إقليم خراسان فى خريف عام ٦١٧ هـ (١٢٢٠م). ويظهر أن چنكيزخان كان ينوى غزو هذا الإقليم بنفسه بدليل أنه عبر إلى الضفة الغربية لنهر جيحون وسار إلى مدينة بلخ، إحدى المدن الغنية الواقعة على الضفة الغربية لنهر جيحون، ابتغاء الاستيلاء عليها.

ولم تكن مدينة بلخ محصنة تحصينا يكفل لها الصمود أمام الجيوش المغولية؛ وترجع شهرة هذه المدينة إلى أنها كانت من أمهات المدن الخوارزمية، فضلا عن قيمتها التجارية بسبب وقوعها على إحدى الممرات التجارية الهامة فى وسط آسيا. وكانت هذه المدينة

---

(١) ابن الأثير: الكامل، ج ١٢ ص ١٧٩ — ١٨٠.

(٢) D'ohsson : Histoire Des Mongols, tom. i. pp. 246 -- 247.
نقلا عن كتاب جهان كشاى لعلاء الدين الجوينى.

عامرة بمبانيها ، آهلة بسكانها حتى قيل إنه كان بها ألف ومئتان من المساجد الكبيرة ومثلها من المساجد الصغيرة ، كما كان بها حمامات عديدة خاصة بالأجانب والتجار الذين يفدون على المدينة [١] . وبرغم تسليم هذه المدينة فى سنة ٦١٨ هـ (١٢٢١م) ، لم يعفها جنكيزخان من التخريب كما لم يعف أهلها من القتل . ثم اكتفى بالزحف عند هذه المدينة وقنع بإرسال ابنه تولوى إلى خراسان على رأس جيش مكون من سبعين ألفا [٢] . ويظهر من تغيير جنكيزخان خطته الحربية أنه أراد أن يؤمن أملاكه وجيوشه فى هذه المنطقة .

سارت طلائع جيش تولوى إلى خراسان فى سنة ٦١٧ هـ (١٢٢٠م) ، وكانت تتكون من عشرة آلاف جندى بقيادة توجاشر Togatcher ، زوج ابنة جنكيزخان ، وقد سار هذا القائد إلى مدينة نسا ، ولما قربت إحدى كتائبه من المدينة سلط المسلمون سهامهم على رجالها فقتل عدد كبير ، كما قتل بلجوش Belgousch قائد هذه الكتيبة . ولما وصل توجاشر بجيوشه ، أمر بأن ينصب حول المدينة عشرون منجنيقا [٣] ، وبعد خمسة عشر يوما استطاع المغول أن يحدثوا ثغرة فى حوائطها واحتلوها ليلا ، ولما طلع النهار بدأوا يثأرون لمقتل القائد بلجوش ، فأخرجوا جميع السكان وأمروا بربطهم الواحد بجوار الآخر ، كما أمروا بربط ذراعى كل رجل وراء ظهره ، ثم قتل المغول جميع النساء والرجال والأطفال حتى قيل إن عدد من قتل من سكان هذه المدينة بلغ أكثر من سبعين ألفا . وقد وصف النسوى هذه الحادثة وصفا يثير الحسرة والألم حيث قال [٤] :

« فساقوهم إلى فضاء وراء البساتين .... كأنهم قطعان الضانية تسوقها »
« الرعاة ، ولم يمد التاتار أيديهم إلى سلب ونهب ، إلى أن حشروهم إلى »
« ذلك الفضا الواسعة بالصغار والنساء ، والضجيج يشق جلباب السماء »
« والصياح يسد منافذ الهوا (كذا فى الأصل) ، ثم أمروا الناس »

---

(١) De Guignes : Histoire Générale des Huns, des Turcs, des Mongols et des autres Tartares Occidentaux, tom. iii. p. 58.
ويبدو أن الأرقام التى ذكرها هذا المؤلف تحمل طابع المبالغة .

(٢) Douglas : The Life of Jenghiz-Khan, p. 19.

(٣) D'ohsson : Histoire Des Mongols, tom. i. pp. 274 – 275.

(٤) النسوى : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى ، ص ٥١ — ٥٢ .

« بأن يكتفوا بعضهم بعضا ففعلوا ذلك خذلانا ، وإلا فلو تفرقوا »
« وطلبوا الخلاص عدواً من غير قتال والجبل قريب ، لنجا أكثرهم . »
« فحين كتفوا جاءوا إليهم بالقوس وأضجعوهم على العدى وأطعموهم »
« سباع الأرض وطيور الهوى ، فمن دماء مسفوكة وستور مهتوكة »
« وصغار على ثدى أمهاتها المقتولة متروكة ، وكان عدة من قتل بلسان »
« أهلها ومن انضوى إليها من الغرباء ورعية بلدها سبعون ألفا . »

وقد التجأ محمد النسوى مؤرخ حياة جلال الدين منكبرتى — وكتابه من أمهات المصادر التى اعتمدنا عليها فى هذا الكتاب — التجأ هذا الرجل هو وبعض الأسرى إلى قلعة « مرج سائغ » ، إحدى قلاع خراسان الحصينة والمقامة على إحدى الجبال الشاهقة . ومما هو جدير بالذكر أن هذه القلعة كانت ملكا لمحمد النسوى ولآبائه وأجداده من قبل . وكانت ، لوقوعها وسط خراسان وفى هذا المكان الحصين ، تعد ملجأ يعتصم فيه الكثيرون وقت الحاجة . وقد حاصر المغول هذه القلعة ، ولكنهم لما لم يجدوا وسيلة للاستيلاء عليها فرضوا على أهلها فى مقابل رفع الحصار عنها ، مائة ألف لباس من القطان وبعض أشياء أخرى كان المغول فى حاجة إليها . وقد قبل محمد النسوى أن يرسل إليهم ما طلبوه ، على أن أحداً لم يقبل مهمة توصيل هذه الأشياء للمغول خوفا من الغدر به ، وأخيرا قبل رجلان مسنان القيام بهذه المهمة ، فودعا أولادهما ، وبعد أن سلما الملابس للمغول حدث ما كان يخشاه أهل القلعة ، إذا قتل هذان الرجلان على أيدى المغول .

ويروى النسوى أن هؤلاء البرابرة المغول انتشروا فى خراسان ، وكانوا كلما حلوا ببلد جمعوا الفلاحين وقادوهم كالأغنام لمساعدتهم فى حصار الأماكن التى يرغبون فى الاستيلاء عليها . وقد استولى الرعب والفزع على النفوس حتى كان الأسير أحسن حالا ممن أقام فى منزله لأنه أصبح لا يعرف شيئا عن المصير الذى سيؤول إليه . وكان المغول يرغمون حكام المقاطعات وأتباعهم على الاشتراك فى أعمال الحصار ، ومن أبى منهم قتل شر قتلة .

سار توجا شر Togatcher بعد ذلك إلى مدينة نيسابور سنة ٦١٧ هـ (١٢٢٠ م)

وعزم على الاستيلاء عليها ، وقد هاجمها بالفعل ولكنه قتل بعد ثلاثة أيام بسهم من سهام أعدائه (١) . وقد وجد القائد الذى حل محله فى القيادة أنه لا يملك القوة الكافية للاستيلاء على هذه المدينة فرفع عنها الحصار ، تاركا هذه المهمة الشاقة إلى أن يأتى جيش تولوى ، وتفرغ للاستيلاء على بعض الحصون المجاورة (٢) .

كانت مهمة تولوى الأساسية فى غزو إقليم خراسان تنحصر فى الاستيلاء على حاضرته «مرو» ، التى كانت مقر سلاطين السلاجقة ومن بينهم ملكشاه وابنه سنجر ، ثم اتخذها الخوارزميون حاضرة لهم بعد أن استولوا على أملاك السلطان سنجر فى خراسان . ولما فر علاء الدين خوارزم شاه من إقليم ما وراء النهر ، أمر بنقل المصالح العامة للدولة من هذه المدينة إلى إحدى القلاع الحصينة ، ووضع حامية تقوم على حماية الأهالى الذين يبقون فى المدينة . على أن الاضطراب الذى لازم علاء الدين فى هذه الفترة مالبث أن تطرق إلى قواده وكبار رجال دولته . فبدلا من أن يتحدوا ويتكاتفوا ويقفوا فى وجه هذا العدو القوى ، انقسموا شيعا وأحزابا ، وتنازعوا على حكم هذه المدينة ، كل يريد أن يستأثر بالحكم لنفسه . كما نجد أن الطامعين فى السلطة يلجئون إلى المغول يستعينون بهم على أعدائهم من المنافسين ، ويعدونهم الطاعة والولاء وإمدادهم بما يحتاجون إليه من غذاء وكساء ، إذا وصلوا إلى الحكم (٣) .

وفى ذلك الوقت ظهر تولوى أمام المدينة على رأس جيش كبير يتكون من سبعين ألف رجل بينهم عدد من أسرى البلاد التى خضعت للمغول ، وقد عمل المغول فى أول الأمر على إبادة عشرة آلاف رجل من الخيالة التركمان كانوا يعسكرون على مقربة من المدينة ، فاستدرجوهم إلى كمين وقتلوا عددا كبيرا منهم وفر الباقون بعد أن غنم المغول منهم عددا كبيرا من قطعان الماشية التى نهبوها من مدينة مرو (٤) . وفى اليوم التالى (أول محرم سنة ٦١٨ هـ = ٢٥ فبراير سنة ١٢٢١ م) (٥) ، سار تولوى فى خمسمائة

---

(١) نلاحظ أن هـذه المدينة كانت من المدن التى خضعت للقائدين جبى وسوبوتاى ، ولكنها مالبثت أن استعادت حريتها بعد رحيل هذين القائدين عنها .

(٢) Howorth : History of the Mongols, part i. p. 86.

(٣) D'ohsson : Histoire Des Mongols, tom. i. pp. 279 — 284.

(٤) Ibid, tom i. p. 284.

(٥) Abulgasi : Histoire Généalogique des Tatars, p. 322.

من الخيالة لاختبار حصون المدينة ، ولم يمض أسبوع حتى تجمعت الجيوش المغولية التى أخذت فى الهجوم على هذه المدينة. وكان أمام المحاصَرين منفذان للنجاه ولكن المغول فطنوا إلى هذين المنفذين وقضوا الليل على حراسة الأسوار والمنافذ ، ليحولوا دون خروج الأهالى والجيوش الخوارزمية منها .

وفى اليوم التالى أرسل حاكم المدينة ، وكان يطلق عليه « مدير المُلك » ، كبار رجال الدين إلى تولوى يعرضون التسليم ، بشرط أن يؤمن من فى داخل المدينة ، فوعدهم المغول بتلبية مطالبهم حتى أن مدير الملك خرج بنفسه إلى معسكر المغول يحمل الهدايا إلى تولوى ، الذى أكد له أنه سيثبته فى حكم هذه المدينة ، كما وعده بأن يؤمن سكانها على حياتهم . وقد طلب تولوى أن يرى كبار رجال المدينة وأعيانها ليخلع عليهم الخلع ويمنحهم الهبات ، فأرسل مدير الملك فى استدعائهم ، ولما حضروا إلى معسكر المغول ربطهم تولوى ومعهم مدير الملك ، وطلب منهم أن يعدوا له قائمة بأسماء الأغنياء وكبار الملاك الذين جىء بهم إلى معسكر المغول مع نحو أربعمائة من أصحاب الحرف والمهن . ثم دخلت الجيوش المغولية المدينة وطاردت السكان ، الذين أمرهم تولوى بالخروج ، هم وأسراتهم وما يمتلكون من مال . وأخيرا جلس تولوى على عرش مذهب فى أحد السهول المحيطة بالمدينة ، ثم وزع الرجال والنساء والأطفال على جند المغول فقتلوا جميعا ، ولم يبق من سكان المدينة سوى أربعمائة رجل من أصحاب الحرف الذين أبقاهم المغول للانتفاع بهم فى أعمالهم الحربية (١) . وقد أزال المغول أسوار المدينة ومبانيها ، ودمروا قلعتها ، ونبشوا قبر السلطان سنجر السلجوقى ظنا منهم أنهم سيجدون فيه ذهبا وفضة (٢) .

وهكذا أصبحت مدينة مرو أثرا بعد عين وهلك سكانها أجمعين الذين قد رهم ابن الأثير بسبعين ألفا (٣) . أما الجوينى فقد قدر هذا العدد فى كتابه « تاريخ جهان كشاى » فذكر أنه بلغ مليونا وثلاثمائة ألف رجل ، عدا الجثث التى كانت فى أماكن خفية (٤) .

---

(١) D'ohsson : Histoire Des Mongols, tom. i. pp. 285 — 6.

(٢) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ١٨١ .

(٣) المرجع السابق والصفحة .

(٤) Browne : A literary History of Persia, vol. ii. p. 439.

سار تولوى بعد ذلك إلى مدينة نيسابور على مسيرة إثنى عشر يوما من مدينة مرو . ومما يلاحظ أن هذه المدينة خربت مرتين فى غضون نصف قرن ، مرة فى سنة ٥٤٨ هـ (١١٥٣ م) على يد الأتراك الغز الذين ثاروا فى وجه السلطان سنجر واكتسحوا خراسان(١) ، ومرة أخرى فى سنة ٦٥٥ هـ (١٢٠٨م) بتأثير هزة أرضيه عنيفة حتى اضطر الأهالى إلى الهجرة والسكنى فى الأراضى الصحراوية المحيطة بالمدينة ردحا من الزمن(٢) . وبعد أن استعادت نيسابور بهاءها وعمرت بسكانها ومبانيها ، قُدر لها أن تخرب للمرة الثالثة على يد تولوى .

أراد تولوى أن يثأر لموت « توجاشر » الذى قتل أمام أسوار هذه المدينة عندما حاول الاستيلاء عليها قبل وصول تولوى بجيوشه . أما الأهالى فقد أساءوا إلى فصائل المغول التى كانت تظهر تباعا بالقرب من المدينة ، ثم أخذوا أهبتهم للاستعداد عندما علموا أن المغول سيهاجمون المدينة ، فجهزوا ثلاثة آلاف آلة لقذف الرماح balistes, ou machines à lancer des javelots وخمسمائة منجنيق Catapultes . على أن ما أعده المغول من آلات الحرب لم يكن أقل من ذلك فضلا عن أنهم خربوا جميع الأراضى التى كانت تحيط بالمدينة ، فإنهم نصبوا أمامها ثلاثة آلاف آلة لقذف الرماح، وثلاثمائة منجنيق ، وسبعمائة آلة لقذف النفط machines à lancer des pots de naphts وأربعة آلاف سلم ، كما أحضروا من الجبال القريبة ألفين وخمسمائة حمل من الطوب . ولما رأى السكان المحاصرون وقواد الجيوش الخوارزمية هذه المعدات الحربية ، فضلا عن الجيوش المغولية التى أحاطت بالمدينة من كل جانب ، فقدوا رباطة جأشهم وأرسل الأهالى نوابا عنهم من الأئمة وكبار رجال المدينة وعلى رأسهم قاضى القضاة فى خراسان ، إلى المعسكر المغولى وعرضوا على تولوى التسليم ، وتعهدوا بأن يؤدوا للمغول ضريبة سنوية . ولكن تولوى الذى كان صدره يغلى ونفسه تتحرق شوقا للانتقام لمقتل زوج شقيقته توجاشر ، رفض كل العروض التى عرضها عليه أهالى هذه المدينة(٣) .

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ص ١٩ — ٨٢ .

(٢) المرجع السابق ، ج ١٢ ص ١٣١ .

(٣) D'ohsson : Histoire Des Mongols, tom. i. p. 289 — 290.

وفى اليوم التالى تفقد تولوى جنده الذين كانوا يرابطون حول المدينة وأخذ يشجعهم ، حتى إذا ما حل اليوم الثانى عشر من شهر صفر سنة ٦١٨ هـ (٧ إبريل سنة ١٢٢١ م) أمر بمهاجمة المدينة من كل مكان ، واستمر القتال طول النهار وطيلة الليل ، ثم استطاع المغول أن يخترقوا الحصون ويحدثوا فى حوائطها ثغرات عديدة مكنتهم من دخول المدينة من جميع جهاتها ، وأصبحت شوارعها ومنازلها مسرحا للحروب . وأخيرا تمكن المغول من احتلال المدينة وأخذوا يثأرون لمقتل « توجاشر » . وقد دخلت زوجة ذلك القائد وهى ابنة جنكيزخان المدينة يصحبها عشرة آلاف رجل وقتلوا كل من صادفهم من رجال ونساء وأطفال ، ولم يتركوا حتى القطط والكلاب[١] .

ومما يدل على أن المغول كانوا يتحرقون شوقا للتنكيل بسكان نيسابور أن ، تولوى رأى بعض السكان يتلمسون النجاة بالرقاد بين جثث القتلى ، فلكى لا يترك فرصة لأحد منهم للنجاة ، أمر بقطع جميع رءوس القتلى، ووضع هذه الرءوس فى جانب والأجساد فى جانب آخر[٢] . وقد استمر تخريب المدينة خمسة عشر يوما زالت فيها معالمها ، ولم يبق المغول إلا على أربعمائة رجل من أصحاب الحرف والمهن للانتفاع بهم. ولكى يطمئن تولوى إلى القضاء على جميع سكان المدينة ترك بعد رحيله عنها عددا من الجنود لقتل السكان الذين قد يظهرون بعد رحيل الجيش المغولى ؛ وقد ظهر فعلا عدد منهم أجهز عليهم المغول . وقد قدر عدد من قتل من سكان هذه المدينة بنحو ١,٧٤٧,٠٠٠ رجل[٣] ومما هو جدير بالذكر أن سقوط هذه المدينة حدث بعد وفاة علاء الدين خوارزم شاه بشهرين .

لم يبق أمام المغول من مدن خراسان الهامة إلا مدينة هراة التى سار إليها تولوى بجيوشه . وسير وهو فى طريقه إليها فصيلة من جنده إلى مدينة « طوس » حيث المشهد الذى دفن فيه على بن موسى الرضى وهارون الرشيد[٤] . وقد أتى المغول على كل ما وجدوه فى هذه المدينة .

---

(١) D'ohsson : Histoire Des Mongols, tom. i. p. 290.

(٢) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ١٨١ .

(٣) Douglas : The Life of Jenghiz - Khan, p. 23.

(٤) ابن الأثير الكامل ، ج ١٢ ص ١٨١ .

وصل تولوى إلى مدينة هراة على مسيرة خمسة أيام فى الجنوب الشرقى من نيسابور وتقع وسط سهل خصيب يحيط به الجبال . وقد أرسل تولوى إلى هذه المدينة رسولا يطلب إلى أهلها التسليم ، غير أن نصيب هذا الرسول كان القتل . وقد طلب حاكم المدينة إلى رجاله الدفاع عن أنفسهم وعن مدينتهم بما أوتوا من قوة . وأمر تولوى بمهاجمة المدينة من جميع جهاتها فى وقت واحد ، وبعد ثمانية أيام لم ير حاكم المدينة بدآ من التسليم ، بشرط أن يؤمن المغول الأهالى على أرواحهم . واضطر تولوى إلى قبول ما عرضه عليه الخوارزميون ، بعد أن وجد أن قواده وجنوده قد انقسموا على أنفسهم ، وأصبح ذلك الانقسام ينذر باندحارهم . على أن تولوى لم يف بوعده فأمر بقتل عدد كبير من جند الخوارزميين من أتباع جلال الدين منكبرتى ومن سكان هذه المدينة المدنيين، حتى بلغ عددهم اثنى عشر ألفاً . ولأول مرة نرى تولوى يولى حاكما مسلماً على مدينة خوارزمية ، على أن ذلك الحاكم المسلم كان تحت رقابة حاكم آخر من المغول (١) .

وبعد ثمانية أيام من خضوع مدينة هراة ، تلقى تولوى أمراً من أبيه جنكيزخان ليلحق به عند مدينة الطالقان(٢) فى أعالى نهر جيحون وكان جنكيزخان فى هذه الفترة قد عزم على الرحيل إلى منغوليا كما سيأتى .

وهكذا خضع إقليم خراسان للمغول . ومما هو جدير بالذكر أنه فى الوقت الذى غزا فيه المغول خراسان ، تركت إحدى القبائل التركمانية التى كانت تسكن بالقرب من مدينة مرو ، أملاكها تحت تأثير الفزع من ناحية المغول وهاجرت غربا إلى أرمينية . وبعد ذلك بثمانية أعوام أغار المغول على هذا الإقليم ، فتركت هذه القبيلة هذا المكان وسارت إلى آسيا الصغرى واستطاع قائدها ، أرطغرل ، مع رجاله الذين كانوا يكوّنون أربعمائة وأربعين عائلة ، أن يقيموا فى إحدى المقاطعات التابعة لسلطان السلاجقة الروم فى إقليم أنقرة على حدود الدولة البيزنطية . ولما توفى أرطغرل وسعت هذه القبيلة أراضيها على حساب البيزنطيين ، وتحولت الزعامة إلى عثمان الذى استطاع فى سنة ٧٠٠ هـ (١٣٠٠م) ، بعد أن دب الضعف إلى السلاجقة فى آسيا الصغرى ، أن يكوّن له دولة

---

(١) D'ohsson : Histoire Des Mongols, tom. i. p. 292.

(٢) Ibid, tom. i. p. 293.

لوحة ١١



منظر فى مخطوط يرجع إلى القرن التاسع الهجرى (الخامس عشر الميلادى)
يمثل انتصار البطل رستم

(عن كتاب كونل فى التصوير فى الإسلام)

على أنقاض هذه الدولة السلجوقية ، واتخذ لنفسة لقب « سلطان » . ويعتبر عثمان هذا المؤسس الحقيقى للدولة العثمانية (١) .

٧ — المغول فى إقليم غـــزنة

ذكرنا أن چنكيزخان كان يواصل إخضاع المدن الواقعة فى أعالى نهر جيحون الواحدة تلو الأخرى . فمما فعله أنه خرب إقليم « الطالقان » سنة ٦١٨ هـ (١٢٢١ م) ثم قضى شتاء هذا العام فى الإقليم الجبلى المحيط بهذه المدينة ، حيث انضم إليه ابناه چجتاى وأجتاى بعد أن أتما إخضاع إقليم خوارزم بالاشتراك مع أخيهما چوچى (٢) . ولما حل الربيع أراد چنكيزخان أن يتم إخضاع ما بقى من الأقاليم الشرقية من الدولة الخوارزمية . وفى هذه الأثناء ، علم أن جلال الدين منكبرتى يرابط فى إقليم غزنه على رأس جيش كبير ، فوطد العزم على المسير إليه . وقد حاصر وهو فى الطريق قلعة باميان Bamian الواقعة على أحد فروع نهر جيحون . ولسوء حظ الخوارزميين أن أحد أبناء چجتاى قتل فى أثناء الحصار بسهم صوبه إليه جندى خوارزمى ، فصمم جده چنكيزخان على الانتقام له لشدة تعلقه به . وقد استطاعت الجيوش المغولية المتعطشة لأخذ الثأر أن تقتحم الحصن وأن تزيل معالمه كما لم يترك المغول فيه شخصاً واحداً على قيد الحياة . ومما يدل على عظم ما أصاب هذا المكان من تخريب ، أنه ظل خالياً من السكان خمس سنوات (٣) . وبينما كان چنكيزخان ينعم بثمرة انتصاراته فى باميان Bamian تلقى خبراً بانتصار جلال الدين منكبرتى على إحدى الفصائل المغولية فى السهول المحيطة بمدينة بيروان Beruan شمال مدينة غزنة .

* * *

---

(١) D'ohsson : Histoire Des Mongols; tom. i. p. 293.

(٢) نلاحظ أن چوچى انفصل عن أخويه بعد سقوط مدينة خوارزم على أثر النزاع الذى قام بينه وبين أخيه چجتاى، ذلك النزاع الذى أدى الى عزله من القيادة وتولى أخيهما الثالث أجتاى . لذلك لم ينضم الى أخويه فى الذهاب الى إقليم الطالقان وآثر أن يمضى وقته فى الإقليم الواقع شمال نهر سيحون .

(٣) D'ohsson : Histoire Des Mongols, tom. i. pp. 294 — 5.

عبر جلال الدين منكبرتى صحراء خوارزم على ما ذكرنا ، على أثر هجوم المغول على إقليم خوارزم فوصل إلى مدينة « نسا » ثم غادرها إلى نيسابور فى طريقه إلى مدينة غزنة حاضرة الإقليم المسمى بهذا الاسم ، والذى قام بحكمه وقتاً ما من قبل أبيه علاء الدين خوارزم شاه . فلما وصل إلى نيسابور ، اشتدت رغبته فى الجهاد وبدأ يكاتب الأمراء والحكام ويحثهم على مساعدته بالرجال والعتاد .

وقد أقام جلال الدين فى نيسابور شهرا كان فيه دائم التفكير فى العمل الذى كان مقبلا عليه . على أن المغول لما علموا بوجوده فى نيسابور ساروا لملاقاته ولكنهم وصلوا إلى هذه المدينة بعد رحيله عنها بوقت قصير جداً ، فتابعوا السير فى أثره . على أن هذا السلطان استطاع أن يخدع المغول ويصرفهم عن طريقه ، فسير قائداً من قواده فى طريق آخر ، واستطاع هذا القائد بدهائه أن يجذب إليه أنظار المغول فساروا فى إثره ظناً منهم أن هذا هو الطريق الذى سلكه السلطان الخوارزمى ، وفى ذلك الوقت كان جلال الدين يسير بجيوشه فى طريق آخر . وقد نجحت هذه الخطة وتعقب المغول القائد الخوارزمى وتركوا الطريق الذى سار فيه السلطان الذى أنهكه التعب ، بعد رحلة طويلة شاقة ، وأخيراً وصل إلى مدينة زوزن [1] .

ولم يسمح سكان هذه المدينة للسلطان الخوارزمى بالبقاء فيها إلا ريثما تستريح خيوله ، وأخبره حاكمها أن المغول إذا علموا بوجوده ، سيقاتلون قتال المستميت حتى يتمكنوا من الاستيلاء على المدينة ، وحينئذ يتحولون إلى السكان الآمنين فيقتلونهم عن آخرهم كما فعلوا فى المدن الخوارزمية الأخرى ؛ وهكذا لم ير جلال الدين بداً من الرحيل إلى مدينة غزنة فوصلها بعد ثلاثة أيام ، وهناك كما يقول النسوى ، « تباشر الناس بوصوله تباشير الصوام بهلال الفطر » ، ورحب الأهالى به أيما ترحيب وانضم تحت لوائه جموع كثيرة من مختلف الأجناس [2] .

وكان يسود مدينة غزنة فى ذلك الوقت الفوضى والقلاقل والثورات بسبب كثرة ما فيها من الجيوش المختلفة الأجناس . فقد سكنها الأتراك والغوريون من بقايا الدولة الغورية كما سكنتها الجيوش الخوارزمية التى فرت من وجه المغول . وكان قواد

---

(١) راجع خريطة « الدولة الخوارزمية فى أقصى اتساعها » .

(٢) النسوى : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى ، ص ٦٣ — ٦٥ وص ٨٠ .

هذه الجيوش متنازعين متنافسين ، وكثر الطامعون فى حكم هذا الإقليم . كذلك نجد كثيرين من قواد الجيوش ينسحبون من المدينة بعد أن علموا بمسير المغول إليها . وفى وسط هذه الأحوال المضطربة وصل جلال الدين منكبرتى إلى المدينة ، حيث أسرع الجنود من كل جانب وانضموا تحت لوائه ، وجاءته الجنود الخوارزمية المبعثرة فى كابل وبشاور وغيرهما من المدن الواقعة على حدود بلاد الهند . وبذلك أصبح جلال الدين على رأس جيش كبير يتراوح بين ستين ألفاً وسبعين ألفا من الخيالة (١).

وبعد أن نظم السلطان الخوارزمى هذه الجنود وضمن ولاءها له ، خرج فى ربيع عام ٦١٨ هـ (١٢٢١ م) إلى السهول المحيطة بمدينة « بيروان » فى الشمال الشرقى من غزنة لمقاتلة الجيوش المغولية التى كانت تتحفز للوثوب على جيوش جلال الدين . واستطاع السلطان الخوارزمى أن ينتصر على طلائع جيوش المغول وأن يقتل ما يربو على ألف رجل ؛ ثم رأى المغول أن يولوا اهتمامهم إلى الجيش الخوارزمى الذى عاد إلى مدينة بيروان . وقد بدا هذا الاهتمام بعد ثمانية أيام حين ظهر جيش مغولى آخر يتألف من ثلاثين ألف رجل كان جنكيزخان قد أمر بأن يرابط على مقربة من مدينة كابل لمراقبة حركات جلال الدين منكبرتى من جهة ، ومساعدة جيوش جنكيزخان إذا دعت الحالة إلى ذلك من جهة أخرى .

سار الجيش المغولى لملاقاة جـــلال الدين الذى خرج بدوره من مدينة بيروان لملاقاته فى السهول المحيطة بهذه المدينة ، التى تقع على مسيرة يوم واحد من غزنة (٢) . وقد نظم جلال الدين جيشه تنظيماً حسناً ، فقسمه إلى ميمنة وميسرة ووسط ، وأمر جنوده جميعاً أن يمتطوا خيولهم استعداداً للقتال . فلما هاجم المغول ميمنة جلال الدين بجيش قوامه عشرة آلاف مقـاتل ، استطاع جنود الميسرة والوسط أن يصدوا العدو . واستمر القتال طوال ذلك اليوم ، وفى المساء عاد كل جيش إلى المكان الذى يعسكر فيه . ومن طريف ما يروى فى هذا الصدد أن أحد قواد المغول رأى فى هذه الأثناء أن يحتال على الخوارزميين بأن يوهمهم أنه تلقى إمدادات كثيرة فى أثناء الليل ، فأمر

---

(١) D'ohsson : Histoire Des Mongols, tom. i. pp. 297—300,
وقد ذكر النسوى فى كتابه — ص ٨٠ — أن ما تجمع لدى جلال الدين بلغ ثلاثين ألف جندى

(٢) Howorth : History of the Mongols, part i. p. 89.

جنوده بأن يضعوا قلانسهم على رءوس خيولهم و يقفوا هم خلفها حتى يظن الخوارزميون أن عدد الجيوش المغولية قد تضاعف . وكادت هذه الحيلة تنطلى على الخوارزميين إذ وجد قواد السلطان فى الصباح أن جنود المغول يقفون فى صفين ، فظنوا بالفعل أن امدادات كثيرة قد جاءتهم ولذا عزموا على التقهقر ، ولكن السلطان أبى الإذعان لرغبتهم ، وأعلن عزمه على مغادرة معسكره ومواصلة الحرب مهما تكن النتيجة ، فلم يجد المغول بدأ من مواصلة القتال .

وجد المغول فى اليوم التالى قوة ميسرة الجيوش الخوارزمية فركزوا اهتمامهم فى التوجه إليها ، على أن خيالة المغول التى حاولت الهجوم على ميسرة الخوارزميين استقبلت بوابل من السهام جعلتها تولى الخوارزميين ظهرها . وحينئذ تبدلت خطة الخوارزميين من الدفاع إلى الهجوم فأمر السلطان الخوارزمى جنوده فامتطوا ظهور خيولهم وتوجهوا إلى صفوف المغول الذين ولوا الأدبار ، وهربوا فى غير نظام . ولما كانت الأراضى المحيطة بمدينة بيروان تقطعها الوديان العديدة ، فقد عاق ذلك خيالة المغول عن مواصلة الهرب ، فوقعوا تحت السيوف الخوارزمية ، فقتل جنود السلطان معظم جند المغول . وهكذا فنى الجزء الأكبر من الجيش المغولى فى هذه الموقعة (١) . وقد وصف النسوى انتصار الخوارزميين على المغول وصفا أقل ما يقال عنه أنه يعبر تعبيراً صادقاً عن نفسية الخوارزميين فى ذلك الوقت ، فقد جاء فى وصف هذا الانتصار ما يلى :

« فلما (اشتبك) الجمعان حمل جلال الدين بنفسه على قلب تولى خان(٢) »
« فبدد نظامه ونثر تحت قوائم الخيل أعلامه وألجأه إلى الانهزام »
« وإسلام المقام ، وتحكمت فيهم سيوف الانتقام ، وركب جلال الدين »
« أكتاف الغل ، . . . . يفصل بالأسياف مجامع الأكتاف وكيف »

---

(١) D'ohsson: Histoire Des Mongols, pp. 301 - 2

(٢) ذكر النسوى أن قائد المغول كان تولوى بن جنكيزخان وأنه قتل فى أثناء القتال كما جاء فى هذا النص ، على أن هذا خطأ واضح اذ أن تولوى لم يشترك فى الموقعة ولم يقتل ، بل إنه كان ممن رافقوا جنكيزخان فى أثناء عودته إلى بلاده ، وهناك لما شرع فى تقسيم دولته بين أبنائه كانت قره قورم والأراضى المحيطة بها من نصيبه .

« لا وقد جمعوه بإخوته وأبيه ومملكته ودويه . . . . فترك لا والد »
« ولا مولود ولا عابد ولا معبود ، تلفظه النوادى إلى الوادى ... »
« وقُتل تولى خان فى وهج القتال ...... وكثر الأسر [1] . »

وقد انتقم الخوارزميون من المغول انتقاما شديدا فكانوا يدقون الأوتاد فى آذان الأسرى ، وجلال الدين ينظر إليهم ويعلو وجهه البشاشة بما ظفر [2] .

ومما هو جدير بالذكر فى هذا الصدد أن بعض المدن الخوارزمية التى خضعت للمغول ظنت أن انتصار جلال الدين كان ضربة قاضية وجهت لجيوش جنكيزخان ، وأن وقت الخلاص قد حان ، فثارت فى وجه حكام المغول . ومن هذه المدن مدينة هراة ، وهى المدينة الخراسانية الوحيدة التى سلمت إلى حد ما من التخريب كما تقدم ، فقد اشتعلت فيها نار الثورة عند ما سمع سكانها بانتصار جلال الدين فى إقليم بيروان . لذلك عاقب جنكيزخان ابنه تولوى لأنه لم يقتل جميع السكان فيها عندما استولى عليها [3] . ثم أرسل جنكيزخان جيشا مغوليا كبيراً لتأديب سكان هذه المدينة ، واستعد السكان للمقاومة بعد أن عقدوا العزم على أن يجاهدوا إلى آخر قطرة من دمائهم ، ولكن الانقسام مالبث أن دب بين صفوف رجال الجيش فيها ، إذ أراد بعض الجنود التسليم بعد أن وجدوا ألا فائدة من المقاومة ، على حين رأى بعض آخر أن يموتوا فى ساحة القتال بدلا من أن يستسلموا لأعدائهم وقد أدى هذا الانقسام إلى سقوط المدينة فى اليوم الثانى من شهر جمادى الآخرة سنة ٦١٩ هـ (١٤ يونيو سنة ١٢٢٢م) . وبلغ عدد من قتلوا على أيدى المغول ، كما قيل ، مليونا وستمائة ألف رجل ، كما أجهز المغول على كل شىء فى المدينة ، ولم يعفوا من القتل إلا أصحاب المهن والحرف للاستفادة من خبرتهم [4] .

وكان انتصار جلال الدين على المغول فى سهول بيروان انتصارا مؤقتا فبينما كان يوزع الغنائم على قواده وجنوده ، اشتد النزاع بين قائدين من كبار قواده على حصان عربى كان كل منهما يريده لنفسه ، وبلغ من حدة الخلاف أن ضرب أحدهما الآخر على رأسه

---

(١) النسوى : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى ، ص ٨٠ — ٨١ .
(٢) المرجع نفسه ، ص ٨١ .
(٣) Howorth : History of the Mongols, part I. p. 91.
(٤) D'ohsson : Histoire Des Mongols, tom. i pp 311 - 314.

بسوط كان يحمله . ولم يرض السلطان عن هذه الإهانة ، ولم يقبل القائد المعتدى أن يعتذر عما بدر منه ، وكانت النتيجة أن انسحب القائد الآخر بجنوده إلى مدينة « بشاور » على حدود الهند ، وانضم إليه عدد كبير من الجنود الغورية من مدينة غزنة بعد أن خابت جميع جهود السلطان لإعادتهم . ولما وجد جلال الدين أن جيوشه أصبحت مقصورة على الأتراك والخوارزميين دون الجنود الغورية الذين كانوا يكوّنون عصب الجيش الخوارزمى ، أدرك أنه لم يعد قادرا على مواجهة المغول ، ولم يربدأ من الانسحاب إلى السهل الواقع غربى نهر السند وخاصة عند ماعلم أن چنكيزخان قدم إلى إقليم غزنة لينتقم لهزيمة قائده فى سهول بيروان (١) .

ولما لانت قناة أولئك القواد الذين تركوا الجيوش الخوارزمية فى مدينة غزنه وفكروا فى العودة إلى جيوش جلال الدين ، كان الوقت قد أزف والفرصة قد ضاعت . وقد عزم جلال الدين على جمع سفن ليعبر بها هو وجنوده نهر السند علّه يجد مأمنا فى بلاد الهند ، على أنه لم يستطع أن يحصل إلا على سفينة واحدة ، أمر أن تنقل فيها أمه وزوجه ولكن المركب لم تلبث أن تحطمت وتعذر عبورهم . وفى هذه الأثناء وصل چنكيزخان يتحرق شوقا إلى الثأر (٢) .

لما علم چنكيزخان أن عدوه الخوارزمى يريد عبور نهر السند ، سار إليه مسرعا واستطاع أن يأسر مؤخرة جيوشه ، وحاول أن يطوق الجزء الباقى بجيوشة التى تجمعت على شكل نصف دائرة ، وبهذه الخطة انحصرت الجيوش الخوارزمية بين نهر السند من جهة والجيوش المغولية من جهة أخرى . وقد رأى جلال الدين أن يختار بين أحد أمرين ، إما أن يبذل أقصى مايستطيعه من جهد فينتصر على المغول ، أو يموت إما بسيوف المغول ورماحهم ، وإما غرقا فى نهر السند . وقد استطاع جلال الدين أولا أن يثبت لهجوم المغول بل إنه كما يقول النسوى ، «حمل بنفسه على قلب چنكزخان (كذا فى الأصل) ، فمزقه بددا .... وولى اللعين بنفسه هزيما وكادت الدائرة تدور على الكفار والهزيمة تستمر بأهل النار لولا أن اللعين أفرد قبل اللقاء الكمين وفيه عشرة آلاف فارس من نخب وجاله . . فخرجوا على ميمنة جلال الدين .... فكسروها . . . . فتبدد نظامه ، وتزعزعت عن الثبات أقدامه (٣) » .

---

(١) النسوى : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى ، ص ٨٢ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ٨٣ .

(٣) المرجع نفسه ، ص ٨٣ — ٨٤ .

ولم تكن ميسرة جلال الدين أسعد حظا من ميمنته، فما لبثت أن حلت بها الهزيمة . وقد وقف جلال الدين فى القلب ومعه سبعمائة رجل يقاتلون بشجاعة نادرة، ويحاولون إحداث ثغرة فى صفوف أعدائهم يهربون منها . ولما لم يجد جلال الدين سبيلا إلى اختراق صفوف المغول ولى وجهه شطر النهر وقذف بنفسه وبحصانه فيه من ارتفاع عشرين ذراعا ، واستطاع بهذه الوسيلة أن يعبر النهر إلى الجانب الشرقى . وقد قُتل عدد كبير من جنوده وغرق أولئك الذين حاولوا العبور إلى الضفة الشرقية ، كما أسر أحد أبنائه وكان فى السابعة من عمره ، ثم قتله جنكيزخان بين يديه . ولما اقترب جلال الدين من نهر السند ، « رأى والدته وأم ابنه وحريمه يصحن بالله عليك اقتلنا وخلصنا من الأسر ، فأمر بهن فغرقن وهذه من عجائب البلايا ونوادر الرزايا[1] » .

ويرى كل من دوسون وهورث[2] ، أن نساء السلطان وقعن فى الأسر ولم يشيرا إلى غرقهن فى ماء السند ؛ كما ذكر كل من ابن الوردى[3] والنسوى[4] . والحقيقة أن أم جلال الدين ونساءه قد غرقن فعلا فى ماء السند ، وأما التى أسرها المغول فكانت تُركان خاتون أم السلطان علاء الدين خوارزم شاه التى أسرت فى تلك القلعة بإقليم مازندران عند فرارها إلى العراق العجمى على ما ذكرنا . ومن الطريف أن جلال الدين منكبرتى احتفظ بذلك الجواد ، الذى عبر به نهر السند وكان سببا فى انقاذ حياته ، دون أن يركبه حتى استعاد بلاده بعد رحيل جنكيزخان عنها .

وكانت الجيوش المغولية تتوق إلى اللحاق بجلال الدين ، وهمّ كثير منهم بعبور النهر غير أن جنكيزخان أسرع ومنع جنوده من تنفيذ هذا العمل. ولما علم جنكيزخان أن عدوه قد أمر بأن يلقى كل ما كان يمتلكه من ذهب وفضة فى نهر السند حتى لا يقع غنيمة سهلة فى يد المغول، أرسل بعض رجاله فغاصوا فى النهر وأمكنهم أن ينتشلوا بعض هذه الأموال[5] . وبرغم حرج موقف الخوارزميين فى هذه الموقعة ، ورغم

(١) ابن الوردى : تتمة المختصر فى أخبار البشر ، ص ١٥٥ .

(٢) D'ohsson : tom. I. p. 307. & Howorth : part I. p. 90.

(٣) ابن الوردى : تتمة المختصر فى أخبار البشر ، ص ١٥٥ .

(٤) النسوى : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى ، ص ٨٤ .

(٥) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ، ص ٤١٢ — ٤١٣ .

تلك الهزيمة التى حلت بالسلطان الخوارزمى وجنوده ، استطاع أربعة آلاف من الجنود الخوارزميين أن ينجوا بأنفسهم بعبورهم إلى الضفة الشرقية حيث وصلوا « حفاة عراة كأنهم أهل النشور حشروا فبعثوا من القبور[١] » . ومن الطبيعى أن يفرح السلطان الفار بلقاء هذا العدد الذى نجا من جنوده .

ولم تكن خطة جلال الدين منكبرتى التى ترمى إلى الهرب إلى بلاد الهند بالخطة الجديدة على حكام إقليم غزنة ، فقد كانت البلاد الهنديه مأوى للحكام من الأتراك الذين فروا إليها من قبل[٢] ، فقد قامت للدولة الغورية فى هذه الجهات ثم توسع حكامها فى امتلاك الأقاليم الهندية ، بل إنهم اقتصرا على حكم هذه الأقاليم بعد أن ضاعت هيبتهم فى إقليم غزنة ، على أثر ظهور الدولة الخوارزمية واتساع رقعتها فى هذه الجهات .

ولما عبر الخوارزميون نهر السند كانوا لا يملكون لباساً ولا سلاحاً وكان هدفهم الأول البحث عن مأوى أمين يلجئون إليه ، وينعمون فيه بالراحة بعد تلك الحرب التى عانوا من أهوالها الشىء الكثير . واستطاع الخوارزميون أن يغيروا على بعض بلاد الهند العامرة ، وأن ينهبوا منها ما وجدوه من ملبس ومأكل وسلاح وغيره من الغنائم النفيسة . وكانت هذه الأقاليم من البلاد الهندية تحت حكم أسرات تركيه ، عبرت إلى هذه الجهات بعد سقوط الدولة الغورية . وكان أقوى هؤلاء الأمراء حكام كرتشى ولاهور ومولتان ودهلى[٣] .

أخذ جلال الدين يتنقل بين هذه المدن جميعاً ثم فكر فى الالتجاء إلى مدينه دهلى — وكانت أبعد هذه المدن عن الدولة الخوارزميه — ليتخذ منها ملجأ له ، عندما علم أن هناك فصائل مغولية تجد فى البحث عنه . ولما علم أمير هذه المدينة باقتراب جلال الدين من مدينته ، عمل على إبعاده بشتى الوسائل والأساليب ؛ فأرسل إليه الهدايا وعرض علية صداقته كما عرض عليه ابنته ليتزوج بها ، ثم أفهمه أن جو بلاده لا يلائمه و نصح له

---

(١) النسوى : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى ، ص ٨٥ .

(٢) Lane - poole : Mediæval India Under Mohammedan Rule, p. 71.

(٣) D'ohsson : Histoire Des Mongols, tom i. p. 309.

لوحة ١٢



منظر قتال فى مخطوط من كتاب جامع التواريخ لرشيد الدين يرجع إلى سنة ٧١٠ هـ (١٣١٠م)

(من كتاب مارتن فى التصوير والمصورين فى إيران والهند وتركيا)

بالابتعاد إلى مدينة « مولتان » على نهر السند . وقد امتثل جلال الدين فعلا لنصيحة حاكم دهلي وعاد عن المدينة .

ومما لاشك فيه أن جلال الدين ، فى الفترة التى قضاها فى بلاد الهند ، كثيرا ما كان يظهر بمظهر الكسير الذليل من هول ما أصاب دولته عامة ، وأصابه هو خاصة ، بعد موقعة السند . وقد نظم ابن الوردى (١) قصيدة وصف فيها جلال الدين ودولته ، وكيف انحدر هو ودولته إلى هاوية عميقة ، بعد أن قدر لهذه الدولة أن تصل إلى ذروة المجد . وقد جاء فى هذه القصيدة ما يلى :

من ملك الدنيا ودانت له	فالجهل كل الجهل أن يحسدا
بقدر ماترفع أصحابها	تحطهم فالرأى قرب المدا
ويلى على المغبرى بعليائها	سيضحك اليوم ويبكى غدا
تعطيه كالمشفق لكنها	تبطش فى الأخذ كبطش العدا
مبتدأ حلو لمن ذاقه	ولكن انظر خبر المبتدا
غدارة خوانة أهلها	مازهد الزهاد فيها سدى

* * *

أما المغول فى هذه الفترة فنراهم يعيثون فساداً فى إقليم غزنة ، وينعمون بانتصاراتهم ، ويذيقون من بقى من الخوارزميين صنوف العذاب . ولم يشأ جنكيزخان أن يترك هذا العدد القليل من الخوارزميين الذين عبروا السند إلى بلاد الهند ، بل أرسل قائدين من قواده هما بلا Bela وتورتاى Tourtai لمطاردة هؤلاء القوم العزل وسلطانهم الكسير . وقد عبر هذان القائدان نهر السند وبحثا عن السلطان الخوارزمى مطاردين إياه ، ولكنهما لم يستطيعا اللحاق به ، وخشيا التوغل فى الأراضى الهندية المترامية الأطراف ، ولا سيما أن عدد رجالهما لم يكن بالكثرة التى تسمح بالتوغل فى هذه البلاد المجهولة (٢) .

ولم يكن من خطة المغول أن يستولوا على بلاد الهند ، لذلك أخذ الخطر المغولى يتضاءل بسرعة كما ظهر بسرعة . ومن حسن حظ هذه البلاد أن المغول لم تتجه أنظارهم إليها فى وقت ما (٣) . ومما لاشك فيه أنه لولا فرار جلال الدين إلى هذه البلاد ،

---

(١) ابن الوردى : تتمة المختصر فى أخبار البشر ، ص ١٥٥ .

(٢) D'ohsson : Histoire Des Mongols, tom. i. pp. 309 — 310.

(٣) Lane · Poole : Mediæval India Under Mohammedan Rule, p. 71.

لما فكر جنكيزخان فى إرسال هذا الجيش المغولى الصغير عبر نهر السند على أن هذين القائدين قد حاولا الاستيلاء على بعض المدن الهندية مثل مولتان ، غير أن جيوشهما لم تكن بالقوة التى تتيح لها الاستيلاء على هذه المدن الكبيرة ، فضلا عن أن خطتهم الرئيسية كانت تنحصر فى مطاردة السلطان . ولذلك اكتفى المغول بتخريب ضواحى مولتان ولاهور وبشاور ، ثم عادوا فعبروا نهر السند وانضموا إلى الجيش الرئيسى بقيادة جنكيزخان [1] .

وكان إقليم غزنة آخر حصون الخوارزميين التى غزاها المغول ، ونستطيع أن نقول إنه بخضوع هذا الإقليم ، لم يعد هناك مايحول بينهم وبين السيطرة التامة على جميع أراضى الدولة الخوارزمية التى ألحق المغول بها التخريب من كل جانب ، ولم يسلم من هذا التخريب إلا الأقاليم البعيدة التى لم تكن فى متناول أيديهم أو تلك التى وجد المغول ألا فائدة من الاستيلاء عليها كأتابكيتى فارس ولورستان [2] . وبعد أن اطمأن جنكيزخان إلى أنه وضع يده على فريسته ، بل وانتقم من السلطان الخوارزمى الذى كان السبب فى مقتل التجار فى مدينة أترار ، وبعد أن شرد من شرد من أعضاء الأسرة الخوارزمية ، وأسر من أسر منها ، فكر فى العودة إلى بلاده . وقبل أن يرحل إلى منغوليا قضى وقتاً ليس بقصير يطوف فى الأقاليم الشرقية من الدولة الخوارزمية ، ويلقى نظرة على المدن الخوارزمية المخربة ، ولأول مرة نراه ينصب حكاما مدنيين على البلاد التى خضعت لنفوذه . وفى ربيع عام ٦٢٠ هـ (١٢٢٣ م) . عزم على العودة إلى منغوليا عن طريق بلاد الهند وهضبة التبت .

تضاربت الأقوال فى سبب عودة جنكيزخان إلى بلاده ، ولكن السبب الرئيسى الذى دفعه إلى العودة ، هو ثورة قبائل التانجوت عليه . ومما يدل على صحة هذا القول أنه سار لإخضاع هذه القبائل على أثر وصوله إلى منغوليا بأيام قليلة . وقبل أن يبدأ جنكيزخان فى الرحيل عن البلاد الخوارزمية ، أمر بقتل جميع الأسرى الكثيرى العدد الذين احتشدوا فى خيام المغول ، بحيث جمعت كل خيمة حوالى عشرين أو ثلاثين أسيرا ، فقتلوا جميعاً فى ليلة واحدة [3] . ولعله فعل ذلك لاعتقاده أنه سيعجز عن

(١) D'ohsson: Histoire Des Mongols, tom. i. p. 310.

(٢) Howorth : History of the Mongols, part i. p. 91.

أنظر خريطة « الشرق الإسلامى بعد عصر ملكشاه . »

(٣) D'ohsson : Histoire Des Mongols, tom. i. pp. 318 — 319

تزويد هذا العدد الغفير من الأسرى بالطعام فى الطريق .

سارت الجيوش المغولية فى طريق التبت . ولكن هذه الفصائل ما كادت تشرع فى التحرك حتى أدرك چنكيزخان مدى الصعاب التى سيلاقيها أثناء عبوره هذه الأقاليم الجبلية الوعرة المغطاة بالجليد ، فعاد إلى بشاور على الحدود الهندية ، وآثر أن يسلك الطريق الذى سلكه عند قدومه إلى فارس . ولما وصل إلى بلخ أمر بقتل جميع السكان الذين عادوا فسكنوا هذه المدينة . وبعد فترة قصيرة عبر چنكيزخان نهر جيحون ثم وصل إلى مدينة بخارى ، وكانت كما قلنا من أمهات مدن بلاد ما وراء النهر ، وهناك أمر باستدعاء بعض رجال الدين من المسلمين ، وطلب منهم أن يشرحوا له مبادىء الدين الإسلامى ، فلما انتهوا من شرحهم اقتنع چنكيزخان بكل ما أنزل على الرسول ماعدا الحج إلى بلاد الحجاز ، وقال إن الأرض جميعها ملك لله الذى يقبل الدعاء من عباده فى أى مكان . وقد رحل چنكيزخان بعد ذلك إلى سمرقند حاضرة بلاد ما وراء النهر ، فلما وصل إليها خرج كبار رجال الدين فيها لاستقباله ، فلما مثلوا بين يديه طلب منهم الدعاء له فى الخطبة ، ثم أمر بإعفائهم من الضريبة التى كانوا يدفعونها . وبينما كان چنكيزخان فى هذه المدينة ، أرسل فى طلب أبنائه ليكونوا إلى جانبه حينما يرحل إلى منغوليا .

وقد قضى چنكيزخان شتاء عام ٦٢٠ هـ (١٢٢٣ م) فى سمرقند وضواحيها . ولما حل الربيع بدأ فى المسير ، وبالقرب من نهر سيحون التقى بابنيه چچتاى وأجتاى اللذين كانا يصطادان فى ضواحى بخارى وكانا يرسلان إلى ابيهما فى كل أسبوع من أسابيع الشتاء خمسين حملا من الطيور البرية . ولم يحضر چوچى إلى جوار أبيه فى ذلك الوقت لأنه لم يغفر لأخيه چچتاى ما قام بينهما من نزاع أمام مدينة خوارزم ، ذلك النزاع الذى أدى إلى تولى أخيه الأصغر أجتاى القيادة بأمر چنكيزخان . وقبل أن يترك المغول حدود الدولة الخوارزمية أمر چنكيزخان تركان خاتون أم السلطان علاء الدين خوارزم شاه كما أمر زوجاته أن يلقين آخر نظرة على أراضى وطنهن .

قضى چنكيزخان سنة ٦٢١ هـ (١٢٢٤ م) فى الطريق إلى موطنه الأصلى ، وتقابل فى الطريق مع حفيديه كوبلاى Kubilai وهولاكو ، وكانا قد خفا لاستقباله . وكان كوبلاى فى ذلك الوقت فى الحادية عشرة من عمره ، أما هولاكو فكان فى التاسعة .

وأخيرا وصل چنكيزخان إلى بلاده سنه ٦٢٢ هـ (١٢٢٥ م) حيث حارب أعداءه القدامى من القبائل وخاصة قبائل التانجوت ، كما أعلن الحرب على إمبراطورية سونج فى بلاد الصين ، واشترك چنكيزخان فى القتال بنفسه ، ولكنه مات فى سنة ٦٢٤ هـ (١٢٢٧ م) ولم تكن الحرب قد انتهت بعد (١) .

وبعد أن عاد چنكيزخان إلى بلاده أخذ يفكر فى تنظيم شئون دولته الداخلية والخارجية ، واعتمد على أبنائه فى تنظيم هذه الدولة ، فنراه مثلا يعتمد على ابنه چوچى فى تنظيم قصوره وتزيينها ، وعلى ابنه چچتاى فى تنظيم القضاء ، أما ابنه أجتاى فقد اختص بالشئون المالية ، واختص ابنه تولوى بالشئون الحربية (٢) .

ثم رأى چنكيزخان وهو على فراش الموت أن هذه الإمبراطورية الواسعة لن يستقيم أمرها إلا إذا قسمها بين أبنائه ، وقد تم هذا التقسيم فعلا فكان من نصيب چوچى بلاد خوارزم وخراسان والأقاليم الواقعة شمالى بحر آرال والتى تمتد غربا حتى تشمل بلاد القفچاق شمالى البحر الأسود وكذلك الأقاليم التى تمتد حتى بلغاريا التى أخضعها القائدان شبى وسوبوتاى (٣) . على أن هذا الابن توفى قبل وفاة أبيه تاركا نصيبه لابنه باتو الذى أخضع الروسيا وبلغاريا وخرب بولندا ومورافيا ودلماشيا (٤) أما چچتاى فقد اختص ببلاد ماوراء النهر وكاشغر وبلخ وغزنه (٥) . واختص أجتاى بالأراضى التى يجرى فيها نهر « إميل » وتشمل بعض أقاليم دولة الخِطا. أما الأراضى الواقعه حول « قره قورم » ، حاضرة المغول إذ ذاك ، فكانت من نصيب تولوى .

وكما قسم چنكيزخان أملاكه بين أبنائه ، كذلك وزع عليهم جيوشه ، ثم سار كل من هؤلاء الأبناء مع قواده وجنده إلى الجهة التى خصصت له (٦) . وعلى هذا النحو كانت إمبراطورية المغول عند وفاة چنكيزخان .

---

(١) Lamb : Genghis Khan, The Emperor of All Men, p. 192 & seqq.

(٢) De Guignes : Histoire Générale des Huns, des Turcs, des Mongols et des Autres Tartares Occidentaux, tom iii. p. 71.

(٣) Howorth : History of the Mongols, part i. p. 105.

(٤) Malcolm : The History of Persia, vol. i. p. 260.

(٥) Skrine & Ross : The Heart of Asia, pp. 160 — 161.

(٦) D'ohsson · Histoire Des Mongols, tom. ii. pp. 2—7.

الباب الثالث

الدولة الخوارزمية فى عهد جلال الدين منكبرتى

١ — عودة جلال الدين منكبرتى إلى عرش الدولة الخوارزمية .
٢ — اتساع نفوذ جلال الدين منكبرتى .
٣ — زوال الدولة الخوارزمية على أيدى المغول .

الباب الثالث

الدولة الخوارزمية فى عهد جلال الدين منكبرتى

١ — عودة جلال الدين منكبرتى إلى عرش الدولة الخوارزمية

تمتاز الفترة التى حكم فيها جلال الدين منكبرتى الدولة الخوارزمية بطابع خاص يختلف عن عهود من جاء قبله من السلاطين ، إذ كانت الدولة فى هذا العهد تعانى آثار التخريب الذى لحق بأقاليمها المختلفة بعد غزو جنكيزخان ، فاضطربت أحوالها السياسية والاجتماعية وأصبحت أقاليمها المختلفة المتعددة خاوية على عروشها ، وباتت طعمة للمتصبين من الحكام والقواد .

ونلاحظ أن نشاط جلال الدين منكبرتى واتجاهاته السياسية قد اقتصرت على على الأقاليم الغربية من الدولة الخوارزمية التى عرفنا حدودها فى عهد أبيه علاء الدين خوارزم شاه كان نشاطه كله نشاطاً حربياً ، إذ حاول أن يكسب لنفسه ولدولته بالقوة مالم يستطع أبوه أن يكسبه بالسياسة والقوة معا . لذلك عادى جلال الدين كل جيرانه من مسلمين ومسيحيين بلا استثناء ، وكان من أثر ذلك أنه لم يجد فى النهاية من يقف إلى جانبه عند ما عاد المغول فغزوا الدولة الخوارزمية من جديد

. . .

ترك جنكيزخان الدولة الخوارزمية وعاد إلى منغوليا كما رأينا ، بعد أن جعلها أشبه ما تكون بصحراء جرداء ، لا زرع فيها ولا ماء ، فأباد سكانها وخرب مدنها ، تلك المدن التى أصبحت أطلالا لا تجد من يبكيها . كذلك نجح جنكيزخان فى تشريد علاء الدين خوارزم شاه ، الذى ظل طريدا فى أراضى الدولة الخوارزمية ، تتلقفه مدينة وتلفظه أخرى ، إلى أن مات منكسر الجناح ذليلا فى إحدى جزر بحر قزوين. أما أبناؤه فمنهم من قتل ، ومنهم من اختبأ وتوارى عن الأعين ، ومنهم من ظل يحارب

إلى أن استولى عليه اليأس ثم فر ، وقد رأينا كيف قتـــل ركن الدين غورشاه وقطب الدين أزلاغ شاه وأق شاه من أبناء علاء الدين . كما رأينا كيف فر غياث الدين شيرشاه إلى مازندران واعتصم بها حتى ابتعد المغول ثم أخذ يظهر على مسرح التاريخ من جديد . أما أكبر هؤلاء الأبناء وهو جلال الدين منكبرتى فقد فر إلى بلاد الهند كما ذكرنا ، وظل بها لا يلوى على شيء .

لما قسم علاء الدين خوارزم شاه أقاليم الدولة الخوارزمية بين أبنائه على النحو الذى بيناه (١) ، اختص ابنه غياث الدين بحكم بعض الأقاليم فى جنوب وغرب الدولة ، وظل يحكم هذه الأقاليم حتى الغزو المغولى بمساعدة خاله « إيغان طائيسى » ، الذى كان نافذ الكلمة فى هذا الجزء من الدولة الخوارزمية . فلما رحل المغول عن بلاد الدولة الخوارزمية ، عاد غياث الدين واسترد أملاكه ، بعـد أن قضى بعض الوقت معتصما فى قلاع مازندران . ولـكن خاله « إيغان طائيسى » حدثته نفسه فى هذه الأثناء بأن يشق عصا الطاعة على هذا الأمير الخوارزمى ، وينفرد بالحكم فى هذه الأقاليم ، فاتفق مع أحد كبار القواد على العصيان (٢) . وقد أيد الخليفة الناصر العباسى هذا الأمير العاصى سراً وشجعه على الثورة ، بل أعطاه تفويضا بحكم هذه البلاد مدفوعا إلى ذلك بعدائه القديم للخوارزميين . ولذلك قويت عزيمته وصمم على شق عصا الطاعة على غياث الدين ، واستطاع أن يجذب إليه عدداً كبيراً من الجنود الخوارزميين من أتباعه المخلصين . على أن غياث الدين ما لبث أن واجه هذه الجيوش الثائرة وهزمها شر هزيمة سنة ٦٢٠هـ (١٢٢٣ م) (٣) وفر المنهزمون إلى أذربيجان واعتصموا بها (٤) ، واضطر « إيغان طائيسى » إلى قبول سيادة غياث الدين ، الذى أصبح سـيداً على العراق العجمى وخراسان ، بالإضافة إلى إقليم مازندران جنوبى بحر قزوين (٥) .

---

(١) راجع ما كتبناه فى صفحة ٢٩ .

(٢) يسمى هذا القائد أيبك الشامى .

(٣) يلاحظ أن جنكيزخان كان فى ذلك الوقت على الحدود الشرقية للدولة الخوارزمية على أهبة الرحيل الى منغوليا .

(٤) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ١٦٠ — ١٦١ .

(٥) D'ohsson : Histoire Des Mongols, tom. iii. p. 2.

وفى أواخر سنة ٦٢٠ هـ (١٢٢٣ م) صمم غياث الدين على الاستيلاء على أتابكية فارس ، فباغت صاحبها الأتابك سعد بن تكلا ، الذى لم يتخذ عدته للدفاع ، لذلك فر إلى إحدى القلاع المنيعة واختبأ فيها فسهل بذلك استيلاء غياث الدين على مدن هذه الأتابكية واحدة تلو أخرى ، ثم تمكن الخوارزميون من الإجهاز على هذه الأتابكية بعد الاستيلاء على حاضرتها شيراز سنة ٦٢١ هـ (١٢٢٤ م) دون مقاومة . وباستيلاء الخوارزميين على هذه المدن لم يبق فى يد الأتابك سعد سوى بعض القلاع المنيعة التى لم يتمكن الخوارزميون من الاستيلاء عليها . وأخيرا تم الصلح بينهما واتفقا على أن يحكم كل منهما جزءاً من أتابكية فارس [١] .

وكان من أثر خضوع هذه البلاد لغياث الدين أن دعى له على المنابر فى خطبة الجمعة ، ودُفعت له الجزية . على أن القوة التى اكتسبها غياث الدين بعد هذه السلسلة من الفتن والدسائس والمؤامرات قد قدر لها أن تموت فى مهدها لأسباب كثيرة منها أن كثيرين ممن قبلوا طاعته اقتصروا على الوعد بإرسال هذه الجزية دون أن يقوموا بتنفيذ ما وعدوا به . وفضلا عن ذلك كان غياث الدين سيء السيرة ، إذ كان كما وصفه النسوى « متوفراً على لذاته منهمكا فى أهوائه وشهواته ، لا يشهد مقاماً محموداً ولا يشهر حساماً مغموداً » . أضف إلى ذلك أن الأتراك فى هذه البلاد عمدوا — بعد أن رأوا ضعف سياسته — إلى تخريب ما تصل إليه أيديهم ، ولم يستطع غياث الدين أن يضرب على أيدى هؤلاء ، بل على العكس نراه يحاول إرضاءهم بشتى الوسائل ، ومنها الإسراف فى منحهم الألقاب ، فلقب البعض بالأمراء والبعض الآخر بالملوك وبعض ثالث بالخانات [٢] .

---

(١) ابن الوردى : تتمة المختصر فى أخبار البشر ، ج ٢ ص ١٤٥ .

(٢) النسوى : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى ، ص ٩٩ — ١٠٠ . ومما هو جدير بالذكر فى هذه المناسبة أن أبا بكر الخوارزمى (٣٢٣ — ٣٨٣ هـ = ٩٣٤ — ٩٣٩ م) أنشد بعض أبيات صور فيها موقفا مشابها حين قال :

مالى رأيت بنى العباس قد فتحوا   من الكنى ومن الأسماء أبوابا
ولقبوا رجلا لو عاش أولهم   ما كان يجعله للحش بوابا
قل الدراهم فى كفى خليفتنا   هذا فأنفق فى الأقوام ألقابا

ولما كان الخوارزمى قد عاش فى عصر كان البويهيون يسيطرون فيه على الدولة العباسية ويتحكمون فى =

ومن الأسباب التى ساعدت على اضطراب الحالة السياسية فى هذه البلاد تحكم أم غياث الدين فى أمره حتى أنها تلقبت بلقب «خداوندجهان» أسوة بهذه الألقاب التى تلقبت بها تركان خاتون أم علاء الدين خوارزم شاه[1]. وقد استمر الحال على ذلك فى هذه الأقاليم من الدولة الخوارزمية حتى عاد جلال الدين منكبرتى من منفاه فى بلاد الهند، واستطاع أن يسيطر على الأملاك التى بيد أخيه.

* * *

رحل جلال الدين منكبرتى إلى بلاد الهند كما رأينا، فارًّا من وجه المغول بعد أن حلت به الهزيمة فى موقعة السند. وقد توغل فى بلاد الهند، وحاول أن يلجأ إلى شمس الدين ألتمش سلطان دهلى[2].

وقد أدرك شمس الدين حرج الموقف وحاول أن يبعد جلال الدين عن بلاده بشتى الوسائل، فأرسل إليه الهدايا وأخبره أن جو بلاده لا يلائمه، ونصح له بالالتجاء إلى مدينة «مولتان» على نهر السند. وقد عاد جلال الدين فعلا بجيوشه فعدل عن فكرة الالتجاء إلى مدينة دهلى، وأمكنه أن يستولى فى أثناء تقهقره على كثير من الغنائم من البلاد التى مر بها.

وقد زادت قوة جلال الدين فى بلاد الهند وخاصة عندما انضم إليه كثير من القواد الخوارزميين الذين جاءوا من العراق العجمى، فرارا عن غياث الدين، وسخطا على سياسته هناك. وقد ساعد هذا المدد السلطان الخوارزمى على مهاجمة الأقاليم الواقعة فى حوض نهر السند، فتمكن من السيطرة على بعض هذه الأقاليم والاستيلاء على خيراتها، بعد أن أعمل القتل فى رقاب أهلها. وقد أدرك سلطان دهلى مدى الخطر الذى يتهدد بلاده إذا ما سيطر جلال الدين منكبرتى على أقاليم السند، فسار إلى نجدة

= الخلفاء أنفسهم مما دفع هؤلاء الخلفاء إلى إرضائهم بشتى الوسائل والأساليب، منها الإسراف فى منحهم الألقاب فمن المحتمل أن يكون الخوارزمى قد قصد بهذه الأبيات أن يصور حال العباسيين فى ذلك الوقت من حيث إسرافهم فى منح الألقاب للبويهيين.

(١) النسوى: سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى، ص ١٠٠.

(٢) كان «شمس الدين ألتمش» أحد أرقاء الترك فى الدولة الغورية، وقد سار إلى بلاد الهند بعد سقوط هذه الدولة، وتمكن من تأسيس إمارة فى الجزء الشمالى من هذه البلاد.

جيرانه وانضم إلى ذلك الحلف الذى تكوّن من أمراء الهند لطرد الخوارزميين من هذه البلاد .

ولم يستطع جلال الدين أن يقف أمام هذه القوات المتحالفة ، ولما عبّر عن مخاوفه لقواده ، انقسم الخوارزميون إلى فريقين ، فـــريق رأى ضرورة العودة إلى الدولة الخوارزمية وانتزاع السلطة من يد غياث الدين ، وفريق آخر آثر البقاء فى بلاد الهند ليكون فى مأمن من جنكيزخان وجيوشه . إذا ما فكر المغول فى العودة إلى غزو الدولة الخوارزمية ، وكان من رأى هذا الفريق أن ذلك الحلف الهندى لن يكون شيئاً مذكوراً إذا ما قيس بجيوش جنكيزخان . غير أن جلال الدين منكبرتى قد آثر ، بدافع من الحنين إلى وطنه ، الأخذ بالرأى الأول فعبر نهر السند فى سنة ٦٢٢ هـ (١٢٢٥ م) وأسرع إلى الأقاليم الغربية من دولته ، بعد أن عين وهو فى الطريق أحد قواده حاكما على مدينة غزنة وما يليها[١] .

اخترق جلال الدين ذلك الإقليم المجدب الواقع إلى الجنوب من بلاد الدولة الخوارزمية ، الذى يفصل بلاد الهند عن إقليم كرمان ، وفقد عدداً كبيراً من رجاله الذين ماتوا من شدة الجوع والعطش وبسبب انتشار الأمراض بينهم ، حتى أنه لما وصل إلى كرمان لم يكن معه سوى أربعة آلاف رجل[٢] . وقد حل بجلال الدين فى هذه البلاد ما حل بالاسكندر الأكبر من قبل بعد أن أخفق فى الاستيلاء على بلاد الهند .

ولما وصل جلال الدين إلى كرمان ، استقبله حاكمها « براق الحاجب » الذى ينتمى إلى دولة الخطا والذى استطاع أن يؤسس لنفسه دولة فى كرمان سنة ٦١٩ هـ (١٢٢٢م)[٣] . وقد أظهر براق ولاءه للسلطان الجديد وقدم إليه ما استطاع أن يحمله من هدايا ، ولكى يؤكد هذا الولاء عرض على السلطان إحدى بناته فتزوجها . وبعد أن تأكد جلال الدين من خضوع أتابكية كرمان لسلطانه ، سار إلى أتابكية فارس حيث أظهر له الأتابك « سعد بن زنكى » ولاءه ، وأكثر من ذلك فقد سار على سنة التقرب من

---

(١) D'ohsson : Histoire Des Mongols, tom. iii. pp. 3 — 4

(٢) Ibid, tom. iii. p. 5.

(٣) أنظر « خريطة الشرق الإسلامى بعد عصر ملكشاه »

الحكام المتنصرين فزوجه من ابنته[١] . ومما ساعد على توطيد المودة بين جلال الدين والأتابك سعد ، ما كان يعلمه جلال الدين من العداوة القائمة بين أخيه غياث الدين وبين هذا الأتابك. وقد رأينا كيف غزا غياث الدين أتابكية فارس قبل قدوم جلال الدين بقليل ، واستولى على بعض أملاكه .

كان جلال الدين فى « شيراز » حاضرة أتابكية فارس عند ما جاء إليه الأتابك علاء الدين صاحب يزد، معلنا خضوعه له ، بل إنه حذا حذو كل من أتابكى كرمان وفارس فزوّج جلال الدين من ابنته . ولما أدرك جلال الدين منكبرتى صدق نوايا هذا الأتابك ، أقره على ما بيده من البلاد ، ثم سار إلى مدينة أصفهان التى لم تلبث أن قدمت إليه فروض الطاعة والولاء . ثم تقدم السلطان الخوارزمى لملاقاة أخيه غياث الدين، ونازله فى ساحة القتال ، لأول مرة منذ عودته من البلاد الهندية .

كان غياث الدين يعسكر بجيش كبير على مقربة من مدينة الرى ، كما كان على أتم استعداد لمواجهة جلال الدين الذى حمّل جنده أعلاما بيضاء كتلك الأعلام التى كان يحملها المغول ، فلما رأى غياث الدين ذلك المنظر ظن أنه أمام جيش مغولى ، فولى الأدبار ، ثم عاد على رأس جيش كبير يتألف من ثلاثين ألف جندى من الخيالة[٢]. ولما وجد جلال الدين أنه لن يستطيع أن يواجه هذا العدد الكبير ، أتى أخاه عن طريق الحيلة والغدر ، فأعلن أنه لم يأت من بلاد الهند إلا ليكون إلى جواره ، وأعلن أنه ليس له من مأرب آخر ؛ وقد خُدع غياث الدين بهذه الحيلة وفرق جيوشه . ولما اطمأن جلال الدين إلى ضعف خصمه ، انقلب عليه وهزم ما بقى من جيوشه هزيمة منكرة ، فانسحب غياث الدين إلى مدينة الرى واعتصم بإحدى القلاع المنيعة فيها[٣] . وهكذا أصبح جلال الدين يسيطر على الأقاليم الغربية من الدولة الخوارزمية ، وخاصة بعد أن حضر من بقى من قواد هذه الدولة وأعلنوا ندمهم على عصيانهم ، وتوسلوا إلى السلطان أن يصفح عنهم ، فأجابهم جلال الدين إلى طلبهم . كذلك نرى حكام المدن والأقاليم المختلفة الذين استقلوا ببعض ولايات خراسان ومازندران والعراق العجمى فى فترة

---

(١) Howorth : History of the Mongols, part i. p. 126.

(٢) D'ohsson : Histoire Des Mongols, tom. iii. p. 8.

(٣) النسوى : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى ، ص ٩٥ .

الفوضى التي أعقبت رحيل جنكيزخان عن البلاد الإسلامية . يسارعون إلى جلال الدين ويعلنون طاعتهم له ، فمنهم من صفح عنه وأعاده إلى بلاده معززاً مكرماً . ومنهم من عزله عما كان بيده من البلاد[١] .

وقد وصف النسوي حالة البلاد الخوارزمية بعد عودة جلال الدين بقوله .

« فأفرجت أيام السلطان عن النـاس الكرب وأطفأت من نيران »

« الفتن ما التهب . وتفرقت الوزراء والعمال في الأطراف بالتواقيع »

« السلطانية فضبطوها . [٢]»

وقد أكد جلال الدين لوالدة غياث الدين الذي فر كما ذكرنا ، أنه لا يضمر الشر لأخيه . بل إنه يحل من نفسه كما يحل أقرب المقربين إليه . فأرسلت هـذه إلى ابنهـا وهدأت من روعه ، فعاد غياث الدين إلى جوار أخيه وأصبح أميرا كسائر الأمراء التابعين له .

استقر جـلال الدين على عرش أبيه ، وامتـد سلطانه على أقاليم خوارزم وغزنة وكرمان وفارس وخراسان ومازندران . أما إقليم ماوراء النهر فلم نعثر في بطون الـكتب على مايشير إلى استعادة الخوارزميين له ، ولعل ذلك يرجع إلى تمسك المغول بالسيطرة عليه ، وربما يرجع أيضا إلى أن الخوارزميين كانوا في ذلك الوقت في موقف لا يسمح لهم باستعادته . وليس معنى استرداد جلال الدين أقاليم الدولة الخوارزمية أنه أصبح صاحب النفوذ المطلق فيها . فالواقع أن الوحدة السياسية بين هذه الأقاليم لم تعد من مميزات هذا العهد . إذ استقل كل أمير بمـا تحت يده من إقطاع أو مدينة . وأصبح لا يعترف للسلطان الخوارزمي إلا بتبعية إسمية . فترى من هؤلاء من يبعث بجزية صغيرة للسلطان دفعا لشره . ومنهم من آنس في نفسه القوة فلم يهتم بإرسال هذه الجزية إليه ولم يجرؤ السلطان نفسه على طلبها . وليس أدل على تفكك الدولة الخوارزمية في ذلك الوقت . من أن المغول لم يجدوا أية مقاومة تذكر عندما فكروا في غزوها من جديد وإذا كان جلال الدين قـد استطاع أن يسيطر إلى حين على بعض أقاليم

D'ohsson : Histoire Des Mongols, tom iii. p. 9.

(٢) النسوي : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ، ص ٩٨

الدولة ، فقد كان ذلك راجعا إلى عدم اهتمام المغول فى الفترة التى أعقبت عودة جلال الدين من الهند بأمور الدولة الخوارزمية خاصة ، وأمور غربى آسيا عامة ، فقد حدث أن مات جنكيزخان فى سنة ٦٢٤ هـ (١٢٢٧ م) ، فشغل المغول عن كل شىء ولم يهتموا إلا بشئونهم وأحوالهم الداخلية ، والاستعداد لانتخاب من يحل محل زعيمهم جنكيزخان ، لذلك نرى القواد والحكام والأمراء الذين كانوا فى أماكن بعيدة عن أوطانهم يسارعون بالعودة إلى «قره قورم» حاضرة المغول . كذلك نرى المغول يهتمون فى هذه الفترة بإخضاع البلاد الصينية أكثر من اهتمامهم بإخضاع أى إقليم آخر . وهكذا كان جلال الدين فى مأمن من أى خطر مغولى ، إلى أن انتخب الخاقان الجديد وعاد المغول فاهتموا بالبلاد الإسلامية .

وإذا كنا نرى جلال الدين منكبرتى قد جرؤ على محاولة إخضاع الخلافة العباسية فقد كان ذلك راجعاً إلى تأييد الشيعيين الذين كانوا يتوقون إلى قلب الخلافة الدينية ، ونرى الأتراك يعضدونه ، لا حباً فيه أو رغبة منهم فى مساعدته ، بل لرغبتهم فى استعادة مجد الأتراك القديم فى الدولة العباسية . وسنرى فيما بعد كيف أن هذه العوامل مجتمعة ، أدت إلى نشاط جلال الدين منكبرتى السياسى والحربى فى هذه الفترة من تاريخ الدولة الخوارزمية ، رغم أن نشاطه هذا لم يؤد إلى النتيجة التى كان يرجوها ، بل على العكس ساعد نشاطه الحربى على ازدياد ضعف الدولة الخوارزمية خاصة والعالم الإسلامى عامة ، فلم يثبت أمام المغول عندما فكروا فى السيطرة من جديد على أراضى الدولة الخوارزمية .

٢ — اتساع نفوذ جلال الدين منكبرتى

كانت مهمة جلال الدين الأولى ، بعد أن اطمأن إلى أنه لم يعد هناك من ينازعه السلطان ، أن يوجه عنايته إلى توسيع نفوذه على حساب القوى المتعددة القائمة فى ذلك الوقت ، وأن ينتقم من أعدائه القدامى الذين لم يناصروا أباه إبان الغزو المغولى . وكانت الخلافة العباسية من أهم هؤلاء الأعداء الذين وقفوا فى سبيل تقدم الدولة

الخوارزمية فى عصورها السابقة . وقد رأينا أن الخليفة العباسى الناصر كان إلى حد ما من العوامل التى شجعت جنكيزخان على تحقيق ما اعتزمه من غزو الدولة الخوارزمية . لذلك لا نعجب إذا رأينا أن مهمة جلال الدين الأساسية التى أخذها على عاتقه هى أن يوجه ضربته إلى الخليفة ، عدو أبيه وجده ، فى بغداد نفسها . فى سنة ٦٢٢ هـ (١٢٢٥ م) سار إلى إقليم خوزستان الذى كان تابعاً للخليفة وكان تحت إمرة أحد مماليكه (١) . ولما حاصر مدينة « تستر » عاصمة هذا الإقليم صمم حاكمها على المقاومة فلم يستطع الخوارزميون الاستيلاء عليها ، ولم ينجحوا إلا فى نهب كل ما وجدوه حولها ، إذ أنهم عاثوا فى ضواحى هذه المدينة فساداً ، بل انحدر بعض الجنود من الخوارزميين إلى ضواحى مدينة البصرة ونهبوا ما وجدوه فى طريقهم ، غير أن حاكم المدينة سرعان ما سار إليهم وقتل من لم يسعفه حظه بالفرار . وقد استمر حصار مدينة تستر نحواً من شهرين رحل جلال الدين فى آخرها فجأة وسار فى طريقه إلى بغداد ، فلما وصل إلى قرية « يعقوبا » (٢) استعد الخليفة للدفاع ووضع جنوده على أهبة الاستعداد (٣) .

ولم يكن جلال الدين موفقا من الناحية السياسية فى محاولته غزو بغداد فلم يستطع أن يجذب إليه من يقف إلى جانبه من الأمراء المسلمين لتحقيق هذه المحاولة ، كما لم يكن موفقا من الناحية الحربية إذ أنه كان يفتقر إلى الأسلحة والدواب التى تحمل متاع جنوده ، ولذلك كانوا ينهبون ما يجدونه من الخيل والبغال فى البلاد التى يمرون بها . أضف إلى ذلك أن هؤلاء الجند قد أنهكهم التعب بعد أن قطعوا تلك المرحلة الطويلة حتى وصلوا إلى خوزستان (٤) .

أما جيوش الخليفة العباسى فكانت رغم ضعفها ، أحسن حالا من الجيوش الخوارزمية . فقد عهد الخليفة بقيادة جيوشه إلى « جلال الدين قشتمر » الذى سار على رأس جيش يتألف من عشرين ألفا ، كما أرسل إلى أمير إربل رسالة يحملها حمام زاجل ، يطلب منه

---

(١) يسمى هذا المملوك مظفر الدين ، ويلقب بوجه السبع ، وربما كان هذا اللقب كناية عن اتصافه بالشجاعة . أنظر ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ١٩٥ .

(٢) إحدى القرى الواقعة فى طريق خراسان وتبعد عن بغداد بنحو سبعة فراسخ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ١٩٥ .

(٤) المرجع نفسه والصفحة .

أن يسرع إليه على رأس عشرة آلاف لمهاجمة مؤخرة الخوارزميين ، وقطع سبيل التقهقر إذا ما ضاقت السبل فى وجوههم [١] . ولما وجد جلال الدين منكبرتى أن جيوشه أقل عددا من جيوش الخليفة العباسى ، أخبر قشتمر أنه لم يأت إلى هنا معاديا للخليفة ، وإنما أتى يطلب رضاه فى هذا الظرف العصيب الذى أصبحت فيه البلاد الإسلامية مهدده بغزو مغولى ثان . ولم يهتم قشتمر بما سرده جلال الدين من أقوال يبرر بها مجيئه إلى أملاك الخليفة ، واستعد لملاقاة الخوارزميين . لذلك اضطر جلال الدين إلى الارتداد بعد أن عجز عن مواجهة عدوه ، وطاردت جيوش الخليفة الجيش الخوارزمى . ولحسن حظ الخوارزميين قُتل قشتمر فى هذه الفترة ، وانتشر الخبر بين جند الخليفة ، فساعد ذلك على انتصار جلال الدين الذى استطاع أن يطارد جيوش الخليفة إلى أبواب بغداد .

وقد تمكن جلال الدين بعد هذا الانتصار من الاستيلاء على بعض المدن والقرى الواقعة على نهر دجلة ، ولكنه عاد فرأى أن يهادن الخليفة العباسى ، لذلك أرسل إليه رسولا يعاتبه على عدائه للخوارزميين . ولم يجد الخليفة ، بعد أن انهزمت جيوشه ، بدأ من أن يكرم وفادة الرسول الخوارزمى ويعيده إلى السلطان « موفور الحظ من الإنعام جزيل القسط من النايل العام » [٢] . وقد انصرف جلال الدين منكبرتى عن أراضى الدولة العباسية إلى حين ، وعوّل على توسيع نفوذه على حساب القوى المجاورة له من الشمال ، ومن أهمها أذربيجان وجورجيا . وسار لتحقيق هذا الهدف فى سنة ٦٢٢ هـ (١٢٢٥ م) .

. . .

كانت الحالة الداخلية فى أذربيجان من العوامل التى ساعدت الخوارزميين على السيطرة على هذا الإقليم ، فقد كان الأتابك أوزبك بن البهلوان حاكم هذا الإقليم رجلا مسنا ، منصرفا إلى مجالس اللهو والعبث ، لا يهتم بمصالح بلاده ، بل إنه ترك مقاليد الأمور لزوجته ، التى أقامت فى حاضرتها تبريز ، وأخذت تصرف شئون دولتها على

---

(١) D'ohsson : Histoire Des Mongols, tom. iii. p. 11.

(٢) النسوى : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى ، ص ١٠٩ .

قدر استطاعتها [١] . وهكذا كان إقليم أذربيجان فى حالة شديدة من الفوضى مما سهل على جلال الدين تحقيق ما كان يرمى إليه . أما أوزبك فإنه بدلا من أن يعد العدة للخطر الذى بات يهدد بلاده ، رحل إلى مدينة « كنجة » فى أقصى شمال أذربيجان ، غير مكترث لما يمليه عليه الواجب فى هذه الظروف .

وقد استولى جلال الدين على مدينة « مراغة » على حدود أذربيجان الجنوبية دون صعوبة تذكر ، وأخذ يتودد إلى أهلها بأن حاول أن يصلح من أحوالهم ، كما عمد إلى إصلاح ما تخرب من هذه المدينة بسبب هذه الحرب . ولما اطمأن إلى حب الأهالى إياه ، سار إلى تبريز حاضرة أذربيجان فشدد عليها الحصار حتى سلمت له بعد خمسة أيام ، ثم عفا عن زوجة أوزبك وأكرمها ونظر فى ظلامات الأهالى ، على الرغم من أنهم وقفوا فى وجه الخوارزميين أثناء غزو جنكيزخان لبلادهم ، وناصروا المغول عليهم وقت محنتهم . ومما يدل على تسامح جلال الدين مع أهالى تبريز ما قاله لأهالى هذه المدينة [٢] :

« قد رأيتم ما فعلت بمراغه من الإحسان والعمارة بعد أن كانت »

« خرابا ، وسترون كيف أصنع معكم من العدل فيكم وعمارة بلادكم . »

وبعد أن مكث جلال الدين فى تبريز عدة أيام توجه إلى إقليم جورجيا حيث وطد العزم على توسيع حدود مملكته هناك .

وكانت الحالة فى جورجيا تختلف تماما عما عهدناه فى إقليم أذربيجان ، فقد كان السواد الأعظم من أهالى هذه البلاد يدينون بالمسيحية بخلاف ما كانت عليه الحال فى أذربيجان . وكثيرا ما اتخذ المسيحيون فى جورجيا من المحن التى حلت بالعالم الإسلامى أمام الغزو المغولى ومن ضعف أذربيجان والأقاليم المجاورة لها ، فرصة للإغارة عليها فى فترات متعددة ، واستولوا على المدن الواقعة على حدود بلادهم وأذاقوا أهلها العذاب ، ونهبوا ما استطاعوا أن يحصلوا عليه من خيرات هذه البلاد . لذلك نرى أن المعاملة التى عامل بها جلال الدين منكبرتى أهالى جورجيا ، تختلف تماما عما رأيناه من تسامحه مع أهالى

---

(١) كانت زوجة أوزبك ، ابنة السلطان طغرلبك آخر سلاطين السلاجقة فى العراق ، وقد قتل فى سنة ٥٩٠ هـ (١١٩٣ م) . راجع ما كتبناه فى ص ٢٣ — ٢٤ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ١٩٨ — ١٩٩ .

أذربيجان ، فقد عول منذ البداية على الانتقام ، فقتل وسبى ونهب . كما نلاحظ أن أهالى هذه البلاد قابلوا تحدى جلال الدين لهم بالاستهزاء أول الأمر ، فإنه بعد أن أعلن عليهم الحرب ردوا عليه رداً يفهم منه تحديهم له واستهزاؤهم به فقالوا له [١] :

« إننا قد قصدنا التتر الذين فعلوا بأبيك وهو أعظم منك ملكا »
« وأكثر عسكرا وأقوى نفسا ، ما تعلمه ، وأخذوا بلادكم ، فلم »
« نبال بهم . »

ولم يلبث أهالى جورجيا بعد أن أرسلوا لجلال الدين هذه الرسالة، أن جمعوا جيشاً يقرب من سبعين ألف رجل .

لم يهتم جلال الدين منكبرتى بما بدا له من قوة الأهالى ، وسار إليهم يحدوه الأمل فى النصر مؤيداً من الله ؛ عازما عزما صادقا على أن يعلى كلمة الإسلام فى هذه البلاد . فلما التقى بجيش العدو هزمه شر هزيمة وقتل من رجاله أكثر من عشرين ألفاً ، وأسر عددا كبيرا من قوادهم . ثم تفرقت الجيوش الخوارزمية فى جورجيا حيث أباح لهم جلال الدين القتل والنهب والسبى والتخريب . ولولا أن الظروف قد حملت جلال الدين على العودة إلى تبريز حاضرة أذربيجان ، لما أبقى الخوارزميون على شىء مما وجدوه فى هذه البلاد . وقد أدى رحيل جلال الدين إلى تبريز ، إلى تأخير استيلاء الخوارزميين على مدينة تفليس حاضرة جورجيا إلى العام التالى ، أى إلى سنة ٦٢٣ هـ (١٢٢٦م) .

أما عن السبب الذى دفع جلال الدين إلى العودة إلى أذربيجان ، فهو تآمر بعض حكام هذا الإقليم وعلى رأسهم أوزبك بن البهلوان ، بغية التخلص من سيادة الخوارزميين، منتهزين فرصة غياب جلال الدين فى جورجيا . وقد علم جلال الدين بخبر هذه المؤامرة بينما كانت الحرب دائرة بينه وبين جنود جورجيا ، فأخفى الخبر عن جيوشه حتى لا تتأثر حالتهم المعنوية . ولما انتهى القتال وانتصرت الجيوش الخوارزمية على ما ذكرنا ، سارع الى تبريز وأعادها إلى حوزته وأنزل العقاب بالمتآمرين ؛ ثم تزوج من زوجة أوزبك بعد أن أشهد عليها بطلاقها من زوجها . وقد أكمل جلال الدين فى هذه الغزوة إخضاع

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص ٢٠٠ .

ما بقى من أذربيجان ، بالاستيلاء على ما بقى من مدنها فى أقصى الشمال، وبذلك دانت له جميع مدن هذا الإقليم بالطاعة (١) .

وفى أثناء غياب جلال الدين فى أذربيجان ، نظم أهل جورجيا جيشاً جراراً انضم إليه عدد كبير من الجنود المرتزقة من القبائل المجاورة لهم . وقد حدث لهذا الجيش ما يحدث دائما لكل الجيوش المرتزقة التى لا يهمها فى كثير أو قليل أن تحارب أو تدافع عن البلاد التى تعمل لحسابها ، فرجال هـذه الجيوش يختلفون تمام الاختلاف فى روحهم المعنوية وفى مقدار تحمسهم للانتصار عن الجنـود الوطنيين الذين يحاربون دفاعا عن أوطانهم ، ولذلك انتصر عليهم جلال الدين وقتل عددا كبيرا منهم . وسار بعد ذلك إلى تفليس حاضرة جورجيا ليتم إخضاع هذا الإقليم برمته ، واستطاع أن يستولى عليها فى الثامن من ربيع الأول سنة ٦٢٣ هـ (٩ مارس سنة ١٢٢٦ م) بعد أن حطم قوى جورجيا وجيوشها . وقد أسر جلال الدين عـددا كبيرا من الرجال ، وسبى من بقى من النساء على قيد الحياة، وأصبحت المدينة مرتعا للنهب والسلب ، ولم يعف جلال الدين من القتل إلا من اعتنق الإسلام . وهكذا انتقم جلال الدين للمسلمين الذين عانوا ما عانوه من أهالى جورجيا فى السنوات السابقة لوصـوله إلى فارس (٢) ، كما استطاع الخوارزميون بعد هذا النصر أن يضعوا أيديهم على جميع هذه البلاد كافة وطبعوها بالطابع الإسلامى إلى حين .

وتتميز الفترة التى تقع بين سنتى ٦٢٣ و ٦٢٨ هـ (١٢٢٦ و ١٢٣١ م) ، أى منذ أن أتم جلال الدين منكبرتى إخضاع جورجيا وأذربيجان فى الشمال وكرمان وفارس فى الجنوب حتى غزا المغول الدولة الخوارزمية للمرة الثانية ، بطابع خاص فى سياسة جلال الدين منكبرتى ، يتميز بمحاولته المحافظة على ما استولى عليه من بلدان، والوقوف فى وجه أعدائه الكثيرين فى الداخل والخارج، هذا فضلا عن أنه كان يرمى إلى التوسع

---

(١) ابن الأثير : الكامل، ج ١٢ ص ٢٠٠ — ٢٠١ .

(٢) Defremery : Fragments de Geographes et d'Historiens Arabes et Persans Inédits, pp. 486 — 7.
(Journal Asiatique, Novembre — Décembre 1849.)

على حساب جيرانه من الأمراء المسلمين ، ويحاول الانتقام من الخلافة العباسية لعدائها السابق للخوارزميين .

إذا تركنا جانبا تلك الحملات الصغيرة التي وجهها جلال الدين إلى أملاكه في الشمال وفي الجنوب لإخضاع عدو قد تحدثه نفسه بالثورة والانشقاق هنا أو هناك — إذا تركنا ذلك جانبا، نرى جلال الدين يوجه جهوده للاستيلاء على مدينة «خلاط» الواقعة على بحيرة «وان» في أعالي نهري دجلة والفرات ، من صاحبها الملك الأشرف بن الملك العادل أيوب . منتهزا فرصة ذلك الشقاق الذي قام بينه وبين أخويه المعظم في دمشق والكامل في مصر ؛ وكان يرمي من وراء ذلك إلى تأليف حلف عربي يستطيع أن يوجهه ضد الخلافة العباسية في بغداد . كذلك نرى جلال الدين في هذه الفترة لا يفتر عن توجيه بعض جهوده للقضاء على طائفة الإسماعيلية وتخريب حصونها في جنوب بحر قزوين . وأهم من هذا وذاك نراه في هذه الفترة يأخذ الحيطة لنفسه من ناحية المغول الذين وجهوا بعض عنايتهم للدولة الخوارزمية في عهدها الجديد .

* * *

وقع خلاف كبير بين ثلاثة من أمراء الدولة الأيوبية من أبناء الملك العادل أيوب وهم الكامل محمد صاحب مصر . والمعظم عيسى صاحب دمشق وبيت المقدس وطبرية وما جاورها ، والأشرف موسى صاحب بلاد الجزيرة وخلاط وميافارقين؛ فقد سار الأشرف لزيارة أخيه الكامل في مصر دون أن يصحب أخاه المعظم معه. فظن المعظم أن أخاه يرمي من وراء هذه الزيارة إلى التحالف ضده[1]. ولذلك لم يأل جهداً في أن يكيد لأخويه بمهاجمة بعض أملاكهما تارة ، وبتأليب بعض الحكام عليهما تارة أخرى ؛ من ذلك أنه أرسل إلى جلال الدين منكبرتي الذي تجاور أملاكه أملاك أخيه الأشرف، يعرض عليه تكوين حلف منهما يكون هدفه الأول الاستيلاء على مدينة خلاط ، التي كانت من أملاك الأشرف موسى . وقد صادفت هذه الفكرة قبولا لدى جلال الدين الذي وجد في ذلك الحلف فرصة لتوسيع نفوذه ، ومد رقعة دولته على ما يجاورها من البلاد . وسرعان ما أرسل الهدايا والخلع للمعظم في دمشق تعزيزا لأواصر الصداقة

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ٢١٣ — ٢١٤ .

بينهما . وقد بلغ من اعتزاز المعظم بذلك الحلف الجديد أنه أصبح لا يقسم إلا برأس جلال الدين .

وفضلا عن فكرة التوسع التى كان يرمى إليها جلال الدين من وراء هذا التحالف ، فإنه كان يهدف أيضا إلى توجيه هذه القوة وغيرها من القوى ضد الخليفة فى بغداد . ولم يكن من المعقول أن يقف الأشرف موسى مكتوف اليدين حيال ما أظهره جلال الدين من نواياه العدائية ، لذلك كثيراً ما نسمع عن اعتداء جيوشه على القوى الخوارزمية فى جورجيا وأذربيجان ، كما نسمع عن اعتداءات الأشرف على الجنود الخوارزمية فى أنحاء الدولة ، مما أزعج جلال الدين كثيرا وجعله لا يتردد فى السير إلى مدينة خلاط والاستيلاء عليها ، لو أتيح له ذلك (١) .

وقد هاجم جلال الدين منكبرتى فى سنة ٦٢٣ هـ (١٢٢٦ م) مدينة خِلاط، وانتشر الخوارزميون فى ضواحيها ونهبوا ما استطاعوا أن يصلوا إليه . غير أن الأهالى ثبتوا للجنود الخوارزمية ودافعوا عن مدينتهم دفاعا مجيدا ، وخاصة بعد أن أدركوا ما سيحل بهم وبأموالهم ونسائهم إذا ما استولى الخوارزميون عليها ، فكانوا — كما يقول ابن الأثير « يقاتلون قتال من يمنع عن نفسه وحريمه وماله » (٢) . وإزاء هذا الدفاع المجيد من جانب الأهالى ، اضطر جلال الدين إلى رفع الحصار عن المدينة مؤقتا .

ومن بين الأسباب التى دفعت جلال الدين إلى رفع الحصار عن هذه المدينة ، اشتداد البرد فى ذلك الوقت وتساقط الثلوج حتى أنه خاف على جنوده من الهلاك . أضف إلى ذلك أن بعض القبائل التركية كانت تهدد أملاكه فى أذربيجان ، فلم ير بدآ من السير لإنقاذها (٣) . وهناك سبب آخر لا يمكن إغفاله ، هو أن الصلح قد تم بين المعظم والأشرف فى هذه السنة وسار الأشرف بنفسه إلى أخيه المعظم فى دمشق بعد أن وجد أن النزاع الذى قام بينه وبين أخيه سوف يؤدى إلى أسوأ العواقب . ويقال أن المعظم أرسل بعد ذلك إلى جلال الدين يرجوه أن يرفع الحصار عن مدينة

(١) D'ohsson : Histoire Des Mongols, tom. iii. pp. 18-20.

(٢) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ٢١٢ .

(٣) المرجع نفسه ، ص ٢١٢ — ٢١٣ .

بخلاط[1] . على أن هذا السبب الأخير لم يكن له على ما نعتقد تأثير كبير فى رفع الحصار ، إذ أن إبرام الصلح بين الأخوين لن يغير شيئا مما أخذه جلال الدين على عاتقه من العمل على توسيع نفوذه على حساب ما جاوره من البلاد . ومما يدل على صحة هذا القول ، أن جلال الدين عاد إلى حصار هذه المدينة فى سنة ٦٢٦ هـ (١٢٢٩ م) وشدد فى حصارها حتى أن ذلك الحصار استمر ستة شهور ، ذاق الخوارزميون أنفسهم خلالها كثيرا من المحن من جراء ما عانوه من شدة البرد ، حتى أن جلال الدين كان يعمد إلى توزيع جنوده على القرى المجاورة ، علهم يجدون فيها ملجأ يحتمون فيه من برد الشتاء[2] . وعلى الرغم من ذلك شدد جلال الدين فى حصار المدينة حتى أن هذه المدينة كما يقول النسوى « لما عظم بها البلاء واشتد الغلاء وكسدت الدنانير وأكلت الكلاب والسنانير خرج منهم (أى الأهالى) فى يوم واحد قرابة عشرين ألف إنسان ، وقد تغيرت صورهم بالجوع حتى أن الأخ لا كان يعرف أخاه ولا الوالد ولده[3] . » واستطاع جلال الدين فى آخر الأمر أن يستولى على هذه المدينة وذلك فى الثامن والعشرين من شهر جمادى الأولى سنة ٦٢٧ هـ (٢ إبريل سنة ١٢٣٠ م) [4] .

وقد أراد السلطان أن يمنع جنوده من نهب المدينة ولكن القواد الخوارزميين عارضوا فى ذلك أشد المعارضة بحجة أنهم ضحوا كثيراً حتى استولوا عليها ، وفقدوا كثيراً من جندهم فى أثناء ذلك الحصار الطويل ، كما فقدوا خيولهم وماشيتهم ، ثم هددوه بالانصراف عن خدمته إذا هو منعهم من نهب المدينة . وهكذا اضطر جلال الدين أن يبيح لهم المدينة ثلاثة أيام قتلوا فيها كثيراً من أهلها بعد أن عذبوهم بأنواع العذاب حتى حملوهم على إخراج ما أخفوه من نفائس ، كما أكثر الخوارزميون من سبي النساء واسترقاق الأطفال . ومما هو جدير بالذكر أن زوجة الأشرف كانت

---

(١) D'ohsson: Histoire Des Mongols, tom. iii. p. 21.

(٢) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ٢٢٦ .

(٣) النسوى : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى ، ص ١٩٢ .

(٤) Defremery: Fragments de Geographes et d'Historiens Arabes et Persans Inédits, pp. 499-450. (Journal Asiatique, Novembre — Décembre 1849.)

من بين الأسرى ، فتزوج بها السلطان فى نفس الليلة التى دخل فيها مدينة خِلاط [١] .
وقد قيل إن جلال الدين ندم على تخريب هذه المدينة فيما بعد ، ولذلك عمد إلى تجديد عمارتها وأطلق من خزانته الخاصة أربعة آلاف دينار لتجديد ما خربته المجانيق من سورها العظيم [٢] .

ومما هو جدير بالذكر هنا أن جلال الدين منكبرتى بينما كان يحاصر مدينة خلاط، عزم أن ينقل جثة أبيه من هذه الجزيرة التى دفن فيها فى بحر قزوين إلى ضريح خاص عزم على تشييده فى مدينة أصفهان فعهد إلى « مقدم الفراشية » وهو الذى تولى غسل السلطان المتوفى ، بأن يسير إلى مدينة أصفهان ، ليبنى بها مدرسة يدفنه فيها ، وأعطاه ثلاثين ألف دينار للبدء بتنفيذ هذا المشروع . وأمر السلطان بنقل التابوت الذى به جثة أبيه إلى إحدى القلاع المنيعة حتى يتم بناء تلك المدرسه . وقد تولى محمد النسوى نفسه كتابة هذا التوقيع الذى كتبه — كما يقول — وهو مشفق على هذه الجثة ، إذ جرت عادة المغول أن يحرقوا جميع جثث البيت الخوارزمى التى يعثرون عليها . وقد حدث فعلا ما كان يخشاه النسوى إذ استولى المغول على البلاد الخوارزمية من جديد فى أيام جلال الدين نفسه وأخرجوا جثة علاء الدين خوارزم شاه ، وأرسلوها إلى الخاقان الذى أمر بإحراقها [٣] .

وبينما كان جلال الدين منكبرتى يحاصر مدينة خلاط ، عرض على « علاء الدين قيقباذ » سلطان الروم السلاجقة عقد حلف بينهما يكون الغرض منه توحيد القوى الإسلامية ضد المغول . وقد وافق علاء الدين على ذلك وأرسل إليه بعض الرسل محملين بالهدايا توطيداً لأواصر الصداقة بين الفريقين [٤] .

وكانت هدايا سلاجقة الروم تتكون من ثلاثين بغلا محملة بالملابس والنفائس، وثلاثين مملوكا بخيولهم وعدتهم ومائة فرس وغير ذلك من الهدايا . على أن رجال السلطان جلال الدين منكبرتى عاملوا هؤلاء الرسل فى شىء كثير من الغلظة، اعتقادا منهم أن

---

(١) D'ohsson: Histoire Des Mongols, tom. iii. pp. 41-42.
(٢) النسوى : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى ، ص ١٩٨ — ٢٠٢ .
(٣) المرجع نفسه ، ص ١٩٢ — ١٩٣ .
(٤) Howorth: History of the Mongols, part i. p. 129.

هذه الهدايا لا تتناسب مع السلطان الخوارزمى . وعاد رسل علاء الدين قيقباذ دون أن يعقدوا ذلك الحلف مع الخوارزميين [١] .

وكان طرد رسل سلاجقة الروم على هذا النحو، وبالا على جلال الدين الذى استولى على مدينة خلاط كما ذكرنا من صاحبها الأشرف موسى أمير خلاط وبلاد الجزيرة ودمشق [٢]، فأبرم هذا فى سنة ٦٢٧ هـ (١٢٣٠ م) حلفا ضد الخوارزميين من أمراء الموصل وبلاد ما بين النهرين ، وانضم إليه علاء الدين قيقباذ سلطان الروم السلاجقة ، وهو صاحب هذه الهدية التى رفضها الخوارزميون. وقد تقابلت الجيوش المتحالفة المتجمعة من بلاد الشام والجزيرة فى مدينة « سيواس » بآسيا الصغرى، وبعد أن اكتمل عددها سارت إلى مدينة خلاط . وقد سارع جلال الدين للقائهم بجيش قليل العدد والعدة ،وكان يأمل أن يقاتل أعداءه قبل أن تتجمع قواهم ، إلا أن جلال الدين مرض فى ذلك الوقت ، وقبل أن يتم شفاؤه كانت قوات أعدائه قد تجمعت وأنزلت به هزيمة منكرة بالقرب من من مدينة خلاط ، دخل الأشرف موسى على أثرها هذه المدينة دخول الظافر ، بعد أن فر جلال الدين إلى أذربيجان [٣] . ومع ذلك فقد عاد الأشرف موسى إلى عقد الصلح مع جلال الدين منكبرتى واتفق الطرفان على أن يكون لكل منهما البلاد التى تحت يده ، وبعد أن تم هذا الصلح عاد الأشرف إلى دمشق ، وبقى جلال الدين فى أذربيجان [٤] .

أما عن السبب الذى دفع هؤلاء الأمراء المسلمين وعلى رأسهم الأشرف موسى إلى عقد الصلح مع جلال الدين ، فهو أنهم وجدوا أن المغول باتوا يهددون أملاك الخوارزميين فى فارس ، فخشوا أن يستولى المغول على الدولة الخوارزمية من جديد فتدور عليهم الدائرة بعد ذلك ، ولذلك آثروا الصلح على الحرب ، لكى ينصرف

---

(١) النسوى : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى ، ص ١٩٦ — ١٩٧ .

(٢) يلاحظ أن المعظم صاحب دمشق توفى سنة ٦٢٤ هـ (١٢٢٧ م) وتولى بعده ابنه داود الذى حكم هذه المدينة قرابة عامين حتى استولى عليها عمه الأشرف موسى صاحب خلاط وبلاد الجزيرة وضمها إلى أملاكه سنة ٦٢٦ هـ (١٢٢٩م) أى فى نفس السنة التى استولى فيها جلال الدين منكبرتى على مدينة خلاط . أنظر ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ٢١٨ و٢٢٣ .

(٣) المرجع نفسه ، ج ١٢ ص ٢٢٧ .

(٤) المرجع نفسه ، ج ١٢ ص ٢٢٨ .

جلال الدين إلى مواجهة ذلك الخطر المغولى الذى بات يهدد كيانه وكيانهم [١] .

* * *

أما عن علاقة الدولة الخوارزمية بالخلافة العباسية فى هذه الفترة من حكم جلال الدين منكبرتى ، فكانت من الأمور التى تسترعى النظر . فقد رأينا أن جلال الدين كان متحمساً ضد الخلافة العباسية فى بغداد عندما عاد من بلاد الهند وظهر على مسرح التاريخ الخوارزمى من جديد ، غير أنه لما أخفق فى محاولته غزو بغداد فى عهد الخليفة العباسى الناصر لدين الله كما رأينا ، عمد إلى تكوين حلف مع المعظم عيسى صاحب دمشق منتهزاً فرصة قيام الشقاق بينه وبين أخويه ، وكان أهم ما يرمى إليه من وراء ذلك الحلف أن يؤلب القوى الإسلامية على الخليفة العباسى ، ولكن هذه الفكرة كان نصيبها الفشل أيضا . والظاهر أن جلال الدين شك بعد ذلك فى مقدرته على تحقيق فكرة غزو بغداد ، كما نرى أن الخلافة العباسية تميل بدورها إلى مسالمة الخوارزميين . فمنذ تولى الخليفة الظاهر الحكم سنة ٦٢٢ هـ (١٢٢٥ م) نراه يميل إلى مصالحة جلال الدين فأرسل إليه رسولين لهذا الغرض ، هما نجم الدين الرازى [٢] وركن الدين بن عطاف . وقد أمر الخليفة ثانى الرجلين بالبقاء فى حضرة جلال الدين إذا لاقت فكرة الصلح قبولا حسنا ، وأن يعود الرازى بمن يصحبهم من الرسل الذين يرسلهم السلطان الخوارزمى كيما يحملون الخلع إليه . وقد وافق جلال الدين على عقد الصلح وأرسل إلى الخليفة العباسى ، القاضى « مجير الدين » ليحضر الخلع والهدايا من عنده . واستقبل الخليفة رسول السلطان الخوارزمى أحسن استقبال ، وأرسل معه كثيرا من الخلع لجلال الدين ؛ ولكن الخليفة الظاهر توفى — لسوء الحظ — فى هذه الفترة قبل وصول الرسول إلى حضرة جلال الدين ، فأعيدت الخلع إلى بغداد ولم تتحقق فكرة الصلح [٣] . وتأجلت إلى حين .

---

(١) Howorth: History of the Mongols, part i. p. 130.

(٢) كان نجم الدين الرازى من رجال الصوفية فى عصره وقد رحل بعد الغزو المغولى إلى بلاد الروم وهناك ألف كتابه المعروف باسم « مرصاد العباد من المبدأ إلى المعاد » وهو كتاب كتب باللغة الفارسية ويبحث فى عقائد التصوف ؛ وقد توفى الرازى سنة ٦٤٥ هـ (١٢٤٧ م) . أنظر كتاب الدكتور رضا زاده شفق « تاريخ الأدب الفارسى » ، ص ١٩٧ .

(٣) النسوى : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى ، ص ١٦٩ — ١٧٠ .

جلس الخليفة المستنصر العباسي بعد ذلك على كرسي الخلافة (٦٢٣ هـ — ٦٤٠ هـ = ١٢٢٦ — ١٢٤٢ م) ، واستمرت العلاقة العدائية قائمة بينه وبين الخوارزميين كما كانت في عهد من جاء قبله من الخلفاء ، حتى سار جلال الدين إلى مدينة خلاط سنة ٦٢٦ هـ (١٢٢٩ م) كما سبق ذكرنا ، وهناك تم الصلح بين الفريقين . ففي أثناء حصار هذه المدينة وصل « سعد الدين الحاجب » رسولا من قبل الخليفة المستنصر بالله العباسي إلى جلال الدين منكبرتي يعرض عليه الصلح مقابل بعض المطالب كشرط أساسي ، حتى إذا ما قبل جلال الدين هذه المطالب ، استعد الخليفة لاستقبال سفرائه ليحملهم بالخلع والهدايا.

أما مطالب الخليفة فكانت تنحصر في أمرين :

١) عدم الاعتداء على بعض الأمراء المسلمين الذين يعتبرهم الخليفة من رعاياه ، ومن أقرب المقربين إليه ، ومن هؤلاء بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل، ومظفر الدين كـكبرى صاحب إربل .

٢) اقامة الخطبة للخليفة العباسي على سائر منابر الدولة الخوارزمية .

وقد قبل السلطان الخوارزمي هذين المطلبين ، وأصدر أوامره بالدعاء للخليفة المستنصر بالله ، ثم أوفد إليه في بغداد رسولا يعلن قبوله لمطالبه . وكان هذا الرسول لحسن الحظ — محمد النسوي صاحب ذلك الكتاب الذي أرّخ فيه لجلال الدين منكبرتي ، فوصف رحلته إلى بغداد وصفا مسهبا . ومما ذكره أنه لما وصل إلى العاصمة الإسلامية الكبرى ، أقام في دار أعدت لنزوله على نهر دجلة ، ولما حان وقت مثوله بين يدي الخليفة أعدت له مركب سارت به في النهر . ووصف هذا المؤرخ مقابلته للخليفة في هذه العبارة :

« لما طلعنا الدرجة وصافحت عيني الستر الأسود ، قبلت الأرض . . . »
« ورأيت بستاناً من كثرة الشموع كأنه في الليلة الظلماء عكس الفلك في »
« الماء ، ورأيت الوزير واقفا حذاء الستر والستر مرخى، وجاء خادم ورفع »
« الستر ، فكنت أمشي وأقبل الأرض إلى أن قاربت الوزير . ووقفت فإذا »
« أمير المؤمنين جالس على سرير فتكلم الوزير بكلمة عربية ، فتقدم »
« خطوات وأشار إليّ بالوقوف حيث كان هو واقفاً أولا ،فتقدمت وقبلت »

« الأرض ووقفت موقفه ، ثم قال أمير : المؤمنين كيف الجناب العالى »
« الشاهنشاهى؟ يعنى السلطان. وهكذا كان خطابه للسلطان إذ ذاك. فقبلت »
« الأرض. وأردف ذلك بكلمات يثنى على المواعد الجميلة وشمول العنايات »
« أحوال السلطان ، وأنه يريد تقديمه على ساير (كذا فى الأصل) ملوك »
« زمانه وسلاطين أوانه ، فلم أزد فى جواب ذلك على تقبيل الأرض . »
« ثم علّم على كتاب العهد الذى كتبه للسلطان وناولنى الوزير فوضعته على »
« رأسي وقبلت الأرض ورجعت .... وخلع على المذكور خلعة سنية(١). »

وقد أرسل الخليفة بعض الرسل إلى جلال الدين فوصلوا فى أثناء حصار مدينة خلاط ، وكانوا يحملون خلعتين له وثلاثين خلعة لأفراد حاشيته ، وهى عبارة عن ملابس حريرية محلاة بالجواهر وسيوف محلاة بالذهب ، فضلا عن الخيول العربية وبعض المماليك (٢) .

وكان سفراء الخليفة ينتظرون أن يحضر جلال الدين إلى الخيمة التى أعدت لإيداع هذه الهدايا ليلبس الخلعتين ، ولكنه رفض وأمر بضرب خيمة أخرى بجوار الخيمة التي وضعت فيها الهدايا ، ونقلت إليها الخلع ، وركب السلطان مرتين ، فدخلها ولبس الخلعتين فى نهار واحد ، ثم لبس أفراد حاشيته من بعده . وقد أراد رسل الخليفة فى هذه الأثناء أن يشفعوا لأهل مدينة خلاط لدى السلطان كى يرفع عنها الحصار ، ولكنه أبى بحجة أن هذا ينافى ما تمناه الخليفة له من الرفعة وعلو المنزلة . وكان الرسل يخشون ألا يستطيع السلطان الاستيلاء على هذه المدينة فيشمت فيه الشامتون ، وعرضوا عليه أن يرفع الحصار بشفاعة الخليفة نفسه حتى لا يظهر بمظهر الرجل الضعيف (٣) ، ولكنه ظل مع ذلك على حصارها إلى أن استولى عليها كما ذكرنا .

وهكذا عاد السلام بين الخلافة العباسية وبين جلال الدين منكبرتى بعد نزاع استمر طيلة عهده وعهد أبيه وجده . وكان من الطبيعى أن ينتهى ذلك النزاع بعد أن يضحى

---

(١) النسوى : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى ، ص ١٨٩ .
(٢) المرجع نفسه ، ص ١٨٩ — ١٩٠ .
(٣) المرجع نفسه ، ص ١٩١ .

كل من الطرفين بشيء من أطماعه ويتفرغ لمناوأة المغول عدوهما المشترك ، الذين أصبحوا خطراً ماثلا أمام كل أمير من أمراء المسلمين .

* * *

ننتقل بعد ذلك إلى ناحية أخرى من سياسة جلال الدين منكبرتى فى هذه الفترة من حكمه ، ألا وهى علاقته بطائفة الإسماعيلية التى لا تقل فى أهميتها عن علاقاته بجيرانه الآخرين . فقد أثارت هذه الطائفة فى وجه الدولة الخوارزمية وسلاطين السلاجقة كثيراً من المتاعب ، ولم يستطع السلاجقة كما لم يستطع سلاطين الدولة الخوارزمية عامة وعلاء الدين خوارزم شاه خاصة أن يقضوا عليهم ، لذلك كانت طائفة الإسماعيلية شوكة فى ظهر الخوارزميين .

وقد انتهزت طائفة الإسماعيلية تلك الفوضى التى حلت بالعالم الإسلامى عامة وبالدولة الخوارزمية خاصة على أثر الغزو المغولى وأخذت تعيث فى البلاد فسادا ، على أنها بدأت تنكمش فى قلاعها بعد عودة جلال الدين من الهند . ولم يهتم جلال الدين بهذه الطائفة أول الأمر لأن مشاكله العديدة قد صرفت نظره عنها إلى حين ؛ على أنه حدث فى سنة ٦٢٤ هـ (١٢٢٧م) أن قُتل حاكم مدينة « كنجة » من أعمال أذربيجان ، وكان من الأمراء المقربين إلى جلال الدين، على أيدى الإسماعيلية ، فعظم ذلك على السلطان الخوارزمى ، وسار إليهم بنفسه ، وحاصر جميع قلاعهم من حدود « ألموت » حتى حصونهم فى خراسان ، « فخرب الجميع ، وقتل أهلها ، ونهب الأموال ، وسبى الحريم ، واسترق الأولاد ، وقتل الرجال ، وعمل بهم الأعمال العظيمة وانتقم منهم . . . فكف عاديتهم »(١) .

ومنذ ذلك الوقت أخذت طائفة الإسماعيلية تخشى بأس جلال الدين منكبرتى بل عملت على التقرب إليه ما استطاعت إلى ذلك سبيلا . فقد حدث أن انتصر جلال الدين فى سنة ٦٢٥ هـ (١٢٢٨ م) بالقرب من مدينة أصفهان على فرقة مغولية ظنت أن فى استطاعتها أن تلعب مع الدولة الخوارزمية نفس الدور الذى لعبه چنكيزخان

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ١٢٧ .

من قبل [١] ، فبعد أن أحرز الخوارزميون هذا الانتصار على المغول حاول مقدم الإسماعيلية [٢] أن يتقرب إلى جلال الدين ، بأن أرسل إليه تسعة من الفدائيين ليرسلهم فى إثر من يريد من أعدائه . على أن جلال الدين رد هؤلاء الفدائيين إلى صاحبهم ، ظناً منه أن غرض مقدم الإسماعيلية هو أن يعرف أعداءه ليؤلبهم عليه [٣] .

والظاهر أن عداوة الإسماعيلية للخوارزميين شجعت خصوم جلال الدين على الالتجاء إليهم ، وكان من بين هؤلاء اللاجئين « غياث الدين » أحد إخوة جلال الدين نفسه . فقد قام بين الأخوين سنة ٦٢٥ هـ (١٢٢٨ م) نزاع بسبب قتل غياث الدين أحد المقربين لأخيه الذى صمم على أن يثأر له . ولم ير الأخ القاتل بداً من الفرار والالتجاء إلى أحد خصوم السلطان ، فسار بادىء الأمر إلى خوزستان مستغيثاً بالخليفة العباسى [٤] ، ثم بدا له أن يحتمى بخصم آخر هو طائفة الإسماعيلية . ولما علم جلال الدين بذلك،عزم على غزو حصون الإسماعيلية إذا لم يسلموا أخاه إليه ، وأرسل رسالة بهذا المعنى إلى مقدم الإسماعيلية الذى اعتذر إلى جلال الدين فى عبارة تدل على أن طائفة الإسماعيلية لم يعد لها تلك القوة التى تمتعت بها من قبل ، ومما جاء فى هذه الرسالة :

« إن أخاك قد قصدنا ، وهو سلطان ابن سلطان ، ولا يجوز لنا أن نسلمه . »
« ولكن نحن نتركه عندنا ولا نمكنه أن يقصد شيئاً من بلادك ونسألك »
« أن تشفعنا فيه ، والضمان علينا بما قلنا ، ومتى كان منه ما تكرهه فى بلادك »
« فبلادنا حينئذ بين يديك تفعل فيها ما تختار . »

وقد اقتنع جلال الدين بهذا الرد وعاد عن بلادهم . أما غياث الدين فإنه لم يلبث أن قتل فى بعض القلاع دون أن يعرف على وجه التحقيق النهاية التى ختمت بها حياته [٥] .

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ س ٢٢٠ .

(٢) هو علاء الدين محمد بن جلال الدين وقد تولى زعامة الإسماعيلية سنة ٦١٧ هـ (١٢٢٠م) .

(٣) النسوى : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى ، س ١٤٥ — ١٤٦ .

(٤) المرجع نفسه ، س ١٤٠ — ١٤٥ .

(٥) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ س ٢١٩ .

ولم يكن من المعقول أن تطمئن طائفة الإسماعيلية إلى الاستسلام للخوارزميين ، فتكون النتيجة أن يقضى جلال الدين عليها تدريجياً . لذلك نرى أتباعها يعمدون إلى الاستعانة على الخوارزميين بأعدائهم ؛ ولما كان المغول من أقوى هؤلاء الأعداء فى نظرهم ، لذلك لم يترددوا فى مراسلتهم وحثهم على غزو الدولة الخوارزمية من جديد .

وقد ذكر ابن الأثير أن جلال الدين منكبرتى لما هزمه الأشرف موسى صاحب دمشق ، وعلاء الدين قيقباذ سلطان السلاجقة الروم سنة ٦٢٧ هـ (١٢٣٠ م) على ما ذكرنا ، أرسل مقدم الإسماعيلية إلى المغول يطلعهم على ما بلغه الخوارزميون من ضعف ، ويحثهم على غزو بلادهم ، ويؤكد لهم أن النصر سوف يكون حليفهم [١] . على أن هذه الرسالة لم تكن الأولى التى أرسلها مقدم الإسماعيلية إلى المغول ، ومن البديهى أن تبدأ هذه المراسلات قبل ذلك الوقت ، أى منذ خرب جلال الدين حصون الإسماعيلية سنة ٦٢٤ هـ (١٢٢٧ م) كما ذكرنا ، ومما يدل على ذلك أن الخوارزميين وصلتهم أخبار هذه المراسلات قبل التاريخ الذى حدده ابن الأثير . ويتبين ذلك من سير محمد النسوى إلى قلعة « ألموت » رسولا من قبل جلال الدين سنة ٦٢٦ هـ (١٢٢٩ م) ليستطلع الأسباب التى حدت بالإسماعيلية إلى إرسال هذه الرسائل للمغول ، الذين كانوا يقيمون فى بلاد ما وراء النهر . وقد اعترف مقدم الإسماعيلية للنسوى بأنه إنما يكاتب المغول لأن له أملاكا تجاور بلادهم ، وأنه لابد له من مداراتهم . ثم طمأن رسول الخوارزميين بأنه لم يقصد من وراء هذه الرسائل أى أذى يلحق بالسلطان [٢] .

وسواء أكان مقدم الإسماعيلية يراسل المغول ابتغاء استدعائهم لمنازلة جلال الدين ، أم بقصد مداراتهم ، فليس هناك من شك فى أن هؤلاء المغول لابد أن يفكروا فى غزو الدولة الخوارزمية من جديد ، إذ لم يصرفهم عن ذلك إلا معالجة بعض الأمور الهامة فى بلادهم الأصلية ، حتى إذا ما انتهوا منها ساروا إلى البلاد الإسلامية . ويمكن القول أن تلك العلاقة التى كانت قائمة بين الإسماعيلية وبين المغول قد أدت على الأقل

(١) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ٢٣٠ .
(٢) النسوى : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى ، ص ١٤٦ و ص ٢١٢ — ٢١٣ .

إلى وقوف المغول على أحوال الدولة الخوارزمية فى عهدها الجديد وشجعتهم على العودة إلى غزوها .

٣ — زوال الدولة الخوارزمية على أيدى المغول

لما رحل جنكيزخان إلى بلاده ، ترك أقاليم الدولة الخوارزمية خاوية على عروشها، ثم انشغل المغول عن البلاد الإسلامية بأمور أصبحت تهدد كيانهم فى بلادهم الأصلية. لذلك نرى جنكيزخان فى الفترة الباقية من حياته، أى منذ عودته إلى بلاده حتى توفى سنة ٦٢٤ هـ (١٢٢٧ م) ، يكتل جهوده للضرب على أيدى القبائل الثائرة عليه (١) ، ويحاول إخضاع ما يستطيع إخضاعه من إمبراطورية سونج Sung فى النصف الجنوبى من بلاد الصين ، وعلى أنه توفى قبل أن يرى ثمرة انتصار قواده هناك .

ولما توفى جنكيزخان ظلت أحوال المغول غير مستقرة على حال ، وعاد كبار رجال دولتهم وكبار قوادهم المنتشرون فى الأراضى البعيدة التى خضعت للمغول ، إلى « قره قورم » حاضرة الدولة المغولية لانتخاب الخاقان الجديد (٢). ثم انتخب أجتاى ابن جنكيزخان سنة ٦٢٦ هـ (١٢٢٩م) خاقانا ، فأخذ على عاتقه إخضاع الدولة الخوارزمية من جديد .

ويظهر أن تخريب جيوش جنكيزخان أقاليم خراسان وخوارزم وغزنه، لم تشجع المغول على الاحتفاظ بهذه الأقاليم أو الاقامة فيها ، كما لم يشجع جلال الدين منكبرتى

---

(١) Lamb: Genghis-Khan; The Emperor of All Men, p. 192.

(٢) لفظ « خاقان » لقب أطلقه المغول على الرئيس الأعلى لدولتهم ، ومعناه رئيس الرؤساء أو أعظم الحكام . أما لقب « خان » فكانوا يطلقونه على رؤسائهم الذين يتولون جزءا من الإمبراطورية المغولية . وقد استعمل المغول لقب « خان » أيضا بمعنى « خاقان » ، وربما كان ذلك من باب الرغبة فى الاختصار . ومما هو جدير بالذكر أن الفرق بين « خان » و « خاقان » ، يشبه الفرق بين كلمتى « سلطان » و « ملك » ، فالسلطان هو الملك الأعظم كالسلطان صلاح الدين الأيوبى ، أما ملك فهو أحد ولاة السلطان من أبناء بيته كالملك العادل حينما كان صاحب دمشق من قبل أخيه صلاح الدين الأيوبى . وقد وجد هذا الفرق أيضا عند الفرس ، فإن لقب « شاهنشاه » ومعناه « ملك الملوك » يتميز عن لقب « شاه » فقط وهو « الملك الصغير » . أنظر المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج ١ القسم الثانى ص ٣٠٧ حاشية ٤ .

بعد عودته من الهند على الاهتمام بها . فنرى جلال الدين يصرف وقته فى العراق العجمى، ويهتم بالأقاليم الغربية من الدولة الخوارزمية دون أن يعير أقاليم خراسان وخوارزم وغزنه ذلك الاهتمام ، مع أن هذه الأقاليم كانت عصب الدولة الخوارزمية فى حياة أبيه. وكل ما فعله أنه ترك مدن هذه الأقاليم وغيرها فى أيدى المغتصبين من رجال الدولة الخوارزمية الذين كانوا يدعون أحقيتهم بحكمها. وكان الحال كذلك بالنسبة للمغول ، فقد تركوا هذه البلاد دون أن يحاولوا الإقامة فيها ، ولم يضعوا أيديهم إلا على إقليم ما وراء النهر وحده الذى اهتموا بتعمير مدنه . أما فى أقاليم الدولة الخوارزمية الأخرى ، فقد كانت جماعات مغولية غير منظمة تخرج لتحارب فى حروب أشبه بحروب العصابات . وكان المغول فى غالب الأحيان لا يجدون ما يروق لهم فى هذه الجهات التى أمست يبابا [١] . ففى سنة ٦٢٤ هـ (١٢٢٧ م) وهى السنة التى توفى فيها جنكيزخان ، خرج جماعة من المغول إلى بلاد الدولة الخوارزمية وتوغلوا فى أراضيها حتى أصبحوا على مقربة من مدينة الرى . ولم تكن هذه الجماعة على شىء من القوة أو النظام ، حتى أن جلال الدين استطاع أن يقضى عليهم دون صعوبة ما [٢] . وفى العام التالى ظهرت قوة كبيرة للمغول وتوغلت فى أراضى الدولة الخوارزمية حتى أصبحت على مسيرة يومين من أصفهان ، وهنا تجلت شجاعة جلال الدين منكبرتى الذى لم يكترث لجيشهم أو على الأقل تظاهر بعدم الاكتراث . وفى ذلك يقول النسوى :

« ومما يدل على قوة قلب السلطان فى الأمور الفادحة وقلة مبالاته »
« بالخطوب الكالحة ، أن جماعة الأمراء والخانات لما سمعوا بقرب »
« العدو انزعجوا لذلك وقصدوا بابه ، فجلسوا ساعة حتى أذن لهم »
« بالدخول . فلما وقفوا بين يديه وهو واقف فى صحن الدار ، أخذ »
« يتكلم زمانا فيما ليس يتعلق بالتاتار ، استحقاراً بهم وإظهاراً للجماعة »
« بأن الأمر ليس بأمر ، وأن الحادث ليس بنكر ، تسكينا لقلوبهم »
« الخافقة وتقوية لنفوسهم الفارقة ، وطاول فى أطراف المحادثة »
« إلى أن أجلسهم وشاورهم فيما يقع عليه الاتفاق . . . . فكانت »

(١) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ٢٣٠ .
(٢) المرجع نفسه ، ج ١٢ ص ٢١٧ .

«زبدة المشورة أنه استحلفهم على أن لا يهربوا ولا يختاروا الحيوة»
«(كذا فى الأصل) على الموت، ثم حلف لهم بمثل ما حلفوا له»
«تبرعا منه [1]».

وفى اليوم الذى اختاره المنجمون للقتال، خرج السلطان بجيشه، ولكن لسوء حظ المسلمين انسحب أخوه غياث الدين مع أتباعه كما ذكرنا، ومع ذلك فلم يعر السلطان الأمر اهتماما، واستطاع بميسرته وميمنته وقلب جيشه أن يهزم المغول حتى ولوا الأدبار، بعد أن قتل الخوارزميون منهم عدداً كبيراً. ولما حاول السلطان مطاردتهم أوقعوه فى كمين نصبوه له وبذلك استطاعوا أن يحوّلوا انتصاره إلى هزيمة، وتفرقت الجيوش الخوارزمية بين أقاليم فارس وكرمان وأذربيجان وغيرها، بل اختفى السلطان نفسه حتى أن الخوارزميين فكروا فى سلطان يخلفه، غير أنه عاد وفاجأهم بظهوره بعد ثمانية أيام [2].

ومما يدل على أن هذه الحملات المغولية لم تكن نتيجة تدبير أو تنظيم، أنه على الرغم من انتصار المغول على الجيوش الخوارزمية، فإنهم لم يفعلوا، كما يقول الجوينى، أكثر من الاقتراب من أبواب أصفهان. ثم عادوا مسرعين إلى بلاد ما وراء النهر بعد أن فقدوا معظم جيوشهم [3].

وكانت أول حرب مغولية منظمة شنها المغول على أقاليم الدولة الإسلامية بعد وفاة جنكيزخان، على يد ابنه وخليفته أجتاى Ogtai، فقد جهز جيشا من ثلاثين ألف مقاتل وولى قيادته اثنين من أشهر قواده هما شيرماجون Churmagun وبيدشو Baidshu [4]. ولما بلغ الجيش المغولى خراسان عبر هذا الإقليم بسرعة فائقة حتى وصل إلى الأقاليم الغربية من الدولة الخوارزمية، واستطاع المغول أن يستولوا على الرى وهمذان وما بينهما من البلاد، ووصلوا إلى حدود أذربيجان فى أوائل سنة ٦٢٨هـ (١٢٣١م) [5].

ولم يهتم المغول فى هذه الفترة بشىء سوى مطاردة جلال الدين والقبض عليه، حتى

---

(١) النسوى: سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى، ص ١٣٥.
(٢) المرجع نفسه، ص ١٣٩.
(٣) D'ohsson: Histoire Des Mongols, tom. iii. p 27.
(٤) Howorth : History of the Mongols, part i· p. 130.
(٥) ابن الأثير: الكامل، ج ١٢ ص ٢٣٠.

إذا تم لهم القضاء على رأس الدولة الخوارزمية، اطمأنوا إلى إخضاعها فى سهولة ويسر. لذلك نرى أن حركات المغول وتنقلاتهم فى أراضى الدولة الخوارزمية فى هذه الفترة كانت مقيدة تماما بحركات جلال الدين وتنقلاته فيها، فلما رحل السلطان الخوارزمى إلى تبريز حاضرة أذربيجان، ظناً منه خطأ أن المغول سيقضون شتاء هذا العام فى العراق العجمى. فإذا بالمغول يسيرون فى إثره ويرغمونه على التقهقر إلى سهل «موقان» المجاور للساحل الغربى من بحر قزوين، قبل أن يتمكن جلال الدين من جمع جيوشه[١]. وكان تقهقر جلال الدين إلى هذا الإقليم تقهقرا مفاجئا، حتى أنه ترك حريمه فى تبريز. ولم يكد يستقر فى موقان حتى فوجىء بمسير المغول إليه، فاضطر إلى العودة ثانية إلى أذربيجان[٢].

وقد حاول جلال الدين فى هذه الفترة الاستنجاد بأمراء دياربكر والجزيرة، كما حاول أن يستنجد بالخليفة العباسى أيضا. وقد عزم على أن يسير بنفسه إلى هؤلاء جميعا، فلما وصل إلى مدينة «آمد» فى أعالى نهر دجلة، لحق به المغول وهزموه شر هزيمة، وقتلوا وأسروا كثيرين من الخوارزميين وتفرق الباقون أيدى سبا[٣]. وكان السلطان نفسه ضمن من ولوا الأدبار فتبعه خمسة عشر من فرسان المغول، وأدركه اثنان منهم فقتلهما جلال الدين، وعاد الباقون بعد أن يئسوا من الظفر به، وأخيرا لجأ السلطان الخوارزمى الشريد إلى جبال كردستان[٤]. وقد فتشه الأكراد، كما هى عادتهم فى تفتيش كل غريب عنهم، ولما هموا بقتله همس فى أذن كبيرهم «إننى أنا السلطان فلا تستعجل فى أمرى».[٥] فأخذه الرجل إلى منزله وهناك طلب منه جلال الدين أن يعاونه على العودة إلى بلاده. فتركه الكردى فى منزله مع زوجته، وخرج لإحضار بعض خيوله ليستعين بها فى إرجاعه إلى بلاده. وبينما كان الكردى غائبا عن منزله

(١) كانت الجيوش الخوارزمية قد تفرقت فى أنحاء الدولة المختلفة على إثر هزيمة جلال الدين منكبرتى سنة ٦٢٧ هـ (١٢٣٠م) من الحلف الذى كونه الأشرف موسى كما ذكرنا.

(٢) Howorth: History of the Mongols, part I. p. 130.

(٣) ابن الأثير: الكامل، ج ١٢ س ٢٣١.

(٤) النسوى: سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى، س ٢٤٥.

(٥) المرجع نفسه، س ٢٤٥ — ٢٤٦

أتى كردى آخر وبيده حربة وقال للمرأة: «ماهذا الخوارزمى وهلا تقتلونه ؟» فقالت: «لاسبيل إلى ذلك وقدأمنه زوجى وعرف أنه هو السلطان». فقال الكردى: «كيف تصدقونه بأنه السلطان؟ وقد قُتل لى بخِلاط أخ خير منه»، ثم ضربه بالحربة ضربة أغنت عن الثانية. وعلى هذاالنحو كان مصير آخر سلاطين الدولة الخوارزمية. وكانت وفاته فى منتصف شوال سنة ٦٢٨ هـ (١٥ أغسطس سنة ١٢٣١ م). وقدعقب النسوى على وفاته بالأبيات الآتية:

يامن أسال رقاب الكاشحين دماً من بعد. فقدك أبكيت العيون دما
لئن أتاح صروف الدهر ساحته فانظر إلى الملك والإسلام لاجرما
فالدين منثلم والملك منهـــدم وظل حبل العلى والمجد منجدما [1]

وقد اختلف المؤرخون فى تصوير شخصية جلال الدين منكبرتى وتباينت آراؤهم فيه. فنرى ابن الأثير يصفه بقوله:

«كان جلال الدين سيء السيرة قبيح التدبير لملكه، لم يترك أحداً من الملوك المجاورين له إلا عاداه، ونازعه الملك، وأساء مجاورته [2].»

ونرى النسوى يصفه بقوله:

«كان تركى الشارة والعبارة، وكان يتكلم بالفارسية أيضا. وأما شجاعته فحسبك منها ماأوردته من وقايعه (كذافى الأصل)، فكان أسداً ضرغاماً، أشجع فرسانه إقداماً. وكان حليما لاغضوبا ولا شتاما، وقورا لا يضحك إلا تبسما ولا يكثر كلاما [3].»

أما دوسون D'ohsson، فقدصوره فى صورة الجندى لافى صورة الحاكم السياسى كما ذكر أنه كان يميل إلى الأبهة، شديد الولع بالخمر والموسيقى، حتى فى أشد ساعاته حرجا. وكانت جيوشه، التى لايدفع أرزاقها، تعيش على السلب والنهب [4].

ومن هذه الأقوال الثلاثة، بغض النظر عما فيها من صفات خلقية، نستطيع أن ...

---

(١) النسوى: سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى، ص ٢٤٦.
(٢) ابن الأثير: الكامل، ج ١٢ ص ٢٣٠.
(٣) النسوى: سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى، ص ٢٤٧.
(٤) D'ohsson: Histoire Des Mongols, tom iii. p. 63.

نلخص سياسة جلال الدين . فمنذ وصل إلى فارس لم يحاول أن يكسب صداقة جيرانه من المسلمين ، بل نراه يعاديهم جميعا ، ويحاول أن يغنم على حسابهم جميعا ، مما فرق شمل الوحدة الإسلامية وزادها ضعفا على ضعف . ولهذا نرى دوسون يغلب النزعة العسكرية فيه على النزعة السياسية ، تلك النزعة التي سيطرت على سياسته ، وجعلته يطمع في أن يكسب لنفسه ولدولته بقوة السلاح وحده .

ومما لاشك فيه أن سياسة جلال الدين الداخلية قد تأثرت إلى حد كبير بسياسته الخارجية ، فهو رجل كانت كل رغباته ونزعاته تتجه نحو الفتح والغزو . وكان لا يهتم بالإصلاح الداخلي ، بل عمد إلى تسخير كل موارد دولته لتحقيق أهدافه العسكرية . ولذلك اضطربت أحوال دولته المالية وعجز عن دفع أرزاق جنده ، مما حفزهم إلى إذكاء نار الثورة في كثير من المناسبات . وكان عدم دفع هذه الارزاق أكبر حافز لهم على تخريب المدن المفتوحة ونهبها ، ليأخذوا منها ما يعوّضهم عن رواتبهم المتأخرة . وقد رأينا أنهم بعد أن استولوا على مدينة خلاط هددوا السلطان بالانصراف عنه إذا لم يسمح لهم بنهب المدينة ، كما رأينا كيف أنه نزل على إرادتهم وأباحها لهم ثلاثة أيام ، دون أن يهتم بما يترتب على هذه السياسة من كراهية الأهالي لحكمه وبغضهم للخوارزميين ، مما جعلهم يتوقون إلى الخلاص على يد أول طارق يحاول تخليصهم . وإذا كنا نجيز مرغمين ما فعله المغول الوثنيون في البلاد الإسلامية بعد أن استولوا عليها ، فلن نجيز ذلك لسلطان مسلم في بلاد إسلامية مع شعوب إسلامية .

وبعد وفاة السلطان جلال الدين منكبرتي ، اعتدى الفلاحون والرعاة على من وجدوهم من الخوارزميين ، انتقاماً منهم لما فعلوه بهم من قبل ، مما ساعد المغول على الاستيلاء على البلاد الإسلامية ونهبها ، فاستولوا في سنة ٦٢٨ هـ (١٢٣١م) وهي السنة التي قتل فيها السلطان ، على بعض المدن الإسلامية مثل دياربكر وماردين ونصيبين وسنجار ، وأخذوا يعيثون فيها فساداً دون أن يجدوا مقاومة من السكان . وقد روى ابن الأثير بعض القصص التي تدل على جبن أولئك السكان ، فمثلا كان الرجل المغولي يدخل وحده قرية من القرى فيقتل من يجدهم من السكان دون أن يجرؤ الأهالي على المقاومة . وقص لنا ابن الأثير قصة رجل مغولي قبض على أحد المسلمين ولم يكن مع المغولي في ذلك الوقت

سيف ، فأمره أن ينام حتى يأتى بسيف فيقتله به ، فلما عاد المغولى وجد الرجل لم يتحرك[١]. وإذا كانت هذه القصص وغيرها لاتخلو من المبالغة ، فإن أقل ما تدل عليه أنها تعبر عما ساد نفوس المسلمين فى ذلك الوقت من ذعر وفزع ، كما تدل على ماحل بالعالم الإسلامى من اضطراب وقلق

تقدم المغول فى نفس السنة إلى أذربيجان ولما اقتربوا من حاضرتها تبريز ، افتدى السكان أنفسهم بكثير من الأموال والهدايا الثمينة . ثم تمكن المغول من الإجهاز على مدن أذربيجان المدينة تلو الأخرى . ومما ساعد المغول على الاستيلاء على هذه المدن، تلك الهزيمة التى حلت بجلال الدين وما كان من تفرق جيوشه ، واختفاء أخباره فى ذلك الوقت ، إذ لم يكن معروفاً على وجه التحقيق المصير الذى آل إليه[٢]، كما ساعد المغول أيضاً، إذكاء نار الثورة فى أذربيجان وأران، تلك الثورة التى أضرم لهيبها هؤلاء الذين كانوا يحكمون هذه البلاد من قبل السلطان الخوارزمى ، تقرباً منهم للمغول ، إذ لما عجز السلطان عن المقاومة ، ثار هؤلاء الحكام على الخوارزميين فى أذربيجان وأران وقطعوا رءوس من قبضوا عليهم منهم ، وأرسلوها إلى المغول[٣] .

وفى سنتى ٦٣٢ و ٦٣٣ هـ (١٢٣٥ — ١٢٣٦ م) دخل المغول إقليم إربل واستولوا على حاضرته « إربل » وخربوها ، ولكن الأهلين أرغموا المغول على التقهقر بعد أن تحصن معظمهم فى قلعة المدينة ، على أن المغول واصلوا الزحف فى شمالى العراق العربى حتى بلغوا مدينة «سامراء». ولما وجد الخليفة العباسى المستنصر الخطر الذى بات يتهدده، استعد لملاقاة المغول ، واتخذ خطة الدفاع ، ودعا المسلمين للجهاد[٤] . وقد التحمت جيوش الخليفة بجيوش المغول عند « حربى » و « جبلة » على نهر دجلة ، واستطاعت الجيوش الإسلامية أن تلحق الهزيمة بالمغول وتأسر عدداً كبيراً منهم . وفى سنة ٦٣٥هـ (١٢٣٨ م) دخل حوالى عشرة آلاف رجل من المغول أراضى العراق العربى للمرة الثانية ، واستطاع المغول أن يستدرجوا جيوش الخليفة إلى كمين نصبوه لهم ، فقتل عدد كبير من المسلمين .

(١) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ٢٣٢ — ٢٣٣ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ٢٣٤ .

(٣) D'ohsson : Histoire Des Mongols, tom iii, p. 52.

(٤) Howorth : Histo[illegible] e Mongols, part i, p 132.

ولم تكن انتصارات المغول فى الشمال بأقل منها فى الجنوب ، ففى سنة ٦٣٢ هـ (١٢٣٥ م) دخلت جيوش المغول مدينة « كنجة » فى إقليم أرّان وقتلوا غالبية أهلها، وخربوا المدينة بأسرها . وفى السنة التالية ترك المغول سهل موقان على بحر قزوين واستولوا على معظم مدن جورجيا ومن أهمها تفليس حاضرة هذا الإقليم، ثم وضعوا أيديهم على معظم مدن أرمينية الكبرى [١] ، كما توغلوا فى الأراضى الواقعة شمالى هذه الأقاليم . وإن استقصاء أخبار هذه الفتوح يخرج بنا عن نطاق هذا البحث .

على أن توغل المغول إلى الحد الذى رأيناه فى أراضى العراق العربى جنوبا ، وفى أذربيجان وجورجيا وأرمينية شمالا ، لم يكن إلا نتيجة حتمية لزوال آخر شخصية خوارزمية وقفت فى وجه الغزو المغولى ، إذ أنه لما زالت هذه الشخصية الخوارزمية ، وزالت الدولة الخوارزمية بزوالها ، لم يعد هناك ما يحول بين المغول وبين العبث فى أراضى العالم الإسلامى ، دون أن يقف فى وجههم عائق عن تنفيذ أغراضهم .

(١) Howorth: History of the Mongols, part i. p. 132.

الباب الرابع

عوامل زوال الدولة الخوارزمية

١ — اضطراب الحالة الداخلية فى الدولة الخوارزمية .

٢ — ضعف النظام الحربى الخوارزمى .

٣ — قوة النظم الاجتماعية والحربية عند المغول .

الباب الرابع

عوامل زوال الدولة الخوارزمية

١ – اضطراب الحالة الداخلية فى الدولة الخوارزمية

العوامل التى أدت إلى انهيار الدولة الخوارزمية كثيرة ومتشعبة ، يرجع بعضها إلى ضعف العالم الإسلامى عامة قبيل الغزو ، حتى أصبح ذلك العالم مفكك الأوصال تتنازعه أيدى المغتصبين فى الداخل والخارج ، ولذلك لم تكن هناك قوة واحدة تستطيع أن تقف فى وجه التيار المغولى عندما فكر جنكيزخان فى اجتياح أراضى الدولة الإسلامية . وإذا كانت مجهودات جنكيزخان قد انصبت على بعض أقاليم العالم الإسلامى دون بعضها الآخر ، فإن ذلك لا يرجع إلى أن الجزء الذى سلم من الغزو كان من القوة بحيث يستطيع أن يقف فى وجه المغول ، وإنما يرجع إلى أن جنكيزخان لم يشأ غزوه ، بل ولم يفكر فيه . وقد فصلنا الكلام عن ضعف الشرق الإسلامى فى الباب الثانى .

ومن العوامل التى أدت إلى انهيار الدولة الخوارزمية ما يرجع إلى اضطراب الحالة السياسية والاجتماعية فى هذه الدولة نفسها ، ومنها ما يرجع إلى ضعف نظم الخوارزميين الحربية حتى أن المغول واجهوا دولة مفككة الأوصال على رأسها سلطان ظاهره القوة وباطنه الضعف ، ويقابل هذا الضعف من ناحية الخوارزميين ، تماسك فى المجتمع المغولى وقوة فى نظمهم الاجتماعية ، وشدة وصرامة فى نظمهم العسكرية. وقد ساعدت هذه العوامل مجتمعة على إزالة الدولة الخوارزمية فى وقت قصير .

* * *

ظهرت الدولة الخوارزمية كما رأينا فى فترة يسودها الاضطراب ، مليئة بالفتن والمؤامرات السياسية والدينية ، وكان العالم الإسلامى فى الوقت الذى بدأت فيه هذه الدولة تقوى وتتسع على حساب جيرانها ، قد أثرت فيه هذه التيارات السياسية والفتن

الدينية ، فأضعفت وحدته وكثر الأمراء والحكام المستقلون الذين لايعترفون للخليفة العباسى إلا بالسيادة الاسمية .

وقد ساعدت كل هذه الظروف على ظهور الدولة الخوارزمية على مسرح التاريخ الإسلامى، ثم أخذت هذه الدولة تقوى شيئا فشيئا بقدر ما كان يصيب الأمراء والحكام المجاورين من ضعف . وكانت فترة مضطربة حقا تلك التى حاول فيها سلاطين الدولة الخوارزمية أن يفرضوا نفوذهم على القوى الموجودة فى ذلك الوقت، معتمدين فى ذلك على سلاح القوة وحده ، دون أن يعتمدوا على المهارة السياسية . ومن أجل هذا كانت سياسة سلاطين الدولة الخوارزمية بوجه عام وسياسة علاء الدين خوارزمشاه بوجه خاص ، سببا فى إضعاف الولايات الإسلامية المجاورة ، وخاصة إذا كان الهدف الأول الذى يرمى إليه علاء الدين هو أن يؤسس لنفسه إمبراطورية عظيمة على حساب هذه القوى، إذ كان من أثر هذه السياسة أن ضعفت هذه القوى جميعا وضعفت الدولة الخوارزمية أيضا . ومما يدل على صحة هذا القول أن علاء الدين خوارزم شاه لما فر من وجه التيار المغولى الجارف ، لم يكن هناك أمير قوى يستطيع أن يلم شمل الولايات الإسلامية ويقف بها فى وجه المغول .

وكان النزاع الذى قام بين السلطان الخوارزمى من جهة ، وبين الأمراء المسلمين والخليفة العباسى من جهة أخرى ، وما تبع هذا النزاع من فتن ومؤامرات ، كان ذلك كله أكبر مشجع للمغول على غزو بلاد الدولة الخوارزمية(١). وقد عبر ابن الأثير عن هذه الحقيقة بقوله :

« فإن هؤلاء التتر إنما استقام لهم الأمر لعدم المانع ، وسبب عدمه »
« أن خوارزمشاه محمدا كان قد استولى على البلاد ، وقتل ملوكها ، »
« وأفناهم ، وبقى هو وحده سلطان البلاد جميعها ، فلما انهزم منهم لم »
« يبق فى البلاد من يمنعه ولا من يحميها ، ليقضى الله أمرا كان مفعولا(٢) » .

وإذا انتقلنا إلى قلب الدولة الخوارزمية نفسها ، وجدنا بذور الفوضى والانحلال

---

(١) Browne: A Literary History of Persia, vol. ii. pp. 435—6.

(٢) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ١٦٦ .

قد تأصلت فيها ، فلم يكن أهالى هذه الدولة متحدين إلا فى العقيدة الدينية ، وعلى الرغم من ذلك كانت المذاهب الإسلامية منبع عداء مستمر بين المسلمين أنفسهم ؛ وفيما عدا الناحية الدينية نرى هؤلاء الأهالى يتكونون من عناصر متباينة تتألف من العرب والفرس والأتراك . وقد اعتمد الخوارزميون فى تكوين جيشهم على الأتراك دون سواهم من العناصر الأخرى ، مما أدى إلى تذمرها .

وكان الجزء الرئيسى من الجيش الخوارزمى يتكون من التركمان وقبائل كانكالى Cancalis . أما التركمان فهم سلالة الأتراك الغز الذين أخضعوا فارس تحت زعامة السلاجقة ، وأدى استيطانهم فى هذا الجزء من العالم الإسلامى واختلاطهم بالعناصر الفارسية والعربية ، إلى تغيير صفاتهم الجثمانيه وعاداتهم ولغتهم . أما قبائل « كانكالى » فيرجع أصلهم إلى السهول الواقعة شمالى إقليم خوارزم وفى شمال شرقى بحر قزوين ، وقد اندفعوا إلى أراضى الدولة الخوارزمية على أثر تصاهرهم مع سلاطين هذه الدولة . فقد تزوج السلطان علاء الدين تكش من تركان خاتون ابنه أحد زعماء هذه القبائل ، وكان من أثر ذلك أن هاجر كثير من رجال هذه القبائل من أقرباء تركان خاتون وأفراد عشيرتها إلى أراضى الدولة الخوارزمية ودخلوا فى خدمة علاء الدين محمد خوارزم شاه ، ووصلوا إلى أعلى المناصب وأرقاها . وبذلك تكونت منهم قوة عظيمة فى الدولة الخوارزمية وخاصة بعد أن منحهم السلطان بعض الأقاليم ليحكموها باسمه ، وأطلق أيديهم فيها . ومما لاشك فيه ، أن قوة الخوارزميين قد تضاءلت أمام هذه الأرستقراطية العسكريه ، وشعر الأهلون فعلا ، وكذا السلطان ، بالحاجة إلى التحفظ فى إشباع رغبات هؤلاء الجند الذين كانت محبتهم له مزعزعة الأركان ، وطاعتهم له لاتقوم على شعور ينم عن الإخلاص ، فلما شعروا بنوايا السلطان نحوهم عمدوا إلى إرهاب الأهالى المسالمين ونهب حوانيتهم فى الطرقات(١) . وتفنن هؤلاء الجند الغرباء فى تعذيب الأهالى وسلكوا فى ذلك سبلا متعددة ، فاضطرب الأمن فى البلاد واضطربت معه أحوال الدولة السياسية والاجتماعية(٢) .

---

(١) D'ohsson : Histoire Des Mongols, tom. i. pp. 196 — 8.

(٢) الديار بكرى : تاريخ الخميس فى أحوال أنفس نفيس ، ج ٢ ص ٣٦٨ .

ومما زاد في اضطراب الحالة السياسية في داخل هذه البلاد أن تركان خاتون أم السلطان علاء الدين ، كونت لها عصبية قوية من قواد عشيرتها حتى أصبح نفوذها في الدولة لا يقل عن نفوذ السلطان نفسه . من ذلك أنه كان إذا حدث حادث في جهة من جهات الدولة ، أو عرضت مشكلة من المشاكل وصدر فيها حكمان متناقضان أحدهما من السلطان والآخر من تركان خاتون ، نظر في تاريخ كل من الحكمين ونفذ أحدثهما(١) ، وهذا ينافي تماما ما يجب أن يكون في مثل هذه الأحوال من حيث احترام أوامر السلطان مهما كان تاريخ الأوامر التي تصدرها تركان خاتون . ولذلك نرى أن نفوذ هذه السلطانة وعشيرتها قد توغل في الدولة ، مما أضعف هيبة حكامها . وفضلا عن ذلك فإن السلطان علاء الدين خوارزم شاه كان لا يخالف لأمه أمراً وذلك لسببين ، أولهما ما غرسته سنة الكون في نفسه من الحرص على طاعة الوالدين ، والثاني بسبب كثرة أمراء الدولة وحكامها الذين كانوا من عشيرتها(٢) .

ولنضرب مثلا لقوة تركان خاتون وتغلغل نفوذها في الدولة ، فقد أمكنها أن ترفع أحد المقربين إليها وهو نظام الملك(٣) إلى منصب الوزارة رغماً عن السلطان الذي لم يكن يميل إليه بسبب تجرده من الصفات الخلقية التي يجب أن يتحلى بها صاحب هذا المنصب ، فضلا عن أنه كان من الرجال المرتشين ، فإنه عُرف أيضاً بالتلكؤ في البت فيما يعرض عليه من الأمور . وقد حدث أن كان علاء الدين في مدينة نيسابور وأسند منصب القضاء فيها إلى صدر الدين الجندي ، الذي كان من بيت تقلد الكثير من أفراده كثيراً من وظائف الدولة ، كما كان من أهل العلم والفضل . وبعد أن قلده علاء الدين هذا المنصب حذره من أن يرسل الهدايا إلى الوزير كما كان يفعل أكثر الحكام ، ولكن القاضي أدرك ما يترتب على عدم إرسال الهدايا إلى الوزير وخاصة بعد أن هدده هذا بسوء المصير ، وحدث بعد ذلك أن أرسل القاضي إليه فعلا كيساً مختوماً به أربعة آلاف دينار ، مخالفاً في ذلك أوامر السلطان . فلما علم علاء الدين

---

(١) النسوي : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ، ص ٤٢ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ٣٨ .

(٣) هو نظام الملك ناصر الدين محمد بن صالح .

بذلك ، أرسل إلى الوزير يطلب منه الهدية فاضطر أن يرسلها إليه مختومة كما وصلته . ولما مثل القاضى فى حضرته سأله عن نوع الهدية التى أرسلها إلى الوزير فأجاب القاضى بأنه لم يرسل شيئاً ، وأقسم برأس السلطان على ذلك ، فلما واجهه بالهدية أسقط فى يده ، واعترف بالأمر ، وحينئذ أصدر السلطان أمره بعزله وعزل الوزير [١] .

والمهم فى هذا كله ، أن أحداً لم يجرؤ على أن يفاتح الوزير المعزول بخبر عزله . ولم يستطع السلطان تنفيذ ما أمر به . وتلاحظ أن تُركان خاتون عهدت بعد ذلك إلى نظام الملك بإدارة أملاك ابنها «أزلاغ شاه» الذى كان يحكم إقليم خوارزم، وسار الوزير فى حكم هذا الإقليم سيرة تتفق مع طبيعته الشريرة ، ونهب بعض أموال هذا الإقليم . ولما علم السلطان بذلك ثارت ثائرته وأوفد أحد قواده إلى إقليم خوارزم وأمره بأن يحضر إليه رأس الوزير . وكان طبيعياً ألا يُرضى هذا الأمر أم السلطان وأمرت باستدعاء هذا القائد عقب وصوله ، وأمرته بأن يحضر إلى الديوان عندما يكون الوزير هناك ، وأن يحييه باسم السلطان ويقول له : « إن السلطان يقول لى ما لى وزير غيرك فكن على رأس عملك ، فليس لأحد فى سائر أقاليم الملك أن يخالف أمرك وينكر قدرك » . وقد اضطر القائد أن ينفذ ما أمر به ، واستمر نظام الملك يتمتع بسلطة واسعة رغم غضب السلطان عليه ، كما استمرت أوامره نافذة فى خوارزم وخراسان ومازندران [٢] .

وهكذا نرى أن نفوذ الأتراك فى الدولة الخوارزمية قد استفحل ، حتى أنهم تحكموا فى أمهات أمورها ، وزادت نسبة حكام المدن والأقاليم منهم . حتى أننا نرى أن نظام الإقطاع الذى كان من أهم مظاهر العصر السلجوقى ، والذى كان يتجلى فى نظام الأتابكة ، يستمر فى عهد الدولة الخوارزمية [٣] . ولم يكن هؤلاء الأتراك مصدر قوة للدولة بل كانوا مصدر ضعفها ، ففضلا عن استقلالهم ببعض أقاليمها فإنهم لم يندمجوا أو ينسجموا مع أهالى البلاد الأصليين ، ولما شعروا بضعف السلطان لم يحترموا قوته

---

(١) النسوى : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى ، ص ٢٨ - ٢٩ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ٣١ .

(٣) Barthold : Turkestan down to the Mongol Invasion, p. 378.

أو حكومته ، وأخذوا ينهبون البلاد . وأسوأ من هذا نراهم يتركون صفوف الجيش الخوارزمى وينضمون تحت لواء جيش چنكيزخان المغولى[١] .

٢ — ضعف النظام الحربى الخوارزمى

كانت نظم الخوارزميين الحربية وخططهم التى أعدوها للدفاع عن دولتهم قبيل الغزو المغولى ، من العوامل الرئيسية التى أدت إلى انتصار المغول . ففضلا عن أن الجيش الخوارزمى الذى اعتمد عليه علاء الدين كان يتكون كما قلنا من الجنود الأتراك الذين كانوا مصدر قلق واضطراب للدولة الخوارزمية ، فإن هؤلاء الجند لم يهتموا كثيراً بالدفاع عن هذه الدولة شأنهم فى ذلك شأن الجنود المرتزقة الذين يوكل إليهم أمر الدفاع عن شعب غريب عنهم ، وكانوا يدركون أنهم إذا انتصروا فى ميدان القتال ، فلن يعود عليهم هذا النصر بخير كثير . ثم إن الجيش الخوارزمى كان ينقصه النظام والطاعة للقواد ، والقدرة على تحمل الصعاب ، تلك الصفات التى كانت من أهم مميزات الجيش المغولى[٢] . وأهم من ذلك كله فقد فَقَد علاء الدين خوارزم شاه ثقة شعبه ، فلم يشاركوه بقلوبهم فى الاستعداد لمواجهة هذا الخطر الداهم ، ولم يسارعوا للانضمام تحت لوائه ، كما لم يساعدوه فى جمع المال اللازم للإنفاق على جنوده ، هذا فضلا عن أن القدرة على تجنيد السلطان لمن يشاء من رعيته لم تتوفر لديه .

أما من ناحية الخطة الحربية التى اتبعها علاء الدين خوارزم شاه ، فنرى أنها كانت خطة غير موفقة ، إذ بدلا من أن يجمع جيشاً واحداً يقف به فى وجه المغول ، نراه يوزع قواته على المدن المختلفة فى بلاد ما وراء النهر . فمثلا نراه يضع فى مدينة بخارى عشرين ألف رجل ، وفى سمرقند خمسين ألفاً [٣] ، كما نراه يضع فى مدينة أترار التى تعتبر مفتاح هذا الإقليم عشرين ألفاً [٤] . ونراه أيضا يرسل دعاته إلى أقاليم الدولة الخوارزمية المختلفة لجباية الضرائب منها ، معلناً أنه سيضع فى كل إقليم جيشاً يعادل

---

(١) Vambery : History of Bokhara, p. 140.

(٢) D'ohsson : Histoire Des Mongols, tom. i. pp. 212 — 13.

(٣) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ١٦٨ .

(٤) Cahun : Introduction à l'Histoire de l'Asie, Turcs et Mongols, p. 281.

ما يجمع من هذا الإقليم من أموال . وهكذا تفرق الجيش الخوارزمى بين المدن الخوارزمية المختلفة مما سهل على المغول القضاء على المدن واحدة تلو أخرى . ولو أن علاء الدين جمع جيوشه وقابل بها المغول دفعة واحدة ، لربما سهل عليه القضاء عليهم . وبسبب تجمع الجيوش الخوارزمية فى داخل المدن ، نرى علاء الدين يعمل جاهداً على تحصين تلك المدن وتقوية حوائطها ، حتى يكون الجنود وهم فى داخل الأسوار فى مأمن من غدر أعدائهم . ومن الأمثلة على ذلك ما فعله فى مدينة سمرقند ، إذ أنه رغم اتساع هذه المدينة نراه يشرع فى بناء سور حولها ليكون وسيلة قوية من وسائل الدفاع . ولكى يحصل على المال اللازم لهذا المشروع ، نراه يوزع عماله فى الأقاليم لجمع الضرائب باسم عمارة سور سمرقند ، واستطاع بعد ذلك أن يجمع المال اللازم لهذا المشروع فى وقت قصير ، ولكن الغزو المغولى المفاجىء منعه من إنجاز مشروعه[1] .

ويذهب المؤرخون مذاهب شتى فى تعليل السبب الذى دفع علاء الدين إلى توزيع قواته على هذا النحو فى داخل المدن الخوارزمية ، فيرى جيبون Gibbon أنه قد ظن أن المغول سيملّون حصار هذه المدن العديدة ومن ثم يعودون إلى بلادهم دون أن ينالوا من هذه المدن منالا[2] . ويرى سيكس Sykes أن علاء الدين خوارزم شاه ظن فى ذلك الوقت أن چنكيزخان سيكتفى من البلاد الإسلامية بنهب ما تصل إليه أيديه من الغنائم والأسلاب ، ثم يعود من حيث أتى[3] ، وهذا يخالف طبعاً ما عزم عليه چنكيزخان من إخضاع أقاليم آسيا الغربية . ويرى ڤلاديميرستوف Vladimirstov أن السلطان الخوارزمى كان لا يثق بقواده ، ولذلك كان يخشى أن يتجمع عدد كبير من رجاله تحت قيادة رجل واحد ، فتنقلب عليه هذه الجيوش تحقيقاً لرغبة قائدها الذى قد تحدثه نفسه بعصيان السلطان . وقد ذكر ڤلاديميرستوف فوق ما تقدم أن القواد الخوارزميين لم يكونوا من الكفاية والمقدرة بحيث يستطيع قائد واحد منهم أن يقود جيشاً كبيراً ، أضف إلى ذلك أن علاء الدين وجد أنه من الصعب عليه أن يلتقى بأعدائه فى العراء ولذلك فضل التحصن فى المدن[4] .

---

(١) النسوى : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى ، ص ٣٥ — ٣٦ .

(٢) Gibbon : The Decline & Fall of the Roman Empire, vol. vi. p. 279.

(٣) Sykes : A History of Persia, p. 56.

(٤) Vladimirstov : The Life of Chingis - Khan, pp. 121 — 2.

ونحن نميل إلى الأخذ بالرأى الأخير الذى يتفق مع ما ذكرناه من أن الجيوش والقواد الخوارزميين كانوا أجانب عن الدولة الخوارزمية ، كما أنهم كانوا يعضدون سياسة تُركان‌خاتون التى تتعارض مع سياسة السلطان نفسه . فلا عجب إذا رأينا علاء الدين لا يوليهم ثقته . وليس أدل على صحة ما نقول ، من اختلاف وجهة نظر القواد وكبار رجال الدولة حيال الخطة التى يجب أن تتبع لمواجهة المغول ، إذ كان كلٌّ يفضل الطريق الذى يتفق مع ميوله ومصلحته الشخصية بصرف النظر عن مصلحة الدولة وسلامتها . وقد رأينا أن أحد كبار رجال الدولة قد زيّن لعلاء الدين طريق الالتجاء إلى العراق العجمى ، بعد أن كان قد عقد العزم على أن يدافع عن دولته فى إقليم غزنة ، لا لسبب إلا لأن مصالحه الشخصية كانت تتفق مع هذا الرأى (١) .

مما تقدم نرى أن قوة الخوارزميين الحربية قد وزعت وتفرقت ، ولذلك سهل على المغول إخضاع المدينة تلو الأخرى وإبادة الحامية بعد الحامية ، كما سهل عليهم ، بعد انهيار بلاد ما وراء النهر التى ركز الخوارزميون فيها وسائل دفاعهم ، أن يزيلوا الدولة الخوارزمية ويخربوا ما عمّره المسلمون من مدنها ، ويجعلوا منها أطلالا لا تجد من يبكيها (٢) .

وقد عاد چنكيزخان إلى بلاده على النحو الذى رأيناه ، وما كاد يعود حتى عاد جلال الدين منكبرتى من بلاد الهند واستعاد الخربات التى تركها له المغول ، وكوّن فى الجزء الغربى من اقاليم الدولة الخوارزمية حكومة مهيضة الجانب . ولم يكن فى وسع هذا السلطان ، الذى ركز جهوده للانتقام من حكام البلاد المحيطة بدولته وعلى رأسهم الخليفة العباسى بسبب عداوتهم لأبيه ، والذى كان يعمل فوق ما تقدم على توسيع رقعة بلاده على حساب ما يجاورها من حكام البلاد الإسلامية وغير الإسلامية ، لم يكن فى وسع هذا السلطان أن يعمل على توثيق روابط الود والإخاء بينه وبين هؤلاء الجيران ، لذلك تمضى فترة من الوقت استطاع فيها ، على قصرها ، أن ينهك القوى الإسلامية ويضعفها ، كما أثار نفور المسلمين منه وسخطهم عليه ، فانفضوا من

(١) Curtin : The Mongols' History, p. 113.
(٢) Browne : A Literary History of Persia, vol. ii. p 437.

حوله ، وفضلا عن هذا فإنه لم يحسب حساباً للمغول الذين انصرفوا عنه وعن العالم الإسلامى إلى حين ، بسبب تفرغهم لمشاكلهم الداخلية فى ذلك الوقت . وكان الواجب على جلال الدين منكبرتى وقد عاد إلى بلاده وتربع على عرشها أن يستفيد من أخطاء أبيه وهفواته السياسية ، فيعمل على اكتساب رضاء جيرانه فى الخارج ، ويكوّن حلفا إسلاميا يقف به فى وجه المغول ، وكان يجب عليـــه أيضا أن يعمل على كسب محبة رعيته حتى يضمن ولاء الأهالى إذا ما ظهر الخطر المغولى من جديد . ولـكن على العكس من ذلك نراه لا يترك قوة من القوى الموجودة فى ذلك الوقت إلا ناصبها العداء ، خارج دولته وداخلها . ففي الخارج اعتدي على أملاك الخليفـة ، وأملاك الأمراء المسلمين فى بلاد ما بين النهرين ، كما غزا أذربيجان وجورجيا وأذل أهليهما لسلطانه ، وناصب طائفة الإسماعيلية العـــداء ، تلك الطائفة الخطرة التى ألبت عليه أعداءه وشجعت المغول على إعادة غزو أراضى الدولة الخوارزمية .

وقد وصف ابن الأثير سياسة جلال الدين منكبرتى الخارجية منذ ظهوره على المسرح التاريخى من جديد ، وصفا يعبر تعبيرا صحيحا عما جلبته عليه هذه السياسة من أضرار فقال :

« وكان جلال الدين سيىء السيرة قبيح التدبير لملكه لم يترك أحداً »
« من الملوك المجاورين له إلا عاداه ونازعه الملك وأساء مجاورته، فمن »
« ذلك أنه أول ما ظهر فى أصفهان وجمع العساكر قصد خوزستان ، »
« فحصر مدينة ششتر (كذا فى الأصل) وهي للخليفة فحصرها ، »
« وسار إلى دقوقا فنهبها وقتل فيها فأكثر وهى للخليفة أيضا، ثم ملك »
« أذربيجان وهى لأوزبك فملكها وقصد الكرج (جورجيا) وهزمهم »
« وعاداهم ثم عادى الملك الأشرف صاحب خلاط ، ثم عادى علاء الدين »
« صاحب بلاد الروم ، وعادى الإسماعيلية ونهب بلادهم وقتل فيهم »
« فأكثر وقرر عليهم وظيفة من المال كل سنة ، وكذلك غيرهم، فكل »
« من الملوك تخلى عنه ولم يأخذ بيده[١] . »

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ٢٣٠ .

وهكذا كان من أثر عداوة جلال الدين لهذه القوى المحيطة بدولته أنها رفضت أن تمد له يد المساعدة ، عندما داهمه المغول بغزوهم المفاجىء[١] .

أما فى الداخل فنرى جلال الدين يحاول أن يكون الحاكم المستبد فى دولته ، فانفض عنه أخوه غياث الدين تتبعه قوة كبيرة من رجال جيشه فى الوقت الذى كان يتحتم عليه أن يستفيد بمجهود كل رجل فى دولته . كذلك نرى كبار رجال الدولة ينفضون من حوله ويحيطونه بشبكة من الدسائس والمؤامرات ، ويشعلون نيران الثورة عليه فى البلاد الخاضعة ، كما حدث فى أذربيجان[٢] .

ولم يفكر جلال الدين فى تكوين جيش يستطيع أن يواجه به العدو المغولى إلا عند ما دقت الساعة وظهر المغول فجأة فى الميدان ، فأخذوه على غرة قبل أن يتمكن من إصلاح شئونه الداخلية أو الخارجية ، فكانت النتيجة أن اكتسح المغول الدولة الخوارزمية من جديد سنة ٦٢٨ هـ (١٢٣١م) ، وزالت هذه الدولة بزوال آخر شخصية خوارزمية من سلالة نوشتكين .

٣ — قوة النظم الاجتماعية والحربية عند المغول

رأينا أن المغول كانوا بدائيين فى نظمهم الاجتماعية وطرق معيشتهم ، كما رأينا كيف أنهم عاشوا عيشة بدوية وسط تلك القبائل العديدة التى كانت تحيط بهم . وعلى الرغم من أن البساطة فى العيش كانت من أهم مميزاتهم ، إلا أنهم اصطلحوا على بعض النظم والتقاليد التى ساروا عليها فيما بينهم وأولوها احترامهم ، فكانت سر تقدمهم . وقد فرضت عليهم بيئتهم وحالة التنقل التى استلزمتها ظروفهم ، أن يدربوا أنفسهم على حب المخاطرة ومواجهة الشدائد بثغر باسم ، وأن يغرسوا هذه الصفات فى نفوس أطفالهم منذ نعومة أظفارهم ، فكانوا يدربونهم وهم فى سن الثالثة على استعمال القوس

---

(١) De Guignes : Histoire Générale des Huns, des Turcs, des Mongols et des Autres Tartares Occidentaux, tom. iii. p. 76.

(٢) Howorth : History of the Mongols, part i. p. 130.

والنشاب (١) ، ويدربونهم على صيد الأرانب والفيران . وكما يركب الكبار ظهور الجياد ، كان الأطفال يركبون الخراف ويتعلقون بصوفها (٢) . وهكذا ينشأ الأطفال صحيحي الأجسام ، سليمي العقول ، يحترمون أنفسهم ، فيخدمون قبائلهم بقوة وحزم ، إذا ما ترعرعوا وكبروا .

وكما هى الحال فى الحياة القبلية ، نجد أن كثرة العدد فى القبيلة أو العشيرة مما يقوى من شأنها ويشد من أزرها ، فنرى المغول ، وهم يعيشون وسط مجموعة من القبائل القوية ، يهدفون إلى الإكثار من عددهم بالتشجيع على الزواج . لذلك نراهم لا يحددون عدد الزوجات ، فكان للفرد أن يتزوج ما شاءت له رغبته أن يتزوج . ومن أقرب الأمثلة على ذلك جنكيزخان نفسه فقد قيل إنه تزوج من أكثر من خمسمائة زوجة فى وقت واحد من بنات الأمراء أو الخانات ، على أنه مع كثرة عدد زوجاته كان يفضل خمسا منهن (٣) . ولم يكن هناك ما يحول بين المغول وبين الزواج من أزواج آبائهم ما عدا الأم (٤) . ولم تكن هناك فوارق اجتماعية تحول بين زواج أى رجل من الفتاة التى يرغبها مهما كانت منزلتها فى المجتمع المغولى (٥) .

وهكذا كان للفرد فى المجتمع المغولى قيمته ، فكان موضع احترام المجتمع فى حياته نظراً لتفانيه فى المحافظة على هذا المجتمع الذى يعيش فيه . وكما كان الفرد مكرماً فى حياته ، فإنه كان موضع التكريم أيضا بعد مماته ، فإذا توفى رجل مغولى كفنوه بأحسن الملابس ووضعوا معه الكنوز الذهبية والأحجار الكريمة . ويظهر أن المغول كانوا يعتقدون كما كان يعتقد قدماء المصريين أن الميت سيبعث بعد مماته ، ولذلك كانوا يضعون فى قبره الطعام والشراب كما كانوا يضعون معه خيولا حية إذا كان الميت من الأمراء (٦) .

---

(١) Boulger : The Mongols & the Court of Kublai Khan, p. 2850.
(The Universal History of the world, vol. 5.)

(٢) Lamb : Genghis-Khan, The Emperor of All Men, p. 19.

(٣) Abulgasi : Histoire Généalogique des Tatars, pp. 233 — 5.

(٤) Fitzgerald : China, A Short Cultural History, p. 427.

(٥) ابن شاكر الكتبى : فوات الوفيات ، ص ١٣٩ .

(٦) Boulger : The Mongols & The Court of Kublai Khan, pp. 2850—51.
(The Universal History of the World, vol. 5.)

ومما هو جدير بالملاحظة أن المغول بوجه عام وجنكيزخان بوجه خاص لم يفرقوا بين الأديان العديدة التي أحاطت بهم، فعلى الرغم من أن أقاليم شرقي آسيا كانت غاصة بالجاليات الإسلامية وجماعات المبشرين من المسيحيين وأصحاب الديانة البوذية، فإن الاعتبارات القومية عند المغول كانت فوق الاعتبارات الدينية. ولذلك عامل جنكيزخان جميع السكان على اختلاف أديانهم معاملة واحدة، وترك لهم حريتهم الدينية، رغم أنه كان يدين بالديانة الشامانية (١). ويرى ولز Wells أنه في عصر جنكيزخان كان الاضطهاد الديني على أشده في طول آسيا وعرضها (٢). على أننا نرى أن ذلك الاضطهاد والتعذيب الذي حل بالأهالي في البلاد المفتوحة لم يكن اضطهاداً دينيا، ولكنه كان اضطهاداً سياسيا حربيا شمل جميع الأهالي على اختلاف أجناسهم وأديانهم

وعلى الرغم من أن جنكيزخان لم يكن يعرف القراءة والكتابة ولا يعرف من اللغات سوى اللغة المغولية (٣)، فقد شرع لأمته عقب انتخابه خاقانا سنة ٦٠٣ هـ (١٢٠٦ م) قانونا عاما عرف «بالياسا»، نظم فيه علاقة الحاكم بالمحكوم وعلاقة المحكومين بعضهم ببعض، كما حدد فيه علاقة الفرد بالمجتمع. وتتلخص أحكام الياسا في أمور ثلاثة: الخضوع لجنكيزخان، والاتحاد في قبيلة واحدة، والعقاب الصارم لكل مخطىء. وبذلك القانون استطاع جنكيزخان أن يجمع كافة القبائل تحت لوائه؛ وكان كل شخص، عسكري أو مدني، كبير أو صغير لا يعرف إلا كلمة واحدة هي كلمة الطاعة (٤). وقد أورد المقريزي تعاليم الياسا كما وضعها جنكيزخان نقلا عن نسخة وجدت في خزانة المدرسة المستنصرية ببغداد (٥).

Vladimirstov : The Life of Chingis - Khan, p. 109. (١)

Wells, H. O. : Outline of History, vol. ii. p. 473. (٢)

Vladimirstov : The Life of Chingis - Khan, p. 72. (٣)

Lamb : Genghis - Khan, The Emperor of All Men, pp. 77—78. (٤)

(٥) يقول المقريزي في كتابه الخطط عن قانون الياسا ما يأتي.

« إن جنكيزخان القائم بدولة التتر في بلاد المشرق، قرر قواعد وعقوبات أثبتها في كتاب سماه «ياسة» ومن الناس من يسميه «يسق» والأصل في اسمه «ياسة». ولما تم وضعه، كتب ذلك نقشا في صفائح الفولاذ وجعله شريعة لقومه فالتزموه بعده حتى قطع الله دابرهم ... وأخبرني العبد الصالح الداعي إلى الله تعالى أبو هاشم أحمد بن البرهان أنه رأى نسخة من الياسة بخزانة المدرسة المستنصرية ببغداد، ومن جملة =

وكانت ثقة جنكيزخان بالياساق عظيمة حتى أنه اعتقد أن أمور دولته لن تستقيم إلا بتطبيق أحكامه . وقد أثر عنه أنه قال : « إذا لم يتبع الأمراء الذين سيأتون بعدنا قوانين الياساق فإن إمبراطوريتنا ستبلى وتتحطم (١) » .

وكان من أثر تمسك جنكيزخان بتنفيذ ماشرعه من قوانين ، أن تماسك أعضاء المجتمع المغولى وارتبطوا برباط واحد لتحقيق هدف واحد هو المحافظة على كيانهم السياسى فى داخل مجتمعهم الخاص ، ثم توجيه القوى الكامنة فى قلوبهم إلى السيطرة على جيرانهم . ولم يكن هذا وحده هو السبب فى تفوق المغول على القوى المحيطة بهم ، ولكن يرجع السر فى هذا التفوق أيضا إلى قوة نظمهم الحربية سواء أكان ذلك من ناحية

= ماشرعه جنكيزخان فى الياسة أن من زنى قتل ، ولم يفرق بين المحصن وغير المحصن ، ومن لاط قتل ، من بال فى الماء أو على الرماد قتل ، ومن وجد عبداً هاربا أو أسيرا قد هرب ولم يرده على من كان فى يده قتل ، ومن أعطى بضاعة فخسر فيها فإنه يقتل بعد الثالثة ، ومن أطعم أسير قوم أو كساه بغير إذنهم قتل ، وأن الحيوان تكتف قوائمه ويشق بطنه ويمرس قلبه إلى أن يموت ثم يؤكل لحمه ، وأن من ذبح حيوانا كذبيحة المسلمين ذبح ، ومن وقع حمله أو قوسه أو شىء من متاعه وهو يكر أو يفر فى حالة القتال وكان وراءه أحـد فإنه ينزل ويناول صاحبه ماسقط منه فإن لم ينزل ولم يناوله قتل ، وشرط أن لايكون على أحـد من ولد على بن أبى طالب رضى الله عنه مؤنة ولا كلفة ، وألا يكون على أحـد من الفقراء ولا القراء ولا الفقهاء ولا الأطباء ولا من عـداهم من أرباب العلوم وأصحاب العبادة والزهد والمؤذنين ومغسلى الأموات كلفة ولامؤنة ، وشرط تعظيم جميع الملل من غير تعصب لملة على أخرى ، وجعـل ذلك كله قربة إلى الله تعالى ، وألزم قومه أن لا يأكل أحد من أحد حتى يأكل المناول منه أولا ولو أنه أمير ومن يناوله أسير ، ولزم أن لا يتخصص أحد بأكل شىء وغيره يراه بل يشركه معه فى أكله ، وألزمهم ألا يتميز أحد منهم بالشبع على أصحابه ... وإن مر بقوم وهم يأكلون فله أن ينزل ويأكل معهم من غير إذنهم وليس لأحد منعه ، وألزمهم أن لايدخل أحد يده فى الماء ولكنه يتناول الماء بشىء يغترفه به ، ومنعهم من غسل ثيابهم بل يلبسونها حتى تبلى ، ومنع أن يقال لشىء إنه نجس ، وقال جميع الأشيـاء طاهرة ولايفرق بين طاهر ونجس ، وألزمهم ألا يتعصبوا لشىء من المذاهب ، ومنعهم من تفخيم الألفاظ ووضع الألقاب ، وإنما يخاطب السلطان ومن دونه ويدعى باسمه فقط . وألزم القائم بعده بعرض العساكر وأسلحتها إذا أراد الخروج إلى القتال ، وأنه يعرض كل ماسافر به عسكره وينظر حتى الإبرة والخيط فمن وجده قد قصر فى شىء مما يحتاج إليه عند عرضه إياه عاقبه ، وألزم نساء العساكر بالقيام بما على الرجال من السخر والكلف فى مدة غيبتهم فى القتال ... وألزمهم عند رأس كل سنة بعرض سائر بناتهم الأبكار على السلطان ليختار منهن لنفسه وأولاده . ورتب لعساكره أمراء ألوف وأمراء مئين وأمراء عشراوات . وشرع أن أكبر الأمراء إذا أذنب وبعث إليه الملك أخس من عنده حتى يعاقبه فإنه يلقى نفسه إلى الأرض بين يدى الرسول وهو ذليل خاضع حتى يمضى فيه ما أمر به الملك من العقوبة ولو كانت بذهاب نفسه . وألزم السلطان بإقامة البريد حتى يعرف أخبار مملكته بسرعة » .

المقريزى : الخطط ، ج ٢ ص ٢٢٠ — ٢٢١ .

(١) Grenard : Gengis - Khan, p. 66.

التنظيم الداخلى فى الجيش ، أم من ناحية خططهم الحربية قبل أن يخوضوا غمار الحرب بل وفى أثناء المواقع الحربية نفسها.

وكان كل مغولى مجنداً فى خدمة دولته، كما كان على أتم استعداد لحمل السلاح والانضواء تحت الراية المغولية إذا هدد بلاده خطر خارجى، أو إذا هاجمت جموع المغول إقليما من الأقاليم. وكان الجندى المغولى فى وقت السلم يدرب نفسه على ما سيقوم به فى وقت الحرب فيعد آلات القتال ويتدرب على استعمالها فى صيد الحيوانات والطيور[١]، تاركا شئونه الخاصة وشئون أسرته إلى حنكة نسائه ومهارتهن.

ويرى كثيرون من مؤرخى العصور الوسطى أن السبب فى انتصارات المغول يرجع إلى كثرة عددهم وتفوقهم على جميع الشعوب التى ساربوها فى العدد، ولكن السبب الحقيقى الذى قادهم إلى النصر يرجع إلى الكيف لا إلى الكم، إذ لم يوجد من الجيوش فى العصور الوسطى ما يضارعهم أو يضاهيهم فى خططهم الحربية. فالسلطة العليا كانت فى يد الخاقان، فهو المرجع الأخير فى كل صغيرة وكبيرة، وهو الذى يشرف على تنظيم الجيش وإعداده ورسم الخطط والمواقع الحربية واختيار الأوقات المناسبة لها. وكان الجيش المغولى منظماً أحسن تنظيم إذ قسمه جنكيزخان إلى فرق كبيرة تتكون كل منها من عشرة آلاف رجل، وهذه بدورها تنقسم إلى فرق تتألف كل منها من ألف رجل. ويتدرج هذا التقسيم فى الفرق، فنرى فرقا من مائة وفرقا من عشرة. ونرى تبعاً لهذا التقسيم قائداً لكل فرقة من الفرق الكبيرة أو الصغيرة يتصرف فيها حسب ما يراه، ولكن كل هؤلاء القواد كانوا يرجعون فى النهاية إلى جنكيزخان.[٢] على أننا نلاحظ أن هذا التقسيم للجيش المغولى، لم يكن من ابتداع جنكيزخان، بل كان هذا النظام معمولا به فى الجيش المغولى قبل تتويجه خاقانا، ولكن يمكن القول إن جنكيزخان قد حافظ على هذا النظام وأكسبه قوة، كما سن القوانين الصارمة لكل من يخالف واجبه من القواد أو الجنود[٣] ولكى يطمئن جنكيزخان على جيشه نراه

(١) Howorth : History of the Mongols, part i. p. 110.

(٢) Abulgasi : Histoire Généalogique des Tatars, pp. 348 — 9.

(٣) De Guignes : Histoire Génerale des Huns, des Turcs, des Mongols et des Autres Tartares Occidentaux, tom. iii. pp. 72 — 73.

يضع على رأس كل جيش قائداً يعرفه شخصيا ويثق به وبقدرته ، ولذلك كان معظم قواد الجيوش من العائلات الأرستقراطية . ثم إن چنكيزخان سن سنة حسنة فى ترقية الضباط لجعل أساس الترقية من رتبة إلى رتبة أعلى منها الكفاءة وحدها دون أى اعتبار آخر . وكما أن چنكيزخان كان يحافظ على كيان الجندى المغولى ويحترم شخصيته ، كان كذلك يحاسبه على تقصيره فى أداء واجبه ، أو عدم إطاعة أوامر رؤسائه ، لا بقتل الجندى أو الضابط المذنب فقط ، وإنما بقتل زوجه وأولاده أيضا[١] .

كذلك نرى المغول يقسمون الفرق التى تتألف منها جيوشهم إلى وسط وجناحين، أيمن وأيسر ، فتتحرك هذه الفصائل وتحيط بالعدو كلما دعت الحالة إلى ذلك[٢] . وكانت قوات الوسط تتكون من فرق أمامية وأخرى خلفية . ولما كانت الفرق الأمامية أكثر تعرضاً لفتك الأعداء ، كان يلبس جنودها دروعا كاملة ويحملون السيوف والحراب ويغطون خيولهم بدروع تناسبها . أما الفرق الخلفية فكان جنودها لا يلبسون دروعا ولا يحملون من أسلحة الحرب سوى القوس والنشاب ، وكانت هذه الفرق بمثابة الفرق الخفيفة التى يسهل تنقلها من مكان إلى آخر ، وكانت تستخدم فى مناورة العدو كلما تقدم ، فتشتت شمله . وإذا تقابل الجيشان المتعاديان اندست هذه الفرق الخفيفة الخلفية بين الفرق الأمامية الثقيلة وصوبت نحو العدو وابلا من سهامها ، حتى إذا ما اختل نظام العدو ، أخذت الفرق الأمامية تنقض عليه وتشتت شمله دون مشقة ، بينما تكون الفرق الخفيفة قد عادت إلى مكانها بالخلف[٣] .

وإن الآلات الحربية التى استعملها المغول لمن الأمور التى تستلفت النظر ، فقد كان المغول يستعملون خلاف القوس والنشاب والسيوف ، آلات تسمى قاذفات السهام missile throwing machines وهى بلا شك تستعمل فى قذف السهام بكثرة على الأعداء ولمسافات بعيدة . وكان المغول يستعملون آلات مشابهة تسمى قاذفات اللهب تساعدهم على إشعال الحرائق فى المدن المحاصرة[٤]، هذا عدا المجانيق وآلات

(١) Browne : A Literary History of Persia, vol. ii. p. 433.

(٢) Vladimirstov : The Life of Chingis - Khan, p. 70.

(٣) Hart : Mongol Compains, pp. 706 — 7. (Encyclopædia Britannica, vol. 15.).

(٤) Ibid, p. 705.

الحصار الأخرى . وقد استفاد المغول كثيرا من مجاورتهم للبلاد الصينية المتحضرة قبل غزوهم إياها وبعده ، فأخذوا عن الصينيين بعض فنونهم الحربية واستعملوها في حروبهم مع المسلمين ، من ذلك طريقة استعمال البارود الذى عرفه الصينيون منذ القرن الأول الهجرى (السابع الميلادى) . وعلى الرغم مما نسمعه عن استعمال البارود فى أثناء الغزو المغولى فى القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) ، فإن البنادق المعروفة لدينا بشكلها الحالى لم تستعمل بانتظام إلا بعد ذلك بقرنين من الزمان.[١] والثابت أن المغول كانوا يستعملون البارود فى شكل قنابل تلق على المدن المحاصرة والجيوش المعادية . ثم إن الصينيين كانوا يعرفون البوصلة التى أخذوا استعمالها عن العرب ، ولابد أن يكون المغول قد نقلوها بدورهم عنهم واستعملوها فى حروبهم[٢]. كذلك استعان المغول فى حروبهم مع المسلمين بالمهندسين الصينيين الذين أسروهم فى البلاد الصينية وأفادوا من خبرتهم وتجاربهم[٣] .

أما عن المحارب المغولى ، فكان إذا سار للقتال حمل معه كل ما يحتاجه فى أثناء الحرب ، فتراه مثلا يحمل آلات لسن الرماح كما يحمل الإبر والخيوط لاستعمالها عند الحاجة ، ولا يأخذ معه من المؤن إلا قرباً من اللبن ، وآنيـة من الفخار ليطهى فيها طعامه ، وخيمة صغيرة[٤] . وكان يحمل معه آلة حديدية لحفر الأرض وكيساً من من الجلد يحمل فيه ملابسه ويستعمله فى عبور الأنهار ، وهو يشبه حلقة النجاة عندنا فى الوقت الحاضر[٥]. وكان كل جندى من المغول مسئولا عما فى يده ، ولقائده أن يحاسبه عن تقصيره إن هو شعر بنقص فى هذه الأدوات الضرورية[٦]. وقد يحدث فى بعض الأحيان أن يسير المغول مدة عشرة أيام دون أن يتناولوا طعاماً ما ، وفى هذه الحالة يعيشون على دماء خيولهم ، فكان الجندى منهم يقطع شريانا من شرايين

---

(١) Giles : The C vilization of China, p. 118.

(٢) Ibid, p. 118.

(٣) Gibbon : The Decline & Fall of the Roman Empire, vol. vi. p. 279.

(٤) Howorth : History of the Mongols, part i. p. 109.

(٥) Hart : Mongol Compains, p. 705.
(Encyclopædia Britannica, vol. 15.)

(٦) Malcolm ; The History of Persia, vol. i. p. 256.

لوحة ١٣



منظر لمعركة لجيوش المغول فى مخطوط من كتاب جامع التواريخ لرشيد الدين يرجع إلى نهاية القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) ومحفوظ فى المكتبة الأهلية بباريس .

(عن موسوعة الفن الفارسى .Survey of Persian Art)

حصانه ويمتص من دمائه ما يشبع به رمقه ثم يسد الشريان ثانية[١] .

وكان چنكيزخان فوق ذلك شديد العناية بأمور التموين في جيشه ، فكان لا يني عن أن يمد جنوده وقواده بما يحتاجونه من مأكل وملبس ومشرب ، وهذا يشبه إلى حد كبير ما يتبع في جيوشنا المعاصرة[٢] .

أما عن خطة المغول الحربية إذا ما فكروا في غزو بلد من البلاد، فقد كان چنكيزخان يرتبها قبل الشروع في الغزو بوقت كاف ، فيجمع « الكورلتاى » Kuriltai أو المجلس العام General Council في مقر الخاقان ، ويدعو إليه جميع كبار الضباط عدا من يكون مكلفا منهم بمهام عامة . ويطرح هذه المسألة على بساط البحث ثم توضع خطة الغزو . وكان چنكيزخان في العادة يعرض الخطط على كبار قواده ويترك لهم الحرية التامة في مناقشتها ، فيستمر بهم النقاش حتى يتفقوا على خطة معينة[٣] . وإذا ما استقر الرأي على الغزو، أطلق المغول جواسيسهم في بلاد العدو فيجمعون الأخبار من هنا وهناك ، ويستقصون حالة الجيش ويختبرون حصون المدن ثم يعودون بهذه المعلومات إلى بلادهم ، ويزودون قادة الجيش بها .

وكان من عادة چنكيزخان إذا ما قصد مكاناً ما أن يسير بين سكانه بوجه عام وزعمائه وقادة الرأي فيه بوجه خاص وفق سياسة « فرق تسد » ، وطبيعي جداً أن يجد بين السكان عناصر ساخطة على السلطة الحاكمة ، فيضم هذه العناصر إليه بعد أن يعدها بالوعود الخلابة ويمنيها الأماني الطيبة ، وبذلك يضمن وجود حلفاء له في داخل الدولة أو المدينة المعادية[٤] . وقد رأينا كيف أنه استعمل هذه الطريقة في إخضاع أكثر المدن الإسلامية التي غزاها ، كما رأينا كيف أنه حاول أن يستغل ذلك العداء الذي قام بين علاء الدين خوارزم شاه وبين أمه تركان خاتون .

وإذا استقر رأي المغول على موعد الغزو ، هاجموا المكان المقصود من عدة جهات في وقت واحد ، فلا يجد العدو مفراً من التسليم . ولعلنا لاحظنا ذلك عندما هاجم

---

(١) Howorth : History of the Mongols, part. i. p. 109.

(٢) Vladimirstov : The Life of Chingis - Khan, p. 72.

(٣) Grenard : Gengis - Khan, pp. 75 — 76.

(٤) Howorth : History of the Mongols, part i p. 109.

جنكيزخان بلاد ماوراء النهر، إذ انقض عليها بجيوش أربعة وكلف كل قائد من قوادها بمهاجمة جهة معينة ، فسقط هذا الإقليم بسرعة ، وانهارت بانهياره خطوط دفاع الخوارزميين. وكان المغول إذا قصدوا مدينة ما، حاصروها من جميع جهاتها ووضعوا منافذها تحت حراسة قوية ، وخربوا فى نفس الوقت الأماكن المحيطة بها وجمعوا المؤن منها ، فإذا لم تستسلم المدينة بعد طول الحصار هاجموها واستولوا عليها عنوة . وإذا تقابل المغول بجيش من جيوش أعدائهم فى أرض سهلة ، هاجموه ليلا ونهارا حتى تنهك قواه ، فإما أن يستسلم لهم وإما أن يركن رجاله إلى الفرار (١) .

ونلاحظ أن المغول كانوا إذا افتقروا إلى السفن لعبور مايصادفهم من الأنهار ، استعملوا طريقة طريفة ، فمثلا نراهم عندما أرادوا عبور نهر جيحون ولم يجدوا سفنا يعبرون فيها صنعوا أحواضاً من الخشب كسوا جدرانها بجلود البقر حتى لا يدخلها الماء ووضعوا فيها أسلحتهم وأمتعتهم ، ثم ألقوا خيولهم فى الماء وأمسكوا بأذنابها بعد أن ربطوا الأحواض الخشبية إلى أجسامهم فكان الفرس يجذب الرجل والرجل يجذب الحوض المملوء من السلاح وغيره فعبروا كلهم دفعة واحدة (٢) .

ونلاحظ أيضا أن المغول لم يعدموا وسيلة لخداع عدوهم ، وقد رأينا أنهم كانوا إذا ملوا حصار مدينة تظاهروا برفع الحصار عنها، حتى إذا ما اطمأن أعداؤهم فى داخل المدينة إلى رحيلهم وألقوا سلاحهم، عاد المغول فجأة إلى المدينة واستولوا عليها قبل أن يستعد العدو للدفاع (٣) . كما كانوا يختارون الأشداء من بين سكان المدن الخاضعة وأصحاب المهن والحرف فيها فينتفعون بهم فى أعمالهم الحربية المقبلة . وكان من عادة المغول أن يضعوا أسراهم فى مقدمة الصفوف ويبقون هم فى المؤخرة ، فيقوم الأسرى بالأعمال الحربية العنيفة ويتعرضون للأخطار دون أن يجدوا سبيلا للفرار ، إذ كانت أعين المغول ساهرة عليهم ، فإذا ما أنهك الأسرى قوى أعدائهم، يأتى المغول بعد ذلك للإجهاز عليهم . وفى ذلك يقول ابن الأثير :

---

(١) Lamb : Genghis - Khan, The Emperor of All Men, pp. 221 — 3.

(٢) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ١٧٠ .

(٣) Howorth : History of the Mongols, part i. p. 109.

« وكانت عاداتهم إذا قاتلوا مدينة قدموا من معهم من أسارى المسلمين بين »
« أيديهم يزحفون ويقاتلون، فإن عادوا اقتلوا، فكانوا يقاتلون كرهاً وهم »
« المساكين كما قيل كالأشقر إن تقدم ينحر وإن تأخر يعقر. وكانوا هم يقاتلون »
« وراء المسلمين، فيكون القتل فى المسلمين الأسارى، وهم بنجوة منه »[1].

ثم إن المغول كانوا يسخرون جميع القادرين من الأسرى فى حفر الخنادق وتنصيب أدوات الحصار وغير ذلك من الأعمال الحربية الضرورية العنيفة الشاقة[2]. ومن الحيل الطريفة التى لجأ إليها المغول إذا قصدوا مدينة من المدن القوية، أن ينظموا الأسرى فى فرق متراصة، ويضعوا مع كل عشرة منهم علما مغوليا فيظن الأهالى المحاصَرون أنهم أمام جيش كثير العدد، فتخور قواهم وتنحط روحهم المعنوية ولا يجدون بعد ذلك مفراً من التسليم. وقد استعمل المغول هذه الحيلة عندما أرادوا الاستيلاء على مدينة سمرقند حاضرة بلاد ما وراء النهر[3].

وكان المغول يعمدون إلى إتخاذ وسائل الإرهاب لإثارة الرعب فى قلوب أعدائهم، فكانوا إذا توجهوا إلى إقليم من الأقاليم أو مدينة من المدن أرسلوا إنذاراً لحاكم الإقليم أو المدينة وأعلنوا فى كلمات قلائل ما سيحل به وبالإقليم الذى يحكمه إن هو فكر فى المقاومة، وكانت عبارتهم المشهورة فى هذه المناسبات هى « إذا لم تبادر إلى الخضوع والتسليم فلا يعلم إلا الله ما سيحدث بعد ذلك ». وكان التسليم فى هذه الحالة معناه التبعية المطلقة وتسليم عشر خيرات الإقليم أو المدينة، كما كان معناه قبول حاكم مغولى على الإقليم أو المدينة، ومع ذلك كان حكام المغول غلاظ القلوب لا يعرفون شفقة أو رحمة[4]. أما إذا وجد المغول أية مقاومة من أعدائهم، أو خسروا خسارة قليلة أمام المدينة المحاصَرة فإنهم لا يعقدون معها صلحا، وحتى إذا سلمت بعد ذلك فإن المحاربين والأهالى من غير المحاربين يجب أن يفنوا إلى آخر رجل وآخر امرأة وآخر طفل[5]. وبهذه الوسائل

---

(١) ابن الأثير : الكامل، ج ١٢ ص ١٧٤ .
(٢) Sykes : A History of Fersia, p. 56.
(٣) ابن الأثير : الكامل، ج ١٢ ص ١٦٩ .
(٤) Howorth : History of the Mongols, part i. p. 109.
(٥) Fitzgerald : China, A Short Cultura History, p. 426.

الإرهابية نجح المغول فى الاستيلاء على أمهات المدن الإسلامية . وقد رأينا فى كثير من المناسبات أن مدينة بأسرها كانت تزال معالمها ويقتل جميع سكانها لأن قائداً مغولياقتل أمام حصونها . ويكفى بعد ذلك أن يسمع سكان مدينة أخرى بما حل بهذه المدينة المخربة حتى يسرعوا إلى التسليم خشية أن يصيبهم ما أصاب سكان المدينة الأخرى . وهكذا اتصف المغول بغلظة القلوب ، وهم كما يقول ڤامبرى Vambery يبكون فى أعيـــادهم ويضحكون فى ساحات القتـال ، ويرضون بالبرد والجوع ولا يعرفون طعما للراحة ولا السرور ، وحتى هذه الكلمات لا تجد لها مكانا فى قواميسهم . وفضلا عن ذلك فإنهم كانوا لا يعرفون معنى للترف فى المأكل أو الملبس ، ولا يعرفون معنى الشفقة أو الرحمة وكانوا دائما على استعداد لشق بطون الحوامل وإخراج الأجنة منها (١) .

ومما يدل على أن إسالة الدماء وإزهاق الأرواح كانت من الصفات الرئيسية للمغول ، تلك العبارة التى أثرت عن جنكيزخان ، فقد قال إن أسعد الأوقات عنده هى التى يحطم فيها قوى أعدائه ويطاردهم ويستولى على ممتلكاتهم ويرى دموع الألم تتساقط من أعين نسائهم وأطفالهم ، وهو الوقت الذى يستطيع فيه أن يركب خيولهم ويمتلك بناتهم ونساءهم (٢) .

وقد علل بلوشيه Blochet فكرة ذبح المغول سكان المدن التى تقاومهم وسلب جميع أموالهم ، بأن هذه تقاليد القبائل البربرية الرحل التى لا مقر لهـا ولا مسكن يأويها ، فلا يرون فى الحرب إلا وسيلة سريعة لأخذ الغنائم وأسر العبيد ، بدليل أنهم كانوا يذبحون ما يزيد عن حاجتهم من هؤلاء (٣) . على أن هـذا التعليل الفلسفى لا يمنع من القول بأن جنكيزخان كان يرمى من وراء قتل السكان فى المدن الخاضعة أن يضمن سلامة مؤخرة جيوشه أثناء زحفـــه ، كما كان يرمى إلى ضمان سلامة طرق مواصلاته (٤) .

---

(١) Vambery: History of Bokhara, pp. 139 - 140.

(٢) Vitzgerald: China, A Short Cultural History, p. 428.

(٣) Blochet: Introduction a l'Histoire des Mongols de Fadlallah Rashid Ed-Din, pp. 216-7.

(٤) Howorth: History of the Mongols, part I. p. 110.

ومما يدل على أن قتل الأهالى وتعذيبهم كان من الأمور العادية عند المغول بوجه عام وعند جنكيزخان بوجه خاص أن عدد من قُتل على أيدى المغول فى الفترة الواقعة بين سنتى ٦٠٨ و ٦٢٠ هـ (١٢١١ و ١٢٢٣ م)، وهى الفترة التى غزوا فيها بلاد الصين فى الشرق والبلاد الإسلامية فى الغرب، قدر بأكثر من ثمانية عشر مليوناً [١]. وهكذا كانت هذه القوة البشرية كما يقول هارولد لام كالريح العاصف والزلزال العالمى، إذ استطاع المغول أن يصلوا إلى أقصى حدود آسيا وأن يعبروا الجبال الوعرة بعقل لا يفترق عن عقل الحيوان، الذى لا يكترث للعذاب الإنسانى، الشره لكل ما هو جديد براق والذى يندفع فى حركاته اندفاع الأطفال [٢].

بهذه الروح البربرية الغاشمة التى تهدف إلى إثارة الفزع والرعب فى قلوب الأعداء، وبهذا النظام العسكرى الدقيق الذى يقوم على الطاعة المطلقة، استطاع المغول أن يقلبوا البلاد الإسلامية رأساً على عقب وأن يحولوا أراضيها الخصبة إلى صحراوات جرداء. والظاهر أن جنكيزخان عاد إلى صوابه فى أواخر أيامه فندم على ما جنت يداه، لذلك عزم على أن يصلح ما خربته جيوشه ولكن كان ذلك بعد فوات الأوان، إذ عاجلته منيته دون أن يستطيع أن يكمل مشروعه أو يبدأ فيه [٣]. ولم يكن من السهل على أبنائه وأحفاده أن يعيدوا إلى الأراضى الإسلامية حيويتها، فظلت حقبة طويلة من الزمن تعانى آلام التخريب، كما ظل الأهالى يعانون ويلات العرى والجوع والحرمان.

---

(١) Curtin : The Mongols' H.st. ry. p. 141.

(٢) Lamb : The Crusades, The Falme of Islam, p. 337.

(٣) Fraser : Historical & Descriptive Account of Persia, p. 226.

الباب الخامس

أثر الغزو المغولى فى الدولة الخوارزمية والعالم الإسلامى

١ — الأثر السياسى .

(ا) سياسة المغول الداخلية فى الدولة الخوارزمية .

(ب) توسع المغول فى غرب آسيا .

٢ — الأثر الدينى .

٣ — الأثر الإقتصادى .

٤ — الأثر الثقافى .

الباب الخامس

أثر الغزو المغولى فى الدولة الخوارزمية والعالم الإسلامى

١ – الأثر السياسى

تأثر نظام الحكم فى الدولة الخوارزمية نتيجة لذلك النظام الذى وضعه المغول لحكم البلاد الإسلامية التى خضعت لهم ، إذ بالرغم من الأضرار التى حاقت بالمسلمين فى ذلك الوقت ، نلاحظ أن الفترة التى أعقبت الغزو المغولى كانت فترة تمتاز — إذا قورنت بما كانت عليه الحال قبل الغزو — بأنها أكثر هدوءا من ناحية الانقلابات السياسية . كما نلاحظ أن نظام الحكم فى العهد المغولى سار وفق تلك النظم التى سار عليها المغول فى بلادهم ، وهى تختلف طبعا عن تلك النظم التى عرفها المسلمون من قبل .

أما عن أثر زوال الخوارزمية من الناحية السياسية فى الشرق الإسلامى ، فيكفى القول بأن طريق المغول إلى غرب آسيا أصبح ممهداً بعد زوال هذه الدولة ، التى كانت تكوّن وحدة سياسية تقف رغم ضعفها حجر عثرة فى سبيل تقدم المغيرين من الشرق . وسنحاول أن نصور حال الخوارزميين وهم يستظلون بالراية المغولية كما سنتكلم فى إيجاز عن مدى توسع المغول فى غرب آسيا نتيجة لزوال الدولة الخوارزمية من طريقهم .

(ا) سياسة المغول الداخلية فى الدولة الخوارزمية

لما عاد جنكيزخان إلى بلاده قسم البلاد التى فتحها بين أبنائه الأربعة ، چوچى وچجتاى وأجتاى وتولوى . وكانت الأراضى التى تشغلها الدولة الخوارزمية من نصيب ابنه الأكبر چوچى بالإضافة إلى تلك البلاد التى تليها غربا فى آسيا وأوربا حتى

بلغاريا [١] . وليس معنى تقسيم جنكيزخان أملاكه بين أبنائه أنه ترك لهم الحبل على الغارب ، ولكنه أوصاهم ، بل فرض عليهم احترام تقاليد المغول القديمة ، التي كان يعتقد أنها صادرة عن وحي إلهي [٢] . ولهذا كان كل حاكم من حكام المغول مقيدا بقيود لا يحيد عنها في الإقليم الذي يحكمه .

ولم يحكم چوچي بنفسه ما آل إليه من أملاك أبيه ، ولكنه فعل ما فعله حكام الأقاليم البعيدة في عصر اضمحلال الدولة العباسية ، حين كان كل منهم ينيب عنه من يثق به ويبقى هو في بغداد ليتمتع بمباهج الحضارة الإسلامية . لذلك نراه ينيب عنه في حكم الدولة الخوارزمية حاكما يدعى « شن تيمور » Chin Timur ، الذي حكم الدولة الخوارزمية بمعاونة أربعة من الحكام قلدهم ولاية أقاليمها المختلفة ، بينما بقي هو بعيدا عن هذه الأقاليم [٣] . ونلاحظ هنا أن الأقاليم الغربية من الدولة الخوارزمية ومن بينها أذربيجان وجورجيا كانت تحت حكم « شـيرماجون » Churmagun ، ذلك القائد المغولي الذي أخضع هذه الأقاليم في عهد جنكيزخان كما ذكرنا . على أن هذه الأقاليم ظلت فترة طويلة تقرب من العشرين عاما لا تستقر على حال ، ولا يستتب فيها أمن أو نظام . وقد اتخذ الحكام المغول من مدينة تبريز حاضرة لهم في هذا القسم ، كما اتخذوا من مدينة طوس حاضرة لهم في خراسان [٤] .

أما عن طريقة حكم «شن تيمور» أقاليم الدولة الخوارزمية، فنرى أنه سار على سياسة ترمي في النهاية إلى جمع المال بالوسائل المشروعة وغير المشروعة ، ففرض الضرائب الباهظة على من ظل على قيد الحياة من أهالي الدولة الخوارزمية بعد الغزو المغولي . ومن العوامل التي جعلته يشتط في تعسفه ، أن جنكيزخان لم يكن يؤمن بقيمة العملة في المعاملة ، لذلك كان «شن تيمور» يأخذ ما فرضه على الأهالي من ضرائب ، على طريقة

---

(١) Howorth : History of the Mongols, part i. p. 105.

(٢) Blochet : Introduction à l'Histoire des Mongols de Fadlallah Rashid Ed-Din, p. 190.

(٣) Howorth : History of the Mongols, part i. p. 133.
ويلاحظ أن چوچي توفي قبل وفاة أبيه جنكيزخان بمدة قصيرة .

(٤) Bretschneider : Mediæval Researches From Eastern Asiatic Sources, vol. i. p. 113.

الضرائب النوعية ، كما عمد إلى تعذيب الأهالى لإخراج ما أخفوه من نفائس . ومن الطبيعى أن تثير هذه السياسة حفيظة الأهالى على اختلاف أجناسهم ، فوجدوا بعد طول صبر أن الموت فى ساحة الوغى أشرف بكثير من الموت البطىء تحت الحكم المغولى، فعمدوا إلى الثورة علهم يتخلصون منه . لذلك تجمع عشرة آلاف من قبيلة كانكالى Kankalis فى الجبال المحيطة بمدينتى طوس ونيسابور وهاجموا المغول وقتلوا عددا كبيرا منهم ، على أن هذه الثورة انتهت بالخيبة ، إذ تمكن المغول من إخمادها ، وتشريد الثوار ، وقتل ثلاثة آلاف رجل من بينهم ، كانوا قد اعتصموا بأحـــد المساجد بمدينة هراة (١) .

توفى جنكيزخان كما ذكرنا سنة ٦٢٤هـ (١٢٢٧م) ، وانتخب ابنه أجتاى Ogotaï خاقاناً بعد أن تمت مراسيم انتخابه سنة ٦٢٦هـ (١٢٢٩م) . وقد عزم الخاقان الجديد على أن يسير فى حكم خراسان والبلاد الإسلامية سيرة جديدة تخالف تلك التى سار عليها أبوه جنكيزخان من قبل ، فعزل «شن تيمور» بعد أن أدرك ما أدت إليه سياسته التعسفية من إثارة روح التذمر فى البلاد ، وعين مكانه رجلا يدعى « تاير بهادور » Tair Behadur . فلما رأى شن تيمور المصير الذى آل إليه عمد إلى سياسة التقرب والزلفى من الخاقان ، تارة بإظهار نفسه فى ثوب الحاكم المخلص الحريص على كيان الحكم المغولى فى البلاد الإسلامية ، وتارة أخرى بإرسال السفراء والمبعوثين يعلنون باسمه فروض الطـاعة والولاء للخاقان . فنراه مثلا يرسل الحملات التأديبية إلى خراسان لمعاقبة من تحدثهم أنفسهم بالثورة على الحكم المغولى ، واستطاع بذلك أن يقبض على زمام الأمور هناك ، كما نراه يرسل إلى الخاقان بعض الأمراء لإعلان ولائه وولائهم له ، ويرغبونه فى نفس الوقت بوسائلهم المختلفة فى إلغاء قرار عزل شن تيمور . وكان لهؤلاء الرسل والمبعوثين أكبر الأثر فى نفس الخاقان وخاصة بعد أن قارن بين شن تيمور وبين شيرماجون Churmagun حاكم أذربيجان وجورجيا ، الذى أراق دماء الأهالى هناك وتسبب فى اضطراب الأمن ، بل ولم يرسل المبعوثين لإعلان ولائه له . ولهذه الأسباب مجتمعة أعاد أجتاى « شن تيمور » إلى حكم خراسان ومازندران ، وضم إليه خـلاط ،

(١) Howorth : History of the Mongols, part I. p. 133.

وأطلق يده فى حكم البلاد التى خضعت له وجعله مستقلا عن شيرماجون وسائر قواد المغول . ولما اطمأن شن تيمور إلى النتيجة التى وصل إليها ، عين رجلا من مدينة «يزد» يدعى «شرف الدين» حاملا لأختامه ، كما عين «بهى الدين محمد الجوينى» والد علاء الدين الجوينى صاحب كتاب جهان كشاى Djihan Kushai وزيراً لماليته (١) .

ولم يكن تعيين هؤلاء الحكام من أهالى البلاد الأصليين بالشىء الجديد فى سياسة المغول ، بل كان ذلك من الأمور الأساسية فى سياستهم ؛ فقد حرص المغول دائماً على أن تسودهم الروح العسكرية فى كل ناحية من نواحى حياتهم ، ولذلك حرموا على أنفسهم تولى الإدارات المدنية وتركوها لأهالى البلاد المفتوحة ، واقتصروا على إرسال حكام عسكريين للإشراف على السياسة العليا لهذه البلاد فضلا عن الحاميات العسكرية التى زودوا بها المدن المختلفة . وعلى هذا الأساس نجد الإدارات المدنية فى فارس والعراق وجورجيا وأرمينية وبلاد الصين فى أيدى أفراد من أهالى هذه البلاد الأصليين(٢) . ثم إن المغول كانوا يتخذون وزراءهم ومستشاريهم من خيرة أهالى البلاد المفتوحة ، وليس أدل على ذلك من «يى لوشوتساى» Ye-lu Cu Ts'ai وزير جنكيزخان ورفيقه فى رحلته التى غزا فيها البلاد الإسلامية ، وكان المغول قد أسروه فى مدينة بكين بعد استيلائهم عليها . فلما لمس جنكيزخان كفايته ومقدرته ، ولاه أعلى المناصب فى دولته ، ثم اتخذه خلفاؤه مشيراً لدولتهم حتى توفى سنة ٦٤٠ هـ (١٢٤٣م)(٣) .

---

(١) Howorth : History of the Mongols, part i p. 133.

ومما هو جدير بالذكر هنا أن علاء الدين الجوينى كان سكرتيرا خاصا لهولاكو عندما سار لغزو الإسماعيلية فى «ألموت» والخلافة العباسية فى بغداد . وفى هذه الفترة استطاع أن يكتب كتاب «جهان كشاى» أى تاريخ قاهر العالم History of the conqueror of the world . ويروى هذا الكتاب حوادث السنوات العشر الأخيرة من حكم جنكيزخان ، فيتناول الكلام عن الحوادث التى انتهت باستيلاء المغول على بلاد ما وراء النهر وفارس ، ثم يتكلم عن حكم أجتاى وكيوك ومانجوخان ، وينتهى من كتابه إلى حوادث عام ٦٥٥ هـ (١٢٥٧م) ، وتوفى علاء الدين سنة ٦٨٢ هـ (١٢٨٣م) . ثم أتم هذا الكتاب عبد الله بن فضل الله المعروف بوصاف الحضرة فتكلم عن تاريخ المغول من سنة ٦٥٥ هـ إلى سنة ٧٢٨ هـ (١٢٥٧ — ١٣٢٧م) .

(٢) Fitzgerald : China, A Short Cultural History, p. 427.

(٣) Bretschneider : Mediæval Researches From Eastern Asiatic Sources, vol. i. p. 9 — 10.

ومن أكبر الأدلة على اعتماد المغول فى حكم مابيدهم من البلاد على أفراد من غير المغول، أن كوبلاى خان اعتمد على الرحالة ماركوبولو مدة سبعة عشر عاماً فى تصريف شئون دولته[١].

والآن نعود إلى شن تيمور وحكمه فى بلاد الدولة الخوارزمية ، فترى أنه بعد أن اطمأن إلى تركيز السلطة فى يده ، سار فى حكم هذه البلاد سيرة لاتختلف عن سيرته الأولى فيها أى قبل أن يعتلى أجتاى عرش المغول ، فاستبد بالأهالى وتعسف فى جمع الضرائب ، وإن كان تعسفه فى هذه المرة أقل بكثير منه فى المرة السابقة . واستمرت الحال على هذا النحو حتى توفى شن تيمور سنة ٦٣٢ هـ (١٢٣٥ م) وتولى حكم هذه البلاد رجل تقدمت به السن يدعى «نوصال» Nussal الذى ترك الحبل على الغارب لرجل من رجال شن تيمور يدعى «كورجوز» Kuurgz[٢] . ويقال إن هذا الرجل نظم إدارة خراسان تنظيما حسناً ، وقضى على تعسف جماعة من الحكام الطغاة مما أثار عليه عداوة كثير من الحكام الذين تآمروا على خلعه . على أن تآمرهم عليه ووشايتهم به عند أجتاى باءت بالخسران المبين ، إذ أدرك أجتاى أن «كورجوز» كان ضحية بعض الحاسدين والحاقدين ، فأقره على حكم جميع البلاد الواقعة غربى نهر جيحون بما فى ذلك فتوحات شيرماجون ، وهى أذربيجان وجورجيا وأرمينية ، فضلا عن بعض البلاد الواقعة شمال نهرى دجلة والفرات . وقد اتخذ كورجوز مدينة طوس مقراً لحكم هذه الأقاليم الشاسعة .

وبعد أن استقر الأمر لكورجوز ، دعا إلى حاضرة ملكه ، كبار رجال الدولة فى الأقاليم المختلفة ، وفى الاجتماع الذى عقده لهم أعلن فروض الولاء لأجتاى خان ، وبعد ذلك أخذ كل حاكم يحكم الولاية أو المدينة التى تحت يده باسم الخاقان ، وهذا يشابه تماما ما حدث فى البلاد الإسلامية حينما كان كل حاكم فى ولايته ، يحكم باسم الخليفة العباسى فى بغداد ، ويدعو له على المنابر وينقش اسمه على السكة . وهذا لايمنعنا من القول بأن سلطة الخليفة فى هذه الأقاليم وكذا سلطة الخاقان فيها ، كانت فى الواقع سلطة اسمية ، لأن السلطة الفعلية فيها كانت للحكام المباشرين .

وقد سار «كورجوز» فى حكم البلاد التى آلت إليه ، سيرة أقل مايقال فيها إنها تغاير

---

(١) Fitzgerald : China, A Short Cultural History, p. 427.

(٢) كان كورجوز معلما لأبناء جوجى بن جنكيزخان ، ثم اتخذه شن تيمور سكرتيرا له عندما تولى حكم خوارزم .

تلك السياسة التعسفية التى سار عليها سلفه ، إذ أنه عزل كثيرين من الحكام المتعسفين الذين كان «شيرماجون» قد ولاهم على هذه البلاد، ولذلك خفت حدة معارضة الأهالى للحكم المغولى عما كانت عليه من قبل . ثم إننا نلاحظ أنه قد ظل طيلة حكمه يدافع عن أهالى هذه البلاد من الفرس والأتراك وغيرهم من الشعوب الأخرى التى استوطنت هذه البلاد ، كما ظل طيلة حكمه موضع احترام المغول والأهالى على السواء ، وإن كانت سياسته قد أغضبت بعض الحكام من المغول ، الذين كانوا يتوقون إلى إطلاق أيديهم فى هذه البلاد .

ونلاحظ أيضا أن «كورجوز» قد عمل منذ وطئت أقدامه هذه البلاد، على أن يصلح ماخربه المغول من مدنها ، فنراه مثلا يعيد بناء مدينة طوس التى لم يبق من مبانيها بعد الغزو المغولى إلا منازل معدودات . كذلك بدأت مدينة هراة تنتعش من جراء ذلك الخراب الذى حل بها ، فعمرت بالسكان بعد أن ظلت خالية ممن يسكنها مدة خمسة عشر عاما ، إذ لما هدأت حالة البلاد الإسلامية وبدأ السكان يطمئنون على أرواحهم وأموالهم، هاجر إلى هذه المدينة مائة أسرة بزعامة « عز الدين » ، وهو من كبار رجال المدينة المسلمين الذين كان تولوى قد طردهم منها ، وقد سارع هذا الرجل فبذر بذور العمران فى المدينة بأن أحضر الماشية والمحاريث من بلاد الأفغان ، وحفر القنوات الموصلة إلى هذه المدينة بعد أن كانت قد سدت على أثر الغزو . ولم تلبث هذه المدينة أن ازدحمت بالسكان الذين بلغ عددهم فى سنة ٦٣٧ هـ (١٢٤٠ م) أكثر من ستة آلاف نسمة (١) . وبالمثل بدأت المدن الإسلاميه المختلفة تصلح بعض ما حل بها من خراب ودمار .

وقد حدث لسوء حظ البلاد الإسلامية أن مات أجتاى سنة ٦٣٩ هـ (١٢٤١ م) ، ومرت فترة طويلة من الوقت قبل أن ينتخب الخاقان الجديد . وأخيرا انتخب كيوك Kuyuk سنة ٦٤٤هـ (١٢٤٦م) ، ولكنه لم يستمر فى الحكم كثيرا إذ توفى بعد سنتين. وكانت الفترة التى مرت بين وفاة أجتاى وانتخاب كيوك من الفترات التى سادها الاضطراب فى تاريخ المغول ، إذ عادت البلاد الإسلامية إلى ما كانت عليه من الفوضى والاضطراب نتيجة للظروف التى أدت إلى خلع «كورجوز» وقتله ، ونتيجة لسوء سياسة خلفه فى هذه

(١) Howorth : History of the Mongols, part i. p. 134.

البلاد . فقد جرت التقاليد المغولية بأنه إذا توفى الخاقان . يذهب الحكام وكبار قواد المغول إلى الحاضرة العظمى «قره قورم» ، للتشاور فيما بينهم وانتخاب الخاقان الجديد ، فلما توفى أجتاى على ما رأينا ، تأهب كورجوز للرحيل إلى حاضرة المغول، وبينما كان يعبر بلاد ما وراء النهر قام نزاع بينه وبين أحد المقربين إلى چجتاى بن جنكيزخان ، فشكاه چجتاى إلى زوجة أخيه أجتاى وكانت تتولى تصريف شئون البلاد بعد وفاة زوجها . وكان من أثر ذلك أن أرسل كبار قواد چجتاى شخصا يدعى « أرغون » Argun لإحضار كورجوز حيا أو ميتا ، واستطاع هؤلاء أن يقبضوا عليه ويسوقوه إلى البلاط المغولى حيث قتل دون محاكمة [1] ، وكان معنى قتله تغير نظام الحكم فى البلاد الإسلامية.

وقد عينت زوجة أجتاى أرغون على البلاد الإسلامية فركز اهتمامه فى تخليص أذربيجان وما جاورها من البلاد الخاضعة لحكم المغول من تعسف الحكام المغول أنفسهم . ولما وصل إلى تبريز حاضرة أذربيجان ، تلقى أنباء خضوع سلاچقة الروم فى آسيا الصغرى وحكام سوريا ، فأرسل مبعوثيه لجمع الجزية من هذين البلدين .

وهكذا نرى سلطان المغول فى عهد أرغون الذى اشتمل على خوارزم وخراسان ، يمتد أيضا على جزء كبير من البلاد الإسلامية فيشمل أذربيجان ودياربكر والموصل وحلب وجورجيا ودولة الروم السلاچقة وأرمينية الصغرى . ولكن أرغون استبد بحكم هذه الأقاليم وأطلق لسياسته التعسفية العنان ، ولم يتردد الأمراء وكبار القواد من المغول ورؤساء الإدارات المدنية فى تنفيذ أوامره [2] .

وكان نظام الحكم على النحو الذى رأيناه ، من سوء حظ البلاد الإسلامية كما ذكرنا، فقد عاد المغول فى هذا العهد الجديد إلى أساليبهم التعسفية فى جمع الأموال من الأهالى وسلكوا فى ذلك سبلا مختلفة . وكان « شرف الدين » الذى اتخذه أرغون عضداً له ، لا يؤمن إلا بالقسوة والتعذيب فى جمع الأموال ، فلم تأخذه شفقة باليتامى الذين قتل آباؤهم فى أيام جنكيزخان ، ولا رحمة بالنساء اللائى ترملن بعد حروب المغول الدامية ، وبلغ من تعسفه فى جمع الأموال أن عجز الناس عن دفع ما فرض عليهم من الضرائب ووصل بهم الأمر إلى أن اضطروا إلى بيع أبنائهم لأدائها .

---

(١) مما هو جدير بالذكر أن « كورجوز» اعتنق الدين الإسلامى فى أواخر أيامه .

(٢) D'ohsson : Histoire Des Mongols, tom. II. p. 262.

وفى سنة ٦٤٤ هـ (١٢٤٦ م) ، استدعى أرغون للانتخاب الذى انتهى بجلوس «كيوك» على عرش المغول ، فذهب محملا بالهدايا والنفائس التى جمعت من أصحابها اغتصابا فلا عجب إذا رأينا «كيوك» يثبته فى الحكم . وفى أثناء عودة أرغون استقبل فى مدينة مرو حاضرة خراســـان بترحيب زائف من الأهالى ، الذين اضطروا أن يقيموا له وليمة كبيرة . وعلى الرغم من هذه السياسة التعسفية ، استمرت البلاد الإسلامية فى حالة شبه مستقرة طيلة حكم «كيوك» الذى توفى بعد سنتين من حكمه أى فى سنه ٦٤٦ هـ (١٢٤٨م) ، وبعد وفاته انتقلت البلاد إلى حالة من الفوضى حتى انتخب الخاقان الجديد مانجوخان Mangu Khan بعد وفاة سلفه بسنتين [١] .

وبعد أن تم انتخاب مانجوخان ، جمع حكام البلاد المختلفة الخاضعة للمغول ، الذين كانوا قد اجتمعوا لانتخابه فى « قره قورم » ، للتشاور معهم فى وضع أساس جديد قويم لحكم البلاد الخاضعة للمغول بوجه عام ومن بينها البلاد الإسلامية . وقد طلب مانجوخان من كل من هؤلاء الحكام أن يكتب له تقريراً عن حالة الإقليم الذى بيده ، والطريقة التى يراها كفيلة لاستقرار الحكم فيه . وقد أجمع الحكام على أن فرض الضرائب الباهظة هو السبب الرئيسى لما ساد هذه البلاد من فوضى ، واقترحوا أن تقدر الضريبة على الأهالى حسب ثروة كل فرد ، كما هو الحال فى بلاد ما وراء النهر [٢]. وقد أخذ الخاقان بهذا الرأى وأمر بأن تجبى الضرائب من كل فرد بحسب ثروته ، وأن تتدرج هذه الضريبة من دينار إلى عشرة دنانير على الفرد الواحد [٣] . وذكر دوسون أن هذه الضريبة التى عرفت باسم ضريبة الرءوس كانت تتراوح بين دينار وسبعة دنانير فى بلاد فارس ، أما فى بلاد الصين وفى بلاد ما وراء النهر فكانت تتراوح بين دينار وخمسة عشر دينارا . وكانت هناك ضريبة أخرى على الماشية بنسبة واحد فى المائة مما يملكه كل فرد ، ويعفى منها من يمتلك أقل من مائة رأس [٤] .

وكانت هذه الضرائب لا تذهب إلى خزانة الخاقان ، بل يدفع منها أولا رواتب

(١) Howorth : History of the Mongols, part i.p. 170.

(٢) كان إقليم ما وراء النهر تحت حكم الخاقان المباشر .

(٣) Howorth : History of the Mongols, part i. p. 192.

(٤) D'ohsson : Histoire Des Mongols, tom. ii. pp. 203 — 4.

لوحة ١٤



رسم الجبال فى الطريق إلى التبت من كتاب «جامع التواريخ» لرشيد الدين المحفوظ فى الجمعية الملكية الأسيوية بلندن . وتبدو هذه اللوحة لأول وهلة كأنها صينية ، والحقيقة أنها تعد من أبلغ الأمثلة على تأثر المسلمين بثقافة الشرق الأقصى عقب الغزو المغولى، ويتضح ذلك من ظهور السحنة الصينية ومن مناظر العمارة والملابس.

(عن كتاب الصين وفنون الإسلام للدكتور زكى محمد حسن)

الجند وينفق منها على إصلاح محطات البريد فى الطرق العامة التى كان المغول يهتمون بها اهتماما خاصا لأهميتها لهم فى تنقلات جيشهم فى أوقات الحرب، فضلا عن أهميتها التجارية فى أوقات السلم، إذ أن المغول أولوا التجارة كثيرا من عنايتهم [١].

وبعد أن وضع مانجوخان هذا النظام الدقيق لحكم البلاد التابعة له، رحل كل حاكم إلى الإقليم الذى عينه فيه. وكانت بلاد فارس فى هذا العهد الجديد من نصيب أرغون، إذ أعطاه الخاقان تقليدا جديدا بحكم هذه البلاد من جديد. على أن أرغون سار فى الحكم هذه المرة سيرة تختلف عن سياسته فى أيام كيوك خان، وخاصة بعد أن وضع مانجوخان هذا النظام الدقيق لحكم البلاد الخاضعة، وأخذ يراقب بعين ساهرة مدى تنفيذ حكامه لهذه النظم الموضوعة. ولكى يسهل حكم البلاد الإسلامية، قسم المغول بلاد فارس أربعة أقسام يحكم كلا منها « ملك » يعينه الخاقان، فانقسمت بذلك البلاد الإسلامية إلى الأقاليم الأربعة الآتية:

١ — هراة والأراضى التى تليها شرقا حتى نهر السند وهى الأراضى التى كانت تحكمها الدولة الغورية تقريبا.

٢ — كرمان.

٣ — خوارزم وأغلب بلاد خراسان.

٤ — جورجيا وأذربيجان والبلاد الخاضعة للمغول فى شمال العراق.

ونلاحظ أن مانجوخان سار على نهج سياسة جنكيزخان وأجتاى من قبل، تلك السياسة التى ترمى إلى إعفاء رجال الدين من المسلمين والمسيحيين والوثنيين من الضرائب، وفضلا عن ذلك فإنه أعفى الشيوخ والعاجزين عن الكسب؛ وقد ذهب مانجوخان إلى أبعد من ذلك فلم يطالب الأهالى بأداء ماتأخر عليهم من الضرائب. ومما يؤثر عنه أنه صرح بأنه لن يسعى إلى تكديس الأموال فى خزائنه على حساب شقاء الشعب [٢].

وقد اهتم مانجوخان ونوابه فى البلاد الإسلامية بتعمير ماخربه المغول، فأصلحوا المدن وأقاموا العمائر فيها، وشجعوا طلاب العلم. ومما يدل على ذلك أن أم مانجوخان، رغم أنها كانت تعتنق الديانة المسيحية، فإنها كانت شديدة العطف على

(١) Howorth : History of the Mongols, part i. p. 192.

(٢) D'ohsson : Histoire Des Mongols, tom. ii. pp. 264 — 5.

المسلمين ، حتى أنها أغدقت عليهم الكثير من أموالها ، فنراها مثلا تمنح المسلمين مبلغا كبيرا من المال لبناء مدرسة إسلامية فى مدينة بخارى كان يؤمها عدد كبير من طلاب العلم (١). وقد استمر الحال على هذا النحو حتى قدر للمغول فى عهد مانجوخان نفسه أن يشرعوا فى مد نفوذهم على البلاد الإسلامية الباقية ، فسير أخاه الأصغر هولاكو للقضاء على طائفة الإسماعيلية والخلافة العباسية فى بغداد . وبعد أن تم لهولاكو تخريب حصون الإسماعيلية وفتح بغداد وتشريد أفراد البيت العباسى ، دخل الشرق الإسلامى عامة بما فى ذلك البلاد التى كانت تضمها أقاليم الدولة الخوارزمية ، فى عهد جديد كانت السيطرة فيه لابناء هولاكو الذين استقلوا تدريجيا عن المغول فى « قره قورم » ، وأسسوا لأنفسهم دولة فى بلاد فارس عرفت باسم دولة إيلخانات المغول (٢).

(ب) توسع المغول فى غرب آسيا

كانت الدولة الخوارزمية فى وضعها السياسى الذى صورناه ، وحدة سياسية لا يستهان بقوتها رغم تلك العوامل التى تجمعت على إضعافها ، فقد كانت هذه الدولة بمثابة الحاجز المنيع الذى يحول بين الشعوب والقبائل المتبربرة فى شرق نهر سيحون ، وبين مركز الخلافة العباسية فى بغداد بوجه خاص وأقاليم غرب آسيا بوجه عام ، وبعبارة أخرى كانت الدولة الخوارزمية بالنسبة لغرب آسيا بمثابه الباب من المنزل ، إذا فتح الباب سهل دخول المنزل واقتحامه . وعلى هذا الأساس كان من السهل على المغول أن يتوغلوا فى غرب آسيا ، وأن يزيلوا دون عناء ما بقى فى أيدى المسلمين من أملاك وخاصة ما كان بيد الخلافة العباسية فى العراق العربى . وقد عبر براون Browne عن هذه الحقيقة بقوله : إن الدولة الخوارزمية لم تكن إلا قنطرة يجب على المغول أن يعبروها حتى يتمكنوا من القضاء على الدولة العباسية (٣)

---

(١) D'ohsson : Histoire Des Mongols, tom. ii. p. 267.

(٢) « إيلخان » لفظ معناه « الخان التابع » وهو الذى يختص بحكم إقليم من أقاليم الدولة Provincial Khan وكان يتبع الخاقان المغولى أى الحاكم العام للامبراطورية المغولية . وقد أطلق هذا اللقب على هولاكو عندما أسند إليه حكم فارس ثم ألحق بحكام المغول فى فارس من سلالة هولاكو ، وأطلق اسم « دولة إيلخانات » على البلاد التى حكموها . انظر للمقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج ١ قسم ٢ ص ٥٤١ حاشية ١ .

(٣) Browne : A Literary History of Persia, vol. ii. p. 436.

على أن أهمية الدولة الخوارزمية لم تكن خافية على أمراء المسلمين فى ذلك الوقت، لذلك نرى أن أمراء الولايات الإسلامية وحكامها الذين تحالفوا ضد جلال الدين منكبرتى كما رأينا، يبادرون إلى عرض الصلح عليه عندما أدركوا أن الخطر المغولى بات يتهدد الدولة الخوارزمية فى ذلك الوقت، وأن ذلك الخطر لابد أن يتحول إليهم إذا اكتسح المغول هذه الدولة[1]. ومما يدل على أهمية بقاء الدولة الخوارزمية فى نظر أمراء المسلمين أنه لما قتل جلال الدين منكبرتى آخر الأمر، دخل جماعة على الأشرف موسى صاحب دمشق يهنئونه بمقتل عدوه فقال لهم:

« تهنئونى وتعرضون، سوف ترون غبه، والله لتكونن هذه »
« الكسرة سبباً لدخول التتار إلى بلاد الإسلام. ما كان الخوارزمى »
« إلا مثل السد الذى بيننا وبين ياجوج وماجوج[2] »

من ذلك يتضح أن سلامة أقاليم غربى آسيا كانت تتوقف إلى حد كبير على زوال أو بقاء الكيان السياسى للدولة الخوارزمية، فلما زالت هذه الدولة انفسح المجال أمام المغول للتوغل غرباً، وقد ظهر ذلك جلياً فى أيام جنكيزخان نفسه، إذ أنه لما أرسل قائديه شبى وسوبوتاى فى إثر علاء الدين خوارزم شاه بعد انكسار جيوشه وفراره إلى تلك الجزيرة ببحر قزوين، لم يلق هذان القائدان صعوبة فى الاستيلاء على العراق العجمى وأذربيجان وجورجيا، ثم عبرا المنطقة الواقعة بين بحر قزوين والبحر الأسود ووصلا إلى بلاد القفجاق، وظهر المغول فى بلاد الروس لأول مرة فى سنة ٦٢٠هـ (١٢٢٣م)[3]، وألقوا الرعب فى قلوب أهل أوربا. وفى عهد أجتاى Ogotai (٦٢٤ – ٦٣٩ هـ = ١٢٢٧ — ١٢٤١ م) وجهت حملة مغولية كبيرة إلى أوربا بقيادة « باتو » Batu حفيد جنكيزخان سنة ٦٣٢هـ (١٢٣٥م) فأخضع الأقاليم الواقعة شمالى بحر قزوين واكتسح روسيا، وفرض عليها جزية كبيرة، وألقى الرعب والخراب والدمار فى بولندا ومورافيا وسيليزيا كما خرب هنغاريا، ثم ترك هذه البلاد تنعى من بناها سنة ٦٣٨ هـ (١٢٤١ م)، وعاد إلى وطنه على رأس الجيوش المغولية على أثر وفاة أجتاى فى هذه السنة[4].

---

(١) Howorth: History of the Mongols, part i. p. 130.

(٢) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة، ج ٦ ص ٢٧٧.

(٣) Bretschneider: Mediæval Researches From Eastern Asiatic Sources, vol. i. p. 112.

(٤) Ibid, vol. i. pp. 112 - 113.

والمهم فى ذلك كله أنه بعد حملات جنكيزخان على غربى آسيا وإخضاعه أقاليم الدولة الخوارزمية ، فتح أمام المغول طريقان إلى أوربا ، طريق يخترق الأراضى الواقعة بين البحر الأسود وبحر قزوين وهو الطريق الذى سلكه القائدان شبى وسوبوتاى، وطريق يخترق الأراضى الواقعة شمالى بحر قزوين وهو الطريق الذى سلكه باتو بحملته على أوربا . وعن هذين الطريقين أمكن المغول أن يثيروا الرعب فى قلوب أهالى أوربا ، وأخذ القلق يدب فى نفوس الأباطرة والبابوات فأخذوا يتقربون بشتى الوسائل إلى المغول كما سنرى .

أما من ناحية البلاد الإسلامية التى كانت تتاخم بلاد الدولة الخوارزمية فى الغرب، فلم يعد هناك من شك فى أن نهايتها أصبحت قريبة ، وكانت هذه النهاية تتوقف دون شك على إرادة المغول أنفسهم . فقد بدأت الجيوش المغولية منذ أيام جنكيزخان نفسه تتسلل إلى أراضى العراق العربى فى حملات صغيرة . ففى أثناء حملة شبى وسوبوتاى غزا المغول بعض أقاليم العراق العربى ، ولما وجد الخليفة الناصر أن أملاكه أصبحت مهددة بالزوال وأن كيانه السياسى كاد أن يتقوض ، استصرخ أمراء المسلمين لمساعدته . وأدرك المغول فى ذلك الوقت أنهم لا يستطيعون مواجهة جيوش الخلافة ففضلوا الانسحاب[١] . على أنهم عادوا فى أيام أجتاى إلى هذه المحاولة من جديد، فاستولوا فى عامى ٦٣٣ و ٦٣٤ﻫ (١٢٣٥ و ١٢٣٦م) على إمارة إربل وتوغلوا فى العراق العربى حتى بلغوا مدينة سامرا ، ولما أدرك الخليفة حرج مركزه دعا المسلمين إلى الجهاد. وقد اشتبكت جيوش الخليفة بجيوش المغول عند مدينة « جبلة » على نهر دجلة واضطر هؤلاء إلى الانسحاب . ومع ذلك فقد أعاد المغول الكرة بعد ذلك بسنتين، واستدرجوا جيوش الخليفة إلى كمين وتمكنوا من قتل عدد كبير من جند المسلمين[٢] وفى سنة ٦٤٤ﻫ (١٢٤٦م) وهى السنة التى انتخب فيها كيوك Kuyuk خاقاناً ، أعاد المغول الكرة وهددوا أراضى العراق العربى، ولكن نصيب هذه الحملة كان نصيب ما سبقها من حملات المغول[٣].

وصفوة القول إن المغول لم يكفوا عن إرسال أمثال هذه الحملات بين الفينة

D'ohsson: Histoire Des Mongols, tom. i. pp. 330 - 331. (١)

Howorth: History of the Mongols, part i. p. 132. (٢)

Ibid, part i. p. 167. (٣)

والفينة ، بقصد السلب والنهب أحيانا ، وبقصد اختبار قوة المسلمين أحيانا أخرى .
واستمرت الحال على ذلك حتى انتخب مانجوخان Mangu Khan خاقانا ، فعوّل على توسيع أملاكه شرقا وغربا، فأرسل حملتين كبيرتين إحداهما بقيادة أخيه كوبلاى Kubilaï كان الغرض منها إتمام فتح بلاد الصين ، والثانية بقيادة أخيه الأصغر هولاكو كان الغرض منها القضاء على حصون الإسماعيلية ثم الاستيلاء على مدينة بغداد حاضرة الخلافة العباسية[1] .

أخذ هولاكو يستعد لهذه الحملة ، فبالإضافة إلى هذه الجموع الغفيرة من الجند الذين أصبحوا على استعداد للسير تحت لوائه[2] ، نراه يضم إلى جيشه ألف رجل من المهندسين الصينيين للاستعانة بهم فى تنصيب المجانيق وقذف المواد الملتهبة على المدن المحاصرة ، ثم نراه يأمر حكام الأقاليم التى فى طريقه إلى فارس بتجهيز الكلأ لخيوله . وقبل أن يبدأ فى الرحيل أمر بإصلاح جميع الطرق التى سيسلكها جيشه وإقامة القناطر على الأنهــــار ، وأرسل إلى حكام المغول فى فارس يأمرهم بإعداد المؤن للجيش القادم إليهم[3] .

وقد حاول مانجوخان وهولاكو أن يكملا استعدادهما الحربى باستعداد دبلوماسى، فحاولا التحالف مع الملوك والأمراء المسيحيين فى غرب آسيا ضد الخليفة العباسى المسلم، وكان كل من المغول والمسيحيين يحاول أن يتقرب من الآخر . أما المغول فكانوا يرمون من وراء ذلك أن يجدوا لهم نصيرا يساعدهم على الخليفة ، وأما المسيحيون فكانوا يهدفون إلى دفع الخطر المغولى الذى بات يتهددهم ، كما كانوا يهدفون إلى القضاء على أعدائهم المسلمين فى بغداد وغيرها ، وفضلا عن ذلك كانوا يطمعون فى مساعدة المغول لهم لاسترداد بيت المقدس . لذلك لا نعجب إذا رأينا « هيثون » Haython ملك أرمينية « وبوهيمند السادس » أمير أنطاكية يتحالفان مع مانجوخان ويرسلان إليه الجزية ، ولذلك أيضا نرى مانجوخان يعلن أنه إنما أرسل هولاكو إلى غرب آسيا ليقضى على

(١) Browne: A Literary History of Persia, vol. ii p. 452.

(٢) ومما هو جدير بالذكر أن مانجوخان أمر بجمع الجيوش التى كان جنكيزخان قد أمر بتوزيعها على أولاده ، وكون من هؤلاء جميعا ذلك الجيش الذى سار تحت إمرة هولاكو .

(٣) Bretschneider : Mediæval Researches From Eastern Asiatic Sources, vol. i.pp.112-114.

الخلافة العباسية، ويعيد بيت المقدس إلى المسيحيين [١]. كذلك نرى لويس التاسع بعد أن أخفق فى حملته على مصر يرحل إلى عكا سنة ٦٤٨ هـ (١٢٥٠ م)، حيث مكث فى البلاد الشامية أربع سنوات حاول خلالها دون جدوى وبوسائل مختلفة أن ينتزع بيت المقدس من أيدى المسلمين [٢]؛ من ذلك أنه أرسل إلى مانجوخان راهبا يدعى وليم روبروك William De Rubruquis بقصد التحالف معه ضد المسلمين ولكن هذا الرسول لما عاد إلى البلاد الشامية فى سنة ٦٥٣هـ (١٢٥٥م) حاملا إلى لويس التاسع رسالة تحوى بين سطورها عبارات المجاملة [٣]، كان هذا قد رحل إلى فرنسا فى السنة السابقة [٤].

ونلاحظ أن هولاكو ورجاله، أرسلوا — قبل أن يصلوا إلى البلاد الإسلامية — إلى المسيحيين فى غرب آسيا رسالة جاء فيها:

« لدينا أعداد كبيرة من المسيحيين بين عشائرنا، وقد جئنا بقوتنا »
« وسلطاننا معلنين ضرورة تحرير جميع المسيحيين من العبودية ومن »
« الضرائب التى فرضها عليهم المسلمون، ومعلنين ضرورة معاملة »
« المسيحيين معاملة تليق بهم، فلا يعتدى عليهم ولا على تجارتهم. »
« ونحن نصرح بأننا سنعيد بناء جميع الكنائس التى خربها المسلمون [٥]. »

والظاهر أن هذه الرسالة لم تصل أيضا إلى لويس التاسع وهو فى بلاد الشام، ويحتمل أن تكون قد وصلت إليه بعد أن عاد إلى فرنسا.

* * *

وصل هولاكو إلى مدينة سمرقند سنة ٦٥٣ هـ (١٢٥٥م) ثم رحل منها إلى مدينة « كيش » Kesh إحدى مدن بلاد ما وراء النهر، حيث قابل أرغون حاكم المغول فى بلاد فارس. وأقام هولاكو فى هذه المدينة شهرا أرسل فى خلاله يطلب مساعدة أمراء آسيا الغربية ضد طائفة الإسماعيلية [٦]. والظاهر أن هؤلاء الأمراء بدأوا يخشون

---

(١) Lamb: The Crusades; The Flame of Islam, pp. 337 - 8.
(٢) Barker: The Crusades, pp. 83 - 84.
(٣) Sykes: The Quest for Cathay, pp. 102 - 110.
(٤) Barker: The Crusades, p. 84.
(٥) Lamb: The Crusades; The Flame of Islam, pp. 338 - 9.
(٦) Bretschneider: Mediæval Researches From Eastern Asiatic Sources, vol. i. p. 115.

هولاكو وحملته بدليل أنه لما عبر نهر جيحون فى أوائل سنة ٦٥٤ هـ (١٢٥٦ م) ، سارع سلطان سلاجقة الروم كما سارع أتابك فارس (أتابكية فارس) بإرسال الرسل لتحية هذا القادم ، كما حضر بعض هؤلاء الأمراء بأنفسهم لاستقباله[١] . وقد قضى هولاكو عام ٦٥٤ هـ (١٢٥٦ م) متنقلا فى مدن فارس المختلفة ، كما أرسل الحملات المتتالية بقصد الاستيلاء على حصون الإسماعيلية ، واستطاع فى نهاية هذه السنة أن يستولى على قلعة « ألموت » ، أقوى حصونهـا . ولم ير زعماء الإسماعيلية الذين كانوا يقيمون فى القلاع الباقية بداً من التسليم . وهكذا قضى المغول على هذه الطائفة قضاء مبرما ، فإنهم فضلا عن إزالة معالم هذه الحصون ، قتلوا كل من ينتمى إلى هذه الطائفة فى فارس[٢] .

وبعد أن حقق هولاكو الجزء الأول من برنامجه وهو القضاء على طائفة الإسماعيلية، سار لتحقيق الجزء الثانى وهو القضاء على الخلافة العباسية فى بغداد . وإن التوسع فى سرد حوادث الاستيلاء على الحاضرة الإسلامية لا يدخل فى نطاق هذا البحث ، ومع ذلك فلا بأس من أن نشير إلى هذه المسألة بشيء من الإيجاز .

أرسل هولاكو فى التاسع من شهر ربيع الثانى سنة ٦٥٥ هـ (٢١ سبتمبر سنة ١٢٥٧ م) إلى الخليفة المستعصم رسالة يدعوه فيها إلى تقويض حصون بغداد وأسوارها ، كما أرسل إليه يدعوه إلى الحضور بنفسه إلى حضرته وتسليم المدينة ، وإلا فالحكم للسيف وحده . ومما يسترعى النظر فى رسالة هولاكو ، أنه ضمنها احتجاجه على عدم مساعدته ضد الإسماعيلية[٣] . ولم يكن المقصود بهذه الرسالة غير التهديد والوعيد والتذرع بأسباب واهية لغزو بغداد ، ولا تخرج هذه الأسباب فى موضوعها عن موضوع قصة الذئب والحمل المعروفة ، تلك القصة التى أراد الذئب فيها أن يأكل الحمل ولم يجد وسيلة لذلك إلا الادعاء عليه بالباطل أنه عكر عليه الماء الذى يشرب منه . ومع أن هذه الأخطار لم تكن خافية على الخليفة ورجاله المقربين ، فإنه لم يهتم

---

(١) Bretschneider : Mediæval Researches From Eastern Asiatic Sources, vol. i. p. 116.

(٢) Ibid , vol. i. p. 118.

(٣) Rashid Eldin : Histoire Des Monglos de la Perse tom. I.pp. 229-233.

بالاستعداد لمواجهة هذا الشر الذى أحاط به وبدولته ، بل على العكس نراه — كما ذكر صاحب الفخرى — يهمل ويفرط فى الإهمال رغم تحذير وزيره ابن العلقمى ، لأن خواص الخليفة صوّروا له هذا الوزير فى صورة الرجل المغرض ، وأفهموه أن الخطر ليس بقريب[١] . وهكذا لم يكن هناك مفر من أن يحل بمدينة بغداد ما حل بأمهات المدن الإسلامية الأخرى على يد چنكيزخان .

وفى سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨م) استطاع هولاكو بخططه الحربية أن يحيط بالمدينة من جميع جهاتها ، وأن يحطم قلعتها وحصونها فى وقت قصير[٢] . ولما وجد الخليفة أنه لم يعد قادراً على مواجهة الجيش المغولى وأدرك أنه أساء التقدير منذ البداية، حاول أن يعقد الصلح مع هولاكو ، ولكن كل مساعيه ذهبت أدراج الرياح[٣] . ولم يجد الخليفة بداً من التغلب بنفسه ومعه أولاده الثلاثة إلى معسكر هولاكو حيث سلم حاضرة خلافته إلى أهل المغول فيها النهب والسلب سبعة أيام . وبعد عشرة أيام من تسليم الخليفة ، قتل الخليفة نفسه وابنه الأكبر[٤] . وقد وصف كثير من المؤرخين ماحل بمدينة بغداد فى هذه الفترة من قتل وسبي وتخريب ، ولكن يكفينا هنا ماذكره السيوطى ، إذ قدر عدد من قتل من أهلها بما يقرب من مليون نسمة ، ولم يترك هولاكو على قيد الحياة أحدا من العلماء والأمراء والحجاب وكبار رجال الدولة ، كما لم يسلم من أهل المدينة إلا من اختفى فى بئر أو قناة . وذكر السيوطى أيضا أن المغول نكلوا بالخليفة فقتلوه رفساً[٥] . وبالجملة فقد أزال هولاكو معالم هذه المدينة ومبانيها التى كانت آية من آيات الفن الإسلامى وأرسل كل ما استطاع أن يجمعه من نفائسها إلى أذربيجان، حتى تكون فى مأمن من كل مكروه . كما جمع هولاكو فى هذا الإقليم كل ما تجمع لديه من ثروة من بلاد السلاجقة الروم وجورجيا وأرمينيه ولورستان وكردستان[٦] .

---

(١) ابن طباطبا : الفخرى فى الآداب السلطانية ، ص ٢٩٢ .

(٢) De Guignes : Histoire Générale des Huns, des Turcs, des Mongols et des Autres Tartares Occidentaux tom. iii. pp. 131-2.

(٣) Bretschneider : Mediæval Researches From Eastern Asiatic Sources, vol. i. pp. 119-120.

(٤) Ibid , vol. i. p. 120.

(٥) السيوطى : تاريخ الخلفاء ، ص ٣١٣ .

(٦) Rashid Eldin : Histoire des Mongols de la Perse, tom. i. p. 317.

وكان لسقوط بغداد أثر كبير فى خضوع أمراء آسيا الغربية ، إذ أسرع إليه بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل فى هذه السنة معلناً خضوعه وولاءه ، كما سارع إلى إعلان هذا الخضوع الأتابك أبو بكر بن سعد صاحب فارس ، وأسرع سلطان سلاجقة الروم لمقابلته بالقرب من مدينة تبريز[١] . أما البلاد التى لم تسارع إلى التسليم فقد استولى عليها المغول عنوة . ولا يفوتنا أن نذكر فى هذا المقام أن سقوط الخلافة العباسية من بغداد كان سبباً فى انتقال مركز الخلافة فيما بعد إلى مصر ، التى أصبحت قبلة أنظار المسلمين فى جميع أنحاء العالم . واستمر الحال على هذا الوضع حتى قدر لهذه الخلافة أن تنتقل للمرة الثانية إلى القسطنطينية حاضرة العثمانيين .

كانت مهمة هولاكو التالية أن يخضع سوريا ثم يستولى على مصر . وقبل أن يبدأ رحيله إلى هذه الجهات أرسل عدة خطابات تحمل فى طياتها معانى التهـــديد والوعيد لحكام البلاد التى ستمر جيوشه فيها ، وعلى الأخص لحاكم مدينة حلب التى تعتبر مفتاح البلاد السورية[٢] . ولما أتم استعداداته الحربية سار إلى الغرب مكتسحاً ما بقى من بلاد ما بين النهرين ، ثم رحل إلى حلب وأخضعها ثم خربها سنة ٦٥٨هـ (١٢٦٠م) ، وشرع فى إتمام فتح ما بقى من الأراضى السورية فى الجنوب ، ولكنه اضطر إلى العودة إلى بلاده تاركا لقائده كتبغا إتمام هذا المشروع[٣] . أما عن السبب الذى دفع هولاكو إلى العودة إلى بلاده فى هذا الوقت العصيب دون أن يتم هذه الفتوح ، فإنه يرجع إلى رغبته فى الاشتراك فى انتخاب خلف لأخيه مانجو خان الذى كان قد توفى سنة ٦٥٥هـ (١٢٥٧م) . ولم يكن فى عزم هولاكو أن يترك خلفاً له ليتم هذا المشروع لولا إلحاح المسيحيين عليه وعلى رأسهم « هيثون » Haython ملك أرمينية ، وكانوا يرمون إلى استرداد بيت المقدس من أيدى المسلمين ، فاضطر هولاكو أن يترك قائده « كتبغا » ومعه عشرة آلاف مقاتل مغولى لإتمام هذا المشروع[٤] .

---

(١) Rashid Eldin : Histoire des Mongols de la Perse, tom.i. pp. 321-323.

(٢) السيوطى : تاريخ الخلفاء ، ص ٣١٤ – ٣١٥ .

(٣) Nicholson : A Literary History of the Arabs, p. 446.

(٤) Lamb : The Crusades; The Flame of Islam, p. 340.

ومما هو جدير بالملاحظة أن بيت المقدس كانت قد آلت إلى حكم المسلمين بعد استيلاء الصالح أيوب عليها سنة ٦٤٢ هـ (١٢٤٤م) .

سار كتبغا بهذا الجيش ميمما شطر البلاد المصرية وأرسل — كما جرت بذلك عادة المغول — خطاب تهديد إلى المصريين(١)، علهم يسارعون إلى تسليم بلادهم، ولكنهم أدركوا فى ذلك الوقت مدى قوة الجيش المغولى بعد رحيل هولاكو، فلم يهتموا بتهديد أو وعيد، واتجهوا نحو البلاد الشامية لملاقاة أعدائهم، واستطاعوا بفضل شجاعة قائدهم بيبرس البندقدارى أن يوقعوا بالمغول هزيمة منكرة فى موقعة «عين جالوت» سنة ٦٥٨ﻫ (١٢٦٠م). وقد قتل المماليك السواد الأعظم من رجال المغول واختطفوا بعضهم، أما من نجا من القتل والأسر فقد بادر إلى الهرب. واستطاع بيبرس بعد هذا الانتصار أن يعيد إلى حوزة المسلمين ما استولى عليه المغول من البلاد الشامية ومن أهمها دمشق وحلب (٢).

وحرى بنا أن نذكر فى هذا المقام أن المغول قد أثروا بطريق غير مباشر فى هجرة بعض الأقوام الآسيوية إلى غرب آسيا، فكانوا — كما ذكرنا — سببا فى هجرة تلك القبيلة التركية إلى آسيا الصغرى فكونت نواة الدولة العثمانية فيما بعد. كذلك نرى أن غزوات المغول كانت السبب فى هجرة كثير من الخوارزميين إلى البلاد الشامية وإلى مصر، وقد شجعهم الصالح أيوب واستمالهم إلى البلاد المصرية جريا على سياسته التى كانت ترمى إلى اجتذاب المماليك إلى بلاده. وقد استخدمهم الصالح أيوب فعلا فى حروبه مع الصليبيين فى بلاد الشام، وتمكن بفضل مساعدتهم من الاستيلاء على بيت المقدس من أيدى المسيحيين سنة ٦٤٢ﻫ (١٢٤٤م)(٣). كذلك نرى الصالح أيوب يشترى عددا كبيرا من أسرى المغول الذين أسروا فى حروبهم فى بلاد المشرق وفى بلاد القفجاق وغيرها، ويضمهم إلى مماليكه الذين كانوا يعرفون بالمماليك البحرية(٤). وقد قدم إلى مصر عدد كبير من المغول فى أوائل عهد الملك الظاهر بيبرس، واتخذوا الإسلام دينا لهم، وأقاموا فى دور بنيت لهم فى الجهة المعروفة اليوم بباب اللوق. وكان

(١) كانت مصر تحت سلطنة مظفر الدين قطز.

(٢) السيوطى: تاريخ الخلفاء، ص ٣١٥. ومما هو جدير بالذكر أن السواد الأعظم من الجيش المصرى كان يتكون من بقايا جيش جلال الدين منكبرتى ومن الخوارزميين الذين كانوا قد لجأوا إلى مصر بعد غزو جنكيزخان. Rashid Eldin : Histoire Des Mongols de la Perse, tom. i.p. 343.

(٣) Lane-Poole : History of Egypt in the Middle Ages, p. 231.

(٤) المقريزى: الخطط، ج ٢ ص ٢٢١

هؤلاء المغول موضع عناية السلطان بيبرس فنحهم بعض الإقطاعات . وقد شجعت هذه المعاملة الحسنة التى وجدها المغول فى ذلك العهد عددا كبيرا منهم على الالتجاء إلى مصر ، وأدى نشاطهم إلى تزايد العمائر فى حى باب اللوق والأحياء المجاورة له[١].

وإذا عرفنا النظم الاجتماعية لدولة المماليك فى مصر وعرفنا طريقة تولى سلاطينها الحكم ما شككنا لحظة فى احتمال وجود عدد كبير من نسل كل من الخوارزميين والمغول بين أسماء سلاطين دولة المماليك ، أو على الأقل بين أسماء رجالها البارزين ، الذين كان لهم شأن يذكر فى إدارة شئون هذه الدولة[٢].

٢ — الأثر الدينى

كان المغول فى بادىء أمرهم يدينون بالديانة الشامانية[٣] وخاصة فى تلك الأيام التى كانوا فيها على بداوتهم وفطرتهم . وقد بدأ المغول يتحررون من هذه الديانة تدريجيا منذ أخذوا يتوسعون شرقا وغربا ويؤسسون لهم ملكا عريضا ، فالتقوا فى أثناء توسعهم بحضارات متباينة وديانات عدة ، وتأثروا بها بمقدار ما كانت عليه هذه الحضارات والديانات من قوة أو ضعف .

وقد وقع المغول منذ توسعهم فى هذه الفتوح تحت تأثير ديانات ثلاث ، هى البوذية والمسيحية ، والإسلام . وقد حاول دعاة هذه الديانات الوصول إلى قلوب هؤلاء البدائيين ، فنشأ صراع عنيف بينهم ، وحاول كل فريق منهم أن يكون له قصب السبق فى هذا المضمار[٤]. ولم يكن المغول فى بداية أمرهم يفرقون بين هذه الديانات ، فأطلقوا

---

(١) محمد جمال الدين سرور : الظاهر بيبرس وحضارة مصر فى عصره ، ص ١٦٦ .

(٢) يروى فى هذا الصدد أن مظفر الدين قطز أحد سلاطين المماليك فى مصر كان من أقرباء السلطان جلال الدين خوارزم شاه (جلال الدين منكبرتى) ، وقد أسر فى أثناء حروب المغول وبيع بدمشق للسلطان الملك المعز أيبك . انظر المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج ١ قسم ٢ ص ٤١٧ حاشية ٢ ، ص ٤٢٧ حاشية ٣ . وابن خلدون : العبر وديوان المبتدا والخبر ، ج ٥ ص ٣٧٩ .

(٣) تتمثل هذه الديانة فى عبادة بعض الآلهة المنحطة الشريرة التى كان يخشاها المغول ، فيقدمون إليها القرابين والضحايا اتقاء لشرها وأذاها ، وفضلا عن ذلك كان أتباع هذه الديانة يعبدون أرواح أجدادهم لاعتقادهم أن لهذه الأرواح سلطانا كبيرا على حياتهم .

(٤) Arnold : The Preaching of Islam, p. 220.

الحرية لكل فرد ليتبع الطريق الذى يختار . وليس أدل على ذلك من أن جنكيزخان نفسه ساوى بين أتباع جميع هذه الديانات دون أن يتحيز إلى إحداها(١) . وأكثر من ذلك نراه يعين كثيرا من المسلمين فى المناصب المختلفة فى بلاد ماوراء النهر ، كما اتخذ فى حاشيته أشخاصا يدينون بالديانة البوذية . وكذلك نرى «كوبلاى خان» يتخذ من «ماركو بولو» رفيقا له ويعهد إليه بتصريف كثير من المهام السياسية فى الدولة(٢) . وإذا كان المسلمون قد أصابهم ما رأيناه من قتل وتعذيب على يد جنكيزخان ، فقد كان هذا تعذيبا سياسيا اشترك فيه أصحاب الأديان جميعا ، ولم يكن اضطهادا دينيا بالمعنى الذى نعرفه . وليس أدل على احترام جنكيزخان لرجال الدين من أنه أعفاهم من الضرائب التى فرضها على عامة الشعب(٣) .

وقد تأثر المغول فى القسم الشرقى من إمبراطوريتهم بالديانة البوذية ، التى كانت فى ذلك العصر قد قطعت علاقتها بموطنها الأصلى فى بلاد الهند واستقرت فى هضبة التبت ، فأخذ دعاتها يعملون جاهدين على نشرها فى الجزء الشرقى من آسيا(٤) . وقد انتصر دعاة هذه الديانة انتصارا عظيما باعتناق كوبلاى خان (٦٥٥ — ٦٩٣ هـ = ١٢٥٧ — ١٢٩٤ م) هذه الديانة(٥) ، ولا يزال سكان هذا الجزء من القارة الأسيوية يدينون بها إلى اليوم .

* * *

ولم يكن دعاة الديانة المسيحية أقل شأنا فى ميدان التنافس الدينى ، بل نراهم يعملون جاهدين كذلك على إيصال هذا الدين إلى قلوب أولئك البدائيين . وليس معنى هذا أن المسيحيين لم يصلوا إلى شرق آسيا إلا بعد الغزو المغولى ، ولكن الواقع أنهم وصلوا إلى هناك منذ القرن الأول الهجرى (السابع الميلادى) حتى إذا جاء عصر جنكيزخان كانت جماعات من المسيحيين تنتشر فى هذه البلاد ، ولكنها لم تكن من القوة بحيث تستطيع أن تنشر هذا الدين بين المغول ، رغم أنها لم تأل جهداً فى نشر الدعوة له .

(١) Browne : A Literary History of Persia, vol. ii. p. 440.
(٢) Vambery : History of Bokhara, p. 139.
(٣) Browne : A Literary History of Persia, vol. ii. p. 440.
(٤) Huzayyin : Arabia & The Far East, p. 202.
(٥) Browne : A Literary History of Persia, vol. ii. p. 440.

وفى الوقت الذى ظهر فيه جنكيزخان ، كانت قبيلة القرايت Kara'its المغولية التى تسكن جنوبى بحيرة بيكال تدين بالديانة المسيحية . وقد تزوج جنكيزخان من ابنة رئيس هذه القبيلة بعد أن تم له إخضاعها . وكذلك نرى أجتاى Ogotai يتزوج من نفس هذه القبيلة . ولم يقل عطف كيوك Kuy.uk بن أجتاى على أصحاب الديانة المسيحية عن عطف أسلافه ، رغم عدم اعتناقه إياها(١) .

وقد كثر المسيحيون النسطوريون فى بلاط خانات المغول فى الشرق فنرى منهم عدداً كبيراً يشغلون المناصب الكبرى فى الدولة المغولية ، ومن بينها منصب الوزارة. وأكثر من ذلك نرى خانات المغول يقبلون على الزواج من المسيحيات (٢) . ونلاحظ أن نظرة المسيحيين إلى المغول قد تطورت بعد عصر جنكيزخان الذى مد فتوحه فى غرب آسيا . فقبل غزو جنكيزخان ، كان أقصى ما يطمع فيه المسيحيون أن ينشروا هذا الدين بين هؤلاء القوم ، وكانوا فى ذلك الوقت يقنعون بما قد يصيبونه من نجاح قليل . ولكن بعد أن غزا جنكيزخان غربى آسيا وأدخل خلفاؤه الرعب فى قلوب أهل أوربا ، نظر المسيحيون إلى المغول نظرة خوف وهلع فى بادىء الأمر ، حتى إذا ما سكنت قلوبهم ، واطمأنت نفوسهم ، حاولوا أن يستميلوا هؤلاء الغزاة إلى دينهم ، بل حاولوا أن يستعينوا بهم على المسلمين .

أخضع جنكيزخان كما رأينا أواسط آسيا ، ثم أخضع ابنه أجتاى خان (٦٢٤ — ٦٣٩ هـ = ١٢٢٧ — ١٢٤١ م) أرمينية ، وفى عهده واصل باتو Batu بن جوجى إخضاع جنوبى روسيا وبولندا ، واستولى على بودابست سنة ٦٣٩ هـ (١٢٤١م) ، فهال ذلك الأوربيين وجعلهم يقفون مشدوهين إزاء هذا الخطر المفاجىء ، بل إن ذلك حفز رجال الدين إلى إرسال البعوث إلى « قره قورم » حاضرة المغول ، لاستطلاع نواياهم نحو القارة الأوربية ، وكان من أثر هذه البعوث أن زادت معلومات الأوربيين عن الشرق (٣) . ففى سنة ٦٤١ هـ (١٢٤٣ م) ، جلس انسوت الرابع على عرش البابوية

Arnold : The Preaching of Islam, p. 221. (١)

Heyd : Histoire du Commerce du Levant au Moyen Age, tom. ii.pp 66. (٢)

Joseph Jacobs : The Story af Geographical Discovery, pp. 70-71. (٣)

وكان الخطر المغولى فى ذلك الوقت ماثلا للعيان ، فجمع بعد انتخابه بسنتين مجمعا دينيا فى مدينة ليون لمواجهة خطر المغول الذى بات يهدد القارة الأوربية ، وقد اقترح فى هذا الاجتماع أن تسد المسالك والمنافذ الأوربية فى وجه المغول بالأسوار والخنادق والمبانى وقد سمع البابا بوجود جاليات مسيحية بين المغول ، وعقد العزم على استغلالهم فى القضاء على ذلك الخطر ، فأرسل إلى الخاقان أحد دعاته وهو جون دى بلانو كاربينى John De Plano Carpini ، داعياً للديانة المسيحية ، فضلا عن هدفه الأصلى الذى يرمى إلى استطلاع نوايا المغول تجاه أوربا .

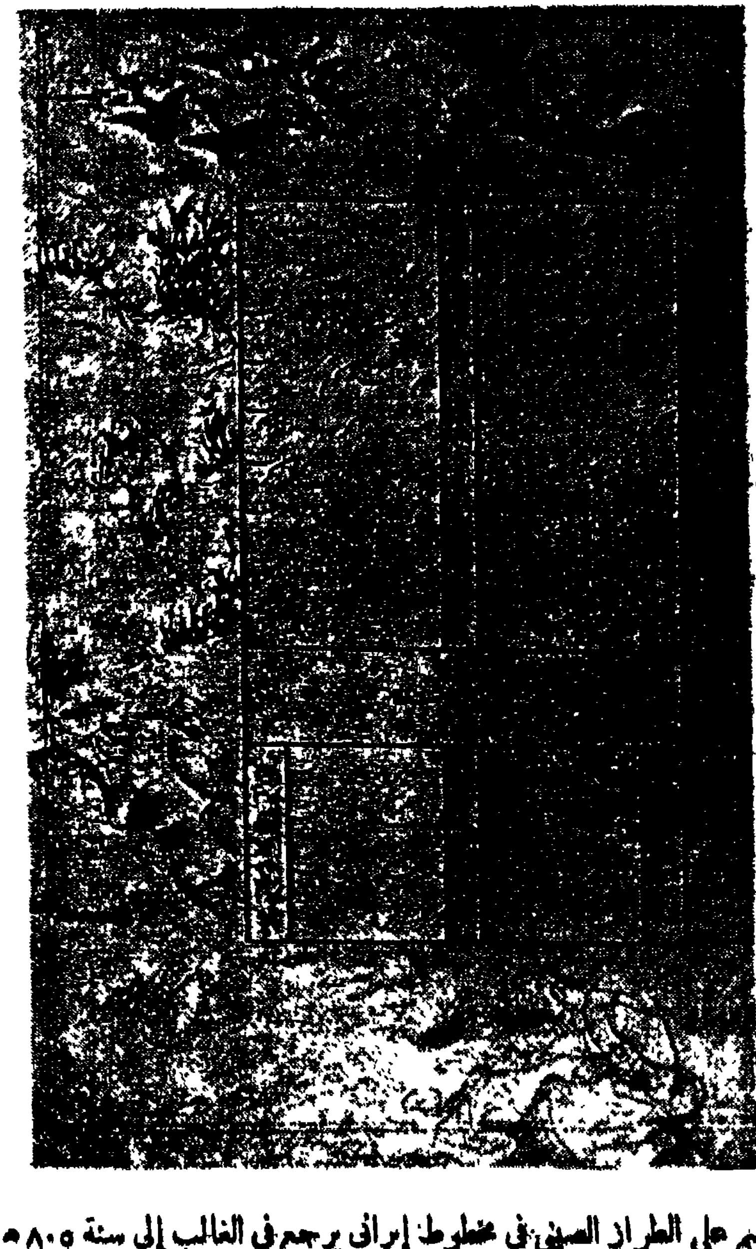
وقد بدأ كاربينى رحلته من مدينة ليون بصحبة بعض رجال الدين من المسيحيين سنة ٦٤٣ هـ (١٢٤٥ م) واتجهوا إلى منغوليا عبر سهول أوربا ، فوصلوا إلى شمال البحر الأسود حيث التقوا بمعسكر باتو Batu مؤسس دولة مغول القفجاق ، ثم اخترقوا بلاد المسلمين التى أصابها التخريب ، وأخيراً وصلوا إلى منغوليا ، وهناك التقوا بكثير من رسل حكام البلاد المختلفة فى غرب آسيا ومن بينهم رسل الخليفة العباسى المستعصم . وقد جاء كل هؤلاء الرسل والسفراء لإعلان طاعتهم ، أو لتقديم الهدايا للخاقان ، أو لتقديم ما فرضه المغول على بلادهم من ضرائب . وقد وصف كاربينى « كيوك خان » من الناحيتين الجسمانية والخلقية ، وذكر كيف أنه كان يعطف على المسيحيين . وبعد أن مكث فى البلاد المغولية زهاء أربعة أشهر لقى فى أثنائها من المغول ما جعله يلهج بكرم ضيافتهم ، عاد إلى روما سنة ٦٤٥ هـ (١٢٤٧ م) يحمل معه رسالة ودية لزعيم المسيحيين (١) . على أن مبعوث البابا إذا كان قد أخفق فى حمل الخاقان على اعتناق الديانة المسيحية كما كان يبغى ، فإن هذه الرحلة نبهت الأوربيين إلى كثير مما كانوا يجهلونه من خفايا الشرق ، إذ أن كاربينى قد وصف دون شك مدينة « قره قورم » حاضرة المغول كما وصف البلاد التى مر بها وصفاً أثار شغف الأوربيين وحفزهم إلى الاستزادة من أخبار الشرق (٢) . وحرى بنا أن نذكر هنا أن المسيحيين الذين أخذهم المغول بالقوة إلى وسط آسيا ، وهؤلاء الذين ذهبوا إلى هذه البلاد

---

(١) Sykes: The Quest for Cathay, pp. 93 — 98.

(٢) Barker: The Crusades, p. 86.

لوحة ١٥



رسم على الطراز الصيني في مخطوط إيراني يرجع في الغالب إلى سنة ٨٠٥ هـ (١٤٠٢ م) ويبدو التأثر بالأساليب الفنية الصينية من الرسوم الريفية ورسوم الطيور التي كانت نادرة جداً في هوامش المخطوطات الإيرانية .

(عن كتاب الصين وفنون الإسلام للدكتور زكي محمد حسن)

تجار ، كانوا يستطيعون من غير عناء أن يقيموا طقوسهم الدينية . كما كانوا في كل وقت من أوقاتهم موضع احترام المغول كما شهد بذلك المبشرون الذين وفدوا على هذه الجهات (١) .

على أن تسامح المغول مع أصحاب هذه العقائد الدينية على اختلافها ، جعل المسيحيين فى غرب آسيا يحاولون التقرب منهم واجتذابهم إلى صفوفهم ضد المسلمين ، حتى يستطيعوا بمعاونتهم أن يستخلصوا بيت المقدس خاصة وبلاد الشام عامة من أيديهم . وهذا ما حفز هيثون Haython ملك أرمينية وبوهيمند السادس أمير أنطاكية على التحالف مع مانجو خان (٦٤٦ — ٦٥٥ هـ = ١٢٤٨ — ١٢٥٧ م) ، الذى رحب بهذا الحلف وأرسل أخاه هولاكو لغزو بغداد . وكان من أثر سقوط هذه المدينة ودخول الجيش المغولى أراضى أرمينية وجورجيا ، أن اعتنق كثير من المغول الدين المسيحى (٢) . ولا يفوتنا أن نذكر فى هذا المقام أن هولاكو ، رغم عدم اعتناقه الديانة المسيحية ، قد شيد الكنائس فى جميع المدن التى استولى عليها مدفوعاً فى ذلك بدافع قوى من ناحية زوجته المسيحية (٣) . وقد ساعد على انتشار الكنائس فى المدن المختلفة عبر القارة الآسيوية ، ما ذكرناه من تمهيد الطرق التجارية عبر هذه القارة فى وجه الأوربيين عقب الغزو المغولى (٤) .

وكان من أثر ما عرفه المسيحيون من ميل المغول إليهم ، أن علق لويس التاسع أهمية كبيرة على ذلك الميل منذ وصل إلى بلاد الشرق ، فإنه لما نزل بجزيرة قبرص سنة ٦٤٦ هـ (١٢٤٨ م) ، تلقى من الحاكم المغولى فى فارس رسالة يعرض عليه فيها استعداده لمهاجمة المسلمين ومساعدته فى مهمته الأساسية ، وهى الاستيلاء على بيت

---

(١) Heyd: Histoire du Commerce du Levant au Moyen Age, tom. ii. pp. 67 — 68.

(٢) Arnold: The Preaching of Islam, pp. 221 — 222.

(٣) Heyd : Histoire du Commerce du Levant au Moyen Age, tom. ii. pp. 67 — 68.

(٤) Eileen Power: The Guilds and Medieval Commerce, p. 2915. (Universal History of the World, vol. 5.)

المقدس (١) . وقد علم لويس التاسع مما ورد فى هذه الرسالة كما ذكر سيكس Sykes أن الخاقان المغولى «كيوك» اعتنق الديانة المسيحية مع كثير من أفراد رعيته(٢). لذلك أرسل لويس التاسع إلى بلاط الخاقان قسيسا يدعى «أندرو» Andrew ، ولكنه لما وصل إلى هناك علم أن الخاقان قد مات . على أن لويس التاسع حلت به الهزيمة فى موقعة المنصورة أثناء غيبة هذا الرسول فى بلاد المغول ، وترك الديار المصرية بعد ذلك وسار إلى فلسطين حيث لقى هذا الرسول الذى حمل إليه رداً لا ينطوى على شىء من الود من ذلك المغولى الذى كان يقوم بحكم دولة المغول مؤقتا ، إلى أن ينتخب الخاقان الجديد . ولما انتخب مانجو خان ، أرسل لويس التاسع إلى بلاط المغول رسولا آخر يدعى «وليم روبروك» الذى رحل من عكا سنة ٦٥٠ هـ (١٢٥٢م) واتجه شطر القسطنطينية حيث مكث بها عاماً يستقصى ما كان يفتقر إليه من أخبار تساعده فى مهمته ، ثم رحل إلى منغوليا . وقد وصف «وليم روبروك» عادات المغول وطباعهم وحياتهم الاجتماعية وغير ذلك مما صادفه فى رحلته ، كما وصف جميع القبائل والجماعات التى كان يتكون منها العنصر المغولى ، والتى أخضعها جنكيزخان ، ثم عاد إلى عكا فى صيف عام ٦٥٣ هـ (١٢٥٥ م) يحمل إلى لويس التاسع رسالة لا تخرج فى معناها عن رسالة سلفه التى أرسلها إلى البابا (٣) .

ولم تؤد هذه الرحلة إلى شىء أكثر من ازدياد معلومات الأوربيين الجغرافية عن البلاد

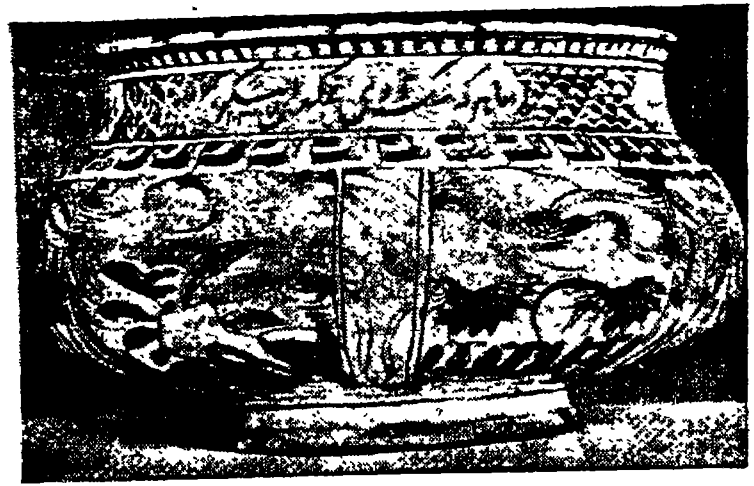
(١) يرى الدكتور عزيز سوريال عطية أن السبب الذى دفع المغول إلى الإسراع بالتحالف مع لويس التاسع أنهم كانوا فى ذلك الوقت يفكرون فى الاستيلاء على بغداد . ولكى يتحقق هذا الأمل ، عمدوا إلى أن يشغلوا المصريين مع لويس التاسع بوجه خاص ، والمسيحيين فى الشرق بوجه عام ، حتى ينصرف المصريون عن مساعدة الخلافة العباسية إذا ما غزاها المغول .
Atiya, A. S.: The Crusade in the Later Middle Ages, p. 242.

(٢) لم يعتنق كيوك الديانة المسيحية ، ولكنه ترك أمور دولته لوزيريه المسيحيين ، كما ملأ بلاطه بكثير من الرهبان ورجال الدين من المسيحيين ، وكان من أثر ذلك أن لقى المسلمون فى عهده صنوفا مختلفة من العذاب .

(٣) Sykes: The Quest for Cathay, pp. 101 — 110.

ويلاحظ أن لويس التاسع لم يلتق بوليم روبروك فى بلاد الشام ، إذ أنه رحل عنها إلى فرنسا سنة ٦٥٢ هـ (١٢٥٤م) أى فى السنة السابقة لوصول هذا الرسول إلى عكا .

لوحة ١٦



إناء من الخزف يرجع إلى سنة ١٠٣٧ ﻫ (١٦٢٨ م) من مجموعة القسم الإسلامى فى متاحف الدولة ببرلين . وهو يشبه بعض أنواع الخزف الصينى فى المادة وروح الزخرفة .



سلطانية من الخزف ترجع إلى القرن التاسع الهجرى (الخامس عشر الميلادى) تبدو فى زخارفها رسوم السحب الصينية .

(عن كتاب الصين وفنون الإسلام للدكتور زكى محمد حسن)

الآسيوية (١) . على أن أهم ما استخلصه المسيحيون من هذه الرحلة وغيرها من الرحلات السابقة ، أنهم وجدوا المغول كثيري العطف على دياناتهم ، وأن ذلك قد بعث فيهم الأمل وحفزهم على نشر هذا الدين بين المغول . وكان من السهل جداً أن ينجح المسيحيون في هذا السبيل لولا ذلك الانقسام المذهبي الذي قام بين المسيحيين أنفسهم حتى أصبحوا فريقين ، فريقاً يناصر الكنيسة النسطورية ، وفريقاً يناصر الكنيسة الكاثوليكية . ولم يتفق أصحاب المذهبين لا في العقيدة ولا في طريقة التبشير مما أضعف من قوة المسيحيين أمام المسلمين . كما نرى الكنيسة النسطورية في ذلك الوقت تسير في طريق الانهيار ، ولم يحاول أتباع الكنيسة الكاثوليكية أن يستفيدوا من ذلك الضعف (٢) . وهكذا نرى أنه بالرغم مما بذله المسيحيون في ذلك الوقت من جهود لاجتذاب المغول إليهم سياسيا ودينيا ، فإن نجاحهم كان محدودا في ذلك المضمار . ففي الوقت الذي كان فيه أصحاب المذاهب المسيحية يتنازعون فيما بينهم ، نرى الديانة البوذية توطد أقدامها بين المغول في شرق آسيا ، كما نرى المسلمين يعملون جاهدين على نشر دينهم في غربها .

لم تكن الديانة الإسلامية بالديانة الجديدة على أهالي شرق آسيا بوجه عام وعلى المغول بوجه خاص ، فقد وصل المسلمون إلى أقصى أقاليم آسيا الشرقية للتجارة مع أهلها ، ونجحوا في تأسيس جاليات عربية إسلامية لهم هناك ، وقد زاد عددهم في البلاد الصينية بعد تأسيس الدولة العباسية . وكان من أثر ذلك أن توطدت العلاقات بين حكام الصينيين وخلفاء بني العباس ، وازداد عدد المسلمين في بلاد الصين تبعاً لذلك ، وخاصة بعد أن تزوج هؤلاء المسلمون من نساء صينيات (٣) .

على أن عدد المسلمين قد زاد في شرق آسيا على أثر غزوات المغول وحملاتهم على غرب هذه القارة ، فقد صحب جنكيزخان معه إلى بلاد المشرق الأقصى بعد إخضاع الدولة الخوارزمية ، عدداً كبيراً من أصحاب الحرف والمهن للاستعانة بهم وبخبرتهم

---

(١) Barker: The Crusades, p. 86.

(٢) Huzayyin: Arabia & The Far East, p. 262.

(٣) Fitzgerald: China, A Short Cultural History, pp. 326 7.

فى بلاده ، وأدى ذلك بطبيعة الحال إلى تقوية الجاليات الإسلامية فى بلاد المشرق الأقصى وبالتالى إلى ازدياد انتشار الإسلام فيها عما كان عليه الحال قبل الغزو . ومما ساعد على تفوق الديانة الإسلامية على منافستها المسيحية فى شرق آسيا ، تفوق المسلمين فى ميدان المنافسة التجارية ، وليس هناك من شك فى أن انتشار العقائد الدينية يرتبط ارتباطا وثيقا بالعلاقات التجارية ، فإن التجار المسلمين كانوا يعملون على نشر الإسلام أينما حلوا ، وبذلك انتشر الإسلام فى الشرق فى مدة وجيزة ، ووصل إلى البلاد التى كان ينشر فيها البوذيون دياناتهم[١] . ورغم هذه الجهود التى بذلها المسلمون والمسيحيون فى شرق آسيا ، لم يستطيعوا أن يتغلبوا على الديانة البوذية التى أحرزت قصب السبق فى ذلك المضمار ، بسبب كثرة أتباعها فى هذه البلاد منذ زمن طويل ، على حين أدى انقسام المسيحيين وقلة عدد المسلمين ، إلى انتشار هاتين الديانتين فى نطاق ضيق .

أما فى غرب آسيا فقد قاسى المسلمون فى أثناء الغزو صنوفا مختلفة من العذاب ، وقد رأينا كيف أن مدنهم خربت وكرامتهم الدينية أهينت بعد أن هدم المغول مساجدهم وقتلوا أكابر علمائهم وفقهائهم ، وأسروا من نجا منهم من القتل . وقد ذكر براون Browne نقلا عما كتبه الجوينى أنه لم يبق من أهالى البلاد الإسلامية التى غزاها المغول إلا مايقرب من جزء من ألف من مجموع عدد سكانها[٢] . ولم يخص المغول المسلمين بهذا العذاب بل إن ذلك كان من نصيب جميع سكان غربى آسيا التى غزاها المغول ، الذين لم يميزوا بين أصحاب دين وآخر فى المعاملة .

وفى عهد كيوك خان (٦٤٤ — ٦٤٦ هـ = ١٢٤٦ — ١٢٤٨ م) ، قاسى المسلمون صنوفا مختلفة من العذاب ، إذ أطلق العنان لوزيريه المسيحيين ، كما ملأ بلاطه بكثير من الرهبان المسيحيين . وقد اضطره بعض خواصه من المتعصبين للديانة المسيحية إلى استدعاء بعض المسلمين بحجة شرح مبادىء الدين الإسلامى ، فلما أخذ هؤلاء فى شرح دينهم وقاموا للصلاة ، نكل بهم المسيحيون بأن ضربوا رءوسهم فى الأرض ، وأهانوهم إهانات شتى . أما أرغون Arghun رابع إيلخانات المغول فى فارس (٦٨٣ — ٦٩٠ هـ =

---

(١) Huzayyin : Arabia & The Far East, pp. 264 — 265.

(٢) Browne : A Literary History of Persia, vol. ii. p. 439.

=١٢٨٤ — ١٢٩٠م)، فقد اشتط فى اضطهاد المسلمين فى جميع أنحاء دولته حتى أنه حرم عليهم التوظف فى دواوين الحكومة، كما حرم عليهم أن تطأ أقدامهم بلاطه (١).

ومع أن المسلمين لاقوا صنوفا مختلفة من العذاب فى عهود المغول الأولى إلا أنهم صبروا وصابروا مؤمنين بنصر يأتيهم فى النهاية على هؤلاء المتبربرين. على أن المسلمين لم يعدموا وسط هذا الاضطهاد أناسا يعطفون على ديانتهم ويؤمنون بها، فنرى «كورجوز» Kurguz حاكم فارس من قبل أجتاى خان، يعتنق الديانة الإسلامية فى أواخر أيامه. على أن أول نصر حقيقى للمسلمين قد تحقق باعتناق بركة Baraka خان القبيلة الذهبية (٦٥٤ — ٦٦٦هـ = ١٢٥٦ — ١٢٦٧م) الديانة الإسلامية وخاصة بعد أن تحه السواد الأعظم من رعيته. بل يمكن القول إن كل رجال جيوشه كانوا من المسلمين. وكان من أثر ذلك أن توطدت العلاقة بين بركة خان والظاهر بيبرس فى مصر بل تحالف الفريقان ضد عدوهما المشترك الذى يتمثل فى أسرة هولاكو فى فارس (٢).

ولم يدخر هولاكو وسعا فى أن يحمى نفسه من هذا الحلف الإسلامى. فعمل بدوره على البحث عن حلفاء جدد يناصرونه على هؤلاء المسلمين، وقد وجد هؤلاء الحلفاء دون مشقة فى الحكام المسيحيين فى غرب آسيا ووجد من ملك أرمنية ومن زعماء الصليبيين فى بلاد الشام رغبة صادقة فى هذا السبيل. وكان لزوجة هولاكو المسيحية أكبر الأثر فى انصرافه عن الديانة الإسلامية، إذ حاولت بشتى الوسائل أن تستميله إلى دينها، ولا بد أن تكون هذه الزوجة قد ساعدت على توطيد أواصر الصداقة بين هولاكو وبين زعماء المسيحيين فى غرب آسيا.

أما «أباقا خان» Abaqa بن هولاكو (٦٦٣ — ٦٨٠هـ = ١٢٦٥ — ١٢٨١م)، فقد تزوج من ابنة الإمبراطور ميخائيل باليولوجوس Michael Paleologus إمبراطور الدولة البيزنطية. ورغم عدم اعتناقه الديانة المسيحية، نراه يرسل سفراءه إلى ملوك أوربا وأمرائها، كما كثرت رسائله إليهم سعيا وراء التحالف معهم على المسلمين فى الشرق وطردهم

---

(١) Arnold: The Preaching of Islam, pp. 225 — 6.

(٢) Ibid, pp. 227 — 8.

من بيت المقدس[١] . على أن هذه الجهود كان نصيبها الإخفاق ، إذ كانت الأحوال ملائمة للمسلمين . وقد شهد أباقاخان نفسه المماليك وهم يكيلون الضربات المتتالية للصليبيين فى بلاد الشام ، الذين كانوا فى النزع الأخير .

وبقدر ما كان يصيب المسيحيين فى بلاد المشرق من تدهور تدريجى ، نرى نفوذ المسلمين يقوى على مر الزمن حتى أن « تكودار أحمد » Takudar أخا أباقاخان (٦٨٠ — ٦٨٣هـ = ١٢٨١ — ١٢٨٤م)، اعتنق الديانة الإسلامية عند ما بلغ سن الرشد[٢]. كما سعى إلى جذب رعاياه إلى هذا الدين الجديد ، فأجزل العطايا والمنح لكل من يعتنق الإسلام كما أغدق عليهم ألقاب الشرف فى دولته ، وقد لجأ تكودار إلى طريقة الترغيب فى الدين دون الإكراه على الدخول فيه، وخاصة عندما وجد كثيراً من المغول يتمسكون بأهداب دينهم[٣]. على أن اضطهاد المسيحيين فى عهد تكودار أحمد قد أدى إلى اندلاع نيران الثورة عليه فى البلاد بزعامة ابن أخيه «أرغون» Arghun الذى دبر قتله ثم اعتلى العرش من بعده (٦٨٣ - ٦٩٠هـ = ١٢٨٤ - ١٢٩١م) ؛ وبعد مقتل تكودار انتقم خصومه منه أشد انتقام فمثلوا بجثته بأن شطروها شطرين[٤]. وكان طبيعيا أن يعود المسيحيون بعد مقتل تكودار إلى سابق عهدهم ، فاضطهدوا المسلمين وعذبوهم حتى أنهم أقصوهم عن مناصب الدولة .

وقد ظل المغول ينعمون بوثنيتهم ، كما استمر المسيحيون فى اضطهادهم للمسلمين

---

(١) Sykes: A History of Persia, p. 62.

(٢) كان تكودار فى بداية أمره يدين بالديانة المسيحية ، وقد تعمد فى صباه وتسمى منذ ذلك الحين باسم نيقولا ، ولكنه اتخذ لنفسه اسم أحمد بعد اعتناقه الدين الإسلامى .

ويظهر أنه كان للمسيحيين نفوذ عظيم فى بداية عهد تكودار ، ومما يدل على ذلك أنه قد وجدت قطعة من النقود ترجع إلى عهده كتب على أحد وجهيها عبارة المسيحيين المشهورة وهى « باسم الاب والابن وروح القدس » ، وكتب على الوجه الآخر اسم الخاقان المغولى ولقبه باللغة المغولية . وعلى الرغم من أن التاريخ الذى ضربت فيه هذه القطعة قد محى بحكم الزمن، فالراجح أن هذه القطعة ترجع إلى أوائل عهد تكودار أى قبل أن يعتنق الديانة الإسلامية . انظر

Lane-Poole: Catalogue of the Collection of Arabic Coins Preserved in the Khedivial Library at Cairo, p. 347.

(٣) Arnold: The Preaching of Islam, pp. 230. — 231.

(٤) Sykes: A History of Persia, p. 63.

حتى تولى غازان محمود Ghazan Mahmud سابع إيلخانات المغول فى فارس الحكم (٦٩٤ - ٧٠٣ه = ١٢٩٥ - ١٣٠٤م) فاعتنق الدين الإسلامى . ولم يقف غازان موقفاسلبيا إزاء رعاياه كما فعل تكودار أحمد من قبل ، بل إنه فرض هذه الديانة فرضاً على جميع سكان بلاده وجعلها دين الدولة الرسمى (١) . ومنذ ذلك الوقت أخذ الإسلام ينتشر انتشاراً سريعاً فى دولة إيلخانات المغول فى فارس ، وضاع ما كان يؤمله المسيحيون من انتصار على الدين الإسلامى ، كما ضاعت مجهوداتهم السابقة فى الدعوة لهذا الدين .

٣ — الأثر الاقتصادى

من الثابت أن حركة التجارة فى القارة الأسيوية تأثرت إلى حد كبير بعد غزوات جنكيزخان ، ويمكن أن يقال إنها نشطت عما كانت عليه من قبل . كذلك يمكن القول إن غزو المغول غرب آسيا قرب القارة الأوربية من القارة الأسيوية ، وسهل بذلك اتصال الشرق بالغرب . وإذا علمنا أن الحملات الحربية يتبعها عادة فترة هدوء تمتزج فيها حضارة كل من الغالب والمغلوب ، وتؤثر إحداهما فى الأخرى وتتأثر بها — إذا علمنا ذلك أدركنا مدى ما حمله المغول ، الذين تأثروا من قبل بحضارة الصينيين ، إلى البلاد الإسلامية من حضارة الشرق الأقصى . كما نستطيع أن نتصور مدى ما حمله هؤلاء المغول من حضارة المسلمين إلى بلادهم وخاصة بعد أن صحبوا معهم ذلك العدد الكبير من مهرة الصناع والفنانين المسلمين ، الذين أسروهم فى البلاد الإسلامية .

وليس معنى ذلك أن العرب والمسلمين لم يعرفوا بلاد الصين خاصة والشرق الأقصى عامة حتى زمن جنكيزخان ، بل نلاحظ أن العرب وصلوا إلى هذه البلاد النائية قبل ذلك التاريخ بزمن طويل . فقد حوت الكتب الصينية بين سطورها ما يدل على أن العرب قد عرفوا هذه الجهات بكثرة ظاهرة منذ ظهور الإسلام ، ويستدل مما جاء فى كثير من المصادر الصينية أنه قد وجد فى القرن الثانى من الهجرة (الثامن الميلادى) كثير من المصانع العربية فى مدينة كانتون (٢) . ومن الثابت أن جماعات متفرقة

---

(١) Arnold : The Preaching of Islam, p. 232.

(٢) Bretschneider : Mediæval Researches From Eastern Asiatic Sources, vol. i. pp. 264 — 265.

من العناصر العربية قد وصلت إلى أقاصى شرق آسيا منذ عصر ماقبل الإسلام ، وأن التجارة كانت هدفهم الأول . وأغلب الظن أن السبب فى وجود العرب فى هذه الجهات فى هذه الأزمنة المتقدمة ، يرجع إلى أن التجارة بين الصين والهند من جهة وبين البلاد الواقعة على ساحل البحر الأبيض من جهة أخرى كانت فى الجاهلية فى أيدى العرب ، ثم اتسعت هذه التجارة شيئا فشيئا وزاد اتساعها فى القرن الأول من الهجرة (السابع الميلادى) ، وأصبح ميناء «سيراف» على الخليج الفارسى مركزاً هاماً لتوزيع السلع الصينية فى فارس وبلاد العرب .

وكما وجد الاتصال البحرى بين الشرق والغرب ، كذلك نرى أن الاتصال البرى عبر القارة الآسيوية كان قائماً ، وأن الإيرانيين قد احتكروه عدة قرون[١] . على أننا نلاحظ أن الجاليات العربية كانت تكثر فى الموانى الصينية على عكس ما كانت عليه الحال فى المدن الداخلية ، وهذا يدل على أن الاتصال البحرى بين الشرق والغرب كان أيسر للعرب من الاتصال البرى . وليس معنى هذا أن الطريق البحرى بين شرق آسيا وغربها كان معبداً سهلا فى أيدى كل من العرب والصينيين ، بل نلاحظ أن هذا الطريق كان مرتعاً خصبا لقرصان البحار منذ منتصف القرن الخامس الميلادى ، إذ كان هؤلاء يسيطرون باستمرار على الموانى البحرية[٢] . وقد منع هؤلاء القرصان التجار الصينيين من أن يصلوا بتجارتهم إلى غرب آسيا ، كما حالوا دون وصول العرب إلى الشرق الأقصى ، ولهذا تأخر الاتصال البحرى بصورته الجدية إلى القرن الثانى من الهجرة (الثامن الميلادى) إذ تدل الوثائق الصينية على أن الصينيين أمكنهم أن يصلوا من كانتون إلى الخليج الفارسى ، فانتعشت التجارة واتسع أفق الصينيين ، وازدادت معلوماتهم عن البلاد الغربية ، وأدى هذا بدوره إلى زيادة عدد المسلمين فى كانتون وغيرها . ومما يدل على اتساع نطاق التجارة الإسلامية فى مدينة كانتون أن المسلمين اتخذوا لهم فيها قاضياً ، وبنوا فيها المساجد ، وأكثر من ذلك كان علماء المسلمين

---

(١) الدكتور زكى محمد حسن : الصين وفنون الإسلام ، ص ٧ — ٩ .

(٢) Hirth & Rockhill: Chinese & Arab Trade in the Twelfth & Thirteenth Centuries, p. 7.

ومشايخهم يحاكمون التجار على حسب مبادىء الشريعة الإسلامية[١] . وقد استمرت الحال على هذا النحو حتى أصبح العرب يتحكمون فى التجارة البحرية بين الشرق والغرب فى القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) . وساعد على تقدم التجارة والملاحة البحرية فى ذلك الوقت اكتشاف البوصلة البحرية التى كان يسميها الصينيون « الإبرة التى تشير إلى الجنوب » South Pointing Needle ، فأصبحت الملاحة تقوم على أساس علمى متين[٢] .

وإذا تركنا هذه الطرق البحرية المباشرة بين الشرق والغرب ، نرى هناك طريقا بريا بحريا فى نفس الوقت ، إذ كانت السفن التجارية تصل بما تحمله من بضائع من البلاد الصينية ، إما إلى مدينة البصرة حيث تحمل هذه البضائع إلى المدن الشامية ومن أهمها دمشق وطرابيزون ، أو تخترق طريق البحر الأحمر وتفرغ ما تحمله من بضائع فى الموانى المصرية ، وهناك تحمل هذه البضائع عبر الأراضى المصرية إلى موانى البحر الأبيض ، ومن هذه الموانى جميعا تحمل التجارة إلى أوربا .

وفضلا عن هذه الطرق كانت هناك ثلاث طرق برية تسير عبر القارة الأسيوية تحمل التجارة الآتية من شمال الصين وشمال الهند . وأول هذه الطرق يبدأ من بكين أو شنغهاى ويتجه غربا حتى يصل إلى بخارى وسمرقند من مدن بلاد ما وراء النهر ، ثم يسير غربا إلى الموانى الشامية أو إلى موانى البحر الأسود حيث تحمل التجارة إلى أوربا . والطريق الثانى يبدأ من دهلى فى شمال الهند ويسير فى سهول خراسان حيث يلتقى بالطريق الأول . أما ثالث هذه الطرق فأقلها أهمية إذ كان يخترق السهل الساحلى فى الجنوب وهو الطريق الصحراوى الذى اخترقه الإسكندر الأكبر فى أثناء عودته إلى غرب آسيا بعد أن أخفق فى تحقيق مشروعه الذى كان يهدف إلى الاستيلاء على بلاد الهند[٣] .

وكانت هذه الطرق البرية عبر القارة الآسيوية تكاد تكون عديمة الفائدة . وليس أدل على ذلك من أن التجار الأوربيين لم يستعملوها أو يسيروا فيها ، بل إن التجار

---

(١) Hirth & Rockhill: Chinese & Arab Trade, pp. 9 — 17.

(٢) Ibid, pp. 9 — 17.

(٣) Eileen Power: The Guilds & Medieval Commerce, pp. 29 0 — 12 (Universal History of the World, vol. 5.)

الذين كانوا يسكنون الموانى التى كانت فى أيدى الصليبيين لم يستطيعوا أن يصلوا إلى داخل القارة الأسيوية ، ولا نجد مثلا واحدا يدل على أن أحدهم وصل إلى بغداد أو إلى الخليج الفارسى ، فكانت البلاد الشامية هى أقصى ما وصل إليه نشاط التجار الأوربيين (١). ويرجع السبب فى ذلك إلى أن السهول الأسيوية كانت لا تتميز بطابع سياسى واحد ، مما أدى إلى اختلال الأمن وانتشار الفوضى على طول هذه الطرق البرية ؛ هذا إلى عوامل أخرى أهمها عدم اهتمام حكام البلاد الصينية وحكام البلاد المتاخمة لها فى الشمال بفتح طرق آسيا البرية ، أضف إلى ذلك أن الخلافة العباسية كانت من الضعف بحيث لم يهتم الخلفاء كما لم يهتم حكام الولايات الإسلامية فى الشرق الإسلامى باستئناف العلاقات التجارية مع شرق آسيا الأقصى . ويقال إن سوء العلاقة بين المسلمين والمسيحيين أدى إلى كساد تجارة المسيحيين ، ونتج عن هذا عدم اهتمامهم بالطرق البرية .

كانت هذه العوامل مجتمعة السبب فى ضعف الاتصال البرى بين شرق آسيا وغربها ؛ على أن الدكتور حزين يرى أن العامل الأخير وهو سوء العلاقة بين المسلمين والمسيحيين لا يستند إلى أساس ، إذ حرص المسلمون على أن يرثوا تراث أهل جنوة والبندقية حتى تكون لهم السيطرة على تجارة البحر الأبيض ، ثم إن الإسلام حتى العصر الذى نتحدث عنه لم يكن قد انتشر تماما فى سهول آسيا الوسطى ، تلك البلاد التى أوصدت فى وجه المسيحيين ، إذ لم ينتشر الإسلام فى هذه الجهات حتى فتحها الغزو المغولى للمسلمين . وعلى هذا الأساس لم يحتكر المسلمون هذه الطرق البرية ولم يمنعوا التجارة فيها ، بل إنها كانت فى أيدى قبائل القرغيز Qirgh iz والأتراك والأوغر Uigurs وغيرها من القبائل المتعادية المتنافرة التى لم تستطع إحداها أن تخضع القبائل الأخرى لسلطانها كما لم تستطع هذه القبائل جميعا أن تؤسس نظاما يرمى إلى تشجيع التجارة عبر أراضيها (٢) .

وهكذا يرجع ضعف الاتصال البرى بين شرق آسيا وغربها إلى ذلك الاضطراب السياسى الذى ساد قلب القارة الأسيوية ، وليس إلى سوء العلاقة التى كانت قائمة بين المسلمين والمسيحيين . ومع هذا فإننا لا نستطيع أن ننكر أن الانقسام السياسى فى الشرق

(١) Heyd: Histoire du Commerce du Levant au Moyen Age, tom. ii. p. /1.

(٢) Huzayyin: Arabia & the Far East, pp. 169 — 17'.

لوحة ١٧



قنينتان من الخزف الأبيض والأزرق من صـــناعة إران فى القرن الحادى عشر الهجـــرى (السابع عشر الميلادى) ، من مجموعة القسم الإسلامى فى متاحف الدولة ببرلين وهما تشبهان الخزف الصينى فى المادة والشكل كما تبدو روح التأثر بالفن الصينى فى روح الزخرفة ولا سيما رسم الأسد الخيـالى الذى ينبعث اللهب من كتفيه كما هو واضح فى الشكل الأسفل .



(عن كتاب الصين وفنون الإسلام للدكتور زكى محمد حسن)

الإسلامى نفسه والفوضى التى سادته بصورة واضحة فى عصر السلاجقة ولا سيما بعد عصر ملكشاه حين ظهرت دول الأتابكة التى تكلمنا عنها ، لا نستطيع أن ننكر أن ذلك كله قد أدى إلى اضطراب حالة الأمن فى الشرق الإسلامى بوجه عام وبالتالى إلى ضعف الاتصال التجارى بين شرق آسيا وغربها . على الرغم من تلك الجهود الظاهرة التى بذلها السلطان ملكشاه لتأمين هذه الطرق وحفظ الأمن فيها (١).

وقد ظهر المغول على المسرح السياسى كما ذكرنا ظهورا بينا فى مستهل القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) ، بعد أن توحدت القبائل المغولية تحت قيادة زعيم واحد ، ثم استولوا على شمال الصين وأخضعوا الجزء الباقى من البلاد الصينية فى الفترة التى تقع بين سنتى ٦٥٩ و٦٨٧ هـ (١٢٦٠ و١٢٧٩ م) ، وأصبحوا يسيطرون على شرق آسيا . وأهم من ذلك اتجهوا نحو الغرب واكتسحوا أواسط آسيا وسهول روسيا الجنوبية وبولندا ثم وصلوا إلى هنغاريا . وقد صحب هذا الهجوم الحربى العنيف من ناحية المغول ، اضطراب وفوضى اجتماعية مؤقتة فى الأقاليم الأسيوية بلا استثناء ، وتأثرت النواحى الاقتصادية فى هذه القارة كما تخربت مبانيها وعمائرها وتفشت الأمراض والأوبئة نتيجة لقتل تلك الأعداد البشرية الغفيرة التى تركها المغول وراءهم بعد الغزو ، حتى إذا ما حلت أواخر القرن السابع من الهجرة (الثالث عشر الميلادى) نرى العاصفة تهدأ ، والحياة تعود تدريجيا إلى سابق عهدها ، والمغول يحكمون الأقاليم الممتدة من شرق آسيا إلى أواسط أوربا ، ومن جنوب روسيا حتى الخليج الفارسى (٢). وكان طبيعيا أن تضمحل الطرق التجارية البرية فى زمن الغزو وفى الفترة التى تلت الغزو مباشرة ، وكان من أثر ذلك أن عظمت أهمية الطريق البحرى بين غرب آسيا وشرقها بعد أن انعدمت المواصلات البرية (٣) .

تكونت الإمبراطورية المغولية على النحو الذى رأيناه ، ورغم أنها انقسمت فيما بعد إلى أقسام أربعة ، أولها فى الصين ، وثانيها فى وسط آسيا ، وثالثها فى بلاد

---

(١) Hirth: China & The Roman Orient, pp. 298 — 300.

(٢) Eileen Power: The Guilds & Medieval Commerce, p. 2914. (Universal History of the World, vol. 5.)

(٣) Cahun: Introduction a l'Histoire de l'Asie, Turcs et Mongols, p. 406.

القفچاق ، ورابعها فى فارس ، رغم ذلك لم يُقم هذا التقسيم أية صعوبة فى سبيل التجارة بل على العكس من ذلك جعلها سهلة فى مأمن من أى خطر ، إذ أن تكوين هذه الوحدات السياسية الكبيرة قد جعل كلا منها يستطيع أن يحافظ على هذه الطرق التجارية فى أراضيها[١] . ولا يفوتنا أن نذكر أن صلة الدم بين حكام هذه الأقسام قد شجعتهم على التعاون فيما بينهم لإيجاد نظام اقتصادى متين يقوم على تسهيل طرق التجارة بين هذه الأقسام .

وكان المغول منذ مستهل نهضتهم ، قد عملوا على احترام نظمهم الاقتصادية وتوطيد علاقاتهم التجارية مع جيرانهم بغية الاستفادة منها . وقد حرص چنكيزخان نفسه على حماية القوافل التجارية التى تسير عبر بلاده ، كما حرص على استمرار العلاقات بينه وبين جيرانه ، وليس أدل على ذلك من تلك العلاقات التى قامت بينه وبين علاء الدين خوارزم شاه والتى لم يحترمها الخوارزميون مما أدى إلى غضب چنكيزخان ، فانقض على الدولة الخوارزمية . وقد اهتم چنكيزخان نفسه بالطرق التجارية ، فأقام الحراس على طولها لحماية التجار الأجانب ، وقد أمر چنكيزخان بوجه خاص وحكام المغول بوجه عام أن يعاملوا التجار الأجانب أحسن معاملة فى الأماكن التى يمرون بها[٢] .
وكان المغول - كما ذكرنا - يرمون إلى تحسين علاقاتهم مع المسيحيين لاجتذابهم إلى صفوفهم فى حربهم مع المسلمين بوجه عام والمماليك فى مصر بوجه خاص ؛ لذلك لا نعجب إذا رأيناهم يسهلون للتجار المسيحيين مهمتهم التجارية فى الأراضى المغولية ، مما أدى إلى انتشار هؤلاء التجار فى بلاد العراق وفارس وتركستان[٣] .

والمهم أن الغزو المغولى قد أدى إلى إيجاد طريقين أساسيين للتجارة : الطريق الأول يسير من البحر الأسود ويخترق شمال تركستان إلى أواسط آسيا ثم إلى الصين ، إما عن طريق السهول الشمالية المعروفة باسم سهول زنجاريا Dzungarian Plains ، وإما عن طريق حوض نهر التاريم جنوبى جبال تيان شان T'ian Shan ، وإما عن الطريق الذى يمر بمدينة خوتان فى الجنوب . أما الطريق الثانى فهو طريق برى بحرى فى نفس

(١) Huzayyin : Arabia & The Far East, p. 172.
(٢) Heyd: Histoire du Commerce du Levant au Moyen Age, tom. ii. p. 72.
(٣) Ibid, tom. ii. p. 71.

الوقت يسير إما من طرابيزون أو خليج الإسكندرونة إلى تبريز ثم إلى هُرمز على الخليج الفارسى ، ثم عن طريق المحيط الهندى إلى بلاد الهند والشرق الأقصى[١] .

وهكذا نرى أن الغزو المغولى قد أدى ، بعد أن هدأت العاصفة الحربية ، إلى اتساع نشاط التجارة بين القارتين الأوربية والآسيوية ، وأصبح أهالى جنوة والبندقية حلقة اتصال بين المغول المتعطشين للتجارة مع أوربا وبين الأوربيين الذين تنفسوا الصعداء بعد أن زالت العوامل السياسية التى عطلت سير التجارة ، قبل أن يسيطر المغول على القارة الآسيوية[٢] .

وكان من أثر غزوات چنكيزخان وخلفائه أن بدأ أهالى غرب آسيا يكثرون من ترددهم على شرقها ، ونجحوا فى تكوين جاليات وعصبيات لهم فيها ، وشجعهم ذلك على استيطان هذه الجهات . وقد زادت الهجرة من فارس إلى بلاد الصين منذ حكم هولاكو وأسرته فى غرب آسيا[٣] .

وكذلك كان للغزو المغولى أثره فى نشأة كثير من المستعمرات والمراكز التجارية فى غرب آسيا ، فنرى مثلا أنه لما قام ذلك الصراع بين إيلخانات المغول فى فارس وبين المماليك فى مصر واتخذ ذلك الصراع من سوريا مسرحا له ، تحولت التجارة الأوربية إلى جنوب روسيا ، وشجع مغول القفچاق الإيطاليين على تكوين مستعمرات لهم فى كفَّا Kaffa وفى تانا Tana وفى غيرهما من المدن الواقعة فى نطاق البحر الأسود ، فانتعشت الحركة التجارية فى هذه الأقاليم بسبب تشجيع مغول القفچاق التجارة الأجنبية وتأمينهم طرق التجارة فى البلاد الواقعة تحت حكمهم .

ونرى أن طريق تبريز وهرمز وهو الطريق البرى البحرى الذى تكلمنا عنه ، قد عظمت أهميته وخاصة بعد أن استولى هولاكو على بغداد واتخذ من مدينة تبريز حاضرة له ، فبذت هذه المدينة مدينة بغداد فى التجارة وجذبت إليها التجار المسيحيين

---

(١) Huzayyin: Arabia & The Far East, p. 172.
وانظر خريطة «الطرق التجارية عقب غزوات المغول» .

(٢) Ibid, p. 173.

(٣) Bretschneider: Mediæval Researches From Eastern Asiatic Sources, vol. i. pp. 269 — 270.

الذين أتوا إليها عن طريق حلب وشمال بلاد ما بين النهرين ، أو عن طريق البحر الأسود وطرابزون ، وكذا عن طريق أرمينية التى كانت فى أيدى المسيحيين . كما كانت مدينة تبريز تتصل بثغر هرمز عن طريق نهر دجلة والخليج الفارسى ، وأصبحت هذه المدينة بذلك من أعظم المدن التجارية فى غرب المحيط الهندى . وقد عظمت أهمية هذا الطرق فى القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) حتى أن تجار البحر الأبيض الذين كانوا يضطرون إلى دفع المكوس الباهظة فى أثناء عبورهم أراضى سوريا ومصر ، قد تحولوا إلى هذا الطريق الجديد للوصول إلى بلاد الهند . ورغم المحاولات التى بذلها المماليك فى مصر لاجتذاب تجارة الشرق إلى مصر فإن ذلك لم يؤثر مطلقا فى طريق هرمز .

ونلاحظ أن مغول الصين كانوا يسعون دائما إلى توثيق عرى الروابط الاقتصادية بينهم وبين إيلخانات المغول فى فارس ، وساعد البحر على إيجاد هذه الرابطة ، وكان من أثر ذلك أن عظمت الأهمية التجارية لثلاث من الموانى التجارية فى غرب آسيا ، وهى كانتون Canton وزيتون Zaytoun و خنسا Khinsa . وقد استوطن هذه الموانى كثير من الجاليات الإسلامية التى سكنت هناك بقصد الاشتغال بالتجارة(١) .

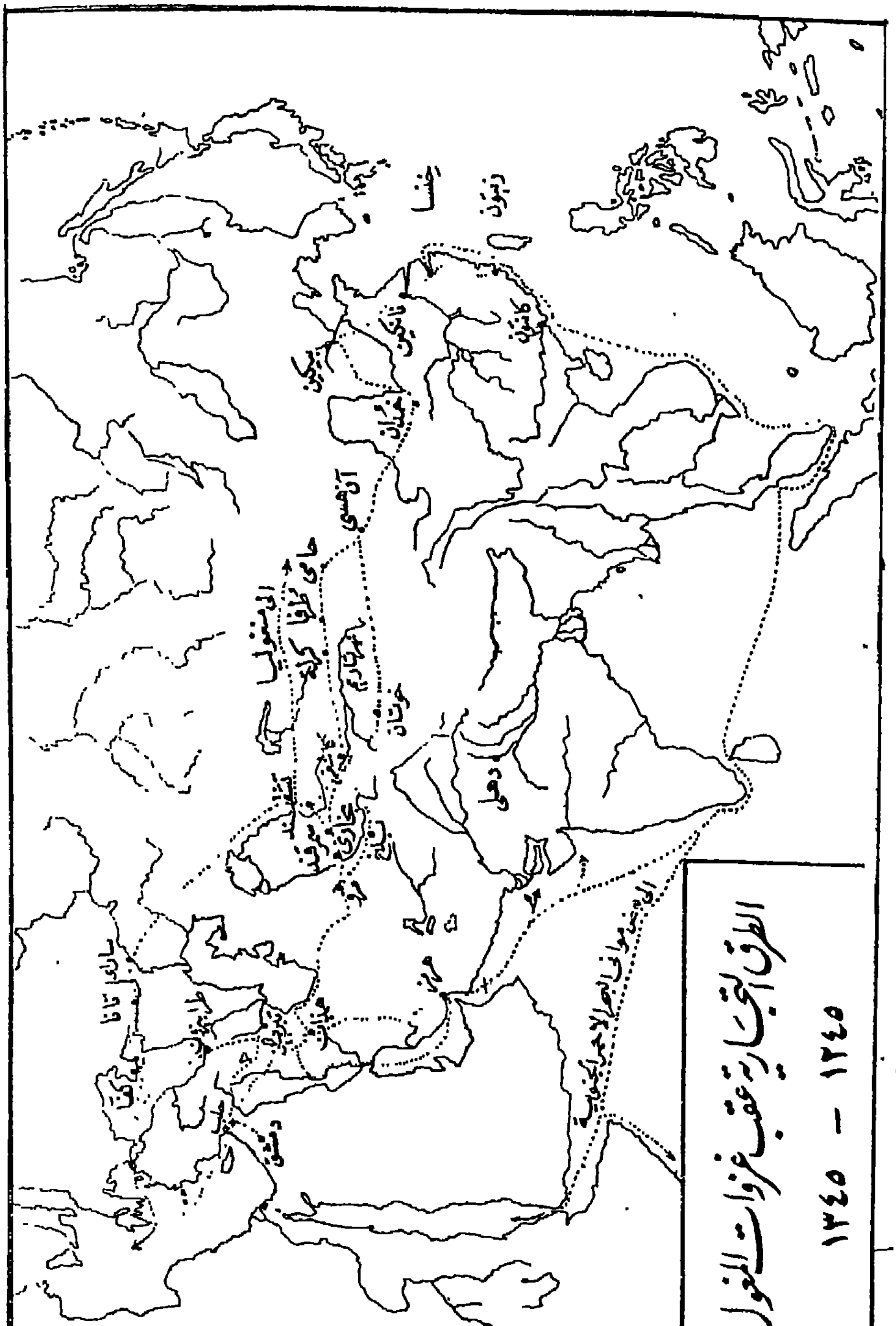
شجعت سهولة الاتصال بين الشرق والغرب كثيراً من الرحالة الأوربيين على المخاطرة بأنفسهم بغية الوصول إلى هذه الأقاليم التى يجهلونها فى أقاصى شرق آسيا . ومن أقرب الأمثلة على هؤلاء «ماركو بولو» الذى اتجه نحو الشرق الأقصى سنة ٦٧٠ هـ (١٢٧١م) ، مخترقا سهول خراسان وهضبة البامير وصحراء جوبى إلى أن وصل إلى بلاط كوبلاى خان سـنة ٦٧٤ هـ (١٢٧٥م)(٢) . وقد مكث ماركو بولو فى الشرق الأقصى حتى سنة ٦٩٢ هـ (١٢٩٢م) . وكان فى هذه الفترة موضع ثقة المغول ورضائهم فشملوه برعايتهم واتخذه كوبلاى خان مستشاراً له ، وكان لثقته فيه يرسله فى كثير من مهن سفاراته الهامة . كذلك نرى المغول يوكلون إليه حكم بعض أقاليم دولتهم ، كما كانوا يضعونه على رأس جيوشهم الغازية فى بعض المناسبات(٣) .

---

(١) Huzayyin : Arabia & The Far East, pp. 174 — 179.

(٢) Eileen Power : Medieval People, p. 52.

(٣) Atiya, A. S. : The Crusade in the Later Middle Ages, p. 248.



خريطة ٥

عن كتاب Huzayyin, Arabia And The Far East.

والمهم أن ماركو بولو وصف كل البلاد المجهولة التى مر بها وصفا تاما ، وأفاض فى الحديث عن ثروتها بنوع خاص[١] ، كما وصف حالة المغول فى عهد كوبلاى وصفا دقيقا . وكان لكتاباته فى وصف ثروات الشرق الأقصى أكبر الأثر فى تشجيع الرحالة والرواد والمستكشفين من الأوربيين على اجتياز مجاهل آسيا ، رغبة منهم فى الحصول على بعض ماصوره لهم ماركو بولو من ثروة فى البلاد الشرقية ، فبحث المستكشفون الجغرافيون بعد ذلك عن أسهل الطرق وأقصرها للوصول إلى الشرق الأقصى وبلاد الهند ، وكان لهذه الفكرة أثرها فى اكتشاف القارة الأمريكية عن غير قصد كما هو معروف . وهكذا نرى أن ماركو بولو كما تقول إيلين بور Eileen Power قد اكتشف بلاد الصين فى القرن الثالث عشر وهو على قيد الحياة واكتشف أمريكا فى القرن الخامس عشر بعد وفاته[٢] .

«He discovered China in the Thirteenth century when he was alive, and in the fifteenth, when he was dead, he discovered America.»

كذلك نرى أن البعثات الدينية المسيحية التى كانت ترمى إلى نشر الديانة المسيحية بين المغول قد كثرت فى ذلك الوقت كما ذكرنا .

ولا يفوتنا أن نذكر هنا أن التبادل التجارى بين شرق آسيا وغربها ، وبين القارتين الأوربية والأسيوية قد أدى إلى انتشار منتجات آسيا الشرقية بين غرب آسيا وبين أوربا ، فعرف المسلمون والمسيحيون منتجات بلاد الصين ومن أهمها الحرير الخام والمنسوجات الحريرية المنقوشة التى لم يعرفها المسلمون والمسيحيون من قبل إلا فى القليل النادر[٣] . وما يقال عن انتشار التجارة الصينية فى الغرب يمكن أن يقال عن التجارة الإسلامية التى انتشرت فى شرق آسيا . ولا يفوتنا أن نذكر فى هذا المقام أن المسلمين عندما انتقلوا إلى الشرق نقلوا معهم كثيرا من المعلومات عن الحضارة الإسلامية إلى هناك ، وبالمثل فعل المسيحيون الذين ساروا من أوربا إلى تلك البلاد النائية . وهكذا

---

(١) Joseph Jacobs : The Story of Geographical Discovery, pp. 71 – 78.

(٢) Eileen Power : Medieval People, p. 67.

(٣) Hirth : China & the Roman Orient, p. 158.

نرى أن الاتصال السياسى والتجارى بين الشرق والغرب قد أدى إلى اتصال الحضارات الصينية والإسلامية والأوربية ، ثم إلى تداخل هذه الحضارات .

٤ - الأثر الثقـــافى

يعقب الغزوات الكبرى فى التاريخ فترة من الزمن تنتقل فيها حضارة الغالب إلى حضارة المغلوب ، ثم يحدث أن تتقابل الحضارتان وتؤثر إحداهما فى الأخرى وتتأثر بها ، فتظهر حضارة جديدة تكون عبارة عن مزيج من الحضارتين معاً . وإن الحروب مع مالحقه بالإنسانية من أضرار، تقترن بفوائد ثقافية تعوض على البلاد المقهورة بعض ما أصابها من خراب ودمار أثناء الحروب . وإذا نظرنا إلى الغزوات الكبرى فى التاريخ نرى فيها خير شاهد على صدق ما نقول ، فقد انتشرت الحضارة الهيلينية فى بلاد المشرق عقب غزو الإسكندر لهـا ، وامتزجت بحضاراتها القديمة ، وكذلك كانت الحال فى البلاد التى دخلت تحت حكم الإمبراطورية الرومانية . وكانت الحروب الصليبية ، رغم الخسارة المـادية التى لحقت بالمسلمين والصليبيين على السواء ، سببا فى وقوف الغربيين على حضارة الشرقيين ، كما أدت إلى معرفة الشرقيين الشىء الكثير مما كانوا يجهلونه عن حضارة الغربيين .

ولا يختلف الحال بالنسبة للمغول الذين أتوا إلى غرب آسيا بعد أن حطموا تلك القوى السياسية المختلفة التى حالت قبل الغزو دون اتصال طرفى القارة بعضهما ببعض . وكان المغول - كما رأينا - قبل أن يتجهوا بجيوشهم نحو الغرب ، قد غزوا بلاد الصين واقتبسوا من حضارتها ما غير من طبيعتهم البدائية ثم حملوا ذلك كله إلى غرب آسيا بل إلى أوربا بعد أن حطموا تلك الحواجز التى حالت دون اتصال القارتين من قبل . حقيقة كانت فترة الغزو المغولى على يد جنكيزخان وخلفائه بلاد غربى آسيا فترة عانى فيها المسلمون آلام القتـل والتعذيب والتخريب ، ولـكن بعد أن هدأت العاصفة وانتهى الدور الحربى من تاريخ المغول ، جاءت فترة بدأ المسلمون فيها يصلحون ما أفسده المغول ، كما بدأ المغول يكفرون عن سيئاتهم فحاولوا إصـــلاح ما أفسدته أيديهم ، ثم استغل المسلمون هذه الروح الطيبة من جانب المغول لإصلاح ماتخرب من ديارهم فى أثناء هذه الغزوات .

وكما حمل المغول كنوز الصينيين إلى غرب آسيا ، كذلك نرى أن حضارة المسلمين وثقافتهم لابد أن تكون قد انعكست على المغول أنفسهم . فقد كانت إمبراطورية جنكيزخان الأولى تقتصر على بعض أقاليم شرق آسيا ، وسط تلك الصحراوات الشاسعة ، وكانت معلوماتهم عن البلاد الإسلامية محدودة ، فلم يعرفوا عنها إلا ما وصل إليهم عن طريق بعض التجار من المسلمين الذين لابد أن يكونوا قد ذكروا الكثير عن خيراتها ، فعرف جنكيزخان منهم كما ذكر هورث [١] أنه فيما وراء الحدود الغربية لدولته ، توجد الوديان الخصبة التى لا يكسوها الجليد مطلقا كما عرف أن المسلمين يعيشون فى مدن أقدم من حاضرته « قره قورم » ورأى بعيني رأسه ما جلبه التجار المسلمون إلى بلاده من أسلحة معدنية وملابس وجلود وعاج ومطاط . فلا عجب أن يتطلع المغول إلى غزو مدن المسلمين العامرة ، فلما غزوها حملوا معهم إلى بلادهم ماوجدوه من الكنوز التى لابد أن تكون قد أثارت إعجاب زوجاتهم وبناتهم . كما أن القصص التى حملها هؤلاء الغزاة إلى بلادهم لابد أن تكون قد وقعت فى نفوس أهليهم موقع قصص ألف ليلة وليلة فى نفوسنا . ولم يكن الأسرى وأصحاب المهن الذين صحبهم المغول إلى بلادهم بأقل أهمية من تلك الصور والرسوم التى عاد بها المغول والتى تمثل علوم المسلمين ومعارفهم .

وإذا علمنا أن العصر الذى حكم فيه المغول البلاد الصينية ، كان عصر منافسة فى الفن والصناعة ، كما كان عصرا ازدهر فيه الأدب ، فلا ننسى أن عدداً كبيراً ممن كان لهم فضل ازدهار هذه العلوم والفنون كانوا من الفرس والأتراك . ولا يجب أن ننسى أن اندماج حضارتين مختلفتين تمام الاختلاف كحضارتى الفرس والصينيين ، لابد أن يؤدى إلى ظهور آراء جديدة واكتشافات حديثة لم تكن موجودة من قبل ، ولابد أن يؤدى اندماج هاتين الحضارتين القديمتين الى انتعاش عظيم فى الحضارة [٢] .

وعلى هذا الأساس كان النصف الثانى من القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) عصر ازدهار فى الحضارة ، تلاقت فيه ثقافات الشرق والغرب ، وعرف

---

(١) Howorth: History of the Mongols, part i. p. 99.

(٢) Ibid, part i. p. 99.

فيه المغول ما كان خافيا عليهم من حضـارة الغربيين وعاداتهم وعقائدهم ، وبدأ الغربيون بدورهم يؤثرون أويحاولون أن يؤثروا فى المغول وفى عاداتهم وعقائدهم(١). ولم يكن الاتصال بين الشرق والغرب إلا نتيجة لتحطيم حدود عشرات الدول التى كانت تحول بين هذا الاتصال ، بحيث أنه لما زالت هذه الحواجز تمكن الرحالة الأوربيون من أن يذهبوا إلى الشرق ،ويصفوا مايرونه من كنوز آسيا ، بعدعودتهم إلى بلادهم(٢) .

وكان للغزو المغولى أثر غير مباشر فى قيام النهضة الأوربية ، وانتزاع العقل البشرى من فوضى الجهالة التى أحاطت به طيلة العصور الوسطى ، إذ أن المغول دفعوا أمامهم إلى آسيا الصغرى عشيرة الأتراك التى انحدر منها الأتراك العثمانيون فيما بعد ، فأخذت هذه القبيلة تنمو تدريجيا ويزداد نفوذها السياسى فى آسيا الصغرى ثم فى بلاد اليونان ، وكان لهؤلاء فضل فتح القسطنطينية حاضرة الدولة البيزنطية ، فظهر ماكان مدفوناً فيها من نفائس علمية كان لها أثرها فى تطور العقلية الأوربية الجامدة ، التى سيطرت على أوربا طيلة العصور الوسطى(٣) .

ولم يكن الأوربيون والمسلمون وحدهم الذين أفادوا من حركة اتصـال الغرب بالشرق ، بل نرى أن الصينيين لم يقلوا عنهم فى الاستفادة من ذلك الاتصال ، ففضلا عما سـبق ذكره من رحيل المسلمين بحضارتهم وأفكارهم إلى هناك على أثر عودة جنكيزخان ، نرى معلومات الصينيين الجغرافية قد تأثرت من جراء كثرة رحلاتهم البرية والبحرية التى شاهدوا فيها أقاليم وسط آسيا وغربها ، وزاروا جزر الهند الشرقية وسواحل آسيا الغربية وسيلان وغيرها(٤) .

إذا تركنا الحديث عن الأثر العام الذى أحدثه الغزوات المغولية ، وانتقلنا إلى الحيز الذى كانت الدولة العباسية تسيطر عليه ، وجدنا أن هذا الحيز قد تأثر تأثرا كبيرا

(١) Heyd : Histoire du Commerce du Levant au Moyen Age, tom. ii. p. 70.

(٢) Browne : A Literary History of Persia, vol. ii. p. 442.

(٣) Ibid, vol. ii. p. 442.

(٤) Hirth & Rockhill : Chinese & Arab Trade in the Twelfth and Thirteenth Centuries, pp. 25 — 28.

بعد الغزو المغولى ، وقد رأينا ماأحدثته غزوات جنكيزخان وقواده وأبنائه واحفاده من تخريب فى البلاد الإسلامية بوجه عام ، إذ قضى المغول على الآثار الإسلامية التى تفنن الفنانون المسلمون فى إقامتها ، كما أفنى المغول زهرة شباب المسلمين وخيرة عقول شيوخهم ، وذهب بذهاب هؤلاء وهؤلاء خيرة علمائهم وفقهائهم . أما العلماء الذين نجوا من القتل فقد فروا إلى بلاد الهند وآسيا الصغرى وغيرها ، فحرموا بلاد فارس والعراق من إنتاجهم العلمى ، ولكن مما يذكر لهم بالخير أنهم نشروا اللغة الفارسية فى البلاد التى نزحوا إليها . وقد اضمحل العالم الإسلامى الشرقى اضمحلالا لم يره المسلمون من قبل ، وازدادت حالته سوءا بعد سقوط حاضرة الخلافة العباسية فى سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨م) ، فانتقل النشاط السياسى والثقافى إلى مصر التى أصبحت قبلة أنظار المسلمين(١) ، وخاصة بعد أن أحيا فيها الظاهر بيبرس الخلافة من جديد . وكان الظاهر يرى من وراء إحياء الخلافة العباسية فى مصر أن يمد ملكه ويوسع سلطانه بمساعدة الخليفة له باعتباره حامى الدين(٢) .

على أن اختلاط المغول بالمسلمين فى الشرق قد أدى بطبيعة الحال إلى خلق جيل جديد من العرب والمغول ونتج عن هذا الخليط تجديد فى الحياة العقلية ، فظهرت طائفة من العلماء الذين يختلفون فى تفكيرهم عن تلك الطائفة التى عرفها العالم الإسلامى قبل تلك الغزوات(٣) . وقد نتج عن هذا تغيير فى الحياة الثقافية الإسلامية بوجه عام ، وخاصة بعد أن طبع المغول المسلمين فى هذه البلاد بطابعهم الخاص وثقافتهم الخاصة التى حملوها معهم من موطنهم الأصلى والتى اقتبسوها عن الصينيين بعد غزوهم بلادهم . فنرى على سبيل المثال أن الغزو المغولى قد أضعف المكانة الأدبية التى امتازت بها بلاد ما وراء النهر ، فبعد أن كان الأهالى فى نيسابور ومرو يتنافسون فى ميادين الأدب ويتبارون فى الشعر والنحو والطب ، نرى أن الغزو المغولى قد وضع حدا للحياة العقلية فى هذه البلاد بوجه خاص وفى أواسط آسيا بوجه عام ، وإلى الآن لم تستعد بخارى وسمرقند ما كان لهما من آثار ثقافية قبل الغزو المغولى . ويرجع السبب فى ذلك إلى أن

(١) Nicholson : A Literary History of the Arabs, p. 442.

(٢) الدكتور حسن ابراهيم حسن : النظم الإسلامية ، ص ١٣٠

(٣) Browne : A Literary History of Persia, vol. i. p. 442.

المغول قتلوا أهل البلاد الأصليين الذين كانوا نواة الحضارة الإسلامية ثم تركوا البلاد في يد شرذمة من الأتراك لا يعرفون طعما لحضارة[1] . كذلك نرى أن اللغة العربية قد فقدت تلك المكانة التي تمتعت بها قبل الغزو في ميادين الثقافة العلمية والأدبية وخاصة بعد سقوط بغداد[2] . وما يقال عن اللغة العربية يقال أيضا عن اللغة الفارسية .

على أن الغزو المغولي لم يكن كله غرماً على المسلمين ، فإنه فضلا عما سبق ذكره من اتصال الشرق والغرب وما ترتب عليه من آثار أدبية ومادية ، نرى أن المسلمين بوجه خاص قد تأثروا بهؤلاء الغزاة وأفادوا مما جاءهم به المغول من بلاد المشرق الأقصى ؛ نعم لقد أفادوا من نظم الحكم الصينية التي اقتبسها المغول وطبقوها في البلاد الإسلامية[3] . كذلك نرى أن بلاد الشرق الإسلامي قد غصت بالموظفين والتراجمة وغيرهم من رجال الشرق الأقصى الذين صحبوا المغول إلى ملكهم الجديد[4] ، ولا بد أن يكونوا قد أثروا ، بطريق مباشر أو غير مباشر في الحياة العقلية في البلاد التي زحفوا إليها وأقاموا بها .

* * *

وإذا كان الغزو المغولي قد نتج عنه ذلك الركود العلمي والأدبي ، فقد كان ذلك ركودا مؤقتاً ، إذ أن النشاط في هذين الميدانين لم يلبث أن عاد بعد أن بدأ المغول يستقرون في البلاد التي فتحوها ؛ ويرجع ذلك إلى أن بعض المؤلفات العلمية قد نجت اتفاقا من أيدي المغول وخاصة ما كان منها في المدن الجنوبية من الدولة الخوارزمية . ثم إن المغول بعد أن استقروا في البلاد الإسلامية ، أخذوا يتقبلون آراء المسلمين وأفكارهم ورغبوا تدريجياً في اعتناق المدنية الإسلامية والفارسية ، فبرز الكثيرون من العلماء والأدباء بفضل تشجيع المغول لهم . ومن أشهر هؤلاء في عهد هولاكو نصير الدين الطوسي الذي امتاز بأبحاثه في علم الفلك ، فشجعه المغول وأسسوا له مرصداً كبيراً في مدينة « مراغة » سمي باسم « المرصد الإيلخاني »[5] . وقد امتاز نصير الدين الطوسي فوق ما تقدم بمؤلفاته في الحساب والجبر والهندسة والفلك والطبيعة والحكمة والأخلاق

---

(١) Vambery : History of Bokhara, p. 138.

(٢) Browne : A Literary History of Persia, vol. ii. p. 467.

(٣) Lamb : Genghis - Khan ; The Emperor of All Men, p . 206.

(٤) الدكتور زكي محمد حسن : الصين وفنون الإسلام ، ص ١٦ .

(٥) الدكتور رضا زاده شفق : تاريخ الأدب الفارسي ، ص ١٩٧ — ١٩٨ .

لوحة ١٨



رسم فى مخطوط من كتاب جامع التواريخ لرشيد الدين . وهو يعد من أبلغ الأمثلة على تأثر المسلمين بالفن الصينى ، إذ تبدو السحنة الصينية ظاهرة واضحة ، كما يظهر أثر الشرق الأقصى فى الملابس والقلنسوات الشبيهة بالصحن والتى لا حافة لها .

(من كتاب الصين وفنون الإسلام للدكتور زكى محمد حسن)

وآلات الرصد كما اشتهر بترجمة كثير من كتب اليونان فى مختلف العلوم [1].

ومما يدل على اهتمام المغول برعاية العلماء والأدباء بعد استقرارهم فى البلاد الإسلامية ما حبوا به أسرة الجوينى وما أسبغوه على أفرادها من عطف ، فكان لهذه الأسرة قصب السبق فى نشر العلوم والمعارف ، إذ برز منهم كثيرون أهمهم علاء الدين عطا ملك الجوينى مؤلف كتاب « جهان كشاى » وهو فى ثلاثة مجلدات بحث فيها تاريخ المغول منذ نشأتهم حتى سنة ٦٥٥ هـ (١٢٥٧ م) أى إلى نهاية عهد منكوخان . ومن المؤلفين الذين ظهروا فى عصر مغول فارس أيضاً ، رشيد الدين فضل الله الهمذانى ، وكان من المقربين إلى كل من أباقاخان وغازان وأولجايتو ، وقد ألف هذا الرجل كتاب « جامع التواريخ » ويقع فى مجلدين كبيرين تكلم فيهما عن تاريخ المغول منذ عصر جنكيزخان حتى أولجايتو Euldjaitu . وكانت كتابات كل من الجوينى ورشيد الدين فى طليعة المراجع التى اعتمدنا عليها فى هذا الكتاب .

ومن الأمور الهامة التى نتجت عن غزو المغول للبلاد الإسلامية ، انتشار اللغة الفارسية خارج بلاد فارس ويرجع ذلك إلى تشتيت المغول للعلماء والأدباء والشعراء مما أدى إلى هجرتهم إلى بلاد الهند وآسيا الصغرى فنشروا بهذه الوسيلة اللغة الفارسية فى هذه البلاد . أما من ناحية الأدب الفارسى نفسه فى عصر المغول ، فنرى النثر تغلب عليه الصنعة والتكلف « وشغل عدد من الكتاب بالألفاظ ، وأدوا ما يرغبون فى استعارات ومجاز وكناية وإطناب ، وترسموا العبارات الغريبة واستعمال الحشو والتشبيهات المستحيلة والمبالغات التى لا محل لها ، حتى الأسلوب التاريخى نفسه لم ينج من ذلك ، فقد كانوا يؤدون الأفكار اليسيرة فى صحائف طويلة بعبارات ثقيلة »[2] أما الشعر فقد ظهرت فيه معانى التصوف وكثر الشعراء الصوفيون ، ويرجع ذلك فى الغالب إلى تعسف المغول وجورهم بحيث ساورت الآلام نفوس من انطوت نفوسهم على الحسرة والآلام فاتجهوا إلى العالم الروحى وتركوا عالم المحسوسات إلى عالم المعنويات . وكان من نتائج الغزو

(١) انظر مقال الأستاذ قدرى حافظ طوقان عن « الأثر العلمى لحضارة الإسلامية وأعظم علمائها » فى عدد أكتوبر سنة ١٩٣٨ من مجلة المقتطف ، ص ١٢٢ — ١٢٣ .

(٢) الدكتور رضا زاده شفق : تاريخ الأدب الفارسى ، ص ٢٣٤ .

المغولى أيضا دخول كثير من الألفاظ المغولية فى اللغة الفارسية ، وقد بقى بعضها فى هذه اللغة إلى الآن(١) .

وكان تأثير المغول فى الفنون الإسلامية عظيما ، فتأثر الفن الإسلامى بالفن الصينى، وظهر ذلك واضحا جليا فى غالبية الفنون الإسلامية . على أن العلاقة الفنية بين الصين وبلاد الشرق الأدنى لم تنشأ بعد الغزو المغولى، ولكن كانت هذه العلاقة قائمة من قبل ، ويمكن القول إنها ترجع إلى ما قبل فتح العرب هذه البلاد ، فقد وجد كثير من الخزف الصينى فى المدن الإسلامية المختلفة بل وصل إلى مصر وعثر عليه بين كنوز الفاطميين . ولكن يمكن القول بأن هذه العلاقة الفنية ازدادت زيادة محسوسة بعد الغزو المغولى(٢) .

ولم يكن المغول فى بداية أمرهم بالقوم الذين يستطيعون احترام المدنية بوجه عام والفنون بوجه خاص ، ولذلك حدث ما رأيناه من تخريب فى العمائر الإسلامية وتحطيم للتحف الأثرية التى لا تقدر بثمن، فلما استقروا فى البلاد الإسلامية ، استطاعوا أن يتفهموا تدريجيا كنه الحضارات والمدنيات التى وجدوها هناك ، فكان ذلك مدعاة لأن يولوا الفنون والآداب عنايتهم ورعايتهم . وقد ظهر أثر ذلك واضحا جليا بعد أن استقروا فى البلاد الإسلامية ، وأسسوا تلك الأسرة التى عرفت باسم إيلخانات المغول فى فارس ، التى تطبع أفرادها بالطابع الإسلامى . وكان أفراد هذه الأسرة يرتبطون فى الوقت نفسه بإخوانهم المغول فى شرق آسيا برابطة الدم ، وأدى ذلك إلى سهولة تبادل الثقافات بين شرق آسيا وغربها ، كما ساعد على ظهور الطابع الصينى واضحا فى الفنون الإسلامية(٣) .

وقد جاء فى كتاب جامع التواريخ للوزير رشيد الدين أن كثيراً من المصورين الصينيين قدموا إلى إيران فى عهد هولاكو وغازان Ghazan وألجايتو Euldjaitu ، كما انتشرت فى دولتهم الكتب الموضحة بالصور الصينية . والحق أن هولاكو وخلفاءه كانوا يشملون رجال الفن برعايتهم ، بل كانوا حين يخربون المدن فى حروبهم يعنون

(١) الدكتور رضا زاده شفق : تاريخ الأدب الفارسى ، ص ١٣٤ — ١٣٥ .
(٢) الدكتور زكى محمد حسن : الصين وفنون الإسلام ، ص ١٩ — ٢٦
(٣) انظر اللوحات : ١٤، ١٥، ١٦، ١٧، ١٨ .

بإنقاذ الفنانين وأرباب الصناعات . وكان المغول يرسلون إلى الصين وآسيا الوسطى كثيرا من الفنانين والصناع الذين أبقوا على حياتهم حين كانوا يدمرون المدن فى إيران والشرق الأدنى ، ويمعنون فى سكانها قتلا . وكان بعض أولئك الصناع يفلح فى العودة إلى وطنه بعد العمل مع الصينيين والتأثر بأساليبهم الفنية[١] .

ولن نستطيع هنا أن نحصى المظاهر المختلفة التى أدخلها المغول على الفنون الإسلامية المتعددة فى هذا العصر الجديد ، ولكن إتماما للبحث نستطيع أن نأتى ببعض الأمثلة التى توضح تأثير المغول فى الفنون والآثار دون أن نحصى كل ما جاءوا به إلى البلاد الإسلامية ، فنرى مثلا أن السحنة الصينية قد بدت فى أوائل عصر المغول ظاهرة على الزخارف[٢] ، ثم حورها المسلمون فيما بعد بشكل يوافق ميولهم الإسلامية . كذلك انتشر الحرير الصينى فى البلاد الإسلامية على أيدى المغول ، وقلد المسلمون ما عليه من زخارف هى عبارة عن حيوانات خرافية وزهور صينية اشتهر الصينيون برسمها على ملابسهم الحريرية[٣] .

وكذلك ظهر أثر المغول فى النقوش على الصناعات الخزفية[٤] ، على الرغم من أن الغزو المغولى قضى على أكبر مراكز الصناعة الخزفية فى إيران بتدمير مدينتى «الرى» سنة ٦١٧ هـ (١٢٢٠م) و «قاشان» سنة ٦٢١ هـ (١٢٢٤م) « ولكن الراجح أن صناعة الخزف نفسها لم تتأثر بذلك إلى حد كبير اللهم إلا فى كمية الإنتاج ، وخير دليل على ذلك أن بعض التحف الخزفية الجميلة عليها تواريخ تثبت أنها صنعت بعد الغزو المغولى بزمن غير طويل »[٥] .

ومن الفنون الهامة التى اهتم بها المسلمون صناعة التحف المعدنية ، وصناعة الزجاج والخشب ، وكان لهذه الصناعات جميعها مركز خاص قبل الغزو المغولى ، والواضح أن الغزو المغولى قد أصابها بركود عظيم ، ورغم أن المتخصصين فى صناعتها حاولوا أن

---

(١) الدكتور زكى محمد حسن : الصين وفنون الإسلام ، ص ٢٢ .

(٢) انظر : اللوحتين : ١٤ ، ١٨ .

(٣) الدكتور زكى محمد حسن : الفنون الإيرانية فى العصر الإسلامى ، ص ٣٣ — ٣٤ .

(٤) انظر : اللوحتين : ١٦ ، ١٧ .

(٥) الدكتور زكى محمد حسن : الفنون الإيرانية فى العصر الإسلامى ، ص ١٧٦ .

ينهضوا بهذه الصناعات من جديد ، إلا أنهم لم يفلحوا فى إعادة ما كان لها من مكانة قبل الغزو[١] .

ومن أقوى الأمثلة على تأثر الشرق الأدنى بفنون الشرق الأقصى بعد الغزو المغولى ، ما ظهر من الصور فى كتاب « جامع التواريخ » للوزير رشيد الدين الذى بذل جهودا كبيرة فى تصنيف كتابه ، واستعان بعدد كبير من المصورين لتزيينه وتوضيحه بصور يبدو فيها التأثر بالأساليب الفنية الصينية والمغولية[٢] . وعلى الرغم من ازدهار التصوير الإسلامى فى عصر المغول فى بعض أمهات المدن الإسلامية كمدينة بغداد عاصمة المغول فى الشتاء ومدينة تبريز عاصمتهم فى الصيف فضلا عن مدينة « سلطانية » إحدى مدن العراق العجمى ، إلا أن منتجات المصورين فى هذا العصر كانت قليلة أو على الأقل لم يعرف منها إلا القليل ، وكان أكثرها مناظر للقتال أو مناظر تمثل أمراء المغول بين أفراد أسراتهم وحاشيتهم[٣] .

وخلاصة القول فإننا نرى أثر الفن الصينى فى الفنون الإسلامية عقب غزوات المغول ، فى السحنة الصينية التى ظهرت بوضوح على الزخارف وفى صدق تمثيل الطبيعة ورسم النباتات بدقة تبعد عن الأصطلاحات الوضعية التى كانت موجودة قبل الغزو المغولى ، كما يتجلى أثر الفن الصينى فى مراعاة النسب ودقة رسم الأعضاء عند تصوير الحيوانات . وعلاوة على ذلك استعار الفنانون المسلمون فى هذا العصر من فنون الشرق الأقصى بعض الموضوعات الزخرفية وخاصة رسوم السحب الصينية وبعض الحيوانات الخرافية التى كانت من أهم مميزات الفن الصينى[٤] . ومما هو جدير بالذكر أن تأثر الفنون الإسلامية بالفنون الصينية كان عنيفاً فى بعض الأحيان حتى أن العناصر المختلفة للفنون الصينية والإسلامية كانت تظهر جنباً إلى جنب فى بعض الصور ، وكان من الصعب فى بعض الأحيان معرفة جنسية المصور ، أهو من المسلمين الذين قلدوا الفنون الصينية أم من الصينيين الذين قلدوا الرسوم الإسلامية

(١) الدكتور زكى محمد حسن : الفنون الإيرانية فى العصر الإسلامى ، ص ٢٤٢ — ٢٤٦ و ص ٢٦٢ .

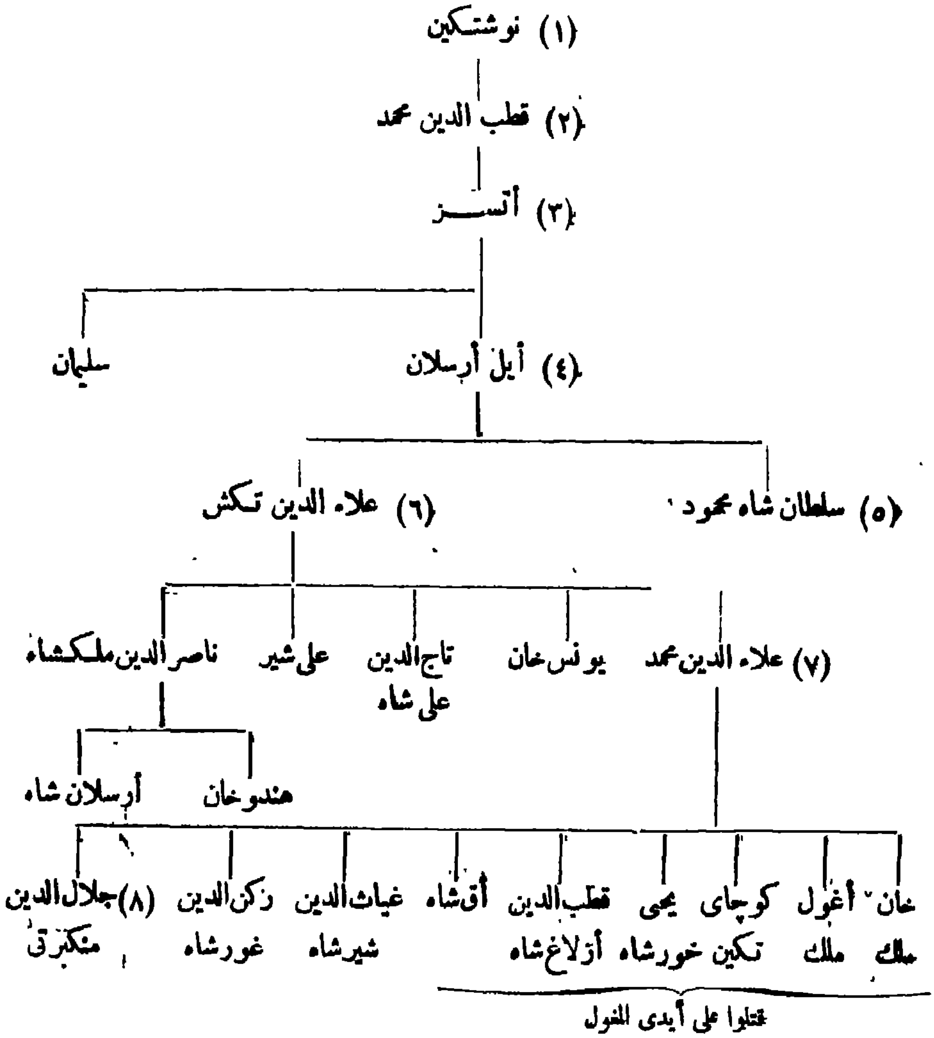
(٢) الدكتور زكى محمد حسن : التصوير وأعلام المصورين فى الإسلام . مقال بعدد أكتوبر سنة ١٩٣٨ من مجلة المقتطف ، ص ٤ . انظر أيضا اللوحات : ١٠٠٧ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٤ ، ١٨ ،

(٣) المصدر نفسه ، ص ٩ . انظر أيضا اللوحات : ٧ ، ٩ ، ١١ ، ١٢ ، ٢٣ .

(٤) المصدر نفسه ، ص ١٠ . انظر أيضا اللوحتين : ١٦ ، ١٧ .

الجداول والمصادر والكشاف

الخوارزميون



١ — نوشتكين : ٤٧٠ — ٤٩٠ هـ = ١٠٧٧ — ١٠٩٦ م.
٣ — قطب الدين محمد : ٤٩٠ — ٥٢١ هـ = ١٠٩٦ — ١١٢٧ م.
٣ — أتسز : ٥٢١ — ٥٥١ هـ = ١١٢٧ — ١١٥٦ م.
٤ — أيل أرسلان : ٥٥١ — ٥٦٨ هـ = ١١٥٦ — ١١٧٢ م.
٥ — سلطان شاه محمود : عزل سنة ٥٦٨ هـ = ١١٧٢ م.
وتوفي سنة ٥٨٩ هـ = ١١٩٣ م.
٦ — علاء الدين تكش : ٥٦٨ — ٥٩٦ هـ = ١١٧٢ — ١١٩٩ م.
٧ — علاء الدين محمد : ٥٩٦ — ٦١٧ هـ = ١١٩٩ — ١٢١٩ م.
٨ — جلال الدين منكبرتي : ٦١٧ — ٦٢٨ هـ = ١٢١٩ — ١٢٣١ م.

خلفاء الدولة العباسية

منذ العصر السلجوقى حتى سقوط بغداد

٤٤٧ — ٦٥٦ هـ = ١٠٥٥ — ١٢٥٨ م

(١) القائم

محمد

(٢) المقتدى

(٣) المستظهر

٤ — المسترشد

٥ — الراشد

٦ — المقتفى

٧ — المستنجد

٨ — المستضىء

٩ — الناصر

١٠ — الظاهر

١١ — المستنصر

١٢ — المستعصم

١ — القائم : ٤٢٢ — ٤٦٧ هـ = ١٠٣١ — ١٠٧٥ م.

٢ — المقتدى : ٤٦٧ — ٤٨٧ هـ = ١٠٧٥ — ١٠٩٤ م.

٣ — المستظهر : ٤٨٧ — ٥١٢ هـ = ١٠٩٤ — ١١١٨ م.

٤ — المسترشد : ٥١٢ — ٥٢٩ هـ = ١١١٨ — ١١٣٥ م.

٥ — الراشد : ٥٢٩ — ٥٣٠ هـ = ١١٣٥ — ١١٣٦ م.

٦ — المقتفى : ٥٣٠ — ٥٥٥ هـ = ١١٣٦ — ١١٦٠ م.

٧ — المستنجد : ٥٥٥ — ٥٦٦ هـ = ١١٦٠ — ١١٧٠ م.

٨ — المستضىء : ٥٦٦ — ٥٧٥ هـ = ١١٧٠ — ١١٨٠ م.

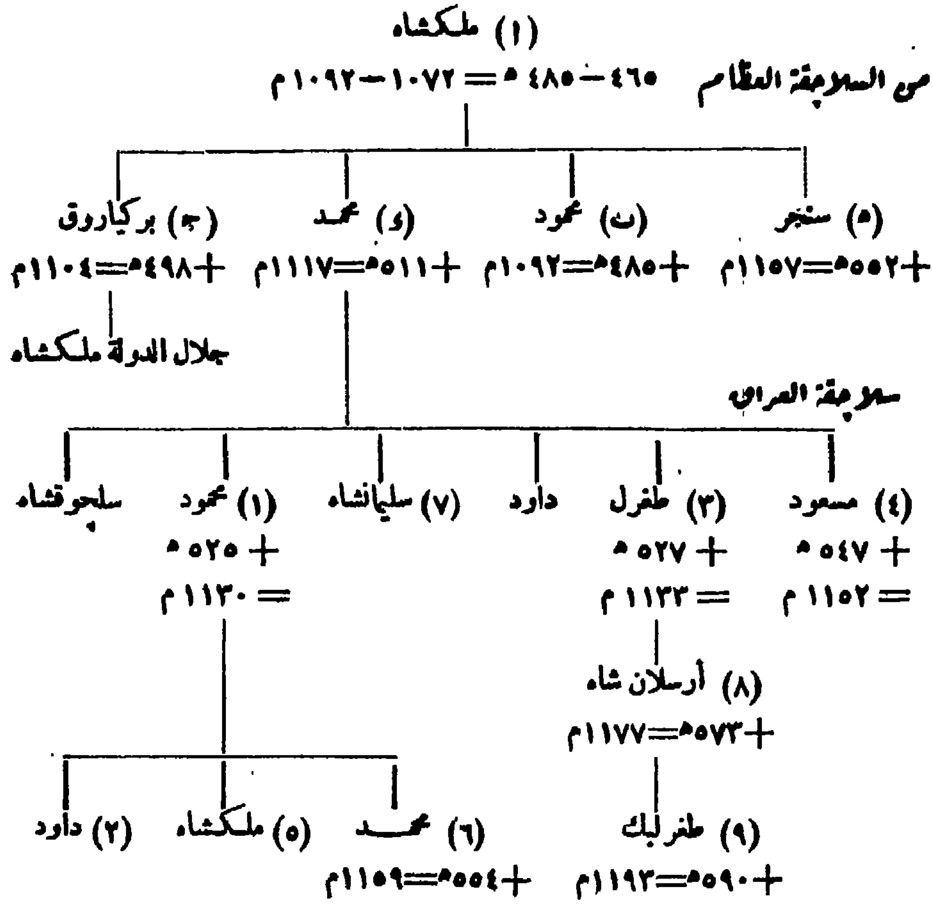
٩ — الناصر : ٥٧٥ — ٦٢٢ هـ = ١١٨٠ — ١٢٢٥ م.

١٠ — الظاهر : ٦٢٢ — ٦٢٣ هـ = ١٣٢٥ — ١٢٢٦ م.

١١ — المستنصر : ٦٢٣ — ٦٤٠ هـ = ١٢٢٦ — ١٢٤٢ م.

١٢ — المستعصم : ٦٤٠ — ٦٥٦ هـ = ١٢٤٢ — ١٢٥٨ م.

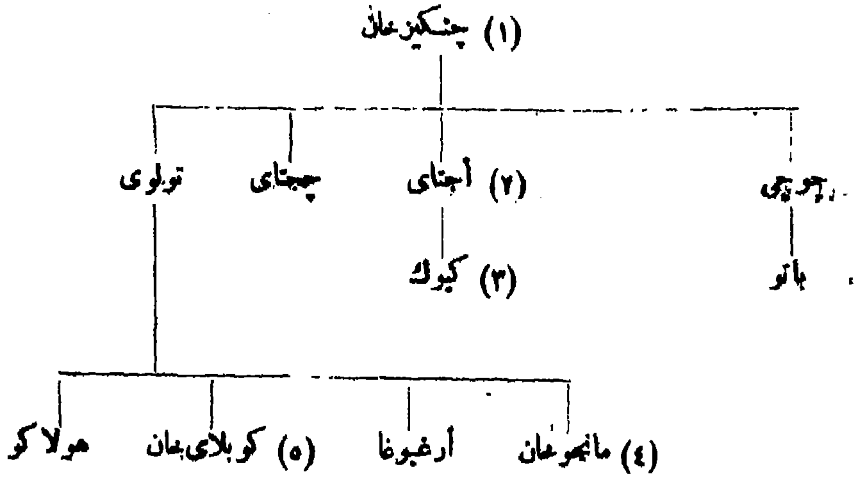
سلاطين السلاجقة فى العراق وفارس (*)



(*) تشير علامة (+) إلى السنة التى توفى فيها السلطان السلجوقى . ومما هو جدير بالملاحظة أن حواضر سلاطين السلاجقة كانت تختلف من سلطان لآخر ، فمثلا اتخذ طغرلبك الأول مدينة نيسابور حاضرة له ، واتخذ ألب أرسلان مدينة مرو ، بينما حكم ملكشاه وأبناؤه ، محمود وبركياروق ومحمد ، فى أصفهان ؛ أما سنجر فقد اتخذ من مدينة مرو ، كبرى مدن خراسان ، حاضرة له ، انظر Sanaullah : The Decline of the Saljuiqid Empire, p.39. وقد ذكر دوسون أن ملكشاه اتخذ من مدينة مرو حاضرة له وربما كان ذلك فى بداية عهده ، أى عقب وفاة أبيه ألب أرسلان الذى كان يقيم فى هذه المدينة . D'ohsson : Histoire des Mongols, tom. i. p. 279

خانات المغول منذ جنكيز خان

حتى كوبلاى خان (*)



١ — جنكيزخان : ٦٠٣—٦٢٤ هـ = ١٢٠٦ — ١٢٢٧م .
٢ — أجتاى خان : ٦٢٤—٦٣٩ هـ = ١٢٢٧ — ١٢٤١م .
٣ — كيوك خان : ٦٤٤—٦٤٦ هـ = ١٢٤٦ — ١٢٤٨م .
٤ — مانجو خان : ٦٤٦—٦٥٥ هـ = ١٢٤٨ — ١٢٥٧م .
٥ — كوبلاى خان: ٦٥٨—٦٩٣ هـ = ١٢٦٠ — ١٢٩٤م .

(*) يلاحظ أن خانات المغول كانوا يتولون الحكم فى الفترة التى نتحدث عنها بطريق الانتخاب لا بطريق الوراثة ، ولذلك كانت تمر فترة من الوقت قبل أن يجتمع كبار القواد والحكام المغول المنتشرون فى أطراف الإمبراطورية المغولية لانتخاب الخاقان الجديد ، فإذا ما تكامل عددهم ، أجريت عملية الانتخاب فى مجلس عام يعقد لهذا الغرض يسمى «الكورلتاى» Kuriltai .

إيلخانات المغول فى فارس

حتى عصر أبى سعيد

(١) هولاكو

(٢) أباقا — تيراجا — (٣) تكودار أحمد

تيراجا: (٦) بيدو

أباقا: (٤) أرغون — (٥) جيخاتو

أرغون: (٧) غازان محمود — (٨) أولجايتو

أولجايتو: (٩) أبو سعيد

١ — هولاكو : ٦٥٤—٦٦٣ هـ = ١٢٥٦ — ١٢٦٥ م.
٢ — أباقا : ٦٦٣—٦٨٠ هـ = ١٢٦٥ — ١٢٨١ م.
٣ — تكودارأحمد: ٦٨٠ — ٦٨٣ هـ = ١٢٨١ — ١٢٨٤ م.
٤ — أرغون : ٦٨٣ - ٦٩٠ هـ ١٢٨٤ — ١٢٩١ م.
٥ — جيخاتو : ٦٩٠ — ٦٩٤ هـ — ١٢٩١ — ١٢٩٥ م.
٦ بيدو . جمادى الثانية — ذو الحجة ٦٩٤ هـ
إبريل — أكتوبر ١٢٩٥ م
٧ — غازان : ٦٩٤ — ٧٠٣ هـ = ١٢٩٥ — ١٣٠٤ م.
٨ — أولجايتو : ٧٠٣—٧١٦ هـ = ١٣٠٤ — ١٣١٦ م.
٩ — أبو سعيد : ٧١٦—٧٣٦ هـ = ١٣١٦ — ١٣٣٥ م.

المراجع العربية

ابن الأثير : (+ ٦٣٠ هـ = ١٢٣٢ م)

(١) الكامل فى التاريخ (الطبعة الأزهرية ١٣٠٢ هـ = ١٨٨٤ م)

(٢) تاريخ الدولة الأتابكية — ملوك الموصل.(طبعة Rec. Hist. Or. Cr. t. ii.)

البندارى :

(٣) تاريخ دولة آل سلجوق . (القاهرة ١٣١٨ هـ = ١٩٠٠ م)

حسن ابراهيم حسن : دكتور

(٤) النظم الإسلامية ، بالاشتراك مع الدكتور على ابراهيم حسن .
(القاهرة ١٣٥٨ هـ — ١٩٣٩ م)

(٥) تاريخ الإسلام السياسى ، ج ٢ . (القاهرة ١٣٦٥ هـ = ١٩٤٥ م)

(٦) تاريخ الإسلام السياسى ، ج ٣ . (القاهرة ١٣٦٦ هـ = ١٩٤٦ م)

ابن خلدون : (+ ٨٠٨ هـ = ١٤٠٥ م)

(٧) العبر وديوان المبتدا والخبر . (١٢٨٤ هـ = ١٨٦٧ م)

ابن خلكان : (+ ٦٨١ هـ = ١٢٨٢ م)

(٨) وفيات الأعيان . (بولاق ١٢٨٣ هـ = ١٨٦٦ م)

الديار بكرى : (+ ٩٦٦ هـ = ١٥٥٨ م)

(٩) تاريخ الخميس فى أحوال أنفس نفيس . (القاهرة ١٢٨٣ هـ = ١٨٦٦ م)

رضا زاده شفق : دكتور

(١٠) تاريخ الأدب الفارسى . نقله من الفارسية إلى العربية الأستاذ محمد موسى
هنداوى . (القاهرة ١٣٦٦ هـ = ١٩٤٧ م)

زكى محمد حسن : دكتور
(١١) الفنون الإيرانية فى العصر الإسلامى . (القاهرة ١٣٥٥ هـ = ١٩٤٠ م)
(١٢) الصين وفنون الإسلام . (القاهرة ١٣٦٠ هـ = ١٩٤١ م)
(١٣) التصوير فى الإسلام عند الفرس . (القاهرة ١٣٥٥ هـ = ١٩٣٦ م)
(١٤) التصوير وأعلام المصورين فى الإسلام ؛ مقال بعدد أكتوبر سنة ١٩٣٨ من مجلة المقتطف .

السيوطى : (+ ٩١١ هـ = ١٥٠٥ م)
(١٥) تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين القائمين بأمر الله . (القاهرة ١٣٥١ هـ = ١٩٣٢ م)

ابن شاكر الكتبى : (+ ٧٦٤ هـ = ١٣٦٢ م)
(١٦) فوات الوفيات . (القاهرة ١٢٨٣ هـ = ١٨٦٦ م)

ابن طباطبا :
(١٧) الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الإسلامية . (القاهرة ١٣٥٧ هـ = ١٩٣٨ م)

عبد الوهاب عزام : دكتور
(١٨) الصلات بين العرب والفرس وآدابهما فى الجاهلية والإسلام ، مقال بعدد أكتوبر سنة ١٩٣٨ من مجلة المقتطف .

ابن العبرى : (+ ٦٨٥ هـ = ١٢٨٦ م)
(١٩) تاريخ مختصر الدول . (بيروت ١٣٠٨ هـ = ١٨٩٠ م)

ابن العميد : (+ ٦٧٢ هـ = ١٢٧٣ م)
(٢٠) تاريخ المسلمين . (ليدن ١٠٣٥ هـ = ١٦٢٥ م)

أبو الفدا : (+ ٧٣٢ هـ = ١٣٣١ م)
(٢١) المختصر فى أخبار البشر . (القاهرة ١٣٢٥ هـ = ١٩٠٧ م)

قدرى حافظ طوقان :

(٢٢) الأثر العلمى للحضارة الإسلامية وأعظم علمائها ؛ مقال بعدد أكتوبر سنة ١٩٣٨ من مجلة المقتطف .

القلقشندى : (+ ٨٢١ هـ = ١٤١٨ م)

صبح الأعشى فى صناعة الإنشا . (القاهرة ١٣٣٣ هـ = ١٩١٤ م)

ابن -لانسى : (+ ٥٥٥ هـ = ١١٦٠ م)

(٢٤) ذيل تاريخ دمشق . (بيروت ١٣٢٦ هـ = ١٩٠٨ م)

أبو المحاسن : (+ ٨٧٤ هـ = ١٤٩٦ م)

(٢٥) النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة . (القاهرة ١٣٥٤ هـ = ١٩٣٥ م)

محمد جمال الدين سرور : دكتور

(٢٦) الظاهر بيبرس وحضارة مصر فى عصره . (القاهرة ١٣٥٧ هـ = ١٩٣٨ م)

المقريزى : (+ ٨٤٥ هـ = ١٤٤١ م)

(٢٧) السلوك لمعرفة دول الملوك . نشره ووضع حواشيه الدكتور محمد مصطفى زيادة . (القاهرة ١٣٥٣ — ١٣٥٨ هـ = ١٩٣٤ — ١٩٣٩ م)

(٢٨) المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار . (القاهرة ١٢٧٠ هـ = ١٨٥٣ م)

النسوى : محمد

(٢٩) سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى . (باريس ١٣٠٩ هـ = ١٨٩١ م)

ابن الوردى : (+ ٧٥٠ هـ = ١٣٤٩ م)

(٣٠) تتمة المختصر فى أخبار البشر . (القاهرة ١٢٨٥ هـ = ١٨٦٨ م)

المراجع الأجنبية

Abulgasi :

1. Histoire Généalogique des Tatars. (Leyde, 1726)

Ameer Ali, Sayed :

2. A Short History of the Saracens. (London, 1916)

Arnold, T. W. :

3. The Preaching of Islam. (London, 1935)

Atiya, A. S. :

4. The Crusade in the Later Middle Ages. (London, 1938)

Barker, E. :

5. The Crusades. (London, 1925)

Barthold :

6. Turkestan down to the Mongol Invasion. (London, 1928)

Blochet, E. :

7. Introduction a l'Histoire des Mongols de Fadlallah Rashid Ed Din. (Leyden, 1910)

Boulger, D. C. :

8. The Mongols and the Court of Kublai Khan. (Universal History of the World, vol. 5. pp. 2847-2860)

Bretschneider, E. :

9. Mediæval Researches From Eastern Asiatic Sources. (St. Petersburg, 1887)
10. Recherches Archéologiques et Historiques sur Pekin et ses Environs. (Paris 1879)

Browne, E. G. :

11. A Literary History of Persia. (London, 1906)
12. Account of a Rare Manuscript History of Seljuqs. (London, 1906)

Cahun, L. :

13. Introduction à L'Histoire de L'Asie, Turcs et Mongols. Des Origines à 1405. (Paris, 1896)
14. Gengis-Khan et L'Empire Mongol. (Lavisse et Rambaud: Histoire Générale, tom. ii. pp. 917-953) Paris, 1893.

Curtin, J. :

15. The Mongols' History. (Boston, 1908)

Czaplicka :

16. The Turks of Central Asia, in History and at the Present Day. (Oxford, 1918.)

Defremery, M. :

17. Histoire des Seldjoukides; Extraits du Tarikhi Quzideh, ou Histoire Choisie d'Hamdullah Mustaufi. (Journal Asiatique : Avril-Mai, 1848, pp. 417-468)
18. Histoire des Seldjoukides. (Suite) (Journal Asiatique : Septembre-Octobre, 1848, pp. 259-376)
19. Fragments de Géographes et d'Historiens Arabes et Persans Inédits. (Journal Asiatique : Novembre-Décembre 1849, pp. 447-513)

De Guignes, J. :

20. Histoire Générale des Huns, des Turcs, des Mongols et des autres Tartares Occidentaux. (Paris, 1757)

D'ohsson, M. Le Baron :

21. Histoire des Mongols depuis Tchinguiz-Khan jusqu'a Timour Bey ou Tamerlan. (Paris, 1824)

Douglas, R. K. :

22. The Life of Jenghiz-Khan, Translated from Chinese. (London 1877).
23. China, The Story of Nations. (London, 1912)
24. Jenghiz-Khan. (Encyclopædia Britannica, vol. 12. pp. 1000-1001) (New York, 1929)

Dubeux, M. L. :

25. La Perse. (Paris, 1841)

Eileen Power :

26. Medieval People. (London, 1939)
27. The Guilds and Medieval Commerce. (Universal History of the World, vol. 5. pp. 2897-2926)

Fitzgerald :

28. China, A Short Cultural History. (London, 1935)

Fraser, J. B. :

29. Historical and Descriptive Account of Persia. (London, 1833)

Gibbon, E. :

30. The History of the Decline and Fall of the Roman Empire. (New York, 1927)

Giles, A. H. :

31. The Civilization of China. (Cambridge, 1911)

Grenard, F. :

32. Gengis-Khan. (Paris, 1935)

Hart, B. H. L. :

33. Mongol Compaigns. (Encyclopædia Britannica, vol. 15. pp. 705 — 7.) New York, 1929.

Heyd, W. :

34 Histoire du Commerce du Levant au Moyen Âge. (Leipzig, 1886)

Hirth, J. :

35. China and the Roman Orient. (Leipsic, 1885)

Hirth & Rockhill, W. W. :

36. Chinese and Arab Trade in the Twelfth and Thirteenth Centuries. Translated from Chinese. (St. Petersburg, 1911)

Hitti, Philip :

37. The History of the Arabs. (London, 1937)

Howorth, H. H. :

38. History of the Mongols. (London, 1876)

Huntington, E :

39. The Pulse of Asia. (Washington, 1919)

Huzayyin, S. A. :

40. Arabia and the Far East. Their Commercial and Cultural Relations in Graeco-Roman and Irano-Arabian Times. (Cairo, 1942)

Jacobs, Joseph :

41. The Story of Geographical Discovery. How the World Became Known. (London)

Lamb, Harold :

42. Genghis-Khan ; Emperor of All Men. (London, 1934)
43. The Crusades . The Flame of Islam. (London, 1931)

Lane-Poole, Stanley :

44. History of Egypt in the Middle Ages. (London, 1925)
45. Mediæval India Under Mohammedan Rule. (London, 1917)
46. The Mohammadan Dynasties. (Paris, 1925)
47. Catalogue of the Collection of Arabic Coins Preserved in the Khedivial Library at Cairo. (London, 1897)

Le Strange :

48. Baghdad During the Abbasid Caliphate. (Oxfo [illegible]

Little, A. :

49. The Far East. (Oxford, 1905)

Loewe, H. M. J. :

50. The Seljuqs.
(Cambridge Medieval History, vol. iv. pp. 299—317). Cambridge, 1927.
51. The Mongols.
(Cambridge Medieval History, vol. iv. pp. 627—652). Cambridge, 1927.

Malcolm, J. :

52. The History of Persia, from the Most Early Period to the Present Time. (London, 1829)

Marcel, M. J. :

53. L'Egypte Depuis la Conquête Des Arabes Jusqu'a la Domination Française. (Paris, 1848)

Muir, Sir William :

54. The Caliphate, Its Rise, Decline and Fall. (Edinburgh, 1924)

Nicholson, Reynold :

55. A Literary History of the Arabs. (London, 1923)

Nidhami-l-Arudi-i-Samarquandi :

56. The Chahár Maqala. Translated by Browne, E. G. (London, 1899)

Nizam Al-Mulk :

57. Siyâsat Namah. (Paris. 1891.)

Nöldéke, Theodor :

58. The Abbasids.
(The Historians' History of the World, vol. viii. pp. 209 — 232)
(New York 1926)

Rashid-Eldin :

59. Histoire des Mongols de la Perse. Edit. par M. Quatremére. (Paris 1833)

Reinaud et Favé, M. M. :

60. Du Feu Grégeois, Des Feux De Guerre, et Des Origines De la Poudre a Canon Chez les Arabes, les Persans, et les Chinois. (Journal Asiatique : Octobre 1849, pp, 257 — 327)

Sanaullah, Mawlawi Fadil :

61. The Decline of the Saljùqid Empire. (Calcutta, 1938)

Ross, E. D. :

62. The Empire of the Seljuk Turks. (Universal History of the World, vol. 5. pp. 2779 — 96)

Skrine, F. H. & Ross, E. D. :

63. The Heart of of Asia. (London, 1899)

Stevenson, W. B. :

64. The Age of Eastern Imperialism : 1216 — 1303. (Universal History of the World, vol. 5. pp. 2817 — 2834)

Sykes, Sir Percy :

65. The Quest For Cathay. (London, 1936)
66. A History of Persia. (Oxford, 1922)

Vambery, A. :

67. History of Bokhara from the Earliest Period down to the Present. (London, 1873)

Vladimirtsov :

68. The Life of Chingis-Khan. (London, 1930)

Von Hammer :

69. Histoire de L'Ordre des Assassins. (Paris, 1833)

Wells, H. G. :

70. The Outline of History.

Wiet, Gaston :

71. Précis de l'Histoire d'Egypte. (Le Caire, 1932)

Zambour :

72. Manuel de Généalogie et de Chronologie pour l'Histoire de l'Islam. (Hanovre, 1927)

كشـــــاف

(١) أسماء الرجال والنساء ، والدول ، والقبائل ، والفرق الدينية .

(ب)

(ح)

(خ)

(د)

(ش)

(ص)

(ط)

(ظ)

(٢) أسماء المدن ، والأقاليم ، والأنهار ، والبحار .

(ت)

(ر)

(ز)

(س)

(ش)

(ص)

(ط)

(ع)

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

(ن)

(هـ)

(ى)

(٣) الوظائف ، والدواوين

استدراك

رغم ما بذل من جهد فى إخراج هذا الكتاب ، وقعت بعض الأخطاء المطبعية أعتذر للقارىء عنها وأرجو أن يتفضل بتصحيحها قبل قراءة الكتاب .

صفحة	سطر	خطأ	صواب	صفحة	سطر	خطأ	صواب
٢٣	٩	ما لث	ما ليث	٢١٧	١	أمير : المؤمنين	أمير المؤمنين :
٦٣	١	إجتماعية	اجتماعية	٢٢٠	٢٣	أن تلك	إن تلك
٧٧	٧	إنتصرت	انتصرت	٢٢١	٩	وعلى أنه	على أنه
٨٢	١٥	إستدعى	استدعى	٢٣٧	١٧	فلاديميرستوف	فلاديميرتسوف
٨٦	١٧	السواء	السوداء	٢٣٧	١٧	Vladimirstov	Vladimirtsov
٨٦	٢٣	رؤيته	رؤياه	٢٣٨	٩	غزتة	غزنة
٨٨	١٢	المغول	المغولى	٢٦٠	٣	بهى الدين	بهاء الدين
٨٨	٢٠	الإجتماعية	الاجتماعية	٢٦٠	١٤	Ye-lu Cu Ta'al	Ye-lu Ch'u ts'al
١٣٨	٤	Ogtai	Ogotai	٢٦١	١٠	Kuurgz	Kurguz
١٤٥	٩	بخاراً	بخارا	٢٦٩	٨	تهنئونى وتمرضون	تهنونى به وتفرحون
١٩٢	٦	الرئيسى ء	الرئيسى	٣٦٩	٨	عيه	غبته
١٩٧	١٠	كان نشاطه	وكان نشاطه	٢٧٩	٢٢	انسوت	انوسنت
١٩٩	٢	سعد بن تكلا	سعد بن زنكى	٣٠٠	١١	غرب آسيا	شرق آسيا
٢٠٩	١٧	١٣٢٦	١٢٢٦				

تطلب جميع منشوراتنا من فروعنا

الفرع الرئيسي :

٦-أ شارع جواد حسني - القاهرة

ت : ٧٥٠١٦٧

فرع الدقي :

٢٧ شارع عبد العظيم راشد - متفرع من

شارع الدكتور شاهين - بالعجوزة

ت : ٧١٧٤٩٨

فرع مدينة نصر :

٩٤ شارع عباس العقاد - المنطقة السادسة

و من موسسه

دار الكتاب الحديث

للطبع والنشر والتوزيع

الكويت شارع فهد السالم عمارة السري الكبير

بدوار المحلات الكبرى محل رقم ٢٥٠ ارضي

ت ٢٤١٦٧٦٥ ص . ب ٢٢٧٥٤